أحكام من القرآن الكريم

الفاتحة - البقرة

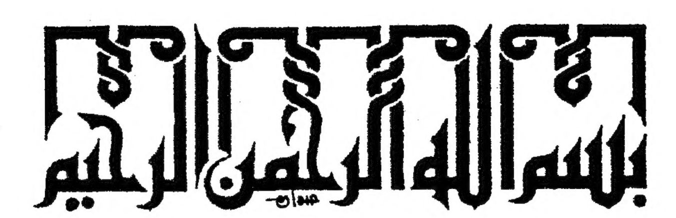
فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين

جمع

أبي خالد عبد الكريم بن صالح المقرن

الناشر




بسم الله الرحمن الرحيم


أحكام من القرآن الكريم
الفاتحة - البقرة

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ

الناشر
دار طويق للنشر والتوزيع
الناصرية - شمال مبنى وزارة الخارجية
ص.ب ٣١٩٣٤ هاتف: ٤٠٤٢٥٥٥
الرياض ١١٤١٨ فاكس: ٤٠٣٤٢٣٨

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

العثيمين، محمد بن صالح
أحكام القرآن الكريم / جمع عبدالكريم بن صالح المقرن.
٥٢٧ ص؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك × - ٧٨ - ٦٧١ - ٩٩٦٠
١ - القرآن - أحكام ٢ - القرآن - تفسير
أ - المقرن، عبدالكريم بن صالح (جامع) ب - العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ١٥/٠٤٤٠

رقم الإيداع: ١٥/٠٤٤٠
ردمك: × - ٧٨ - ٦٧١ - ٩٩٦٠

المقــدمة

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد خاتم الأنبياء وإمام المتقين، وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد:

فإننـا نستفتـح هذا الكتـاب[1] «أحكام من القرآن الكريم» راجـين الله سبحـانه وتعالى أن يكون مباركاً، نافعاً لنا ولإخواننا المسلمين. وأحكام القرآن العظيم هي ما تتضمنه الآيات الكريمة من الفوائد الدينية والدنيوية، والفردية والاجتماعية. ولا ريب أن كل آية في كتاب الله تتضمن فوائد عظيمة يعرفها الإنسان بحسب علمه وفهمه، ولا ريب أن الإنسان يؤتى العلم بحسب ما معه من الإيمان والهـدى والتقى كما قال الله تعـالى: ﴿وَيَـزِيدُ اللهُ الَّذِينَ

---

(١) هو في الأصل برنامج إذاعي من حلقات، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين، وقد تناول فيه فضيلته استنباط أحكام من القرآن الكريم مبتدئاً بسورة الفـاتحة. ونظراً لأهمية البرنامج ارتأت دار طويق للنشر والتوزيع نشره وخدمته بتخريج آياته وأحاديثه والعناية به إسهاماً منها في خدمة القرآن العظيم، خاتم الكتب السـماوية، وإدراكـاً منها للفوائد الجمة لهذا الكتاب الذي يشتمل على الكثير من الأحكام والفوائد والتنبيهات والاستنباطات. نسأل الله أن ينفع به، وأن يجزي مؤلفة خير الجزاء، وأن يكون في موازين حسناته وحسناتنا يوم القيامة، إنه سميع مجيب.

اهْتَدَوْا هُدَىً﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدَىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[٣]. وكلما كان الإنسان أشد إقبالاً على القرآن الكريم، وإيماناً به، وحباً له، وتدبراً لآياته كان به أفهم، وبما يدل عليه من الفوائد العظيمة والأحكام أوسع، ولهذا فإني أحث إخواني المسلمين على تدبر كتاب الله - عزَّ وجلَّ - وتفهم معانيه، والرجوع فيما لا يعرفونه إلى أهل العلم ليبينوه لهم، وإن لم يتيسر ذلك فإلى كتب التفسير الموثوق بها كتفسير ابن كثير رحمه الله، وتفسير شيخنا عبدالرحمن بن سعدي، وتفسير القرطبي، وتفسير الشوكاني، وغيرها من التفاسير المعروفة الموثوق بمؤلفيها في علمهم ودينهم، لأن الله - سبحانه وتعالى - إنما أنزل القرآن لهذا، كما قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[٤].

فالقرآن الكريم لم ينزل لمجرد التلاوة اللفظية، تلاوة الآيات الحرفية، بل نزل من أجل هذا ومن أجل ما هو أتم وأكمل، وهو

---

(١) من الآية ٧٦ من سورة مريم.
(٢) الآية ١٧ من سورة محمد.
(٣) الآية ١٢٤ من سورة التوبة.
(٤) الآية ٢٩ من سورة ص.

تدبر الآيات وتفهم معانيها، ثم التذكر بما فيها من القصص والأخبار والمواعظ والأحكام، ولهذا كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لا يتجاوزون عشر آيات من القرآن حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، فتعلموا القرآن والعلم والعمل جميعاً، وكثير من الناس اليوم لا يهتم بهذا الجانب، أعني جانب المعنى وجانب التدبر، وما تتضمنه الآيات من الفوائد والأحكام، ولا يعنون به. وهذا قصور بلا شك من الإنسان، وتقصير منه. ومن الناس من يتجرأ ويتكلم في القرآن بما لا يعلم فيكون شاهداً على الله ـ سبحانه وتعالى ـ بما لا يعلم، وهذا محرمٌ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانَاً وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(١) فكل إنسانٍ يتكلم في معنى آية من كتاب الله فهو شاهد على الله تعالى بأنه أراد بها كذا وكذا، وهذا أمر خطير، لأنه سيسأل عنه يوم القيامة فيقال: من الذي أعلمك بأن الله تعالى أراد كذا وكذا؟ ويكون قد قال في القرآن برأيه. ومن الناس من يعلم أن القرآن يدل على كذا وكذا، ولكن لديه عقيدة سابقة، ونحلة يؤمها، ويقتدي بها، وتقليد لمن يثق به، فتجده يحرف الكلم عن مواضعه، ويصرف آيات كتاب الله ـ عز وجل ـ إلى ما كان يعتقده وينتحله من

(١) الآية ٣٣ من سورة الأعراف.

هذا المذهب، فالواجب على كل مسلم مؤمن أن يتقي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حين يتكلم في معنى آية من كلام الله، وأن يكون على حذر، فلا يقول إلا ما يعلم أنه هو المراد، أو يغلب على ظنه أنه هو المراد، وأما مع الشك فلا يجوز له أن يتكلم في شيء، ونحن في هذا الكتاب لن نتكلم كثيراً عن تفسير الآيات، وبيان وجوهها اللغوية من البلاغة والإعراب وغير ذلك، لأن هذا ـ والحمد لله ـ موجود في كثير من كتب المفسرين، ولكن يهمني أن أبيِّن الفوائد التي تستنبط من هذه الآيات، وأبين وجه ذلك غالباً فيما يحتاج إلى بيان، وفيما خفيت دلالته، لأن الاستفادة من القرآن الكريم بهذه الطريقة يحصل بها علم كثير، ولهذا سُئِلَ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ هل عهد إليكم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشيء؟ فقال: «لا والذي برأ النسمة وخلق الحبة إلا فهماً يؤتيه الله تعالى في كتابه وما في هذه الصحيفة..» وهي فكاك الأسير. الخ ما فيها، لكن المهم أنه قال: «إلا فهماً يؤتيه الله تعالى في كتابه»، وهذا يدل على أن الفهم في كتاب الله يحصل به خير كثير، وعلم غزير، ولكن يجب أن يكون الفهم مبنياً على هذا الأساس كما أشرنا إليه، لأن الناس أربعة أقسام: فمنهم من عنده علم، ولكن ليس عنده فهم، ومن الناس من عنده فهم ولكن ليس عنده علم، ومن الناس من عنده علم وفهم، ومن الناس من لا علم عنده ولا فهم، والمراد من هذا الكتاب هو استنباط الفوائد من كتاب الله ـ عز وجل ـ ؛ ليحصل

بذلـك خيرٌ كثـير. واعلم أن الـدلالـة تنقسم إلى ثلاثـة أقسام: مطابقة، وتضمن، والتزام.

فدلالة اللفظ على جميع معناه دلالة مطابقة، ودلالته على جزء معنـاه دلالـة تضمن، ودلالتـه على أمر لازم خارج دلالة التزام، ولنضرب لذلك مثلاً معنوياً ومثلاً حسيًّاً، أما المثل المعنوي فانظر إلى اسم من أسماء الله وهو «الخالق» تجد أنه دلَّ على صفة الخلق وعلى الخـالق نفسه، فدلالته على الخالق نفسه وعلى صفة الخلق دلالة مطابقة، ودلالته على الخالق نفسه وحده أو على صفة الخلق وحدها دلالة تضمن، ودلالته على العلم والقدرة دلالة التزام، لأن الخلق لا بد فيه من علم وقدرة، فمن لم يكن عالماً لا يستطيع أن يخلق، ومن لم يكن قادراً لا يستطيع أن يخلق.

أما المثال الحسي فكأن نقول: «هذا بيت» كلمة بيت تدل على جميع البيت، على كل ما يحيط به سور البيت دلالة مطابقة، وتدل على هذه الغرفة وغرفة ثانية وغرفة ثالثة وغرفة رابعة وعلى الحوش (البراح) وعلى المجلس والصالة دلالة تضمن، وتدل على أن لهذا البيت بانياً دلالـة التـزام. هذه الأنـواع الثـلاثـة من الدلالة إذا استعملها الإنسان استعمالاً جيداً حصل بها فوائد كثيرة، ولهذا تجد بعض أهل العلم إذا تكلم عن آية أو حديث لاستنباط الأحكام استخـرج أشياء كثيرة لاستعماله هذه الأنواع الثلاثة من الدلالة،

ومن الناس من يقصر فهمه عنها فلا يستطيع أن يستنبط إلا فوائد قليلة، نسأل الله أن يوفقنا لخدمة كتابه، وأن يفقهنا في دلالاته واستنباط فوائده، وأن ينفع بهذا العمل، إنه سميع مجيب.

محمد بن صالح العثيمين

(١) سورة الفاتحة

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنزل على رسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا القرآن العظيم، وأنزل عليه سبعاً من المثاني كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْـمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾(١).

والسبع المثاني هي فاتحة الكتاب، وهي أعظم سورة في كتاب الله، ولهذا فرضت قراءتها في الصلوات، فلا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب، افتتحها الله ـ سبحانه ـ بالحمد والثناء والتمجيد، والحمد هو وصف المحمود بالكمال، والثناء تكرار هذا الوصف، والتمجيد ذكر المجد والعظمة وقوة السلطان، كما جاء في الحديث الصحيح الـذي رواه أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: **«قال الله تعالى: قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفـين. ولعبـدي ما سأل. فإذا قال العبـدُ: ﴿الحمدُ للهِ ربِ العـالمـين﴾. قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿الرحمن الرحيم﴾. قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي. وإذا قال: ﴿مالكِ يوم الدين﴾. قال: مَجَّدني عبدي (وقال مَرَّةً: فَوَّض إليَّ عبدي). فإذا قال: ﴿إيَّاكَ نعبدُ وإيَّاكَ نستعينُ﴾. قال: هذا بيني وبين عبدي**

---

(١) الآية ٨٧ من سورة الحجر.

ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿اهدِنا الصراطَ المستقيمَ صِرَاطَ الَّذينَ أَنعمتَ عَلَيْهِمْ غيرِ المغضـوبِ عَلَيْهِمْ ولا الضالين﴾. قال: هذا لِعَبْدِي، ولِعَبْدِي ما سأل»[1] ففي قوله تعالى: ﴿الحمدُ للهِ ربِ العالمين﴾ دليل على كمال صفات الله ـ عز وجل ـ، وعلى كمال نعمه على عباده، لأن الحمد لا يستحقه إلا من كان كاملاً في وصفه، كاملاً في فعله، وأعني بالحمد الحمد المطلق الكامل، وإلا فقد يحمد الإنسان حمداً كاملاً على فعل ناقص أو على كمال ذاتي ناقص. وفي قولـه: ﴿لله﴾ دليلٌ على ثبـوت ألـوهية الله ـ عزَّ وجـلَّ ـ، فالله ـ سبحـانـه وتعالى ـ إله الحق، وما سواه فهو باطل، وفي الإتيان باللام دليلٌ على استحقاق هذا الحمد لله وحده لا يشاركه فيه أحد، فالحمد المطلق الكامل لا يكون إلا لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، لأنَّ كل ما سواه إنـما يحمـد على شيء معـين حمداً يليق بهذا الشيء المعـين، ويكافىء هذا الشيء المعين.

وفي قولـه ﴿رب العالمين﴾ إثبات ربوبية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، والرب هو الخالق المالك المدبر، فلا خالق إلا الله، ولا مالك إلا الله، ولا مدبـر إلا الله ـ عز وجـل ـ، وإضـافـة الخلق إلى غير

---

(١) رواه: مسلم (١/٢٩٦) رقم (٣٩٥)، وأبوداود (١/٥١٢ ـ ٥١٤) رقم (٨٢١)، والـترمـذي (٥/١٨٤ ـ ١٨٥) رقم (٢٩٥٣) وقـال: «هـذا حديث حسن»، والنسائي (٢/٤٧٣ ـ ٤٧٤) رقم (٩٠٨).

الله ، أو التدبير إلى غير الله إضافةٌ ناقصةٌ ، ناقصة في ذاتها ، وناقصة في شمـولها وعمومها ، أما خلق الله ، وملك الله ، وتدبير الله فهي كاملة شاملة عامة ، وفي الآية الكريمة إثبات رب ومربوب ، مما يدل على التبـاين بين الخالق والمخلوق ، ويكون فيه رد على قول أهل الإلحاد القائلين بوحدة الوجود .

وفي الآية الكريمة أيضاً دليلٌ على أن العالمين كلهم يفتقرون إلى الله ـ عز وجل ـ ، لأنه لا قيام للمربوب إلا بالرب ، فالرب هو المربي القائم على غيره في كل الوجوه ، وفي قوله : ﴿ربِّ العالمين﴾ دليل على أن الملائكـة والـرسـل والأولياء لا حق لهم في التـدبير والخلق ، ويتفـرع من ذلـك أنه ليس لأحد أن يدعو هؤلاء ، وأن يستغيث بهم ، وأن يستنصر بهم ، لأنهم مربوبون ، هم بأنفسهم محتـاجون إلى الرب ، غير مستغنين عنه ، فكيف يمكن أن يكونوا ملجـأ للعبـاد ومـلاذاً لهم يستعيذون بهم ، ويستغيثـون بهم ، ويسترحمون بهم؟! . .

وفي الآية الكريمة دليلٌ على أن العَالم حادث ، وهو كذلك ، فإن العالم حادث بعد أن لم يكُنْ كما قال الله تعالى يعني نفسه : ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾[1] قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(١) من الآية ٣ من سورة الحديد .

في تفسيرها: «أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»[1].

وفي قوله: ﴿رب العالمين﴾ دليلٌ على أن هذا العالم آية دالة على الله - عز وجل -، فإن ما في هذا الكون من الانتظام البديع والاطراد وعدم التناقض، والإحكام، دليلٌ على كمال موجده - عزَّ وجلَّ - كما قال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ. وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾.[2]، وقال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3]، فهذا الكون المربوب المخلوق عَلَمٌ على خالقه - عزَّ وجل -، ودليلٌ عليه، وآية من آياته.

وفي قوله تعالى: ﴿الرحمن الرَّحِيْم﴾ إثباتُ صفة الرحمة، والرحمة صفة من صفات الله - عزَّ وجلَّ - الثابتة، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ

---

(١) رواه مسلم (٤/٢٠٨٤) رقم (٢٧١٣)، والترمذي (٥/٤٤٠) رقم (٣٤٠٠) وقال: «حسن صحيح» وأبوداود (٥/٣٠١) رقم (٥٠٥١)، وابن ماجة (٢/١٢٥٩ - ١٢٦٠) رقم (٣٨٣١) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/٢٧٢).

(٢) الآيتان ٢٠ و ٢١ من سورة الذاريات.

(٣) الآية ٤ من سورة الرعد.

﴿الْغَنِيُّ ذُو الـرَّحْمَةِ﴾[1] وهي غير الإرادة، وغير الإحسان، بل هي صفـة مستقلة تنشـأ عنها إرادة الإحسان، وإيصال الإحسان إلى الخلق، ويصف الله نفسه بالرحمن الرحيم بعد ذكر ربوبيته العامة، وفي ذلك دليل على أن ربوبيته -عز وجل- ربوبية رحمة وإحسان إلى الخلق، بجلب النعم، ودفع النقم كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم من نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾[2].

وفي وصفـه بالـرحمن الرحيم دليلٌ على سعة رحمته، وهذا ما يستفاد من الرحمن، لأن «رحمن» على وزن «فعلان»، وهذه الصيغة تدل على الامتلاء والسعة كما يقولون «غضبان» و«ندمان» وما أشبه ذلك للممتلىء غضباً وندماً.

وفي قوله: ﴿الرَّحِيمِ﴾ دليلٌ على إيصال رحمته إلى من شاء من عبـاده، ورحمـة الله - عز وجـل - عامة وخاصة، فأما العامة فهي لجميع الخلق، فكل الخلق مرحومون برحمة الله، ولولا رحمة الله ما أكلوا وما شربوا، وما اكتسوا، وما سكنوا، ولكن الله رحمهم فهيأ لهم ما تقوم به أبدانهم من المعيشة الدنيوية. وأما الخاصة فهي خاصة بالمؤمنين الذين تستمر رحمتهم في الدنيا والآخرة، في الدنيا رحمهم الله تعالى بحصول ما تقوم به أبدانهم، وفي الآخرة رحمهم الله تعالى

(١) من الآية ١٣٣ من سورة الأنعام.
(٢) الآية ٥٣ من سورة النحل.

بحصول ما تقوم به أديانهم.

وفي قولـه: ﴿الرَّحمنِ الرحيم﴾ ردٌّ على منكري الرحمة الذين يقــولــون: إن الـرحمـة ليست صفـة حقيقية لله، بل هي إرادة الإحسـان، أو الإحسـان نفسـه، وذلك لأن الأصل في الوصف الحقيقة، فإذا قيل: الرحمن أي ذو الرحمة، فالأصل أنه متصف بها حقيقـة، ولا يلزم من اتصـاف الله تعـالى بالرحمة أن يكون مماثلاً للمخلوق، ولا يلزم من ذلك أن يكون ناقصاً، لأن النقص الذي يمكن أن يكون في صفة الرحمة ـ إن كان ـ إنما ذلك في رحمة المخلوق التي قد لا تكون عن حكمة، فتكون ناقصة.

وقوله تعالى: ﴿مالكِ يومِ الدّينِ﴾ يوم الدين هو يوم القيامة، والدين هنا بمعنى الجزاء، وكما يكون الدين بمعنى الجزاء يكون أيضـاً بمعنى العمـل، فمن مجيئـه بمعنى العمـل قولـه تعـالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيْنَاً﴾(١) ومن مجيئه بمعنى الجزاء هذه الآية، فقـوله: ﴿مالكِ يومِ الدينِ﴾ أي مالك يوم الجزاء الذي يدان فيه كل عامل بما عمل، وأضاف الله تعالى الملك إلى يوم الدين وإن كان ـ سبحانه وتعالى ـ مالكاً للدنيا والآخرة، لأن ملكيته تظهر جلية واضحة في ذلك اليوم، ويعترف بها كل مخلوق، كما قال الله

---

(١) من الآية ٣ من سورة المائدة.

تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ. يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ. الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[1] ولهذا قال تعالى: ﴿مالكِ يوم الدين﴾ وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الملك في ذلك اليوم، يوم القيامة، لا يكون لأحد لا جزئياً ولا غير جزئي، لا حقيقة ولا مجازاً، لأن الناس كلهم يوم القيامة يحشرون حفاة عراة غرلاً[2]. حفاة: ليس في رجل أحدهم نعال، وعراة: ليس عليهم ثياب، وغرلاً: ليسوا مختونين، لا فرق في ذلك بين السيد والعبد، ولا بين الراعي والرعية، ولا بين الأب والابن، فكل الناس على حد سواء، وفي قوله: ﴿مَلِكِ يوم الدين﴾ أيضاً دليلٌ على أن الله -عزَ وجل- في ذلك اليوم تام الملك والسلطان كما تدل عليه القراءة الثانية الصحيحة السبعية، وهي قراءة صحيحة سبعية، فينبغي للإنسان أن يقرأ بها أحياناً، لكن لا بحضور العامة، لئلا يشوش عليهم، فإن الملك له من السلطة والنفوذ ما ليس للمالك، لكن الملك أحياناً لا يملك فيكون ملكاً قاصر الملك، فباجتماع القراءتين يكون الكمال. إنَّ الله تعالى «ملك» و«مالك». «ملك»: أي ذو سلطان وقهر وعظمة وكلمة نافذة. و«مالك»: ذو تصرف كامل في ملكوته

---

(١) من الآية ١٥، والآيتان ١٦، ١٧ من سورة غافر.

(٢) انظر صحيح مسلم (٤/٢١٩٤).

-عز وجل- وفي قوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾ إثبات اليوم الآخر، وهو حق، والإيمان به أحد أركان الإيمان الستة، فاليوم الآخر حقٌّ ثابتٌ كما أن الدنيا الآن حقٌّ ثابتٌ لا ينكره أحد، وكذلك اليوم الآخر، المستقبل الموعود حق ثابت ولا بد، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[1] فلو كان الناس خلقوا لهذه الدنيا يعيشون فيها ما يعيشون على ما فيها من التعب والنصب واللأواء والعدوان والظلم والصلاح والفساد، لو كانوا خُلقوا لهذا فقط لكان ذلك نقصاً بالغاً في حقِّ الله -عز وجل-، لأنه سفهٌ وباطلٌ ولعبٌ، وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[2] وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾[3] وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه لا بد من لقاء ومجازاة على هذه الأعمال التي عملناها في هذه الدنيا، ولا يمكن أن يقوم الإنسان بشرع الله حق القيام إلا إذا كان مؤمناً بأن هناك يوماً يلاقي فيه الإنسان ربه فيحاسبه على عمله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ﴾[5].

---

(١) الآية ١١٥ من سورة «المؤمنون».

(٢) من الآية ٣٨ من سورة الدخان.

(٣) الآية ٢٧ من سورة ص.

(٤) من الآية ٣٦ من سورة القيامة.

(٥) من الآية ٦ من سورة الانشقاق.

وفي قولـه تعـالى: ﴿مـالـكِ يوم ِ الدّينِ﴾ ـ أيضاً ـ إثبات الجزاء والحساب، وأن الإنسان يحاسب على عمله، ويجازى عليه، وهو حق ثابت، ولكنـه ـ أي الحسـاب ـ على وجهين: الوجه الأول: حساب المؤمن، وهذا لا يناقش الحساب، وإنما يخلو به الرب ـ عزَّ وجلَّ ـ فيكلمه وحده، ويقرره بذنوبه حتى يقرَّ بها، ثم يقول الله له: قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فالحمد لله على ستره، ما أكثر الذنوب التي يفعلها العبد إما باطنة في قلبه، وإما ظاهـرة في جوارحـه، لكن لا يعلم بها النـاس، ومـع هذا فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يمن عليه فيستره، ويقول الله -عز وجل- في حسابه له يوم القيامة: قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم.

أما الوجه الثاني من الحساب فهو حساب الخزي والعار والعياذ بالله، وهو حساب الكافر، فإنه يخزى بأعماله يوم القيامة، وينادى على رؤوس الأشهاد ﴿**هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾(١).

وفي قولـه تعـالى: ﴿مـالـكِ يَوْم ِ الدِّينِ﴾ ترغيب وترهيب، ترغيب في العمل الصالح، لأن الإنسان إذا أيقن بأنه سيحاسب على عمله ويثـاب عليه حرص على الأعـمال الصـالحـة، واجتهد ورغب فيهـا، وتـرهيب، لأنـه إذا علم بأنه سيجازى على عمله

---

(١) من الآية ١٨ من سورة هود.

ويعاقب على سيئته، أو على الأصح يستحق العقاب على سيئته فإنه يخشى من ذلك، ويتجنب الأعمال السيئة، خوفاً من يوم الدين الذي يجازى فيه العاملون بأعمالهم كما قيل: «كما تدين تدان»، فعلينا أن نأخذ لهذا اليوم عدته، وأن نعمل صالحاً يقربنا إلى الله - عزَّ وجلَّ -، ويسعدنا في ذلك اليوم.

وفي قوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾ دليلٌ على كمال حكمة الله - سبحانه وتعالى -، حيث جعل لهذا الخلق مآلاً يدانون فيه، ويجازون بأعمالهم، لأنه لولا ذلك لكان الأمر عبثاً كما سبق أن ذكرنا.

وفي قوله: ﴿مالك يوم الدين﴾ إشارة إلى كمال العدل، لأن الدين هو المجازاة، مجازاة العامل بقدر ما عمل، ولكن - مع هذا - نقول: إن مجازاة الله - سبحانه وتعالى - لعباده دائرة بين العدل والفضل، فهي بالنسبة للكافر عدلٌ محض ليس فيه ظلم، فالكافر عقوبته الخلود في النار أبد الآبدين لا يخرج منها أبداً، ولا تخبو النار التي يعذب فيها أبداً؛ لقول الله تعالى في ثلاث آيات من القرآن: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾(1) الآية الأولى في سورة النساء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ

(1) من الآية ١٦٩ من سورة النساء، ومن الآية ٦٥ من سورة الأحزاب، ومن الآية ٢٣ من سورة الجن.

طَرِيقـاً إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِـدِينَ فِيهَـا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾[1] والآية الثانية في سورة الأحزاب، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِيْنَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِـيراً﴾**[2] والآية الثالثة في سورة الجن، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾**[3]، ولا قول لأحـدٍ بعـد أن صرَّحَ اللهُ ـ عزَّ وجـلَّ ـ بتأبيد الخلود في نار جهنم، لا قول لأحد بعد ذلك، وكل قول يخالف هذا فهو مردودٌ على قائله، لأن القائل بالتأبيد هو العالم بما سيكون، وهو الخالق ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فمجازاة الله الكافر بالخلود في النار أبد الآبدين هي عدل، وليس فيها ظلم، قد يقول قائل: إنك إذا قست مدة بقاء الإنسـان في الحياة الـدنيا فإنها لن تكون شيئاً بالنسبة إلى التأبيد الأبدي فيكون تأبيده على أكثر من بقائه في الدنيا شيئاً من الظلم.

والجواب على هذا: ألا ظلم في ذلك، أولاً: لأن هذا الإنسان استغرق جميع حياته في الكفر، فيكون من العدل أن يستغرق جميع بقائه في الآخرة في العذاب، وثانياً: لأن هذا الإنسان الكافر قد أرسلت إليه الرسل، وأنزلت معهم الكتب، وبينوا للناس الطريق،

---

(١) الآيتان ١٦٨ و ١٦٩ من سورة النساء.

(٢) الآيتان ٦٤ و ٦٥ من سورة الأحزاب.

(٣) من الآية ٢٣ من سورة الجن.

ورغَّبوا الناس في الحق، وحذروهم من الباطل، ولم يبقَ للناس حجة على الله بعد الرسل، فيكون هو الذي اختار لنفسه هذا المقام الأبدي، لأنه يعلم أن الكافر سيبقى في هذا المكان الأبدي، فحينئذٍ يكون هو الظالم لنفسه كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1] أما الجزاء الفضلي، الذي هو فضل الله - عزَّ وجلَّ - فهو جزاء المؤمن، فالمؤمن يجازى بالنسبة للحسنة، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وأما بالنسبة للسيئات، فإنه تحت المشيئة، إن شاء الله تعالى عذَّبَهُ، وإن شاء الله تعالى غفر له، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[2] إذن فجزاء الله تعالى للمؤمن من نوع الجزاء الفضلي، وأما الظلمُ فهو ممتنعٌ في حق الله - عزَّ وجل -، فهو لا يمكن أن يظلم أحداً فيزيد في سيئاته، أو ينقص من حسناته.

ثم قال الله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ العبادة: هي التذلل لله -عز وجل- محبة وتعظيماً بامتثال أمره، واجتناب نهيه، والاستعانة: طلب العون. والإنسان مفتقر إلى الله -عز وجل- في العبادة والاستعانة. أما افتقاره إليه في العبادة

---

(١) من الآية ٥٧ من سورة البقرة، ومن الآية ١٦٠ من سورة الأعراف.
(٢) من الآية ١١٦ من سورة النساء.

فلأن العبادة هي مادة سعادته، وأما الاستعانة فلأن الله إذا لم يعنه وكله إلى نفسه فيكله إلى ضعف وعجز وعورة، ولا قيام للإنسان إلا بالله -عز وجل- . وفي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إخلاص العبادة لله -عز وجل- . ووجه ذلك تقديم المعمول «إياك» ولو جاءت على الترتيب لقال: «نعبدك» فلما قدم المعمول دلَّ على الإخلاص، وتخصيص العبادة لله وحده، لأن من القواعد المقررة في اللغة العربية أن تقديم المعمول يفيد الحصر، أي الاختصاص ويكون قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متضمناً لمعنى قول الإنسان: لا إله إلا الله. وفي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ دليلٌ على اتباع الشريعة، شريعة الرسل عليهم الصلاة والسلام، لأن العبادة لا تتم إلا بأمرين: الإخلاص لله، والموافقة لشريعة الله، وذلك باتباع الرسل، ولهذا نقول: لا إشراك ولا ارتداد، فالإشراك ينافي الإخلاص، والارتداد ينافي الاتباع، فالعبادة لله ـ سبحانه وتعالى ـ إخلاص واتباع، لا شرك ولا ارتداد، وفي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ دليل على أن العبادة إذا أشرك بها مع الله أحد لم تكن عبادة لله، ولا تقبل من العابد، ويؤيد ذلك ما رواه أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **«قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركتهُ وشِرْكَهُ»**[1].

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٢٨٩) حديث رقم (٢٩٨٥).

وفي قولـه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِين﴾ دليلٌ على إفراد الله تعالى بالاستعانة، ووجهه تقديم المعمول، لأن تقديم المعمول يفيد ـ على ما تقتضيه اللغـة العربية ـ الحصر أي الاختصاص، فلا استعانة للإنسان إلا بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ولا يستطيع الإنسان أن يقوم بشيء إلا بمعونة الله له، وفي قوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعين﴾ دليل على أنه ينبغي للإنسان حال العبادة أن يستحضر أنه مستعين بالله ـ سبحانه وتعالى ـ لتيسَّر له العبادة، ولتكون عبادة؛ لكونها متبعاً فيها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، مخلصاً لله فيها، ولكونه مستعيناً بالله عليها، ولهذا نقول: ينبغي للعابد أن يستحضر ثلاثة أشياء: الإخلاص والمتـابعة والاستعانة، فالإخلاص والاستعانة لله وحده، والمتابعة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليوصل إلى الله. أما الإخلاص إلى الله فأن يقصـد الإنسـان بعبـادتـه وجـه الله والدار الآخرة. وأما الاستعـانة فإن يشعر بأن الله هو الذي أعانه على هذا، ويسَّر له أسباب القيام به، ولولا أنه أعانه ما حصل. وأما المتابعة فيستحضر كأنما الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمامه، وهو خلفه يقتدي به. فهذه ثلاثة أمور ينبغي للعابد أن يكون مستحضراً لها، ليكون ذلك أعون له في إتمام العبادة.

ومن فوائـد الآية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين﴾ أن الإنسان دائرٌ بين أمرين: بين عبادة الله، واستعانة النفس، ولهذا قال الله

تعالى في الحديث القدسي عن هذه الآية: «**هَذا بيني وبين عَبْدي**»[1].

فالعبادة لله والمعونة للعبد، وفي هذه الآية دليل على تخصيص الله بالاستعانة، أي أن الإنسان لا يستعين استعانة مطلقة إلا بالله، لأن الاستعانة المقيدة هذه جائزة حتى بغير الله فيما يقدر عليه المخلوق، ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «. . **وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة** . .»[2]، فأثبت عون الإنسان لأخيه، فالاستعانة بمخلوق فيما يقدر عليه لا بأس بها، ولا تنافي العبادة ولا الإخلاص، لكنها في الحقيقة استعانة مقيدة وليست عامة شاملة، واستعانة قاصرة أيضاً، لأنها على عمل معين يقدر عليه المستعان به، وعلى هذا فالاستعانة بأصحاب القبور على قضاء الحوائج محرمة، بل هي من الشرك، وذلك لأن أصحاب القبور لا يستطيعون أن يعينوا أحداً وهم أموات، فهم بأنفسهم لا يستطيعون أن يعملوا لأنفسهم شيئاً فكيف يعملون لغيرهم؟ فإذا أردت أن تستعين في أمر لا يقدر عليه إلا الله، فلا تستعن إلا بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ .

---

(١) هو جزء من حديث سبق تخريجه ص ١١ .

(٢) رواه البخاري (٦/١٠٦) رقم (٢٨٩١)، ومسلم (٢/٦٩٩) رقم (١٠٠٩) واللفظ له، وغيرهما.

وفي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينْ﴾ دليل على أنه ينبغي للمتكلم أن يأتي بالأشياء التي تثير فطنة المخاطب وتنبهه، وذلك لأن الآيات الأولى الثلاث كلها بصيغة الغائب، أو كلها في سياق الغيبة، حيث قال تعالى: ﴿الحمدُ للهِ ربِّ العَالمين، الرَّحمن الرَّحِيم، مَالكِ يَوْمِ الدّينِ﴾ ولكن في الآية الرابعة قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فهذا التفات من الغيبة إلى الخطاب، والالتفات بلا شك يوجب استيقاظ المخاطب، لأن الكلام إذا كان على نسق واحد انساب الإنسان وغفل، ولم يحصل له انتباه، فإذا تغير الأسلوب، فإن الذهن ينصدم بهذا التغير، ثم ينتبه فكأنه صوت منبه ينبه الإنسان على ما سيُخاطب به، ولهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ولم يقل: «إِيَّاهُ نَعْبُدُ»، وفي هذه الآية دليل مبني على الالتفات الذي ذكرناه وهو الانتقال من الغيبة إلى الخطاب، وهو دليل على أهمية العبادة والاستعانة وإخلاصهما لله، كأن هذا الذي أثنيت عليه ـ وهو الله عزَّ وجلَّ ـ فيما سبق من الآيات الثلاث، كأنه ـ لقوة إيمانك به ـ أمامك، تخاطبه، ولا شك أن الإنسان إذا قرأها في الصلاة فإنه يستقبل الله -عز وجل-، والله تعالى يكون قبل وجهه فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ولكن ليعلم أن الله تعالى قبل وجهه، وإن كان هو في السماء فوق عرشه، ولا تناقض في ذلك، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يقاس بخلقه، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1]، وفي

(١) من الآية ١١ من سورة الشورى.

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دليلٌ على اجتماع الأمة، فإنه لم يقل: إياك أعبد، وإياك أستعين، وأنه ينبغي للأمة أن تتفق وتجتمع على العبادة والاستعانة بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وقد يؤخذ منها إثبات علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ، فإن هذه السورة فرضت قراءتها في جميع الصلوات، ومنها الصلاة الجهرية التي يجتمع فيها الإمام والمأموم، ولو جاءت بصيغة الإفراد «إيَّاكَ أعبد وإيَّاك أستعين» لكان في ذلـك إخـلال بالنسبة للمأمومين، لأن الإمام وحده هو الذي يقول: إيَّاكَ أعبد وإيَّاكَ أستعين. فَمن المعلوم أن الذين وراءه لن ينالهم نصيب من هذا لو كانت الآية بصيغة الإفراد.

أما قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإن المأموم يشعر بأنه هو والإمام على حد سواء في عبادة الله تعالى والاستعانة به، وفي الآية دليل على أن الإنسان ينبغي أن يستعين بالله في كل شيء حتى في الأمور الصغيرة كالذهاب والمجيء والأكل والشرب، فينبغي للإنسان أن يستعين بالله في كل شيء حتى يكون بذلك مدركاً لحاجته، متعبداً لربه ـ عز وجل ـ، لأن الاستعانة من العبادة، وإذا استعان الإنسان بربه يسَّر له الأمـر وسَهَّلَهُ عليه، ولهـذا يؤمـر الإنسان إذا حلف على شيء مستقبل أن يقول: إن شاء الله حتى يشعر باستعانته بربه، فإنه إذا قال: إن شاء الله كان ذلك عوناً على قضاء حاجته.

وفي الصحيحـين في قصـة سليمان عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**لأطوفنَّ الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في**

سبيل الله. فقال له صاحبه قل: إن شاء الله، فلم يقل: إن شاء الله. فطاف عليهن جميعاً، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل. وأيم الذي نفسُ محمدٍ بيدهِ لو قال: إنْ شاءَ اللهُ لجاهدوا في سبيلِ الله فرساناً أجمعون»[1]، وهنا لم يقل سليمان عليه السلام إن شاء الله، اعتماداً على ما في قلبه من العزيمة، فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، وذلك ليتبين له ولغيره أن الأمر بيد الله.

ثم قال الله ـ تعالى ـ : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ صِرَاطَ الَّذينَ أنعمتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المغضُوبِ عَلَيْهِمْ ولاَ الضَّالين﴾ هذه الآيات الثلاث كلها للإنسان، فسورة الفاتحة سبع آيات: ثلاث منها لله خالصة، وثلاث منها للإنسان خالصة، وآية وسط بينهما كما جاء في الحديث الصحيح: «قال الله تعالى: قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين. ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبدُ: ﴿الحمدُ للهِ ربِّ العالمين﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال العبد: ﴿الرحمنِ الرحيم﴾ قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي. وإذا قال: ﴿مالكِ يوم الدِّين﴾ قال: مجدني عبدي (وقال مرة: فوَّض إليَّ عبدي) فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نعبدُ وإياكَ نَسْتَعِين﴾ قال: هذا بيني وبين

(١) رواه: البخاري (١١/٤٦٣) رقم (٦٦٣٩) واللفظ له، ومسلم (٣/١٢٧٦) رقم (١٦٥٤)، والنسائي (٧/٣٩) رقم (٣٨٦٥).

عبـدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الـمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذينَ أنعمتَ عَلَيْهِمْ غير المغضوبِ عَلَيْهِمْ ولا الضالين﴾ قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»[1].

وقـولـه تعالى: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الـمُسْتَقِيْم**﴾ الهداية بمعنى الدلالة والتوفيق، فإن كانت معداة بإلى فهي للدلالة، وإن كانت متعدية بنفسها فهي للتوفيق والدلالة، وهنا الهداية متعدية بنفسها، فيكـون المراد بها الدلالة والتوفيق، أي أن الله تعالى يرزقك علماً تهتدي به إلى شريعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ويوفقك لهذه الشريعة حتى تقـوم بها. وقـولـه: ﴿**الصراط المستقيم**﴾ الصراط: هو الـطريق الواسع، والمستقيم: الذي ليس فيه اعوجاج ولا ارتفاع ولا انحدار.

وفي قولـه تعـالى: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ المستقيمَ**﴾ دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يدعو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بهذا الدعاء: أن يهديه صراطه المستقيم، وفي قوله: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الـمُسْتَقِيمَ**﴾ أيضاً دليل على أن الإنسان مفتقر إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ولذلك يجب على الإنسان أن يترك الإعجاب بنفسه، والقول: اهتديتُ، لأنني أعرف الحق، وهذا مني فيمنُّ باهتدائه على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ . وقد أنكر

---

(١) سبق تخريجه ص ١٢ .

الله - عزَّ وجلَّ - على الأعراب الذين يمنُّونَ على رسول الله أن أسلموا، فقال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١)، فالإنسان لو لم يهده الله لم يهتدِ، قال الله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾(٣)، فإن قال قائل: إن قلتم هكذا فتحتم الأبواب للمتهاونين والكسالى الذين إذا دُعوا إلى الحق قالوا: الهداية بيد الله، واحتجوا بذلك، فالجواب أن نقول: إن الله تعالى لما قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ المستقيمَ﴾ وأرشدنا إلى أن ندعوه هذا الدعاء لم يرد منا أن نتوقف عن أسباب الهداية، بل نحن نسأل الله الهداية، ونسعى في أسبابها، ولهذا قلنا: إن الهداية هداية دلالة وهداية توفيق، هداية الدلالة التي هي العلم هل يمكن أن تحصل للإنسان بلا تعب على تحصيله؟ لو قال الإنسان: اللهم ارزقني مالاً هل معنى ذلك أن يبقى في بيته ولا يتحرك؟ بل عليه أن يتحرك ويسأل أسباب الرزق، كذلك الهداية إذا سألت الله إياها فتسعى في أسبابها لو سألت الله تعالى أن يرزقك أولاداً هل تبقى لا تتحرك لا تتزوج؟ لا، لا بد أن

---

(١) الآية ١٧ من سورة الحجرات.

(٢) من الآية ١٧ من سورة الكهف.

(٣) من الآية ٣٣ من سورة الرعد، ومن الآية ٢٣ من سورة الزمر، ومن الآية ٣٦ من سورة الزمر، ومن الآية ٣٣ من سورة غافر.

تتـزوج حتى ترزق بالأولاد، فسؤال الشيء من الله لا يستلزم أن يبقى الإنسان جامداً، لا يتحرك ولا يسعى إلى الأسباب التي توصل إلى هذا الشيء. إذن فلا حجة لهذا الذي يحتج بهذه الآية وأشباهها على فسقه وفجوره، ثم إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا حرم الإنسان الهـداية فلعلمـه ـ سبحانه وتعالى ـ أنه ليس أهلاً لها، لأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾[1] كما أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ جعل الهدى في قلوب أهل الهداية لعلمه أنهم أهل لذلك كما قال الله تعالى: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[2].

ومن الفوائد التي تستفاد من الآية الكريمة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ المستقيمَ﴾ ـ أيضاً ـ أن فيها دليلاً على أن دين الإسلام دين واسع شامـل يتسـع لكل أحد، فالصراط في اللغة العربية هو الطريق الواسع الذي يتسع لجميع السالكين، وفي الآية دليل على عموم الإسـلام وشموله، لأنه شامل لكل ما يتعلق بالإنسان في معاشه ومعـاده، ولهـذا كان منظماً للعباد فيما يتعلق بعبادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وفيما يتعلق بالمعاملة فيما بينهم، ويتفرع من هذه الفائدة الرد على مَنْ زعم أن الدين الإسلامي ينظم العمل فيما يتعلق بين العبد وبين ربه، ويرى أن هموم الدنيا لا علاقة لها بدين الله ـ عزَّ

(١) من الآية ٥ من سورة الصف.

(٢) من الآية ١٢٤ من سورة الأنعام.

وجل ـ، وهذا خطأ عظيم، فإن الدين الإسلامي نظَّم كل شيء، وعلَّم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمته كل شيء تحتاج إليه، قال أبوذر ـ رضي الله عنه ـ : **«توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً»**.

ويدلل على شمول الشرع ودين الإسلام لكل شيء أن أطول آية في كتاب الله آية الدَّيْن، وكلها تتعلق بمعاملة الخلق بعضهم مع بعض، فالدين الإسلامي كما نظم المعاملة بين العبد وبين ربه نظَّمَ المعاملة بين العبد وبين غيره من عباد الله، بل نظَّم علاقة العبد الإنسان بينه وبين البهيم غير الناطق، فقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: **«عُذِّبت امرأة في هرة ربطتها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها، إذْ حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»**[1] وثبت عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: **«إن امرأة بغياً[2] رأت كلباً في يوم حار يطيِّفُ ببئر[3] قد أدْلَع لسانه[4] من العطش فنزعت له بموقها فغُفِرَ لها»**[5]. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ غفر لهذه المرأة رغم

---

(١) رواه البخاري (٦/٦٣٨) رقم (٣٤٨٢) واللفظ له، ومسلم (٤/٢٠٢٢) رقم (٢٢٤٢) وغيرهما.

(٢) أي زانية.

(٣) يطيف ببئر: أي يدور حولها.

(٤) أدلع لسانه: أخرجه لشدة العطش.

(٥) رواه البخاري (٦/٦٣٤) رقم (٣٤٦٧)، ومسلم (٤/١٧٦١) رقم (٢٢٤٥).

أنها بغي زانية، وهذا يدل على أن الإسلام له تنظيم في كل ما يتعلق بالعبد، فإن قال قائلٌ أليس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قدم المدينة ورآهم وهم يؤبرون النخل (أي يلقحونها بوضع طلح الفُحَّال في ثمر النخل) قال: **«لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً» فتركوه فنفضت[1] أو فنقصت. قال: فذكروا ذلك له فقال: «إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر»** [2] وهذا يدل على أن أمر الدنيا مفوض للعباد؟ والجواب على ذلك أن هذا الذي أشار إليه الرسول عليه الصلاة والسلام لا يتعلق بالأحكام، وإنما يتعلق بالصناعة الحرف، ومعلوم أن الإنسان في حرفته قد يكون أعلم من عالم بشرع الله وأدرى بها، فالنجار مثلاً يعرف كيف يصرف الخشبة حتى يجعل منها باباً، والصانع يعرف كيف يصنع الحديد فيجعله طائرات وسيارات أكثر مما يعلمه العالم الشرعي في هذا، هذا هو الذي أراده النبي عليه الصلاة والسلام.

وفي قوله: **﴿اهْـدِنَا الصِّرَاطَ المستقيمَ﴾** دليل على أن هناك صراطاً غير مستقيم، وهو كذلك، بل هناك سبل كثيرة غير مستقيمة كما قال الله تعالى: **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيْلِهِ﴾** [3] فهناك طرق كثيرة للباطل متنوعة

(١) أي أسقطت ثمرها.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٨٣٥ ـ ١٨٣٦) رقم (٢٣٦٢).

(٣) من الآية ١٥٣ من سورة الأنعام.

من أفعال وأقوال وانتهاكات، و أما الحق فهو طريق واحد يوصل إلى الله - سبحانه وتعالى - وإلى دار كرامته، وفي قوله: ﴿**اهْدِنَا الصِّراطَ المستقيمَ**﴾ دليل على أن دين الإسلام كامل لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وأن من ظن أن فيه قصوراً فهو القاصر، ولا أحد يظن أن في دين الإسلام قصوراً إلا أن يكون قاصراً في فهمه أو قليلاً في عمله، أو سيئاً في قصده. أما حَسَنُ النيةِ الذي آتاه الله علماً وفهماً فإنه يدري ويعلم علم اليقين أن دين الإسلام ليس فيه قصور، وهو مستقيم لا اعوجاج فيه، وأن الناس لو طبقوه لكانوا على الاستقامة والسداد والصواب، ولَمَا ضاقت عليهم السبل، ولكن قاصر الفهم أو ناقص العلم أو سيىء القصد هو الذي يظن أن في الإسلام قصوراً، فيذهب يأتي بالقشور من هنا وهناك ليطبقها في بلاد الإسلام.

وفي قوله تعالى: ﴿**اهْدِنَا الصِّراطَ المستقيمَ**﴾ دليل على كمال حكمة الله - عز وجل - وكمال رحمته، حيث جعل الصراط الموصل إليه صراطاً مستقيماً لا متاهة فيه ولا ضلال، ونحن نعلم أن الصراط المستقيم يوصل إلى المقصود بسرعة بخلاف الطريق المعوج، الذي ينحرف بالإنسان يميناً وشمالاً، فإنه - على تقدير إيصاله إلى المطلوب - يكون شاقاً وبعيداً بسبب التعرجات أو الطلوع أو النزول، بل هذا صراط مستقيم. وفي الآية الكريمة دليل على أنه لا هادي إلا الله - عز وجل -، فهو الذي يُلجأ إليه في طلب الهداية

لا إلى غيره، فإن قال قائل: أليس قد قال الله تعالى عن نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1]؟ فالجواب: بلى قد قال ذلك، وهو حق، لكن الهداية إلى الصراط المستقيم التي أثبتها الله لرسوله هي هداية الدلالة، وكل إنسان عنده علم بالشرع فإنه يهدي الناس بهذا العلم إلى الشرع، فالدلالة على الخير ليست هي التوفيق إلى الخير. أما الدلالة التامة التي فيها الهداية والتوفيق فهي لله - عز وجل -، ولهذا قال الله تعالى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[2]

ثم قال تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذينَ أنعمتَ عَلَيْهِمْ﴾: هم الذين أتم الله عليهم النعمة بتوفيقهم لشريعته، وهم أربعة أصناف، ذكرهم الله في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً. ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ﴾[3].

﴿غيرِ المغضوبِ عَلَيْهِمْ ولاَ الضَّالين﴾: يعني صراط غير المغضوب عليهم، والمغضوب عليهم هم الذين علموا الحق

---

(١) من الآية ٥٢ من سورة الشورى.

(٢) الآية ٥٦ من سورة القصص.

(٣) الآية ٦٩، ومن الآية ٧٠ من سورة النساء.

واستكبروا عن اتباعه، و«الضالون» الذين جهلوا الحق فأخطأوا في العمل، وأول من يدخل في «المغضوب عليهم» اليهود، وأول من يدخل في «الضالين» هم النصارى.

وفي الآية الكريمة ﴿صراطَ الذَّينَ أنعمت عليهم غيرِ المغضوبِ عَلَيْهِمْ ولا الضَّالين﴾ دليل على أن الناس انقسموا إلى ثلاثة أقسام: قسم أنعم الله عليهم فهدوا إلى الحق علماً وعملاً، وقسم غضب الله عليهم فهدوا إلى الحق علماً لكن لم يوفقوا للعمل به، بل استكبروا عنه وهم المغضوب عليهم، وقسم ثالث لم يهدوا إلى الحق لا علماً ولا عملاً فتعبدوا الله تعالى عن جهل فضلوا وهم الضالون، فمن المغضوب عليهم اليهود، ومن الضالين النصارى.

وفي قوله تعالى: ﴿صِراطَ الَّذينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ دليلٌ على أنه ينبغي أن نبحث عن سيرة هؤلاء الذين أنعم الله عليهم: من هم؟ وكيف كانت حالهم؟ حتى نهتدي لطريقتهم، ويتفرع على ذلك الحث على معرفة سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم -، لأنه خير من أنعم الله عليه، وبهذه المناسبة فإنني أحث إخواني المسلمين على قراءة السيرة النبوية من الكتب الموثوق بها مثل «البداية والنهاية» لابن كثير - رحمه الله - فإنه كتاب جيدجداً في بابه.

وفي قوله: ﴿صَراطَ الَّذينَ أنعمتَ عَلَيْهِمْ﴾ دليلٌ على أن نعمة الدين أكبر من نعمة الدنيا، فإن في المغضوب عليهم والضالين من

أنعم الله عليه نعماً عظيمة في الدنيا، لكن هذه الدنيا ليست بشيء مقارنة بنعم الدين، و لهذا قال تعالى: ﴿**صراطَ الَّذينَ أنعمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ ولما دخل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على النبي - صلى الله عليه وسلم - ذات يوم فوجده عليه الصلاة والسلام قد تأثر جنبه من الاضطجاع على سريره الذي عنده بكى - رضي الله عنه - فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «**ما يبكيك يا عمر؟**» قال: أنت نبي الله وكسرى وقيصر على أسرة الذهب؟ قال: «**يا عمر أما ترضى أن لهم الدنيا ولنا الآخرة؟**»[1] وعلى هذا نقول: إن النعمة الحقيقية الكبيرة العظيمة هي نعمة الله تعالى على عباده بدينه، ولا يخفى على الجميع أن الله تعالى قال: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيْناً**﴾[2] فجعل إكمال الدين من تمام النعمة، وهو كذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿**صِراطَ الَّذينَ أنعمتَ عَلَيْهِمْ**﴾ دليلٌ على أن من سلك هذا الصراط فهو في نعمة، في سرور، في انشراح، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحَاً من ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[3] فمن كان من هؤلاء كان في نعمة وإن كان في ضيق من

---

(١) انظر منتخب كنز العمال (٣/١٩٧) ومجمع الزوائد للهيثمي (١٠/٣٢٦).

(٢) من الآية ٣ من سورة المائدة.

(٣) الآية ٩٧ من سورة النحل.

العيش باعتبار نعمة الجسد، لأن النعمة بالدين تقتضي أن يكون الإنسان دائماً منشرح الصدر، مطمئن القلب، ولهذا قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «**عجباً لأمر المؤمن إنَّ أمره كُلَّهُ خيرٌ. وليس ذاكَ لأحدٍ إلا للمؤمن. إنْ أصابته سرَّاءُ شَكَرَ فكان خيراً له. وإنْ أصابته ضرَّاءُ صَبر، فكان خيراً له**»[1]. وقال بعض السلف: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف». وفي قولـه: ﴿**صراطَ الَّذينَ أنعمتَ عَلَيْهِمْ**﴾ أسند النعمة لله وحده، وقال في الآخرين: ﴿**غير المغضوبِ عَلَيْهِمْ**﴾ فأتى بالغضب على وجه الإبهام دليلاً على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ له المنة الكبرى على هؤلاء الذين أنعم الله عليهم، وأنه لا منَّة لأحد عليهم بما أعطاهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، ويتفرع على ذلك أن يحمد الإنسان ربه على كل عمل صالح يفعله، لأن ذلك بمعونة الله، وبنعمة الله.

وفي قول الله تعالى: ﴿**غير المغضوبِ عَلَيْهِمْ ولا الضالين**﴾ دليلٌ على عظم ذنب من أُوتي العلم ولم يعمل به، لأنه يستحق الغضب، حيث إن الله تعالى أنعم عليه بوجود السبب الذي به يهتدي، ولكنه استنكف واستكبر. وفي هذه الآية ـ أيضاً ـ دليلٌ على أنه ينبغي لنا أن نعرف سيرة هؤلاء المغضوب عليهم، ولماذا غضب الله عليهم؟ وبماذا أخذهم؟ كما قال الله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي**

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/٢٢٩٥) حديث رقم (٢٩٩٩).

قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾[1] وفي قوله: ﴿غير المغضوب عَلَيْهِمْ ولا الضَّالين﴾ دليلٌ على أنه يجب على المسلم الذي هداه الله إلى الصراط المستقيم أن يتبرأ من طريقة هؤلاء، كما سأل الله أن يعصمه من طريقهم فليتبرأ منه، وليبعد عنه، وليتجنب ما هم عليه من الضلال، بل إن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «مَنْ تشبَّه بقومٍ فهو منهم»[2] فيجب علينا أن نتجنب ما يختصون به حتى في غير العبادات، وذلك لأننا إذا تشبهنا بهم في غير العبادات، وفعلنا ما هو من خصائصهم فإن هذا يجرنا إلى أن نتشبه بهم في العبادات، ولهذا قال العلماء: إن التشبه بهم في الظاهر يجر إلى التشبه بهم في الباطن، فيهلك الإنسان كما هلكوا. وفي قوله: ﴿غيرِ المغضوب عَلَيْهِمْ ولا الضَّالين﴾ دليلٌ على أنه يجب علينا معاداة هؤلاء وبغضهم، وعدم مناصرتهم سواء ناصرنا بعضهم على بعض أو ناصرناهم على أحد من المسلمين، فكل ذلك حرام، لكن الثاني أشد وأعظم. أما محبتنا أن ينتصر بعضهم على بعض فإن هذا لا بأس به إذا كان هذا المنتصر أهون على المسلمين من الآخر ولهذا قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ

---

(١) من الآية ١١١ من سورة يوسف.

(٢) رواه أبوداود (٤/٣١٤) رقم (٤٠٣١) والإمام أحمد في المسند (٢/٥٠)، وأورده السيوطي في الجامع الصغير (٢/٥٢٢) ورمز له بإشارة الحسن.

﴿يَفْرَحُ الْـمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ﴾[1] يعني بنصر الله الروم على الفرس، ومن المعلوم أنهم لم يفرحوا بذلك إلا لأنهم يحبونه، لأن الإنسان لا يفرح بشيء إلا وهو محبوب إليه. فلا حرج علينا إذا أحببنا أن ينتصر بعض الكفار على بعض، لكونهم أهون من الآخرين، وأقل خطراً على الإسلام والمسلمين، لكن الجميع يجب علينا أن نتبرأ منهم، وأن نعاديهم، وألا يكون بيننا وبينهم ولاء، قال الله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾**[2] وقال تعالى: **﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾**[3].

وفي قوله: **﴿غيرِ المغضوبِ عَلَيْهِمْ ولا الضَّالين﴾** دليل على أن كلتا الطريقتين سيئة يجب البعد عنها، والتنزه منها، لا الاستكبار للحق مع العلم به، ولا الجهل بالحق، ويتفرع على هذه الفائدة أنه

---

(١) الآيات (١ ـ ٥) من سورة الروم.

(٢) الآية ٧٣ من سورة الأنفال.

(٣) الآيتان ٥١ و٥٢ من سورة المائدة.

ينبغي للإنسان أن يتعلم حتى لا يكون من الضالين، وأن يتعبد حتى لا يكون من المغضوب عليهم. وطلب العلم قد يكون فرضاً على الأعيان، وقد يكون فرضاً على الكفاية، وقد يكون مستحباً، فهو فرض على الأعيان في كل ما يتوقف عليه العلم بالعبادة التي يتعبد بها الإنسان، فالطهور والصلاة يجب على الإنسان أن يتعلم منهما ما يحصل به الواجب.

وكذلك الأمر في الصيام، وكذلك في الحج وكذلك في الزكاة، وأما فرض الكفاية فهو ما لا يتعين على الإنسان العمل به، فتعلمه فرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط عن الباقين، وأما القسم الثالث وهو السنة، فهو ما يكون فرض كفاية إذا قام به من يكفي فإنه يكون سنة في حق الباقين، وإنني بهذه المناسبة أحث إخواني ـ ولا سيما الشباب منهم ـ على أن يحرصوا على العلم الشرعي، لأن الناس الآن في حاجة ماسة بل في ضرورة إليه؛ لكثرة الجهل، الجهل البسيط والجهل المركب، لأن كثيراً من الناس لا علم عندهم. وكثير من الناس عندهم علم، ولكن ليس عندهم فهم، وإني أضرب مثلاً لذلك بما سمعته من أن بعض الناس قال: الأفضل أن يتوضأ الإنسان إذا كان عنده ماءان في أيام الشتاء، ماء دافىء وماء بارد أن يتوضأ بالماء البارد، وكلما كان أبرد كان أفضل، يقول ذلك لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبر أن مما يرفع الله به الدرجات ويكفر به

الخطايا إسباغ الوضوء على المكاره[1]، قال: فينبغي أن يختار الأبرد، لأنه أكره إلى الإنسان. وهذا جهل عظيم، وفهم قاصر، والرسول عليه الصلاة والسلام لم يقل: الوضوء بالماء البارد أو إسباغ الوضوء بالماء البارد، لكن قال: إسباغ الوضوء على المكاره. يعني أن الإنسان لا يمنعه كراهة استعمال الماء عن إسباغ الوضوء، بل يسبغ الوضوء مع كراهة استعمال الماء لشدة برودته، ولا يريد الرسول عليه الصلاة والسلام، من أمته أن يعجز الإنسان عن الماء الدافىء المناسب لطبيعته إلى الماء البارد الذي قد يفوته الإسباغ. والمعروف من قاعدة الشريعة العظيمة أن كل ما كان أيسر فهو أقرب، قال الله تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ**﴾[2] وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إن الدين يسر ولن يشادَّ الدِّينَ أحدٌ إلا غَلَبَهُ**..»[3].

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبعث أصحابه ويقول: «**يسِّروا ولا تُعَسِّروا وبشِّروا ولا تُنَفِّروا**»[4] وكان عليه الصلاة والسلام لا يخيَّرُ بين شيئين إلا اختار أيسرها ما لم يكن إثماً[5]

---

(1) انظر صحيح مسلم (١/ ٢١٩).

(2) من الآية ١٨٥ من سورة البقرة.

(3) رواه: البخاري (١/١٢٦) رقم (٣٩) والنسائي (٨/٤٩٦ ـ ٤٩٨) رقم (٥٠٤٩).

(4) انظر فتح الباري (٨/٧٥) حديث رقم (٤٣٤١)، وصحيح مسلم (٣/١٥٨٧) حديث رقم (١٧٣٣).

(5) انظر فتح الباري (١٠/٦٤٣) حديث رقم (٦١٢٦) وصحيح مسلم =

ولا شك أن الأيسر للإنسان إذا كان عنده ماء دافىء وماء بارد أن يتوضأ بالماء الساخن، ووضوؤه بالماء الساخن ليس إثماً. إذن فالرسول عليه الصلاة والسلام لو خُيِّر بين هذا وهذا لاختار الدافىء، وعلى هذا يكون القول بأن يختار الماء البارد قولاً بلا علم، وإن شئت قل: قولاً بلا فهم، لذا فإنني أحث إخواني ـ ولا سيما الشباب ـ على العلم والفهم والتأني في الأمور، وعدم التسرع في الحكم على الشيء حتى يتقن ذلك إتقاناً بيِّناً، لأن المقام خطير، والكلمة الخطأ قد يصعب انتشال الناس منها فيما بعد.

وفي قوله تعالى: ﴿غير المغضوب عليهم وَلَا الضَّالين﴾ دليلٌ على أن من علم الحق ولم يتبعه أسوأ حالاً ممن جهله، لأن الأول فعله عقوبته الغضب، حيث قال: ﴿غيرِ المغضوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

ويتفرع على هذا التحذير عدم عمل العالم بما علم، لأن العالم إذا علم قامت عليه الحجة، وليس المراد هنا بالعالم من كان علمه واسعاً، بل المراد كل من علم بمسألة من مسائل الدين فهو عالم بها حتى وإن كان وصفه عامياً، فكل من علم حكماً من أحكام الدين فإن عليه أن يطبقه، وإن لم يفعل كان مستحقاً لغضب الله -عز وجلَّ- غضباً بحسب ما خالف به أمر الله.

= (٤/١٨١٣) حديث رقم (٢٣٢٧).

والله تعالى قال: ﴿غير المغضوب عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقل: «غير من غضبت عليهم» كما قال في القسم الأول: ﴿صراطَ الَّذينَ أنعمتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا دليل على أن من غضب الله عليه فإنه يغضب عليه كل ولي لله، ويتفرع على ذلك أنه يجب علينا نحن المسلمين أن نغضب على كل من غضب الله عليه، وأن نعلم بأن كل من كان حرباً لله فهو حربٌ لنا، وأن كل من كان عدواً لله فهو عدو لنا كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوّاً للهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَمِيْكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾[1].

وفي قولـه تعالى: ﴿غير المغضوبِ عَلَيْهِمْ﴾ دليلٌ على مهانة هؤلاء وخستهم وغلوهم، ولهـذا ذكروا بوصف اسم المفعول، ولم يعطوا حق اسم الفاعل، لأنهم مغضوب عليهم مهانون مطرودون مبغضون.

وفي قوله: ﴿غير المغضوبِ عليهم﴾ دليلٌ ـ أيضاً ـ على إثبات الغضب لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وهو من صفاته الثابتة له في كتابه، وأجمع عليهـا السلف. قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ من ذَلِكَ مَثُوبَـةً عِندَ اللهِ مَن لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَـازِيـرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً

---

(١) الآية ٩٨ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٦٠ من سورة المائدة.

مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدَاً فِيهَا وَغَضِبَ ا للهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾[١] والغضب صفة من صفات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تدل على كمال سلطانه وقدرته، وتستلزم عقوبة المغضوب عليهم، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[٢] ولا يصح تفسير الغضب بالانتقام ولا بإرادة الانتقام، لأن الغضب شيء ينشأ عنه إرادة الانتقام ثم الانتقام. ولهذا قال ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أي أغضبونا، ثم قال: ﴿انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿ولا الضالين﴾ إشارة إلى أن الضلال صفة ممقوتة، لأن المؤمن يسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يعصمه من طريق الضالين، فيتفرع على ذلك أن العلم صفة كمال، وهو كذلك، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[٤].

ولكن ما هو العلم الذي يستحق المرء الثناء عليه؟ إن العلم الذي يستحق المرء الثناء عليه هو العلم بشريعة الله، العلم بأسماء الله وصفاته، العلم بأفعال الله، لأن ذلك هو الذي يحقق العبادة

---

(١) الآية ٩٣ من سورة النساء.

(٢) من الآية ٥٥ من سورة الزخرف.

(٣) من الآية ٥٥ من سورة الزخرف.

(٤) من الآية ٩ من سورة الزمر.

التي خلق من أجلها الإنس والجن، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونَ﴾[1] وأما العلم بالصناعة، والأمور السفلية الأرضية فهذا لا يحمد ولا يذم على الإطلاق، بل إنْ أدى إلى خير ونفع كان محموداً، وإن أدى إلى شر وضرر كان مذموماً، وإن لم يؤد إلى هذا ولا إلى هذا، كان لا هذا ولا هذا، لا يحمد ولا يذم إلا أن يفوت به ما هو أنفع وأصلح فإنه قد يذم على ذلك، وفي قوله: ﴿ولا الضَّالين﴾ ـ دون أن يعلق الغضب على ضلالهم ـ دليلٌ على أن الضالَّ لا يستحق العقوبة، أي أن الإنسان إذا كان جاهلاً بالشيء لا يستحق العقوبة عليه وهو كذلك، لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَسِيْنَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[2] لكن إن كان مفرطاً بترك التعلم فقد يؤاخذ على تفريطه لا على جهله، لأن الإنسان يجب عليه أن يتعلم من أحكام دينه ما يحتاج إليه. وقد اختلف العلماء في الرجل يترك المأمور جهلاً به هل يؤمر بقضائه أم لا يؤمر بقضائه؟ فمنهم من قال: إنه يؤمر بالقضاء، لأن الواجب لا يسقط بالجهل، ومنهم من قال: إنه لا يؤمر بالقضاء، لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يأمر المسيء في صلاته بقضاء ما كان قد فعله من قبل، وكان هذا الرجل يصلي ولا يطمئن فجاء ذات يوم

---

(١) الآية ٥٦ من سورة الذاريات.

(٢) من الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.

فصلى والنبي - صلى الله عليه وسلم - ينظر إليه فلما سلم على النبي - صلى الله عليه وسلم - قال له: **«ارجع فصلِّ فإنك لم تُصَلِّ»** فرجع يصلي كما صلَّى ثم جاء فسلَّم على النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: **«ارجع فصلِّ فإنك لم تصلِّ» (ثلاثاً) فقال: والذي بعثك بالحقِّ ما أُحسِنُ غيره، فعلِّمني: فقال: «إذا قمت إلى الصلاة فكبِّر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً، ثم ارفع حتى تعدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، وافعل ذلك في صلاتك كلها»**[1] فلم يأمره النبي - صلى الله عليه وسلم - بإعادة ما سبق من الصلاة مع أنه كان لا يصلي على وجه مجزٍ، وكذلك المرأة المستحاضة التي كانت تستحاض فلاتصلي لم يأمرها النبي - صلى الله عليه وسلم - بإعادة الصلاة[2]، قالوا: فهذا دليل على أن الجاهل لا يؤمر بقضاء ما تركه جهلاً، ومن الأدلة على هذا حديث عمار بن ياسر: **«بعثني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في حاجة فأجنبتُ[3] فلم أجد الماء**

---

(١) رواه: البخاري (٢/٣٠١) رقم (٧٥٧)، ومسلم (١/٢٩٨) رقم (٣٩٧)، وأبوداود (٥/٥٣٤ - ٥٣٥) رقم (٨٥٦)، والترمذي (٢/١٠٣ - ١٠٤) رقم (٣٠٣) وقال: «حسن صحيح» والنسائي (٢/٤٦١) رقم (٨٨٣)، وابن ماجة (١/٣٣٦ - ٣٣٧) رقم (١٠٦٠).

(٢) انظر فتح الباري (١/٤٤٠) وصحيح مسلم (١/٢٦٢ - ٢٦٣).

(٣) أي أصابته جنابة.

فتمرغت في الصعيد كما تمرَّغُ الدابة ثم أتيت النبي - صلى الله عليه وسلم - فذكرت ذلك له فقال: «**إنما يكفيك أن تقول بيديك هكذا» ثم ضرب بيديه الأرض ضربة واحدة ثم مسح الشمال على اليمين وظاهر كفيه ووجهه**»[1] فلم يأمره النبي - صلى الله عليه وسلم - بقضاء ما صلاه بذلك التيمم الذي لم يكن على وفق الشرع، وهذا القول - بلا شك - موافق لعموم قاعدة الشريعة، وهو اليسر وعدم العسر، لأن الإنسان لو أخلَّ بواجب لسنوات كثيرة ثم قلنا: إنه يجب عليك قضاء ما فات لكان في هذا صعوبة، وربما يكون فيه تنفير، وربما يكره أن يقوم بالعبادة من أجل هذه المشقة.

نعم لو فرض أن الإنسان بلغه شيء من العلم ولكنه تهاون وسكت وقال كما يقول البطالون ﴿**لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾[2] فهذا قد يلزمه بقضاء ما فات من أجل تفريطه وتهاونه في الأمر، ولكل مقام مقال، والذي ينبغي في هذه المسألة ألا يُفتى فيها بوجه عام لكل الناس، بل تكون الفتوى فيها حسب حال كل قضية بعينها، وبإمكان الإنسان أن يعرف مَنْ المفرط من غيره.

وفي هذه السورة العظيمة - التي سماها الرسول صلى الله عليه

---

(١) رواه: البخاري (١/ ٦٠٠) رقم (٣٤٧) ومسلم (١/ ٢٨٠) رقم (٣٦٨)، وأبوداود (١/ ٢٢٧ - ٢٢٨) رقم (٣٢١)، والنسائي (١/ ١٨٦) رقم (٣١٩).

(٢) من الآية ١٠١ من سورة المائدة.

وسلم أم الكتاب وأم القرآن ـ دليلٌ على مضمون ما جاء به القرآن، فهي أم وفاتحة، لأنها تشتمل على أنواع التوحيد، وتشتمل على الإشارة إلى الشرائع، وتشتمل على الإشارة إلى الرسل والملائكة وعلى اليوم الآخر، وعلى أقسام الناس، فكل معاني القرآن تتضمنها هذه السورة، بالإشارة والدلالة التضمنية والالتزامية، ففيها من توحيد الألوهية قوله تعالى: ﴿الحمدُ للهِ ربِّ العالمين﴾ فإن الله هو ذو الألوهية على خلقه أجمعين، وفيها من توحيد الربوبية قوله: ﴿ربِّ العالمين﴾، والربوبية تكون عامة وتكون خاصة، وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾[1].

فربوبية الله تعالى لموسى وهارون وأمثالهما من الرسل ليست كربوبيته لفرعون وهامان وقارون، لأن ربوبيته لموسى وهارون وأمثالهما من الرسل ربوبية خاصة بها عناية وتوفيق لأمر لم يوفق له أكثر الخلق. أما الأسماء والصفات ففيها الألوهية والرحمة والوصف بالحمد والثناء كل هذا من أجل كمال صفات الله ـ عزَّ وجل ـ، أما اليوم الآخر ففي قوله: ﴿مالك يوم الدين﴾ وأما العبادة والاستعانة ففي قوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

وهي تشمل جميع الشريعة: من أقوال وأفعال واعتقادات إما

---

(١) الآيتان ١٢١ و١٢٢ من سورة الأعراف.

شيء يطلب إيجاده وإما شيء يطلب اجتنابه، وكلها داخلة ضمن قوله: ﴿**إيَّاكَ نعبدُ وإيَّاكَ نَسْتعين**﴾ إذ لا يمكن للإنسان أن يدع شيئاً إلا بمعونة الله، ولا يقوم بشيء إلا بمعونة الله، وأما الإيمان بالملائكة فإنه يؤخذ من قوله: ﴿**صراطَ الَّذينَ أنعمتَ عليهم**﴾ لأن الذين أنعم الله عليهم هم الرسل، والوساطة بين الله وبين رسله هو جبريل عليه الصلاة والسلام، لأنه موكل بالوحي، ثم إن صراط - هؤلاء الذين أنعم الله عليهم - متضمن للإيمان بالملائكة، وأما الإيمان بالقدر فيؤخذ من قوله: ﴿**رب العالمين**﴾ لأن مقتضى الربوبية أن يكون كل شيء بتقديره وقضائه وقدره، وأما أقسام الناس فيما أوحى الله إلى رسله فقد تضمنها قوله: ﴿**صراطَ الَّذينَ أنعمتَ عَلَيْهِمْ غيرِ المغضوبِ عَلَيْهِمْ ولاَ الضَّالين**﴾.

فالمهم أن من تدبر هذه السورة وجدها كما وصفها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أم القرآن وفاتحة الكتاب، ولهذا أوجب الله تعالى على لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - قراءتها على كل مصلٍّ، فقال عليه الصلاة والسلام في حديث عبادة بن الصامت الثابت في الصحيحين: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**»[1] وفي

---

(١) رواه: البخاري (٢/ ٣٠١) رقم (٧٥٦)، ومسلم (١/ ٢٩٥) رقم (٩٤)، وأبوداود (١/ ٥١٤) رقم (٨٢٢)، والترمذي (٢/ ٢٥) رقم (٢٤٧) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٢/ ٤٧٤) رقم (٩٠٩)، وابن ماجة (١/ ٢٧٣) رقم (٨٣٧).

حديث أبي هريرة قال عليه الصلاة والسلام: «**كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج فهي خداج فهي خداج**»[1] يعني فاسدة، وهذا يدل على أهمية هذه السورة، ولكن هناك شيء ينبغي التنبه له، وهو أن بعض الناس يستفتح بها كل شيء، ويجعلها السورة التي يتبرَّك بها في كل مناسبة، وهذا شيء من البدع، لأنه لم يعلم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يستفتح الأمور بها، وإنما كان يبتدىء بها في قراءة الصلاة، نعم هي رقية إذا قرىء بها على المريض بإخلاص فإنه ينتفع بها بإذن الله، والله الموفق.

(١) رواه مسلم (١/٢٩٧) رقم (٣٩٥)، وأبوداود (١/٥١٢ - ٥١٤) رقم (٨٢١)، والترمذي (٥/١٨٤ - ١٨٥) رقم (٢٩٥٣)، والنسائي (٢/٤٧٣ - ٤٧٤)، وابن ماجة (١/٢٧٣) رقم (٨٣٨).



(٢) سورة البقرة

قال تعالى في أول سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيْهِ هُدَىً لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالغيبِ وَيُقِيْمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

في هذه الآيات يقول ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿ذَلِكَ الكِتَابُ﴾ وهو القرآن الكريم، وأشار الله ـ سبحانه وتعالى ـ إليه بإشارة البعيد لعلو مرتبته، وعظيم منزلته، فإنه كلام الله ـ عز وجل ـ الذي أنزله على رسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وقد وصفه الله تعالى في القرآن بأوصاف عظيمة بالغة، وسمَّاه الله كتاباً، لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب في الصحف التي بأيدينا.

وقوله: ﴿لا رَيْبَ﴾ أي ليس فيه ريب ولا شك؛ لأنه حق نازل من عند الله. وفي قوله: ﴿هُدَىً لِلمُتَّقِينَ﴾ أي الذين اتقوا عذاب الله ـ عز وجل ـ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالغَيْبِ﴾ أي الذين يؤمنون بما غاب عنهم، لإخبار الله تعالى به ورسوله. ﴿وَيُقِيمونَ الصَّلاةَ﴾ أي يأتون بها قائمة مستقيمة على وفق الشريعة، وينفقون مما رزقهم الله من الزكوات الواجبة، والصدقات المستحبة، والنفقات اللازمة.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي من الكتب المنزلة على الرسل مثل التوراة والإنجيل والزبور ﴿وبالآخرةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ إيقاناً كاملاً لا مرية فيه.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدَىً مِنْ رَبِّهِم﴾ أي على صراط مستقيم، وعلم نافع. ﴿وأُولَئِكَ هُمُ المفْلِحُون﴾ أي الذين اهتدوا بهداية الله -عز وجل- واتبعوا ما أنزل الله، فأصبح مآلهم هو الفلاح، والفلاح هو حصول المطلوب والنجاة من المرهوب.

فوائد وأحكام هذه الآيات الكريمة:

- في هذه الآيات إشارة إلى الصنف الأول والأعلى من أصناف بني آدم نحو هذا الكتاب العزيز، فإن الناس انقسموا في هذا الكتاب العزيز إلى ثلاثة أقسام: قسم آمنوا به ظاهراً وباطناً، وقسم آمنوا به ظاهراً وكفروا به باطناً، وقسم كفروا به ظاهراً وباطناً، فبدأ الله تعالى بالذين آمنوا به ظاهراً وباطناً، ثم ثَنَّى بالذين كفروا به باطناً وظاهراً، ثم ثَلَّثَ بالذين آمنوا به ظاهراً وكفروا به باطناً، وهذا التقسيم من أحسن التقاسيم وأجملها وأوضحها، فبدأ بالأعلى ثم بما يقابله تماماً، ثم بما هو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وأَخَّرَ الكلام عليهم لطوله، ولبيان أوصافهم حتى يحترز منهم. ففي قوله تعالى: ﴿الم﴾ إشارة إلى أن هذا القرآن العظيم الذي أعجز أمراء الفصاحة والبلاغة لم يكن بأحرف خارجة عن الأحرف التي كانوا يتحدثون بها، ومع ذلك أعجزهم فعجزوا بالقرآن، بمثله كله، قال تعالى:

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيْثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾[1] وهذا يشمل ما يكون به الإعجاز، وقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بسورةٍ مِثْله﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْله﴾ [3] وقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بعشرِ سورٍ مِثْله مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [4]،وقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِن اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يأتونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهِيرَاً﴾ [5]هذا القرآن الذي أعجزكم أيها البلغاء والفصحاء لم يأتِ بحروف جديدة حتى تقولوا ليست هذه الحروف معلومة لنا فلا نستطيع، هذا هو الأصح في الحكمة من ذكر الحروف الهجائية في أوائل بعض السور. أما الحروف نفسها فليس لها معنى، لأن الله تعالى أنزل هذا القرآن بلسان عربي مبين. وهذه الحروف الهجائية ليس لها معنى في اللغة العربية.

- وفي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الكِتَابُ﴾ دليل على علو مرتبة القرآن، وهو كذلك، لأن القرآن كلام الله -عزوجل- الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو أعلى الكلام في الفصاحة

---

(1) الآية ٣٤ من سورة الطور.

(2) من الآية ٣٨ من سورة يونس.

(3) من الآية ٢٣ من سورة البقرة.

(4) من الآية ١٣ من سورة هود.

(5) الآية ٨٨ من سورة الإسراء.

والبلاغة وما يحتوي عليه من العلوم النافعة. وفي قوله: ﴿الكِتَاب﴾ دليلٌ على أن هذا القرآن مكتوب وهو كذلك، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[1] وقال الله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[2] وهو كذلك مكتوب في الصحف التي بأيدينا.

- وفي قوله: ﴿ذَلِكَ الكِتَاب﴾ «الـ» دليل على أن هذا الكتاب معروف معهود، وهو كذلك، فإن كتاب الله -عز وجل- كان معروفاً معهوداً بين الصحابة، لم يفتقد منه شيء، وقد ذكر أهل العلم أن من أنكر حرفاً واحداً اتفق القرَّاء على إثباته فهو كافر.

وأما اختلاف القراءات السبع فإن هذا مما ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام، لأن هذه القراءات السبع كلها حق تجوز القراءة بها.

- وفي قوله تعالى: ﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ دليلٌ على أن الاهتداء بالقرآن مربوط بالتقوى.

فكلما كان الإنسان أتقى لله كان أهدى بكتاب الله.

وفي قوله: ﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ دليلٌ على أن غير المتقي لا

---

(١) الآيتان ٢١ و٢٢ من سورة البروج.

(٢) الآيات (١٢ - ١٦) من سورة عبس.

يهدى بالقرآن وهو كذلك، ولهذا قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2] فأخبر الله تعالى أن هذا تتلى عليه آيات الله ولم ينتفع بها ولم تصل إلى قلبه، بل يقول: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني مثل الحكايات التي تُحكى عن الأولين، ويُتحدَّثُ بها، لماذا؟ لأنه ران على قلبه ما كان يكسبه من الآثام، فلم ينتفع بالقرآن وكلما كان الإنسان أتقى لله كان أهدى بكتاب الله، ويدل على ذلك آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾[3] وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[4] وكلما نقص الإنسان من التقوى نقص من اهتدائه بكتاب الله بقدر ما نقص من تقواه.

قال الله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ هنا بيَّن الله تعالى

---

(١) الآيات (٧ ـ ٩) من سورة المطففين.

(٢) الآيات (١٠ ـ ١٤) من سورة المطففين.

(٣) من الآية ٧٦ من سورة مريم.

(٤) من الآية ١٢٤ من سورة التوبة.

أوصاف هؤلاء المتقين، فوصفهم سبحانه بأنهم يؤمنون بالغيب، أي بما غاب عنهم مما أخبر الله به ورسله، لأنهم يصدقون بما أخبر الله به ورسله أكثر مما يصدقون بما شاهدوه بأعينهم أو سمعوه بآذانهم، وأمور الغيب التي أخبر الله بها ورسله كثيرة معروفة في كتاب الله وفي سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومن أوصافهم أنهم يقيمون الصلاة أي يأتون بها قائمة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها، ويتممون ذلك بمتمماتها من المستحبات، ومن أوصافهم - أيضاً - أنهم ينفقون مما رزقهم الله -عز وجل- على حسب ما تقتضيه الشريعة إنفاقاً دائراً بين الإفراط والتفريط كما قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً**﴾(1).

وفي قوله: ﴿**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ بيَّن الله ما لهم وهو حصول المطلوب، والنجاة من المرهوب.

فوائد هذه الآيات الكريمات:

- أن الإيمان بالغيب من تقوى الله -عز وجل-، وهو أساس التقوى، لأن ضدَّ الإيمان الشك والتكذيب، فإن الناس فيما أخبر الله به ورسله ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: قسم يؤمنون بذلك ويوقنون به، وقسم ينكرون ذلك ويجحدونه، وقسم يترددون فيه

---

(1) الآية ٦٧ من سورة الفرقان.

ويشكون فيه، والناجي من هذه الأقسام هو القسم الأول، الذين يؤمنون به ويصدقون به.

- ومن فوائدها أن الإيمان بالشيء المشاهد لا يجدي ولا ينفع، لأنه إيمان يقتضيه الواقع، فلا يمدح الإنسان عليه، فالإنسان الذي يقول: أنا أؤمن بالشمس، وأؤمن بالقمر، وأؤمن بالنجوم لا نمدحه على ما يؤمن به من هذه الأشياء المحسوسة، وإنما يمدح الإنسان على ما يؤمن به من الأشياء الغائبة، ولهذا لا ينفع الإنسان الإيمان إذا شاهد الأمر عياناً كما قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**فَلَمَّا رَأَوا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بالله وحْدَه وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِين فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُونَ**﴾[1] وقال الله تعالى في فرعون لما أدركه الغرق: ﴿**قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وأَنَا مِنَ المُسْلِمِين الآنَ وَقَدْ عَصَيتَ قبل وَكُنْتَ مِنَ المفسِدِينَ**﴾[2].

- ومن فوائدها فضيلة إقامة الصلاة، وأن ذلك من تقوى اللهِ - عز وجل -، والصلاة هنا شاملة لصلاة الفريضة وصلاة النافلة.

- ومن فوائدها أن الصلاة قد يفعلها الإنسان على غير وجه

---

(١) الآيتان ٨٤ و ٨٥ من سورة غافر.

(٢) من الآية ٩٠ ومن الآية ٩١ من سورة يونس.

الإقامة لها مثل أن يفعلها غير تامة، أو يفعلها ناقصة من الأركان، أو من الواجبات. فمن النقص في الأركان الذي يتهاون فيه الكثير من الناس عدم الطمأنينة، فإن بعض الناس يتهاون في الطمأنينة ولا يطمئن لا سيما في القيام بعد الركوع، وفي الجلوس بين السجدتين، ومن المعلوم أن الطمأنينة في هذين الركنين وفي غيرهما من أركان الصلاة، وأن الصلاة لا تصح بدون الطمأنينة فيهما وفي غيرهما من الأركان، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ : **«أنَّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم دخلَ المسجدَ، فدخلَ رجلٌ فصلَّى فسلَّمَ على النبي ـ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فردَّ وقال: ارجع فصلِّ فإنَّكَ لم تصلِّ فرَجَعَ يصلي كما صلَّى ثم جاءَ فسلَّمَ على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: ارجعْ فصلِّ فإنَّكَ لم تُصلِّ (ثلاثاً) فقال: والذي بَعَثَكَ بالحقِّ ما أُحْسِنُ غيرَهُ، فعلِّمني، فقال: «إذا قمتَ إلى الصلاة فكبِّرْ ثُمَّ اقرأ ما تيسر مَعَكَ من القرآن، ثم اركع حتى تطمئنَّ راكِعاً، ثم ارفع حتى تَعْتدِلَ قائِماً، ثم اسجُدْ حتى تطمئِنَّ ساجِداً، ثم ارفعْ حتى تطمئِنَّ جالساً، وافعل ذَلِكَ في صلاتِكَ كُلِّها»**[1] وإنما أمره الرسول ـ صلى

(١) سبق تخريجه ص ٤٧ .

الله عليه وسلم ـ أن يعيد الصلاة مرة بعد أخرى من أجل أن يشتد توقانه إلى معرفة الصلاة وأحكامها حتى يتلقى ذلك بنفس مُشْرَئِبَّة متطلعة إلى معرفة الحكم، فيكون ذلك أرسخ في قلبه. وفي رواية للحديث: «**إذا قمتَ إلى الصلاةِ فأسْبغ الوضوءَ ثُمَّ استقبل القبلة فَكَبِّر**»(١) وإنما قال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء**» مع أنه لم يشاهده ـ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يتوضأ، لأن من جهل هذه الأركان في صلاته قد يكون جاهلاً للوضوء، فأرشده النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ما ينبغي أن يقوم به من إسباغ الوضوء. المهم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمرنا أن نطمئن في هذه الأركان، وهو دليل على أن الصلاة لا تصح دون الطمأنينة فيها، فالكثير من الناس يضيع الطمأنينة في هذه الأركان، فيكون غير مقيم للصلاة، ومن إقامة الصلاة صلاتها في المساجد مع الجماعة، لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**لقد هممتُ أنْ آمر رجلاً يصلِّي بالناس. ثم أُخالفُ إلى رجالٍ يتخلَّفون عنها فآمر بهم فيحرِّقُوا عليهم بحُزَم الحطب بيوتهم**»(٢) وعن أبي هريرة قال: «**أتى رجلٌ أعمى فقال: يا رسولَ الله إنه ليس**

---

(١) انظر صحيح مسلم (١/٢٩٨).

(٢) رواه: البخاري (٢/١٦٠) رقم (٦٤٤)، ومسلم (١/٤٥١) رقم (٦٥١)، والنسائي (٢/٤٤٢ ـ ٤٤٣) رقم (٨٤٧)، و ابن ماجة (١/٢٥٩) رقم (٧٩١)، ومالك في الموطأ (١/١٢٩) وغيرهم.

لي قائدٌ يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ **أَنْ يُرَخِّصَ له فيصلي في بيته فَرَخَّصَ له، فلما ولَّى دعاهُ فقال**: «**هل تسمعُ النداء بالصلاة؟ فقالَ: نَعَمْ. قال**: **فَأَجِبْ**»[1] فمن لم يأت بصلاة الجماعة مع قدرته عليها وعدم وجود عذر شرعي في تركها فإنه غير مقيم للصلاة، فلا يكون داخلاً في هذه الأوصاف الحميدة الجليلة.

أما النساء فلا تجب عليهن صلاة الجماعة في المساجد، لأن الرجال هم المخاطبون بالاجتماع إليها. أما النساء فقد قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «.. **وبيوتهن خير لهن**»[2] ولكن المرأة مأمورة بأن تحضر صلاة العيد؛ لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر أن يخرج إليها النساء حتى الحُيَّض وذوات الخدور إلا أنه أمر الحُيَّض أن يعتزلن المصلى[3]، لأن مصلى العيد مسجد تثبت له أحكام المسجد كلها.

ومن إقامة الصلاة المحافظة عليها في أوقاتها، بل هذا من أهم إقامتها، وأوقات الصلوات معروفة ـ ولله الحمد ـ وهي خمسة،

---

(1) رواه مسلم (١/٤٥٢) رقم (٦٥٣)، والنسائي (٢/٤٤٤ ـ ٤٤٥) رقم (٨٤٩).

(2) رواه أبوداود (١/٣٨٢) رقم (٥٦٧)، وانظر الترغيب والترهيب للمنذري (١/٢٢٦).

(3) انظر: فتح الباري (١/٦١٥) حديث رقم (٣٥١)، وصحيح مسلم (٢/٦٠٥ ـ ٦٠٦) حديث رقم (٨٩٠).

فالفجـر من طلوع الفجـر إلى طلوع الشمس، والظهر من زوال الشمس أي ميلها إلى جهة المغرب حتى يصير ظل كل شيء مثله بعد فيء الزوال، والعصر من ذلك الوقت أي من صيرورة ظل كل شيء مثله إلى أن تصفرَّ الشمس، هذا وقت الاختيار، والضرورة إلى غروب الشمس، أما صلاة المغرب فوقتها من غروب الشمس إلى مغيب الشفق الأحمـر، والعشـاء من مغيب الشفق الأحمر إلى نصف الليل. وطلوع الفجـر إلى طلوع الشمس يمكن إدراكـه بالمشاهدة، وزوال الشمس إلى أن يصير ظل كل شيء مثله يمكن أن يعرف بوضع عصا أو نحو ذلك قائمة في الشمس، وينظر لظلها فما دام الظل ينقص فالشمس لم تَزُلْ، فإذا بدأ الظل يزيد ولو يسيراً جداً فقد زالت الشمس، وحينئذٍ اضبط مكان الزيادة، فإذا صار من مكان الزيادة إلى منتهى ظلها طولها فقد خرج وقت الظهر ودخل وقت العصر، أمـا انتهاء وقت العصر فهو معلوم بالمشاهدة، وهو اصفـرار الشمس، أي أن تكـون الشمس صفراء، ومن اصفرار الشمس إلى الغـروب أيضـاً معلوم بالمشاهدة. أما صلاة المغرب فوقتها من الغروب إلى مغيب الشفق الأحمر، وهو معلوم بالمشاهدة أيضاً وتقريبه في الساعة ما بين ساعة وربع أو سبع عشرة دقيقة من الغروب إلى ساعة ونصف ساعة أو ساعة واثنتين وثلاثين دقيقة بعد الغروب، لأن طول مدة وقت المغرب يختلف باختلاف الفصول، ومن بعد ذلك يدخل وقت العشاء مباشرة إلى نصف الليل، وبيان

ذلك أن تَنْصِف ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر، فالنصف هو منتهى وقت صلاة العشاء.

ولا يجوز للإنسان أن يؤخر الصلاة عن وقتها المحدد لها شرعاً إلا لعذر يبيح الجمع، فيجوز أن يؤخر الصلاة الأولى التي تجمع لما بعدها إلى دخول وقت الثانية، لأن السبب المبيح للجمع يجعل وقت الصلاتين وقتاً واحداً، فمن أَخَّر الصلاة عن وقتها، وصلاها بعد الوقت بدون عذر شرعي، فإن صلاته مرفوضة لا تقبل لقول الله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**﴾[1] وقوله في آية أخرى: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[2] والظالم لا يقبل منه عمل، لأنه ظلم، والله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يحب الظالمين، ويؤيد القولَ بأن الصلاة بعد وقتها لا تصلح بدون عذر قولُهُ ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ**»[3] ومن المعلوم أن من أَخَّر الصلاة عن وقتها بدون عذر فقد عمل عملاً ليس عليه أمر الله ورسوله، فيكون مردوداً غير مقبول.

---

(١) من الآية ١ من سورة الطلاق.

(٢) من الآية ٢٢٩ من سورة البقرة.

(٣) رواه: البخاري (٥/٣٧٧) رقم (٢٦٩٧)، ومسلم (٣/١٣٤٣ ـ ١٣٤٤) رقم (١٧١٨) واللفظ له، وأبوداود (٥/١٢) رقم (٤٦٠٦)، وابن ماجة (١/٧) رقم (١٤).

ـ ومن فوائدها فضيلة الصلاة، حيث نصَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على إقامتها بخصوصها، ومن المعلوم أن النص على الشيء بخصوصه يدل على عناية كاملة به، وعلى مرتبة عالية له.

ـ ومن فوائدها فضيلة الإنفاق مما رزق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لقوله تعالى: ﴿وممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ والإنفاق من المال ينقسم إلى واجب وإلى مستحب. وأوجب الواجبات الزكاة التي فرضها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على العباد، فمن قام بها وأدَّاها فإنه يدخل في هذه الآية الكريمة أول من يدخل، ويدخل في الإنفاق أيضاً الإنفاق على من يجب الإنفاق عليه: من زوجة وقريب ومملوك.

وإنني بهذه المناسبة أحذر بعض الناس الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله فيظنون أن ذلك خير لهم، وأن ذلك تنمية لأموالهم، فإن هذا ليس خيراً لهم، بل هو شر لهم كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يومَ القِيَامَةِ ولله ميراثُ السَّمواتِ والأَرْضِ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1]. أحذر هؤلاء البخلاء من أن يمنعوا الزكاة، وأحذرهم من أن يمنعوا الإنفاق على زوجاتهم، وأحذرهم من أن يمنعوا الإنفاق على من أوجب الله عليهم الإنفاق

(١) الآية: ١٨٠ من سورة آل عمران.

عليه، وأحذرهم من أن يمنعوا ما أوجب الله عليهم بذله من المال: من إطعام جائعٍ، أو كسورة عارٍ، أو غير ذلك مما ذكر أهلُ العلم وجوب الإنفاق فيه. وليعلم الإنسان أن كل نفقة ينفقها يبتغي بها وجه الله تعالى يثيبه عليها، ويأجره عليها، ولا تزيد ماله إلا نماء وبركة كما جاء في الحديث الصحيح: **«ما نقصتْ صدقةٌ من مالٍ، وما زادَ اللهُ عبداً بعفوٍ إلا عِزّاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله»**[1].

ثم قال الله ـ عز وجـل ـ: **﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**.

من فوائد وأحكام هذه الآية:

ـ أن هؤلاء المتقين المتصفين بهذه الصفات على هدى من الله وعلى بصيرة وعلى برهان بأن مآلهم الفلاح، وهو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، وهذا غاية كل إنسان، قال تعالى: **﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾**[2] نسأل الله تعالى أن نكون من الفائزين السعداء في الدنيا والآخرة.

---

(١) رواه: مسلم (٤/ ٢٠٠١) رقم (٢٥٨٨)، والترمذي (٤/ ٣٣٠) رقم (٢٠٢٩) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، ومالك في موطئه (٢/ ١٠٠٠)، والدارمي (١/ ٣٩٦).

(٢) من الآية ١٨٥ من سورة آل عمران.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذينَ كَفَرُوا سواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

يبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ حال هؤلاء الكفار المكذبين لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومآلهم، أما حالهم فقد قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿سواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أنهم لا يُؤمنون سواء أنذرتهم أم لم تنذرهم، وذلك لأن الله ختم على قلوبهم وعلى سمعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذينَ حقَّت عليهم كلمةُ ربِّكَ لا يؤمنون ولو جاءتهم كُلّ آية حتى يروا العذاب الأليم﴾[1] ولا ينافي هذا ما علم من أن بعض الناس يكون كافراً بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ثم يهديه الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى الإسلام، فيكون من أئمة المسلمين، ودعاة المسلمين، وأنصار الدين، لأن الكلام فيمن كان كافراً، وقد حقَّت عليه كلمة الله ـ عز وجل ـ، فإنه لا يمكن لأحد أن يهديه، أما من كان كافراً، ولم تحق عليه كلمة الله، وعلم الله منه أنه سيتوب ويدخل في الإسلام فإنه لا يدخل في هذه الآية. ﴿إن الَّذين كفروا سواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤمنونَ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوةٌ﴾ ختم الله على قلوبهم وعلى

---

(١) الآيتان ٩٦ و ٩٧ من سورة يونس.

سمعهم، أي جعل الله عليها الختم وهو الطبع بعد الإغلاق والاستيثاق يُختم على الشيء حتى يبقى مختوماً لا يصل إلى خير، فهؤلاء ختم الله على قلوبهم فلا يصل إليهم الإيمان، وعلى سمعهم فلا يستمعون إلى ما يتلى عليهم على وجه ينتفعون به، أما الأبصار - والعياذ بالله - فجعل الله عليها غشاوة لا يبصرون ولا ينظرون إلى آيات الله - عزَّ وجلَّ - التي تدلهم على الحق. وبيَّن الله تعالى أن لهم في الآخرة عذاباً عظيماً حيث قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

فوائد هذه الآية الكريمة:

- أنَّ مَنْ حقَّت عليه كلمة الله من الكافرين لا يمكن أن يؤمن سواء رُغِّبَ أم لم يُرَغَّب، لأنه قد طُبِعَ على قلبه، فلا يمكن وصول الهداية إليه.

- ومن فوائد هذه الآية - أيضاً - تسلية النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى لا يضيق صدره، ولا يكون في نفسه حرج، كما قال الله تعالى: **﴿فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحديثِ أَسَفاً﴾**[1]، وقال تعالى: **﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾**[2] فالنبي - صلى الله عليه وسلم - ومن ورثه من أهل العلم عليهم البلاغ والدعوة إلى الله - عزَّ وجلَّ - وبعد ذلك لا

---

(١) الآية ٦ من سورة الكهف.

(٢) الآية ٣ من سورة الشعراء.

يضرهم من ضلَّ ما داموا على الاهتداء كما قال الله تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[1].

ـ ومن فوائد الآية الكريمة أنَّه ينبغي للمؤمن الذي منَّ الله عليه بالإيمان أن يحمد الله ـ سبحانه وتعالى ـ على هذه النعمة العظيمة.

ـ ومن فوائد الآية الكريمة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد قام بإنذار هؤلاء الكافرين، ولكن هؤلاء الكافرين قد حقت عليهم كلمة العذاب فلم يجد فيهم الإنذار شيئاً.

ـ ومن فوائد الآية الكريمة أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يمن على من يشاء من عباده، فمن عباد الله من يشرح الله له صدره، وييسر له أمره، يشرح صدره للإسلام حتى يفرح به ويستبشر به، ويتسع صدره لقبوله، فيقبله، وينفذ أحكام الله ـ عزَّ وجل ـ على الوجه الذي يرضاه الله ـ سبحانه وتعالى ـ. ومن الناس من يكون على العكس من هذا، فيضيق صدره حرجاً بما سمع من آيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإِسلامِ فَهُوَ عَلَى نورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ

(١) من الآية ١٠٥ من سورة المائدة.

(٢) من الآية ٢٢ من سورة الزمر.

يهدِيَهُ يَشْرَحْ صدرَهُ للإسلام وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ في السَّماءِ كَذَلِكَ يجعلُ اللهُ الرجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾[1] فإنْ قال قائلٌ: كيف يهدي الله قوماً ويضل آخرين؟ فالجواب: أن هذا السؤال لا يرد، لأن الله تعالى له أن يفعل ما يشاء، فله أن يمن على من يشاء من عباده فيهديهم إلى صراطه المستقيم كما قالت الرسل لأقوامهم: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُم وَلَكِن اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[2] ونقول ثانياً: إن الله - سبحانه وتعالى - لا يهدي إلا من كان أهلاً للهداية ولا يضل إلا من كان أهلاً للضلالة، كما قال الله تعالى: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[3] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ واللهُ لا يهدي القومَ الفاسِقِينَ﴾[4] فلا يضل من ضلَّ إلا بسببٍ من نفسه، يكون قلبه غير مريد للحق وغير قابل له، والله تعالى يعلم من ذلك فيكتب الله له الشقاء والضلال، نسأل الله الهداية.

- ومن فوائد الآية الكريمة أنه ينبغي للإنسان أن يكون دائماً على حذر، وألا يعتمد على نفسه، وأن يخشى من الزيغ والضلال

---

(١) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.

(٢) من الآية ١١ من سورة إبراهيم.

(٣) من الآية ١٢٤ من سورة الأنعام.

(٤) من الآية ٥ من سورة الصف.

وأن يسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ دائماً الثبات على الحق، والموت عليه، وأن يحمد الله الذي منَّ عليه بالهداية، وقد أضلَّ قوماً آخرين.

ـ ومن فوائد الآية الكريمة إثبات الجزاء في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ـ ومن فوائدها إثبات حكمة الله، فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ لم يعذب هؤلاء إلا لاستحقاقهم العذاب بكفرهم بالله ـ سبحانه وتعالى ـ، وبما يجب عليهم الإيمان به.

ثم قال الله -عز وجل- : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا باللهِ وباليَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ الله والَّذِينَ آمَنُوا وما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وهذا هو القسم الثالث من الأقسام التي ابتدأ اللهُ بها هذه السورة، وهي: المؤمنون الخُلَّص والكافرون الخُلَّص، والمؤمنون بألسنتهم دون قلوبهم.

قال تعالى: ﴿ومِنَ النَّاسِ﴾ أي بعض الناس يقول آمنا بالله وباليوم الآخر، لكن يقول ذلك بلسانه، ولهذا قال: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي ما هم بمؤمنين بقلوبهم، بل هم في قلوبهم منكرون لا يعترفون بهذا ولا يقرون به والعياذ بالله. ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ والَّذِينَ آمَنُوا وما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي أنهم في عملهم

هذا وسيرتهم هذه يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم، والخداع والمكر والكيد معناها متقارب وهو الإيقاع بالخصم من غير أن يشعر. هؤلاء يتظاهرون بالإيمان ليخادعوا الله والمؤمنين فيظنون أنهم أحسنوا صنعاً، ولكنهم أساءوا صنعاً وسبيلاً، ولهذا قال الله -عز وجل-: ﴿**وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ**﴾ فهم في الحقيقة خدعوا أنفسهم ولعبوا بها وغروها واغتروا بصنعهم فلم ينفعهم هذا الخداع، لأن الحساب يوم القيامة على ما في القلوب كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ**﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿**وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ**﴾ أي أن هؤلاء المنافقين الذين ظنوا أنهم خدعوا الله والمؤمنين بما يتظاهرون به من الإيمان وهم على الكفر لا يخدعون إلا أنفسهم، لأنهم غروها واغتروا بما صنعوا، وظنوا أنهم يحسنون صنعاً، ثم قال: ﴿**وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾ أي لا يشعرون أنهم خدعوا أنفسهم، ولهذا استمروا على ما هم عليه من النفاق.

﴿**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**﴾ أي شك وريب ونفاق ﴿**فَزَادَهُمُ اللَّهُ**

---

(١) الآيات (٨ - ١٠) من سورة الطارق.

(٢) الآيات (٩ - ١١) من سورة العاديات.

مَرَضاً﴾ أي أعطاهم مرضاً أكثر من المرض الأول، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سورةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يقولُ أَيُّكُمْ زَادتْهُ هَذِهِ إيماناً فأمَّا الَّذينَ آمنُوا فَزادَتْهُم إِيَماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وأَمَّا الَّذِينَ في قلوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْسَاً إلى رِجْسِهِمْ وماتُوا وهُمْ كافِرُونَ﴾[1] فهؤلاء المنافقون لما كانت قلوبهم مرضى صاروا يزدادون مرضاً فوق مرضهم، لأنهم كلما كذبوا شيئاً وأنكروا شيئاً ازدادوا بذلك كفراً وبعداً من الله ـ عزّ وجل ـ .

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي مؤلم ﴿بِمَا كانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي بسبب كذبهم، حيث قالوا: إنهم مؤمنون، وما هم بمؤمنين.

في هذه الآيات الكريمة يبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن من الناس من ينافق، والنفاق هو إظهار الخير وإبطال الشر، وهو بالنسبة لحق الله نفاق عقدي مخرج عن الإيمان، وقد يكون نفاقاً عملياً كالرياء وبالنسبة لحق المخلوق نفاق عملي لا يُخرج من الإيمان كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «**آية المنافق ثلاثٌ: إذا حدَّثَ كذب، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ وإذا اؤْتُمِنَ خان**»[2].

فوائد وأحكام هذه الآيات:

ـ إثبات النفاق في بعض الناس لقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ

---

(1) الآيتان ١٢٤ و ١٢٥ من سورة التوبة.

(2) رواه البخاري (١/ ١٢٠) رقم (٣٣)، ومسلم (١/ ٧٨) رقم (٥٩)، والترمذي (٥/ ٢٠) رقم (٢٦٣١).

يَقُول﴾ والنفاق لم يحدث في هذه الأمة إلا بعد أن قويت، وكان لها سلطان وعزة ورفعة، ولهذا قال العلماء: إنه لم يظهر النفاق في هذه الأمة إلا بعد غزوة بدر، حيث انتصر فيها المسلمون على أعدائهم، ووجه هذا ظاهر فإن المنافق إنما ينافق خوفاً على نفسه وماله، ولا يمكن الخوف على النفس والمال إلا مع قوة المخوف منه.

ـ ومن فوائدها أن الأقوال لا تنفع إذا لم يكن القلب مطابقاً لها، فإذا قال الإنسان حق ولكن قلبه منكر فإن هذا القول لا ينفعه عند الله، بل لا يزيده من الله إلا بعداً.

ـ ومن فوائدها أن أحكام الدنيا تجرى على الظاهر، أي على ما يظهر من حال الإنسان دون الأمر الباطن الذي في قلبه، لأن الأمر الباطن لا يعلمه إلا الله ـ عزَّ وجل ـ . أما الأمر الظاهر فيعلمه كل من ظهر له، ولهذا لم يقتل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المنافقين، وقال حين استُئذن في قتلهم: «**لا يتحدث الناسُ أَنَّ محمداً يقتلُ أصحابه**»[1] ويتفرع على ذلك أننا نجري الناس في أحكام الدنيا على ظاهر حالهم، ولا نسيء الظن بأحد إذا لم تظهر لنا قرائن قوية، ومن ثم قال الفقهاء ـ رحمهم الله ـ : إنه يحرم سوء

---

(١) رواه: البخاري (٨/٨٤١) رقم (٤٩٠٧)، ومسلم (٤/١٩٩٨ ـ ١٩٩٩) رقم (٢٥٨٤)، والترمذي (٥/٣٨٩ ـ ٣٩٠) رقم (٣٣١٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

الظن بمسلم ظاهره العدالة. ومن هنا أحذر بعض الإخوة الذين يطلقـون مثـل قولهم: هذا منـافق، هذا كافر، هذا كذا. . الخ ويصفونه بأوصاف تخالف ظاهر حاله بناء على ما يظنونه في قلبه، وهذا خطأ لأنه ليس لنا أن نحكم إلا بما ظهر، قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «**إنَّكم تختصمـون إليَّ. ولَعَلَّ بعضَكُمْ أَنْ يكونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ من بَعْضٍ فأقضي له على نحوٍ مما أسمعُ منه. .**»[1] فدلَّ هذا على أنه ليس لنا أن نحكم إلا بما هو ظاهر، أما ما هو باطن فأمـره إلى الله، ولا يجوز لنـا أن نرمي عبـاد الله بما يخالف ظاهر حالهم، اللهُمَّ إلا من وُجدت قرائن قوية تبين كذبه، فهذا يحكم له بما تقتضيه الشريعة.

ـ ومن فوائدها أن المنافق ليس بمؤمن لقوله تعالى: ﴿**وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ وهو كذلك، ولكن هل يصح أن نقول: إنهم مسلمون؟ يرى بعض أهل العلم أنه يصح أن نقول عن المنافق: إنه مسلم، لأنه مسلم ظاهراً، وربما يستدلون بقوله تعالى في قصة لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿**فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَما وَجَدْنَا فِيهَا غيرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِين**﴾[2] وهذا البيت يضم زوجة لوط عليه

---

(١) رواه: البخاري (٥/٣٦١) رقم (٢٦٨٠)، ومسلم (٣/١٣٣٧) رقم (١٧١٣)، وأبـوداود (٤/١٢ ـ ١٤) رقم (٣٥٨٣)، والترمذي (٣/٦٢٤) رقم (١٣٣٩) وقـال: «حسن صحيح»، والنسـائي (٨/٦٢٥) رقم (٥٤١٦)، وابن ماجـة (٢/٧٧٧) رقم (٢٣١٧).

(٢) الآيتان ٣٥ و ٣٦ من سورة الذاريات.

الصلاة والسلام، وهي تتظاهر بالإسلام، وليست بمؤمنة، كما قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امرأةَ نوحٍ وامْرأةَ لُوطٍ كَانَتَا تحت عَبْدَين مِنْ عِبادِنَا صَالحين فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلينَ﴾[1] فسمَّى الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذا البيت بيت المسلمين، بل سمَّى من فيه مسلمين، مع أن فيه هذه الزوجة، التي ليست بمؤمنة، والمنافقون في الحقيقة مسلمون إسلاماً عملياً، لأنهم لا يخالفون في الظاهر ما كان عليه المسلمون، وإن كان ذلك يثقل عليهم، ويشق عليهم كما قال تعالى: ﴿إنَّ المُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وإذَا قامُوا إلى الصَّلاةِ قامُوا كُسَالى يُراءونَ النَّاسَ ولا يَذْكُرونَ اللهَ إلَّا قَلِيْلاً﴾[2] وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**ليس صلاةٌ أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً**»[3] وعلى كل حال فالمنافق إذا لم يظهر نفاقه ويعلنه فهو مسلم ظاهراً، وإن كان غير مؤمن.

---

(١) الآية ١٠ من سورة التحريم.

(٢) الآية ١٤٢ من سورة النساء.

(٣) رواه: البخاري (٢/ ١٧٩) رقم (٦٥٧) واللفظ له، وأبوداود (١/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦) رقم (٥٥٤)، والنسائي (٢/ ٤٣٩ ـ ٤٤٠) رقم (٨٤٢)، وابن ماجة (١/ ٢٦١) رقم (٧٩٧).

- ومن فوائـد الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ والَّـذِينَ آمنُوا وما يَخْدَعُونَ إِلَّا أنفسَهُمْ وما يَشْعُرونَ﴾ أن هؤلاء المنافقين إنما صنعوا ما صنعوا مخادعة ومكراً وكيداً، ويدل هذا على ذم الخداع والمكر والكيد، وهو كذلك، فالمكر والخداع والكيد أمور ممقوتة ومذمومة إلا إذا كان في ذلك مصلحة بحيث يكون في مقابل من يخدعك، فإنه يجوز أن تخدع من خدعك كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَـافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾(1) ولهذا نقول: إن الحرب خدعة، ويذكر أن علي بن أبي طالب لما خرج إليه عمرو بن ود ليبارزه صرخ عليٌّ فقال: إني لم أخرج لأبارز رجلين فظن عمرو أن معه آخر فالتفت فضربه علي حتى قتله، فإن هذا لا شك أنه خداع، لكنه خداع لمن يحسن خداعه، لأنه مستحق له.

- ومن فوائـدها بيان أن المنافقين من أعداء المؤمنين، ولهذا يقـول: ﴿يُخَـادِعُونَ اللهَ والَّذينَ آمنُوا﴾ كما أنهم أعداء لله - عزَّ وجلَّ -، ويترتب على هذه الفائدة الحذر من المنافقين، وأن يحترز الإنسـان من الإفضاء إليهم بالأسرار والأمور الهامة خوفاً من أن يطيحوا به، وأن يلقوه في المهلكة.

- ومن فوائـد قولـه تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إلا أنفسَهُمْ وَمَا

---

(1) من الآية ١٤٢ من سورة النساء.

يَشْعُرُونَ﴾ أن الإنسان قد يعمى عن الضلالة فيظن أن ما فعله حسن وهو سيىء، وهؤلاء هم أخسر الناس أعمالاً كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بالأخْسَرِينَ أعمالاً الَّذينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ في الحياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[1] فإن قال قائل: بم نزن حسن الفعل وقبحه؟ قلنا: نزن ذلك بكتاب الله، وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وما كان عليه السلف الصالح، فإن خير الكتب كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وشر الأمور محدثاتها.

ثم قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَليمٌ بما كانُوا يكذبون﴾.

من فوائد هذه الآية الكريمة:

ـ أن قلوب المنافقين مرضى، والمرض هنا ليس مرضاً عضوياً يكون به الألم الجسدي، ولكنه مرضٌ معنوي يرفض به القلبُ الحقَّ، ويقبل الباطل، وهذا وصف منطبق تماماً على المنافقين.

ـ ومن فوائد الآية الكريمة أن القلب عليه مدار الصلاح والفساد بالنسبة للعمل، لأن الله تعالى وصف القلب بالمرض، وهو دليل على أنه إذا مَرِضَ مَرِضَ معه الجسد، وإذا صَحَّ صَحَّ معه

(١) الآيتان ١٠٣ و ١٠٤ من سورة الكهف.

الجسد، ويؤيد هذا قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «**ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسد كله، ألا وهي القلب**»[1].

ـ ومن فوائد الآية الكريمة أنه ينبغي للإنسان أن يعتني بقلبه فينظر أصحيح هو أم مريض؟ فإن كان مريضاً فليحرص غاية الحرص على طلب الشفاء له، وإن كان صحيحاً فليحمد الله على ذلك، وليسأله الثبات عليه، ونحن نشاهد أن الإنسان إذا مرض عضو من أعضائه مرضاً جسمياً ذهب إلى كل طبيب من أجل أن يحصل على شفاء من هذا المرض، ولكن مرض القلب لا يهتم به كثير من الناس مع أن مرض القلب أشد خطراً، وأعظم فتكاً من مرض البدن.

ـ ومن فوائد الآية الكريمة أن الإنسان إذا لم يحرص على علاج مرض قلبه، فإنه قد يعاقب بزيادة المرض؛ لقوله: ﴿**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً**﴾ ولا شك أن هذه العقوبة أعظم من العقوبة بفقد الولد والأهل والمال، وكثير من الناس يغفل عنها، فكثير من الناس يظنون أن العقوبة إنما تكون في الأمور الظاهرة:

---

(١) رواه ضمن حديث: البخاري (١/١٦٨) رقم (٥٢)، ومسلم (٣/١٢١٩ - ١٢٢٠) رقم (١٥٩٩)، وابن ماجة (٢/١٣١٨ - ١٣١٩) رقم (٣٩٨٤)، والدارمي (٢/٢٤٥).

كالأبدان، والأموال، والأولاد.

والحقيقة أن العقوبة بمرض القلوب وفسادها تبدو أعظم من العقوبة بمثل تلك الأمور، بل إن كثيراً من الناس يكون قلبه ميتاً، يصاب بالمصائب من الخوف والجوع وغير ذلك من المصائب المادية المحسوسة ولا يرعوي ولا يرتدع عما هو عليه من الفسوق والعصيان.

- ومن فوائد الآية الكريمة أن الله - سبحانه وتعالى - عدل في قضائه وقدره، فإنه لم يجازِ هؤلاء المنافقين بزيادة المرض إلا حيث كانت قلوبهم مريضة عفنة، ولهذا قال: ﴿فَزَادَهُم﴾ فأتى بالفاء الدالة على تفرع ما بعدها على ما قبلها.

- ومن فوائد الآية الكريمة أن المنافقين كما يبتلون بزيادة مرض القلب يبتلون أيضاً بالعذاب وهو العقوبة على أعمالهم السيئة وهو عذاب أليم مؤلم، ولا يقاس بألم الدنيا وعقوبتها، ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ﴾.

- ومن فوائد الآية الكريمة إثبات السبب، لقوله تعالى: ﴿بِمَا كانُوا يَكْذِبُونَ﴾ والباء هنا للسببية، ولا شك أن ارتباط المسببات بأسبابها وترتبها عليها من مقتضيات حكمة الله - عزَّ وجلَّ -، ونحن نعلم جميعاً أن من أسماء الله (الحكيم) الذي يضع الأشياء مواضعها، ومن ذلك ترتيب المسببات على أسبابها. ويتفرع على هذه الفائدة

الرد على من أنكروا تأثير الأسباب وقالوا: إن الأسباب ليس لها أثر في مسبباتها، وظنوا أن هذا هو التوحيد، وأن إثبات تأثير الأسباب في مسبباتها نوع من الشرك، ونحن نقول: إن تأثير الأسباب في مسبباتها ليس تأثيراً ذاتياً، ولكنه تأثير وسيلة، فالأسباب وسيلة لحصول المسببات والذي جعلها سبباً لمسبباتها هو الله ـ عز وجل ـ .

ولهذا قد تتخلف المسببات عن أسبابها بقضاء الله وقدره، أفلا ترى النار المحرقة تكون برداً وسلاماً بأمر الله كما في قصة إبراهيم الخليل حين أضرم قومه النار ليحرقوه وألقوه في النار فعلاً، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال للنار التي ألقوه فيها: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدَاً وَسَلَامَاً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[1] فكانت برداً وسلاماً «برداً» لم تحرقه، و«سلاماً» لم تؤذه. قال أهل العلم لو قال الله لها «كوني برداً» ولم يقل: و«سلاماً» لكانت برداً مؤذياً له أو مؤثراً عليه ضاراً به، ولكنه قال ـ سبحانه وتعالى ـ : «وسلاماً» فكانت برداً لطيفاً لا يضره ولا يتأثر به. وهذا من تمام قدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وهو أكبر دليل على أن الأشياء لا تؤثر تأثيراً ذاتياً بنفسها، وإنما تؤثر بتقدير الله ـ عز وجل ـ، وأنت إذا أثبت الأسباب على هذا الوجه لم تكن مثبتاً مع الله تعالى فاعلاً، بل الأسباب ومسبباتها كلها مفعولات لله ـ عزَّ وجلَّ ـ .

---

(١) من الآية ٦٩ من سورة الأنبياء.

- ومن فوائد قوله - عزَّ وجلَّ - : ﴿**وَلَهُمْ عذابٌ أليمٌ بما كانُوا يَكْذِبُونَ**﴾ معرفة سوء النتائج والعواقب للكذب، وأن الكذب سبب للعذاب، ولكن لا شك أن الكذب تتفاوت مراتبه، وإذا تفاوتت مراتبه تفاوتت عقوباته، فالكذب على الله ورسوله مثلاً أعظم من الكذب على غير الله ورسوله، والكذب الذي يترتب عليه إتلاف مال أو إتلاف أنفس أعظم من الكذب الذي لا يترتب عليه ذلك، ولكن الكذب كله حرام، ولا يصح تقسيم من قسَّم الكذب من العامة إلى كذب أبيض وكذب أسود، ويقولون: إن الكذب الأبيض هو الكذب الذي لا يترتب عليه إتلاف مال ولا إتلاف نفس، وإن الكذب الأسود هو الذي يترتب عليه شيء من ذلك. فنقول: إن الكذب كله أسود، وليس في الكذب شيء ممدوح، سواء ترتب عليه إتلاف مال أو أنفس أو ظلم لأحد أم لم يترتب عليه شيء. ويدل على ذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - جعل الكذب من صفات المنافقين ومن علاماتهم فقال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**»[1] ويدل على هذا أن جميع العقلاء ينكرون الكذب، ولا يرضون أن يكون خلقاً لهم، ألا ترى إلى أبي سفيان حين قدم على هرقل ملك الروم قبل أن يُسلم فسأله هرقل عن حال النبي - صلى الله عليه

(١) سبق تخريجه ص ٧٣ .

وسلم ـ وصفاته وحال أصحابه فلم يشأ أبوسفيان أن يتكلم بكلمة كذب فتؤثر عليه. وكل العقلاء يذمون الكذب، ولا يرضى أحد منهم أن يوصف بأنه كذاب، وقد حذَّر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الكذب وقال: «.. **وإيَّاكُمْ والكذب فإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجورَ يهدي إلى النار، وما يزالُ الرجلُ يكذبُ ويتحرَّى الكذبَ حتى يكتب عند الله كذَّاباً**»[1] والكذوب المعْروف عند الناس بالكذب لا يوثق بخبره، حتى وإن كان صدقاً، لأن الناس يحكمون على الإنسان بغالب أحواله، ويصفونه بغالب أخلاقه. فعلى المسلم أن يبتعد عن الكذب كله صغيره وكبيره، ما تضمن الظلم منه وما لم يتضمنه. ثم قال الله تعالى: ﴿**وَإذا قِيلَ لَهُمْ**﴾ أي قيل للمنافقين ﴿**لا تُفْسِدُوا في الأرضِ قالُوا إنَّما نحنُ مُصْلِحُون**﴾ لم يبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ القائل للمنافقين هذا القول ليشمل كل من قال لهم من الناس، فكلما قال لهم الناس: لا تفسدوا في الأرض بالوشاية والكذب والخيانة وإظهار الإسلام أمام المسلمين وإظهار الكفر أمام الكافرين قالوا: ﴿**إنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾ من أجل أن نسلم من القتل والحرب مع المؤمنين،

---

(١) رواه: البخاري (١٠/٦٢١) رقم (٦٠٩٤)، ومسلم (٤/٢٠١٣) رقم (٢٦٠٧)، ومالك في الموطأ (٢/٩٨٩) رقم (١٦)، وابن ماجة (١/١٨) رقم (٤٦).

ونسلم من الكراهة والبغض من الكافرين، نصلح طريقنا وسيرتنا مع هؤلاء وهؤلاء.

وتأمَّل قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ حيث حصروا حالهم في الإصلاح، فقال الله ـ عزَّ وجل ـ مكذباً لهم وراداً عليهم: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فقابل الله ـ سبحانه وتعالى ـ القول بقول أبلغ منه، حيث حصر الإفساد فيهم، وصدره بألا الدالة على التوكيد فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وصدق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإن المنافقين هم المفسدون الذين يفسدون في الأرض، ويجعلون فيها الفتنة بما يسيرون عليه من النفاق.

من فوائد وأحكام هاتين الآيتين:

ـ أن المنافقين قد يأتيهم من ينصحهم ويبين لهم حالهم وأنهم يفسدون في الأرض، ووجه الإفساد من هؤلاء أنهم يعطون للمسلمين ألسنة طيبة وقولاً معسولاً، فيظن المؤمن أنهم من أوليائه فيفضي إليهم بأسراره، ولكنهم كاذبون في ذلك، ويحصل بهذا الفساد، حيث يحصلون على أسرار المؤمنين وينشرونها بين الكفار.

ومن إفساد المنافقين في الأرض أنهم يريدون أن تُمحى شريعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وأن يكون الحكم والتحاكم إلى الطاغوت، والطاغوت كل نظام يخالف شرع الله ـ سبحانه وتعالى ـ، أي

يخالف ما شرعه الله ـ سبحانه وتعالى ـ لعباده، فالمنافقون يحاولون بكل جهودهم أن يكون التحاكم إلى غير الله ورسوله، لقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمنوا بما أُنْزِلَ إِليكَ وما أُنزلَ مِنْ قَبْلِكَ يُريدونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إلى الطاغوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ويُرِيدُ الشيطانُ أَنْ يَضلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيْدَاً وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تعالُوا إلى ما أَنْزَلَ اللهُ وإلى الرسولِ رأيتَ المنافقينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدوداً فكيفَ إذا أَصَابتهم مصيبةٌ بما قدَّمتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جاءوكَ يَحْلِفُونَ باللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً أُولئكَ الَّذِينَ يعلمُ اللهُ ما في قلوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وعِظْهُمْ وقُلْ لَهُمْ في أنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيْغَاً﴾[1] فالمنافقون لا يريدون أن تبقى شريعة الله هي الحكم بين خلقه في أرضه، تحت سمائه، ولكن يريدون أن يكون التحاكم إلى الطاغوت، وهو كل ما خالف شريعة الله ما سنَّهُ البشر، ولا شك أن هذا فساد عظيم ـ أعني رجوع الناس إلى غير شريعة الله في التحاكم بينهم ـ ، فيه الفوضى وفيه الظلم، وفيه الجور، لأن كل حكم يخالف حكم الله لا شك أنه جور، فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحكم بين عباده بالقسط، وقد أمر الله سبحانه أن يكون التحاكم إليه لا إلى غيره فقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾[2] وقال ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿فإن تنازَعْتُمْ في شيءٍ

---

(١) الآيات (٦٠ ـ ٦٣) من سورة النساء.

(٢) من الآية ١٠ من سورة الشورى.

فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ والرسول ِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤمِنُونَ باللهِ واليوم ِ الآخرِ ذَلِكَ خيرٌ وأَحْسَنُ تأويلاً﴾[1] ومن إفساد المنافقين في الأرض أنهم يؤذون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكل ما يستطيعون من أذية: قولية أو فعلية، صريحة أو تلميحية، كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَمِنْهُم الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَ ويقولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُل أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤمِنُ باللهِ وَيُؤمِنُ للمؤمنينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمنوا مِنْكُمْ والَّذِينَ يُؤذونَ رسولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2] وهم يؤذون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا لشخصه، لا لأنه محمد بن عبدالله ولكن لما جاء به من الشريعة، لأنهم يكرهونها، ويرون أن من قام بها فإنه مستحق للأذية، أن يؤذى، ولكنهم ـ بحمد الله ورحمته وعزته وقدرته ونصرته لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يضرون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَضرُّوكُمْ إِلَّا أَذَى﴾[3] فهم لا يضرون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأذيتهم، وإن علمنا أنهم يؤذون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أجل أن يتنازل عن شيء من شريعة الله خوفاً من أذيتهم، فإننا نعلم كذلك أنهم يؤذون أتباع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلهم يحدون من التمسك بشريعته ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وإذا كانوا يؤذون

---

(١) من الآية ٥٩ من سورة النساء.

(٢) الآية ٦١ من سورة التوبة.

(٣) من الآية ١١١ من سورة آل عمران.

من اتبع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن على المؤمنين المتبعين لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصبر على أذيتهم القولية أو الفعلية، التصريحية أو التلميحية، وليعلموا أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ جاعلٌ كيدهم في نحورهم. ومن إفساد المنافقين في الأرض أنهم يثبطون عن الجهاد في سبيل الله وعن قتال أعداء الله، لأن أعداء الله يوافقونهم في الكفر، فالكل كافر، لكن هؤلاء مخادعون يظهرون الإسلام، والكافرون صرحاء أشجع منهم يعلنون كفرهم ولا يبالون، وهم يثبطون عن قتال هؤلاء الكافرين كما ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ عنهم في عدة آيات من القرآن العزيز. ومن إفساد هؤلاء ـ أعني المنافقين ـ في الأرض أنهم يوالون أعداء الله ويتولونهم أكثر مما يتولون المؤمنين، لأن أعداء الله الكفار إخوانهم، إخوانهم في الكفر، إخوانهم الحقيقيون، لأنهم متفقون وإياهم على الكفر بالله ـ سبحانه وتعالى ـ، فهم يتولونهم أكثر مما يتولون المؤمنين، لأنهم إنما يتولون المؤمنين في الظاهر لا في الباطن. ومن المعلوم أن توليهم للكافرين يزيد الكافرين قوة ويزيدهم ثباتاً في مجابهة المؤمنين. وهذا يتضمن نصر الكفر على الإيمان، وأنواع إفسادهم في الأرض كثيرة يعرفها من يتتبع الآيات الكريمة في كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كما في هذه السورة، وكما في سورة آل عمران، وكما في سورة النساء، وكما في سورة التوبة، وكما في سورة الأحزاب، وكما في سورة المنافقين، نسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يحمي الإسلام من كيدهم،

وأن ينصر المسلمين عليهم.

يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿وإذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا في الأَرْضِ قالُوا إنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ وهذه دعوى منهم يُنظرُ هل يصدقها الواقع أو لا يصدقها، فبيَّنَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ أنه لا يصدقها الواقع.

ـ ويستفاد من هذا أن كل إنسان يدعو إلى باطل فإنما يزعم أنه على حق، وأن كل إنسان يدعو إلى فساد فإنما يزعم أنه يدعو إلى صلاح، فإذا قال قائل: بأي شيء يوزن الصلاح والفساد والحق والباطل؟ قلنا: بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فبهما يعرف الحق من الباطل، ويعرف الصلاح من الفساد.

ثم قال الله - عز وجل - : ﴿وَإذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كما آمنَ النَّاسُ قالُوا أَنُؤمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ولكِنْ لا يَعْلَمُونَ﴾ لم يبين الله تعالى القائل، وقوله: ﴿كَمَا آمنَ النَّاسُ﴾ المراد بهم المؤمنون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه، قالوا في الجواب على من يدعوهم إلى الإيمان: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ وهذا الاستفهام للإنكار يعني لن نؤمن كما آمن السفهاء، لأنهم سفهاء وليسوا راشدين، أي ليس عندهم رشد، بل هم في سفه. قال الله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ﴾ وتأمل في الفرق

بين قوله هنا: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ وقوله في الآية التي قبلها: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هناك نفى الشعور عنهم، لأن الإفساد أمر ظاهر معلوم يدرك بالحس والحواس الظاهرة أما الإيمان فإنه أمر باطن يدرك بالبصيرة الباطنة ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فأبطل الله تعالى دعواهم بأن المؤمنين سفهاء، وبيَّن أنهم هم السفهاء، وحصر السفه فيهم فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ أي لا غيرهم، ولكنهم في عمى وضلال، لا يعلمون أنهم سفهاء، ولهذا استمروا على ما هم عليه من الضلال والعمى.

فوائد الآية الكريمة:

- أن هؤلاء المنافقين قد دُعوا إلى الحق ودُعوا إلى الإيمان، ولكنهم - لكبريائهم وغطرستهم واحتقارهم غيرهم - يجيبون من يدعوهم إلى ذلك بأنهم لا يؤمنون كما آمن السفهاء.

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن هؤلاء المنافقين يدَّعون أنَّ الإيمان سفه، يدَّعون ذلك إما عن اعتقاد وإما عن إضلال للخلق، يحتمل أن الله تعالى أعمى بصيرتهم فرأوا الحق باطلاً، ويحتمل أنهم يرون الحق حقاً ولكن لم يوفقوا إلى اتباعه، وهذا هو الأقرب. إذن فهم يريدون - بوصف المؤمنين بالسفهاء - يريدون بذلك تنفير الناس من المؤمنين ومن طريقتهم، ومن الإيمان بالله.

ـ ومن فوائد الآية الكريمة أن لتنفير المنافقين عن دين الله عدة طرق منها: شجب اتباعه كما في هذه الآية.

ـ ومن فوائد الآية الكريمة أنه يجب أن يرد على ذي الباطل باطله، ويبيّن أنه هو الذي على الباطل، لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ـ ومن فوائد الآية أن السفه وصف رديء كل أحد ينفر منه، وهذا أمر لا شك فيه، ولكن ما هو السفه؟ السفه ـ كل السفه ـ أن يرغب إنسانٌ عن دين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعن الملة التي عليها الأنبياء والصالحون قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾[1] ولهذا نقول: كل إنسان يرغب عن دين الإسلام فإنه سفيه مهما بلغ في الذكاء، ومهما بلغ في الإدراك، لكنه لو كان راشداً عاقلاً عقل تصرفٍ وتدبيرٍ لكان متبعاً لما جاء به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

هؤلاء المنافقون من أوصافهم المراوغة والدجل والتمويه، فهم

---

(١) من الآية ١٣٠ من سورة البقرة.

إذا لقــوا الــذين آمنوا ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ إرضاء للمؤمنين وخداعاً لهم ﴿وإِذَا خَلوا إلى شيـاطِيْنِهِمْ﴾ طواغيتهم أئمـة الكفر قالوا: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ يعني ولسنا مؤمنين ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ أي مستهزئون بالمؤمنين نسخر بهم ونلعب بعقولهم هكذا زعموا فقال الله تعالى رداً عليهم: ﴿اللهُ يَسْتَهْـزِىءُ بِهِمْ وَيَمُـدُّهُمْ في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ واستهزاء الله بهم يعني أنه ـ عز وجل ـ يستهزىء بهم يتخذهم هزوا فيملىٰ لهم، ويمهل لهم، فالاستهزاء صفة من صفات الله الثابتة له على وجه الحقيقة، ولازمه أن الله يمهل هؤلاء ويمدهم ويدعهم في هذا الطغيان يضيعون ويتيهون.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

ـ بيان مراوغة هؤلاء المنافقين حيث يقولون للمؤمنين قولاً، ويقولون للشياطين من الكافرين قولاً آخر مضاداً له.

﴿وَإِذَا لَقوا الَّذينَ آمنُوا قالُوا آمنَّا وإذا خَلوا إلى شياطِيْنِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ وهذه غاية المراوغة، ففيها خداع لهؤلاء ولهؤلاء، خداع للمؤمنـين بأنهم مؤمنـون، وخداع للكافرين بأنهم معهم، ولكن خداعهم للكافرين ليس كخداعهم للمؤمنين، لأن حقيقة حالهم أنهم مع الكفار، فهم ليسوا بمؤمنين حقاً، وهم كافرون حقاً.

ـ ومن فوائدهما أن الإنسان يؤخذ بظاهره، فالمؤمنون إذا قال

لهم هؤلاء المنافقون «آمنا» تركوهم وظاهرهم، ولهذا كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعاملهم على ظاهرهم حتى إنه استؤذن في قتلهم فقال: ﴿لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه﴾[1] وهكذا الأحكام في الدنيا إنما تكون على الظاهر لا على الباطن. أما في الآخرة فتكون الأحكام على الباطن. وقد ثبت عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «**إنكم تختصمون إليَّ. ولعلَّ بعضكم أن يكون أَلْحَن بحُجَّتِه من بعض فأقضي له على نحو مما أسمع منه فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له به قطعة من النار**»[2].

ـ ومن فوائدهما أن هؤلاء المنافقين لا يقولون للمؤمنين إنا معكم، بل يقولون: ﴿آمَنَّا﴾ ولكنهم في خطاب الكافرين يقولون: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ وهذا في عقد الموالاة بينهم وبين الكفار، لأن المعية تقتضي المناصرة والموالاة فهم مع الكفار أولياء مناصرون، لكن مع المؤمنين يقولون: ﴿آمنَّا﴾ وما يدرينا لعلهم بقولهم: ﴿آمنَّا﴾ يعني آمنا بالطاغوت.

ـ ومن فوائد هاتين الآيتين أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يستهزىء بمن يستهزىء به وبعباده حين قال: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ﴾ وهذا

---

(١) سبق تخريجه ص ٧٤ .

(٢) سبق تخريجه ص ٧٥ .

الوصف الذي وصف الله به نفسه وهو الاستهزاء على قاعدة أهل السنة والجماعة السلفية يُجرى على ظاهره، ويقال: إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يستهزىء بمن يستحق الاستهزاء، وهو استهزاء حقيقي يليق بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ليس استهزاء يتضمن نقصاً، لأن الله وصف به نفسه فهو كمال، كما قال الله تعالى: ﴿ولله المثلُ الأعْلَى وهُوَ العزيزُ الحَكِيمُ﴾[1] ولهذا لا تجد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يصف نفسه بالاستهزاء على وجه الإطلاق، وإنما وصف نفسه بالاستهزاء في مقابلة المستهزئين بعباده ليبين بذلك أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أقوى منهم وأعظم، فإذا سخروا من المؤمنين سخر الله منهم.

ـ ومن فوائد الآيتين بيان حكمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حيث جعل الجزاء من جنس العمل، فكما أن هؤلاء استهزأوا بالمؤمنين فالله تعالى استهزأ بهم، وهذا من عدل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وهو ثابت في الدنيا وفي الآخرة، بل إن جزاء الله عموماً دائر بين العدل والفضل، فهو بالنسبة للعصاة عدل، وبالنسبة للطائعين فضل.

والقاعدة العامة عند أهل السنة والجماعة، السلف الصالح أن كل ما وصف الله به نفسه فهو حقٌّ على حقيقته، سواء أكان ذلك في كتاب الله أو فيما صحَّ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ويجب أن نعلم علم اليقين أن كل صفة وصف الله بها نفسه فإن

---

(١) من الآية ٦٠ من سورة النحل.

حقيقتها تخالف حقيقة ما يتصف به العبد من جنسها، وذلك لأن الصفة تابعة للموصوف، فكما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس كمثله شيء في ذاته فليس كمثله شيء في صفاته. لا يجوز مثلاً أن نقول: إن هذه صفة لا تليق بالله الواجب نفيها وتحريفها إلى معنى آخر، لأننا إذا قلنا بذلك صرنا نحكم على الله تعالى في صفاته بعقولنا لا بما بلغنا عنه ـ سبحانه وتعالى ـ . ومن المعلوم أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنزل هذا الكتاب ليبين للناس الهدى كما قال الله تعالى: ﴿يُبينُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تضلوا واللهُ بكُلِّ شيءٍ عليم﴾[1] وقال: ﴿يُريدُ اللهُ أَنْ يُبيِّنَ لَكُمْ ويهديكم سُنَنَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[2] وقال: ﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[3] وقال: ﴿كِتابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِراطِ العَزِيزِ الحَميدِ﴾[4] وقال: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[5] وقال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الألبابِ﴾[6] والآيات في هذا المعنى كثيرة، وليس من حقنا ولا

---

(١) من الآية ١٧٦ من سورة النساء.
(٢) من الآية ٢٦ من سورة النساء.
(٣) من الآية ٨٩ من سورة النحل.
(٤) من الآية ١ من سورة إبراهيم.
(٥) من الآية ٤ من سورة إبراهيم.
(٦) الآية ٢٩ من سورة ص.

يسوغ لنا أن نحكم على الله تعالى بعقولنا، بل نقول: سمعنا وأطعنا وآمنا وصدقنا، فوظيفتنا نحو ما أخبر الله به عن نفسه أن نقول: سمعنا وأطعنا وآمنا وصدقنا، وألا نحرف ظواهر النصوص إلى معانٍ نعيِّنها بعقولنا، ونحكم بها على ربنا. كما أنه يجب علينا نحو هذه النصوص ألا نعتقد فيها تمثيلاً، أي أن الله تعالى مماثل لخلقه فيها، فإن الله تعالى يقول: ﴿ليسَ كَمِثْلِهِ شيَء وهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[1] فنحن نعلم بالعقل أنه لا يستوي المخلوق مع الخالق في أي صفة من الصفات.

ثم قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوا الضَّلالَةَ بالهُدَى فما رَبِحَتْ تِجارتُهُمْ وما كانُوا مُهْتَدِينَ﴾ الإشارة في قوله: ﴿أولئك﴾ إلى المنافقين، وأشار إليهم باسم الإشارة الدال على البعيد، وإن كان الكلام فيهم قريباً للتبرؤ منهم والبعد عنهم، فإن الإشارة للبعيد تارة تكون لعلو منزلة المشار إليه، وتارة تكون لدنو منزلته، وهذا هو المقصود في هذه الآية وقوله: ﴿الَّذينَ اشْتَرَوا الضَّلالَةَ بالهُدَى﴾ أي أخذوا الضلالة وتركوا الهدى فسلكوا طريق الضلال وتركوا طريق الهدى، ولكنه عبر بالاشتراء ليبين أنهم سلكوا هذا الطريق عن محبة وشغف كما يحب المشتري أن يحصل على السلعة التي يشتريها. والمراد بالضلالة هنا ما خالف الحق وبالهدى

(١) من الآية ١١ من سورة الشورى.

ما وافق الحق، قال الله تعالى مبيناً نتيجة هذا الفعل: ﴿**فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**﴾ بل خسروا خسراناً عظيماً، وضلوا ضلالاً بعيداً.

من فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

- بيان سفه المنافقين حيث اختاروا الضلالة وتركوا الهدى، وكل إنسان يسلك هذا المسلك فإنه سفيه بلا ريب كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَنْ يرغبُ عن ملةِ إبراهيمَ إلاَّ مَنْ سَفِه نفسَه**﴾[1].

- ومن فوائدها أن المنافقين يحرصون على كل ما فيه ضلالة سواء أكان من الأمور الكبيرة العامة، أو كان من الأمور الصغيرة حتى الوسائل التي يتوصلون بها إلى إيذاء الخلق. ثم ضرب الله لهم مثلاً مطابقاً لحالهم تماماً فقال: ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذي استوقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حولَهُ ذَهَبَ اللهُ بنورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ في ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ**﴾.

وهذا المثل مطابق لحالهم تماماً وهو من أمثال التمثيل كما في علم البلاغة، فهذا رجل احتاج إلى نار يستدفيء بها ويستنير بها، ولكن ليس معه ما يستنير به فاستوقد ناراً من شخص أي طلب أن يوقد له ناراً فأوقد له النار فلما تبين ضوؤها من الشعلة طُفئت الشعلة

---

(١) من الآية ١٣٠ من سورة البقرة.

فبقي في ظلمة بعد أن كان في نور، وبقيت حرارة النار التي قد يكون فيها ضرر، ولهذا قال: ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل بنارهم. أي بقيت النار بحرارتها، وذهب النور المستفاد من الشعلة التي انطفأت، وبقوا في ظلمات لا يبصرون، وإنما كانوا في ظلمات لأن انطفاء النور بعد وجوده يحدث الظلمة، ولا سيما عند انطفائه في أول وهلة. هؤلاء المنافقون ليس عندهم نور في قلوبهم، إنما يستفيدون ما يستفيدونه من النور من بعض المؤمنين من أقاربهم أو جيرانهم فيستضيئون به لحظة ولكنهم يعودون إلى أصلهم من الظلمة والضلالة، يستضيئون به لحظة، ثم ينطفىء فيبقى ذلك حرارة في قلوبهم، لأنهم ليس لهم نور يهتدون به. ثم قال: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُميٌ فَهُمْ لا يرجِعُون﴾ ﴿صُمٌّ﴾ يعني لا يسمعون الهدي ﴿بُكمٌ﴾ لا ينطقون به ﴿عُميٌ﴾ لا يبصرونه، فنفى عنهم طرق الهداية كلها، وقوله: ﴿فَهُمْ لا يرجِعون﴾ هذا حال المنافق، لا ينطق بالحق، ولا يستمع إليه، ولا ينتفع به لو سمعه، ولا يبصره، وإن أبصره لا ينتفع به، فهو بمنزلة الأعمى.

فوائد الآيتين الكريمتين:

- يضرب الله - سبحانه وتعالى - الأمثال هنا، فيستفاد من ذلك أن من البلاغة أن يضرب المتكلم الأمثال المحسوسة للمخاطب ليتوصل بها إلى المعاني المعقولة، لأن إدراك الشيء

المحسوس أقرب من إدراك الشيء المعقول كما قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأمثالُ نَضْرِبُها للناس وما يَعْقِلُها إلاَّ العَالمونَ﴾[1] وقال الله - عز وجل - : ﴿يا أَيُّها النَاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا لَهُ إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقوا ذُبَاباً ولو اجْتَمَعُوا لَهُ وإنْ يَسْلِبْهُمُ الذُبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ منه ضَعُفَ الطالِبُ والمطْلُوبُ﴾[2]. فالأمثال مهمة في تعليم المخاطب بتقريب المعاني إلى ذهنه وتصوره.

- ومن فوائدهما أن المنافقين ليس لهم نور ذاتي يستضيئون به، وإنما نورهم من نور خارجي يضيء عليهم ثم يخبو، ويبقون في ظلمة، وتشتد الظلمة عليهم بعدالنور الذي أضاء لهم.

- ومن فوائدهما أن هؤلاء المنافقين إذا استضاءوا بهذا النور الذي يأخذونه من غيرهم فإنهم قد يلوح لهم شيء من الهدى، ولكن لعلم الله - عز وجل - بحالهم، وأنهم ليسوا أهلاً للهداية لما في قلوبهم من الزغل والأفكار الخبيثة يذهب الله بنورهم ويدعهم. وعلى هذه الفائدة تتفرع فائدة أخرى عظيمة وهي أنه يجب على الإنسان أن يطهر قلبه تطهيراً كاملاً من كل زغل وخبث، وأن يعتني

---

(1) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت.

(2) الآية ٧٣ من سورة «المؤمنون».

بطهارة قلبه أكثر مما يعتني بطهارة بدنه، لأن طهارة القلب عليها المدار، وبها تكون طهارة الأعمال الظاهرة.

- ومن فوائد الآيتين السابقتين بيان حال المنافقين، وأنهم - والعياذ بالله - لا يصل إليهم الهدى من أي طريق، فهم صمٌّ لا يسمعونه ولا يسمّعون ما اهتدوا به، بكم لا ينطقون به، بل ينطقون بالباطل، وما ينطقون به من الحق إنما يريدون به باطلاً لا يريدون به حقيقة معناه، وهم عمي لا يبصرون الحق، ولو أبصروا الحق ما انتفعوا به.

- ومن فوائدهما أن هؤلاء المنافقين قد رأوا أنهم على صواب وعلى حق وعلى طريق صحيح، ولهذا لا يرجعون عن غيهم، بل يبقون على ما هم عليه، ويتفرع على هذه الفائدة فائدةٌ أخرى وهي أنه يجب على الإنسان أن يعتني دائماً بالتنقيب والنظر في عمله، وهل هو صواب أم خطأ، فإن كان صواباً فليحمد الله، وليستمر عليه، وإن كان خطأ فليتب إلى الله، وليرجع إلى الصواب أينما كان.

ثم قال تعالى في المثل الثاني: ﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فيه ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ في آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الموتِ واللهُ مُحيطٌ بالكافِرينَ يَكادُ البرقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوا فيه وإِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا وَلَو شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٍ**﴾ هذا المثل

الثاني لطائفة أخرى من المنافقين وإن شئت فقل لحال أخرى من المنافقين ضرب الله لهم مثلاً بصيب من السماء، أي مطر نازل من السماء وهو الوحي الذي نزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، هذا الصيب فيه ظلمات، فيه رعد، فيه برق، فيه ظلمة المطر، ظلمة السحاب، ظلمة الليل، وفيه ـ أيضاً ـ رعد وبرق، وهذا الرعد رعد شديد، فيه صواعق، الصواعق عبارة عن كشف حال هؤلاء المنافقين، وبيان أسرارهم وخبثهم وعن ما في القرآن من الزواجر والوعيد لمن عصى الله ـ عزَّ وجل ـ ، لكن هؤلاء المنافقين يجعلون جُنَّـةَ لا تُجنهم، ويستترون بستر لا ينفعهم، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق، يزعمون أنهم إذا لم يسمعوا الصاعقة لم تنزل عليهم، ولكنهم أخطأوا في هذا التقدير. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صيحةٍ عَلَيْهِمْ﴾[1] فيظنون كل آيةٍ نزلت في وصف يبين عيوبهم، ويهتك أستارهم، يظن كل واحد منهم أنه هو المعني بذلك فيمشي في الناس وكأنه خائف حذر، ولكن هذا لا يغنيه بشيء، البرق بشدته وقوته يقع على بصر ضعيف لا يتحمل، ليس عنده قوة ولا قدرة على تحمل الإضاءة، ولهذا قال: ﴿يَكَادُ البرقُ يَخْطَفُ أبصارَهُمْ﴾ والبصر الضعيف يتأثر بكل نور، وكلما قوي النور قوي تأثره، وانظر إلى الأعشى إذا خرج، أو انظر

---

(١) من الآية ٤ من سورة «المنافقون».

إلى ضعيف البصر إذا خرج للشمس تجده ينكسف بصره وتهل دموعه، لأنه لا يقوى على تحمل هذا النور، فهم كذلك بصرهم ضعيف ﴿يَكَادُ البرقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ لأن النور قوي والبصر غير مقاوم لضعفه فيكاد البرق يخطف أبصارهم لشدته وضعف البصر وعجزه عن المقاومة، ومع ذلك فهم ينتهزون الفرصة ﴿كُلَّمَا أضاءَ لَهُمْ مَشَوا فيهِ وإذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قاموا﴾، لأنهم لا يستطيعون المشي مع هذه الظلمات. وبعد هذا النور العظيم قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأَبْصَارِهِمْ﴾ لذهب بسمعهم فلم يكن لهم سمع وبأبصارهم فلم يكن لهم بصر، ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ﴾.

فوائد الآيتين الكريمتين:

ـ أن حال هؤلاء المنافقين حال ضعيفة لا تستطيع المقاومة، ولا القيام بشرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

ـ أن هؤلاء المنافقين عندهم من الخوف والرعب ما يجعلهم يظنون أن كل صيحة عليهم وأن كل وعيد ـ وإن كان إنذاراً ـ لهم أيضاً، فهم جبناء ضعفاء لا يستطيعون أن يقاوموا الحق لقوته أمامهم، وضعفهم أمامه، ويترتب على هذه الفائدة فائدة عظيمة وهي أنه ينبغي على الإنسان أن يتقبل الحق حيثما كان، وأن يكون عازماً على تطبيقه سواء أكان ذلك شاقاً على نفسه أم هيناً عليها،

لأن المؤمن كما ذكر الله تعالى من وصفه يقول: سمعنا وأطعنا، قال تعالى: ﴿وقالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وإِلَيْكَ المصير﴾[1].

- ومن فوائدهما أن القرآن الكريم كالمطر غيث للأرض تنتفع به، وينتفع به أهل الأرض أيضاً، وهكذا وحي الله وشرعه الذي نزل هو كالغيث، فمن الناس من يقبل هذا المطر ويستخرج منه الثمرات العظيمة، وينتفع الناس به، ومن الناس من لا ينتفع بهذا الوحي ويكون كالأرض الصماء التي تبتلع الماء، ولا تنبت شيئاً، ومن الناس من يكون على أوصاف أخرى بالنسبة لهذا المطر النازل من السماء.

- ومن فوائد الآيتين الكريمتين أن هؤلاء المنافقين قد يستضيئون بعض الشيء أحياناً بما يرون من النور الحاصل من الوحي، ولكن سرعان ما يزول ويذهب مع أنهم ينتفعون به على مشقة حتى إنه يكاد يخطف أبصارهم.

- ومن فوائدهما إثبات المشيئة لله ـ عزَّ وجل ـ لقوله: ﴿وَلو شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأَبْصَارِهِمْ﴾ وقد أثبت الله تعالى مشيئته في عدة آيات من القرآن، وكل شيء فإنه بمشيئة الله. ولهذا أجمع المسلمون على هذه الكلمة «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» ولكن

(١) من الآية ٢٨٥ من سورة البقرة.

مشيئـة الله ـ سبحانه وتعالى ـ تابعة لحكمته، فلا يشاء ـ سبحانه وتعالى ـ إلا ما اقتضت الحكمة مشيئته لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾[1] فبيَّن أن مشيئته مقرونة بعلمه وحكمته، وهو كذلك. ولكن حكمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ منها ما هو معلوم لنا ومفهوم نشاهده ونعرفه، ومنها ما هو خفي علينا لأننا قاصرون في العلم والإدراك كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2] فما يرد على الـذهن أحيانـاً من الإشكال في بعض الآيات الكونية أو الآيات الشرعية إنما ينشأ من قصور الإنسان أو تقصـيره، ولو أن الإنسان بحث جدياً يريد به الحق لتبين له من حكمة الله تعالى في أحكامه الكونية والشرعية ما لا يتبين للغافل المعرض الذي لا يريد إلا أن يشكك الناس في بعض الأمور التي تخفى في حكمتها كما يعرف من بعض الناس الذين يأتون ويقولون ما الحكمة في كذا؟ ما الحكمة في كذا؟ نحن لا نسيء الظن بأحد، لكن من الناس من يقول ذلك؛ ليشكك العامة فيما هم عليه من الهدى والحق لا لقصد أن يصل إلى المعنى المطلوب الذي يسأل عنه ومع هذا فإني أقول: إن علمت حكمة الشيء الواقع بقضاء الله وقدره، وحكمة الشيء الواقع بشرع الله ودينه فهذا بلا شك من

(١) الآية ٣٠ من سورة الإنسان.

(٢) من الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

نعمـة الله عليك، وإن لم تعلم فسلم الأمر وكِلِ الأمر إلى عالمه ـ سبحانه وتعالى ـ ، واعلم أنه لا يحكم إلا لحكمة عظيمة، عَلِمها من علمها، وجهلها من جهلها.

ـ ومن فوائد الآية أن الله تعالى على كل شيء قدير، وقدرته ـ عزَّ وجلَّ ـ قدرة تامة لا يعتريها عجز بوجه من الوجوه.

ولهذا كان أمره بالشيء أمراً واحداً لا يكرره، بل إذا أمر بشيء كان في لحظة، قال الله تعـالى: ﴿**وَمَـا أَمْـرُنَا إِلَّا واحِدةٌ كَلَمْحٍ بِالبَصَرِ**﴾[1] تأمل قوله تعالى: ﴿**إِنْ كَانَت إِلَّا صَيْحَةً واحدةً فإذا هُمْ جميعٌ لدينا مُحْضَرون**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرةِ**﴾[3] تجد أنها زجرة أو صيحة واحدة يبعث فيها الخلائق كلهم فيحضرون للقضاء بينهم بقدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ . وهذا دليل على كمال قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ ولهذا قال: ﴿**إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَديرٍ**﴾ ولا يستثنى من هذا شيء أبداً، فكل شيء الله قادر عليه، ويتفرع على الإيمان بهذه الفائدة أن الإنسان ينبغي أن يسأل ربه كل ما يرى فيه مصلحة، ولا يستصعب الأمر، ولا يقول: هذا لن يكون، هذا بعيد، ولهذا قال النبي ـ صلى اللهِ عليه وسلم ـ :

---

(١) الآية ٥٠ من سورة القمر.

(٢) الآية ٥٣ من سورة يس.

(٣) الآيتان ١٣ و ١٤ من سورة النازعات.

«**لا يَقُلْ أحدُكُمْ اللهُمَّ اغفر لي إنْ شئتَ، ارحمني إنْ شئتَ، ارزقني إنْ شئتَ، وليعزم مسألته، إنه يفعل ما يشاء لا مُكره له**»(١) فلا أحد يكره الله حتى يقال: إن شئت فافعل، وإن شئت فلا تفعل. فلا يقال: «إن شئت» إلا لمن هو مكره فينظر هل يشاء أو لا يشاء. أما الذي يفعل باختياره وبإرادته وبقدرته فإنه لا يقال في حقه: «إن شئت» ولهذا نهى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك وقال: «**إنه يفعل ما يشاء لا مكره له**».

ثم قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿**يا أيُّها النَّاسُ اعبُدوا ربَّكُمْ الَّذي خَلَقَكُمْ والَّذينَ من قَبْلِكُمْ لعلَّكُمْ تَتَّقُون**﴾ وجَّه الله الخطاب إلى الناس، لأن الناس جميعاً يجب عليهم عبادة الله وحده لا شريك له. والعبادة هي التذلل إلى الله ـ عز وجل ـ بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وقد تطلق على المُتعبد به وهي العبادات التي يقوم بها الإنسان كالصلاة والزكاة والصيام والحج. وقوله: ﴿**اعبدوا ربكم**﴾ الرب: هو الخالق المالك المصرف المدبر لجميع الأمور. وقوله: ﴿**الذي خلقكم**﴾ يعني الذي أوجدكم من العدم ﴿**والذين من قبلكم**﴾ أي خلقهم وأوجدهم الله من العدم كما أوجدكم ﴿**لعلكم**

---

(١) رواه: البخاري (١٣/٥٤٩) رقم (٧٤٧٧) واللفظ له، ومسلم (٤/٢٠٦٣) رقم (٢٦٧٩)، والإمام مالك في الموطأ (١/٢١٣)، والترمذي (٥/٤٩١) رقم (٣٤٩٧) وقال: «حديث حسن صحيح».

تتقون﴾ أي من أجل أن تصلوا إلى هذه المرتبة العالية وهي تقوى الله -عزوجل- ، والتقوى اتخاذ الوقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

فوائد وأحكام الآية الكريمة :

- بيان أهمية هذا الطلب وهو عبادة الله تعالى وحده، ووجه ذلك أنه لا يصدر الخطاب بالنداء إلا للعناية به، لأن النداء نوع من التنبيه، فأنت إذا ناديت المخاطب انتبه واتجه إليك.

- ومن فوائد الآية أن العبادة حق لله واجب على جميع الناس، ولهذا قال: ﴿**يا أيُّها الناس اعبدوا ربكم**﴾ فكل الناس يجب عليهم عبادة الله، وعبادة الله تعالى هي التعبد له، أي التذلل له بفعل أوامره واجتناب نهيه حسب شرعه الذي أرسل به رسله، وهي مختلفة بمعنى أن من الناس من يجعل الله له شريعة كذا، والآخر شريعة كذا، حسب ما يصلح به الخلق، ولكن الشرائع كلها اجتمعت بشريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وصارت شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - ناسخة لجميع الشرائع، فلا عبادة لله إلا عن طريق شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - . والعبادة لا بد أن تكون مبنية على أساسين هما: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - . أما الإخلاص لله - عزَّ وجل - فهو أن ينوي الإنسان بعبادته وجه الله والدار الآخرة، لا

ينـوي بذلك حطاماً من الدنيا، ولا جاهاً، ولا رئاسة، ولا تزلفاً لمخلوق، بل ينوي بذلك وجه الله والدار الآخرة، ومتى كانت هذه نيته فإنه سوف يحسن العمل، سوف يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يراه، وضد الإخلاص في العبادة الشرك في العبادة، بأن ينوي بعبادته غير وجه الله والدار الآخرة، ينـوي بها حطامـاً من الـدنيا، ينوي بها تزلفاً لمخلوق، ينوي بها الحصول على الجاه بين الناس، وهكذا فإن هذه النية باطلة مبطلة للعمل. أما الركن الثاني و الشرط الثاني فهو متابعة الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولا يمكن أن تتحقق المتـابعـة إلا إذا كانت العبـادة موافقـة للشريعـة في أمور ستة: في سببها وجنسها وقدرها وصفتها وزمانها ومكانها، فإن خالفت الشريعة في واحد من هذه الأمور الستة لم يكن الإنسان متبعاً فيها لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فمن أحدث عبادة لسبب غير شرعي فإن عبادته غير مقبولة، بل مردودة عليه لقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[1] وهذا الحديث أساس لكل الأوصـاف التي ذكـرناها، ومن تعبَّد لله بجنس غير مشروع فإن عبـادته غير مقبولة، فلو أنَّ الإنسان ضحَّى بفرسٍ فإن أضحيته لا

(١) سبق تخريجه ص ٦٤ .

تُقبل، لأنه ضحَّى بجنسٍ غير مشروع، فإن الأضحية إنما تشرع من بهيمة الأنعام، من الإبل والبقر والغنم، ولا بد أن تكون موافقة للشرع في قدر العبادة، فمن تعبد لله بأمر زائد على ما شرعه فإن هذا الزائد لن يقبل. ثم قد يبطل العبادة كلها، وقد لا يبطلها، لو صلى الإنسان الظهر خمساً لم تقبل منه، لأنها على غير القدر الوارد في الشرع، وهذه الزيادة تبطل العبادة، لكن لو أخرج الفطرة صاعين من الطعام لم يثب ثواب الفطرة على كلا الصاعين، وإنما يكون أحد الصاعين هو الذي يثاب عليه ثواب الفطرة، والثاني يثاب عليه ثواب الصدقة، وهناك فرق بين الفطرة والصدقة، لأن الصدقة تطوع والفطرة فرض. والإنسان يثاب على الفرض أكثر مما يثاب على التطوع، ويدل على الفرض حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: **«فَرَضَ رسولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - زكاة الفطر طُهْرةً للصائم من اللغو والرَّفث وطُعْمَةً للمساكين، من أدَّاها قبل الصلاة فهي زكاةٌ مقبولةٌ، ومن أدَّاها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات»**[1] فلا بد أن تكون موافقة للشرع في صفتها، فإن خالفت الشرع في الصفة لم تكن مقبولة، لو أن الإنسان صلى فبدأ بالسجود قبل الركوع لم تكن صلاته مقبولة، لأن ذلك على خلاف

---

(١) أخرجه: أبوداود (٢/ ٢٦٢ - ٢٦٣) رقم (١٦٠٩)، وابن ماجة (١/ ٥٨٥) رقم (١٨٢٧).

الصفة التي ورد بها الشرع فتبطل الصلاة ولا تقبل، وكذلك على القول الراجح من أقوال أهل العلم، لو توضأ الإنسان فبدأ برجليه ثم رأسه ثم يديه ثم وجهه لم يكن وضوؤه مقبولاً، لأنه على غير الصفة الواردة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . لا بد أيضاً أن تكون الموافقة للشرع في الزمان، فلو تعبد الإنسان عبادة لله ـ عز وجل ـ في غير زمانها لم تكن مقبولة، لو أن الإنسان حج مثلاً في غير وقت الحج، لم يكن حجه مقبولاً، ولو زار أمكنة المناسك، لأنها في غير الوقت. لا بد أن تكون موافقة للشرع في مكانها، فلو اعتكف الإنسان في بيته لم يكن اعتكافه مقبولاً، لأنه لم يتبع فيه شريعة الله. والخلاصة أن العبادة لا تكون مقبولة إلا بموافقة الشرع، ولا تكون موافقة للشرع إلا إذا وافقت ما جاء به الشرع في السبب والجنس والقدر والصفة والزمان والمكان.

ثم قال تعالى: ﴿**الَّذي جَعَلَ لَكُم الأرضَ فراشاً والسماءَ بناءً وأنزَل من السماءِ ماءً فأخرجَ بهِ من الثمراتِ رزقاً لكم فلا تجعلوا للهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمون**﴾ هذه الآية تكملة للآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربَّكُم الذي خلَقكم والَّذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾ ففي الآية الأولى الإيجاد ﴿**الذي خلقكم والذين من قبلكم**﴾ وفي الآية الثانية الإمداد فإن الله تعالى خلقنا وأمدنا بالرزق الذي نتأهل به لإعداد أنفسنا لقبول شريعته، فذكر

الله ـ سبحـانـه وتعـالى ـ ما أمدنا به من المقر ﴿**الذي جعل لكم الأرض فراشـاً والسـماء بنـاءً**﴾ ومن الـرزق الذي به قوام البدن ﴿**وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم**﴾ وبتمام الإمداد يجب الاستعداد لما أمر الله به. ولهذا قال: ﴿**فلا تجعلوا لله أنـداداً**﴾ أي شركـاء في عبادته أو في شيء من حقوقه وخصائصه ﴿**وأنتم تعلمون**﴾ أي تعلمون أنه لا ندَّ له في ربوبيته، فإذا كنتم تعلمون أنه لا شريك له في ربوبيته فإن مقتضى ذلك ألا تجعلوا له شريكاً في عبادته، تتألهون إليه وتعبدونه وتتقربون إليه كما تتقربون إلى الله ـ عز وجل ـ.

فوائد وأحكام هذه الآية:

ـ في هذه الآية من الأحكـام أن الأرض جعلهـا الله تعالى فراشاً لبني آدم، جعلها قراراً مستقراً لا تميد ولا تضطرب، ولو كانت تميد أو تضطرب ما صحَّ أن تكون فراشاً يطمئن فيه الإنسان ويستوطن.

ـ من فوائـدهـا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل السماء بناء وسـمَّاها الله ـ عز وجل ـ في آية أخرى سقفاً محفوظة، فهي مبنية ومحفوظة بحفظ الله ـ عزَّ وجل ـ، وهو الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، فلولا أن الله أحكم البناء لوقع على الأرض، وهذا من نعمة الله علينا.

- ومن أحكامها إثبات أن الأسباب لها أثر في مسبباتها؛ لقوله تعالى حين ذكر إنزال الماء من السماء: ﴿**فأخرج به من الثمرات**﴾ أي أخرج بسببه، ولا يشك عاقل في أن للأسباب تأثيراً في مسبباتها، وهذا التأثير الذي أودعه الله في الأسباب هو من خلق الله -عز وجل- فمن أنكر تأثير الأسباب في مسبباتها فقد خالف ما هو معلوم ببداهة العقول، ومن جعل الأسباب مؤثرة بذاتها فقد أثبت مع الله شريكاً. ومن أثبت تأثير الأسباب لكن بإرادة الله تعالى ومشيئته فقد وافق الحق والواقع. وهذا هو المذهب الراجح الذي جرى عليه المحققون من أهل العلم خلافاً لمن قال: إن الأسباب لا تؤثر، وإن ما يحصل بها من الأسباب حاصل عندها لا بها، لأن هذا مكابرة للواقع. فهؤلاء يقولون: إن النار إذا أحرقت الورق لم تكن هي التي أحرقته، ولكن حصل الإحراق عندها لا بها، ونحن نقول: بل حصل الإحراق بها، لكن بأمر الله، فهو الذي خلق فيها هذه القوة المحرقة، ولو شاء الله تعالى لسلبها هذه القوة بدليل أن الله - سبحانه وتعالى - قال للنار التي ألقي فيها إبراهيم: ﴿**يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم**﴾[1] فكانت برداً وسلاماً عليه، برداً خلاف طبيعتها التي هي الحرارة، وسلاماً خلاف أثرها الذي هو الإحراق. قال بعض العلماء: ولو قال الله كوني برداً ولم يقل وسلاماً

---

(١) من الآية ٦٩ من سورة الأنبياء.

لأهلكه بردها. المهم أن في هذه الآية الكريمة إثبات الأسباب وتأثيرها على مسبباتها، ولكن من الذي جعل السبب مؤثراً؟ هو الله، والسبب هو المطر.

- وفي الآية الكريمة من الفوائد منة الله - سبحانه وتعالى - على عباده بهذا الماء النازل من السماء، حيث أخرج به من الثمرات رزقاً لنا ورزقاً لمواشينا أيضاً كما قال تعالى في سورة النحل: ﴿**هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون**﴾[1]. تسيمون: أي ترعون أنعامكم.

- ومن فوائد الآية الكريمة وجوب شكر المنعم؛ لقوله: ﴿**فلا تجعلوا لله أنداداً**﴾ أي هذا الذي أنعم عليكم يجب أن تشكروه وتوحدوه بالعبادة كما أنه هو الذي أنعم عليكم وحده فلا تجعلوا له أنداداً.

- وفي الآية الكريمة من الفوائد شدة اللوم على من اجترأ على المحرمات مع العلم؛ لقوله: ﴿**فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون**﴾ فإن من علم بالقبيح وتجرأ عليه أعظم جرماً وقبحاً ممن لم يعلم به ولو تجرأ عليه.

- وفي الآية الكريمة من الفوائد أيضاً أن الأرض التي يستولي

---

(١) الآية ١٠ من سورة النحل.

عليها الإنسان تكون ملكاً له قراراً، يؤخذ من قوله: ﴿**الذي جعل لكم الأرض فراشاً**﴾ وهواء من قوله: ﴿**والسماء بناءً**﴾ فكل ما كان فراشاً لـ «من الأرض» فإنما يقابله من السماء (بناء لـ»)، ولهذا قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: إن الهواء تابع للقرار أي أن من ملك أرضاً فله قرارها وله هواؤها إلى السماء، فلا يملك أحد من جيرانه أن يبني جناحاً يكون ظله على أرض الجار، بل قال العلماء: لو أن أغصان شجرة جارك صارت فوق بيتك فلك المطالبة بإزالة هذا الغصن.

ثم قال تعالى: ﴿**وإنْ كُنْتُمْ في ريبٍ مما نزَّلْنَا على عبدِنَا فأْتُوا بسورةٍ من مثلهِ وادعوا شهداءَكُمْ من دونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صادقينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ولَنْ تفعلوا فاتَّقوا النارَ التي وقودُها الناسُ والحجارةُ أُعِـدَّت للكافرين**﴾ هاتان الآيتان لهما ارتباط بما قبلهما من حيث المعنى، وذلك أن في الآيتين السابقتين تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله بإفراد الله تعالى بالعبادة. وفي هاتين الآيتين تحقيق رسالة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك في قوله: ﴿**وإن كنتم في ريب مما نزَّلنا على عبدنا**﴾ فالآيات الأربع متضمنة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والريب هو الشك مع القلق والضجر، والمراد بالعبد هنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وأشرف أوصافه عليه الصلاة والسلام وصفا العبودية والرسالة. وقد ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ وصف نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالعبودية في أعلى

مقـامـاتـه، فوصفه بالعبودية حال إنزال القرآن، وحال الإسراء، وحال المعراج، وحال التحدي والذود عنه، فقال في الحال الأولى: ﴿**الحمدُ لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً**﴾[1] وقـال: ﴿**تبـارك الـذي نزل الفـرقـان على عبده ليكون للعالمين نذيراً**﴾[2] وقال في الحالين الثانية والثالثة: ﴿**سُبحانَ الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى**﴾[3] وقال: ﴿**ثم دنا فتدلَّى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى**﴾[4]، وقال في الحال الرابعة مقام التحدي: ﴿**وإن كنتم في ريب مما نزَّلنَا على عبـدنا**﴾ والمراد هنا بها نزل القرآن الكريم ﴿**فأتوا بسورة من مثله**﴾ ولكنهم لن يستطيعوا ذلك. وقال: ﴿**وادعوا شهداءكم من دون الله**﴾ يعني كل من تقـدرون على الاستعانة به ممن تدعونهم أولياء أو شفعاء فادعوهم معكم ليعينوكم على أن تأتوا بسورة من مثله إن كنتم صادقين فيما تدعون من أن هذا القرآن ليس من عند الله، ولكنهم لن يفعلوا ذلـك، ولهـذا قال: ﴿**فإنْ لَمْ تفعلوا ولنْ تفعلوا فاتَّقـوا النـارَ التي وقودُها الناسُ والحجارة**﴾ أي فإن النار ستكـون مأواكم فاتقـوهـا واحذروها، وذلك بالرجوع إلى الحق،

---

(١) الآية ١ من سورة الكهف.

(٢) الآية ١ من سورة الفرقان.

(٣) من الآية ١ من سورة الإسراء.

(٤) الآيات (٨ ـ ١٠) من سورة النجم.

وتصديق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، هذه النار التي وقودها الناس، الناس المستحقون لها من الكفار والمنافقين. والحجارة هي حجارة عظيمة ليست كحجارتنا في الدنيا تحمى في نار جهنم فتزداد حرارة النار، ويزداد اشتعالها ـ والعياذ بالله ـ ﴿**أُعِدَّت للكافرين**﴾ يعني أعدها الله للكافرين به وبرسله، وكذلك للمنافقين كما قال تعالى: ﴿**إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً**﴾(١).

فوائد الآيتين الكريمتين:

ـ وفي هاتين الآيتين الكريمتين يبين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صادق فيما جاء به من الوحي، وأن هذا الوحي نازل من عند الله.

ـ ومن فوائدهما تحدي المكذبين لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ومن كان معهم من أعوانهم أن يأتوا بسورة من مثله، ولكنهم لن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً. قال أهل العلم: وتحدي الله المكذبين بالقرآن جاء على ثلاثة أوجه بل على أربعة، فتحداهم بالقرآن كله في قوله: ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**﴾(٢)

(١) من الآية ١٤٠ من سورة النساء.

(٢) الآية ٨٨ من سورة الإسراء.

وتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله، فقال تعالى: ﴿**أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور من مثله مفتريات**﴾[1] وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله كما في هذه الآية الكريمة ﴿**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله**﴾ وتحداهم أن يأتوا بأقل من ذلك كما في قوله تعالى: ﴿**فليأتُوا بحديثٍ مِثْلِهِ إنْ كانُوا صادقين**﴾[2] وكل هذه التحديات لم يتصدَّ لها أحدٌ من بلغاء الناس وفصحائهم في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ويدل هذا على صدق رسالته صلوات الله وسلامه عليه، وأن هذا القرآن ليس من عنده.

- ومن فوائد الآيتين الكريمتين إثبات علو الله - عزَّ وجل - لقوله تعالى: ﴿**مِمَّا نزَّلْنَا على عبدِنا**﴾ والنزول إنما يكون من الأعلى إلى الأدنى، وعلو الله - عزَّ وجل - ينقسم إلى قسمين: علو ذات وعلو صفة، فأما علو الذات فهو أن الله - سبحانه وتعالى - عالٍ على كل شيء، مستوٍ على عرشه الذي هو أعلى المخلوقات. وهذا العلو ثابت بالقرآن والسنة وإجماع السلف والعقل والفطرة. أما الكتاب فأدلته على علو الله بذاته أكثر من أن تحصى، وقد جاءت على وجوه متنوعة تحقيقاً لهذا العلو. وأما السنة فكذلك دلت على الله بذاته بأدلة كثيرة متنوعة، فمنها ما دلالته بالقول، ومنها ما دلالته

---

(1) من الآية ١٣ من سورة هود.

(2) الآية ٣٤ من سورة الطور.

بالفعـل، ومنها ما دلالته بالتقرير أي بإقرار الغير على ذلك. وأما الإجماع فقد أجمع السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الأمة، بل وعامة الأمة الذين بقوا على فطرتهم على علو الله تعالى بذاته ولم يقل أحد منهم: إن الله ليس في العالم ولا خارجه، بل كلهم يجمعون على أنه ـ سبحانه وتعالى ـ فوق كل شيء. وأما العقل فلأن العلو صفـة كمال لا شك في ذلك، فالله ـ عزَّ وجل ـ قد ثبت له جميع صفات الكمال كما قال تعالى: ﴿**ولله المثل الأعلى**﴾[1] وأما الفطرة فإن كل شيء مفطور على علو الله ـ عز وجل ـ حتى وإن لم يقرأ كتاباً أو يدرس على عالم. ألا ترى إلى الرجل إذا دعا الله تعالى يرفع يديه إلى السماء ويرفع قلبه كذلك إلى السماء بدون أن يدرسه أحدٌ ذلك، لأنه يعلم ذلك من فطرته. وقد ذكر أن أبا المعالي الجويني كان يقرر ويقول: إن الله كان ولا شيء وهو الآن على ما كان عليه. يريد أن ينكـر استواء الله على العرش، فقال له أبوالعلاء الهمداني ـ رحمه الله ـ : يا أستاذ دعنا من ذكر العرش وأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا ما قال عارف قط يا الله إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو، فلطم أبوالمعالي رأسه وجعل يقول: حيَّرني الهمداني حيَّرني الهمـداني. أي أن هذا دليل فطري على علو الله لا ينكره أحد، ولكن يجب أن نعلم أن الله تعالى فوق كل شيء، لكنه ليس

---

(١) من الآية ٦٠ من سورة النحل.

محصوراً بشيء كما يكون واحد منا فوق السطح فيكون محصوراً بجدران السطح، ولكن الله تعالى فوق كل شيء، وليس محصوراً بأي شيء من الأشياء، لأن الفوق المطلق ليس فيه شيء إلا الله ـ عزَّ وجل ـ .

وأما القسم الثاني ـ وهو علو الصفة ـ فمعناه أنه ما من صفة كمال إلا ولله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلاها وأكملها، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾[1] وقوله: ﴿**ولله المثلُ الأعلى**﴾[2] وقوله: ﴿**وله المثلُ الأعلى**﴾[3] ودلالة هذا القسم في كتاب الله وفي سنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفي إجماع الصحابة وفي العقل، وربما يكون في الفطرة دليلٌ عليه أيضاً. فأما الكتاب فذكرنا منه ما سبق وهو قوله تعالى: ﴿**وله المثلُ الأعلى**﴾[4] وقوله: ﴿**ولله المثلُ الأعلى**﴾[5] وقوله: ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾[6].

(١) الآية ١ من سورة الأعلى.
(٢) من الآية ٦٠ من سورة النحل.
(٣) من الآية ٢٧ من سورة الروم.
(٤) من الآية ٢٧ من سورة الروم.
(٥) من الآية ٦٠ من سورة النحل.
(٦) الآية ١ من سورة الأعلى.

وأما السنة فالأحاديث فيها كثيرة دالة على كمال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فقد حدث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن كمال الله وعن عظمة صفاته بأحاديث لا تحصى، وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول في سجوده: سبحان ربي الأعلى. أي يثبت له صفة العلو المطلق، وكما يشمل علو الذات أيضاً يشمل علو الصفات. وأما الإجماع فقد أجمع المسلمون على أن لله تعالى صفات الكمال من كل وجه. وأما العقل فلأن من المعلوم أنه لا يمكن أن يعبد باستحقاق العبادة إلا من كان كامل الصفات، ومن ثم أنكر إبراهيم الخليل على أبيه أن يعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئاً وقال: ﴿**ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً**﴾[1] لأن مثل هذا ناقص، والناقص لا يمكن أن يكون رباً يعبد لنقصه ولا أحد له الكمال المطلق سوى رب الأرض والسموات.

وأما دلالة الفطرة على علو الصفة فلأن الإنسان بفطرته يلجأ عند المصائب والشدائد إلى الله عز وجل لعلمه أن الله قادر على كشف هذه المصائب والشدائد.

ـ ومن فوائد الآية الكريمة ﴿**وإنْ كُنتم في ريبٍ مما نزَّلنا على عبدِنا**﴾ إثبات أن القرآن كلام الله، وذلك لأن القرآن كلام ليس عيناً قائمة بنفسها، وإنما هو كلام، وإذا كان نازلاً من عند الله لزم أن يكون كلام الله، وهذا هو الذي أجمع عليه السلف وأئمة الأمة، أن القرآن كلام الله غير مخلوق، فقد تكلم الله تعالى به حقيقة،

---

(١) من الآية ٤٢ من سورة مريم.

وسمعه جبريل من الله، وألقاه على قلب النبي - صلى الله عليه وسلم -، قال الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿**وإنَّه لتنزيلُ رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين**﴾[1] فبين الله في هذه الآية المُنَزِّل والمُنَزَّلُ والنازل به والنازل عليه واللغة التي نزل بها. خمسة أشياء فقال: ﴿**وإنه**﴾ أي القرآن المُنَزَّل ﴿**لتنزيل رب العالمين**﴾[2] هذا المُنَزِّل ﴿**نزل به الروح الأمين**﴾[3] هذا النازل به ﴿**على قلبك**﴾[4] هذا المُنَزَّل عليه ﴿**بلسان عربي مبين**﴾[5] هذه اللغة. فالقرآن جمع هذه الأوصاف كلها. إذن فهو كلام الله - عزَّ وجل - بهذه اللغة، اللغة العربية، و الكلام لا أحد يشك في أنه من صفات الكمال، فإن المتكَلِّم أكمل من الذي لا يتكلم، وبهذا احتجَّ السلف على من قالوا: إن القرآن مخلوق، فإنه لو كان مخلوقاً لم يكن هناك كمال في الله من هذا الوجه، فالكلام من الكمال.

ومن فوائد الآيتين الإشارة إلى فضل القرآن، حيث إنه كلام الله، فإن الكلام يَشْرُفُ بشرف من تكلَّمَ به، ولا سيما إذا كان هذا

---

(١) الآيات (١٩٢ - ١٩٥) من سورة الشعراء.

(٢) من الآية ١٩٢ من سورة الشعراء.

(٣) الآية ١٩٣ من سورة الشعراء.

(٤) من الآية ١٩٤ من سورة الشعراء.

(٥) الآية ١٩٥ من سورة الشعراء.

الكـلام متضمنـاً لمعـاني الأخـلاق، وكمال الآداب كما في القرآن الكـريم. ولا شك أن القرآن الكريم أصدق الكلام وأكمله من جميع الوجوه من حيث الفصاحة والجودة والنفع والحِكَم، ولو لم يكن منه إلا أنه كلام الله لكان كافياً في الشرف والفضل.

- ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين فضل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لكـونـه عبداً لله، ولا شك أن العبودية لله من أشرف المناقب، بل هي أشرف المناقب، ومن لم يكن عبداً لله صار عبـداً لهواه، لأن الإنسان لا بد أن يكون متذللاً لشيء، فإما أن يكون متذللاً لربه، وإما أن يكون متذللاً لهواه وشيطانه.

- ومن فوائدهما أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لا حقَّ له في شيء من خصائص الربوبية، لأن العبد خلاف الرب، فلا شيء لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - من خصائص الربوبية، فلا يملك نفعاً لأحد ولا دفع ضرر عنه، ولا يعلم الغيب وليس عنده خزائن الله، وقد أمره الله تعالى أن يعلن ذلك للملأ فقال: ﴿**قل لا أقـول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي**﴾[1] يعني ما أنا إلا رسول مُبلِّغ عامل بما أوحي إليَّ مبلغ له، وقال الله تعالى: ﴿**قل إني لا أملك لكم ضراً**

---

(١) من الآية ٥٠ من سورة الأنعام.

ولا رشداً قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً إلا بلاغاً من الله ورسالاته﴾[1] يعني لست إلا مبلغاً من الله سبحانه وتعالى ورسولاً من عنده، وأنا لا أملك لكم ضراً ولا رشداً. ولو كان يملك شيئاً لملك أن ينقذ من شاء من الهلاك والضلال، ويهدي من شاء، وهـذا ليس إليه كما قال الله تعـالى: **﴿ليسَ لكَ من الأمر شيء﴾**[2] وأمره تعالى أن يقول: **﴿قل لا أملكُ لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلمُ الغيب لاستكثرتُ من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾** [3].

ـ ويتفرع عن هذه الفائدة بيان ضلال أولئك الذين يتعلقون برســول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيدعـونـه ويستغيثـون به، ويرجون شفاء المرض وإزالة الضرر وحصول المطلوب، ويعرضون بذلك عن رب العالمين ـ عزَّ وجلَّ ـ ، كما أن بعضهم ربما يظن أن ما عند الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أقرب مما عند الله مع أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يملك من هذا الأمر شيئاً. وقد ضلَّ من هذا الوجه طائفتان: طائفة ادَّعت أن لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئـاً من خصوصيات الربوبية، وطائفة أخرى

---

(١) الآيات (٢١ ـ ٢٣) من سورة الجن.

(٢) من الآية ١٢٨ من سورة آل عمران.

(٣) الآية ١٨٨ من سورة الأعراف.

كذبت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقالت: إنه ليس برسول إما أنها نفت رسالته مطلقاً أو نفت عموم رسالته، وكلتا الطائفتين ضالتان، والحق أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عبد رسول، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. والعبودية تنقسم إلى قسمين: عبودية عامة، وعبودة خاصة. فالعبودية العامة هي التعبد للقدر، وهي العبودية الكونية القدرية التي تشمل كل المخلوقات، فما من مخلوقٍ إلا وهو عابد ذليل لقضاء الله وقدره حتى أكفر الخلق كما قال الله تعالى: ﴿**إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً**﴾[1] فكل الناس عبيد لله بالعبودية الكونية القدرية، وهذه لا يمدح الإنسان عليها، لأنها تكون قهراً عليه وبغير اختيار منه.

أما القسم الثاني فهو العبودية الخاصة، وهي التعبد لله تعالى بشرعه، وهذه لا تكون إلا من المؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً**﴾[2] وذكر بقية صفاتهم. وهذه العبودية فيها أيضاً ما هو أخص من مطلق العبودية، وهي عبودية الوحي والرسالة كما في هذه الآية الكريمة: ﴿**وإنْ كُنْتُمْ في ريبٍ مما نزَّلنا على عبدنا**﴾.

---

(١) الآية ٩٣ من سورة مريم.

(٢) الآية ٦٣ من سورة الفرقان.

- ومن فوائد الآيتين الكريمتين الفضيلةُ العظيمةُ لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بإضافة عبوديته إلى الله - عزَّ وجل - أي أن الله أضاف إليه عبودية محمد - صلى الله عليه وسلم - إنه عبده ولا شك، إن في هذا فخراً لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعزَّة ورفعة.

- ومن فوائد الآيتين الكريمتين أن من آداب المحاجة والمناظرة تحدي الخصم فإن الله تعالى يقول هنا: ﴿**فأتوا بسورةٍ من مِثْله**﴾ ولا شك أن في تحدي الخصم إظهاراً لضعفه وأنه لا يستطيع المقابلة، والتحدي طريق من طرق المناظرة المفيدة، ولكن ينبغي ألا يتحدى الإنسان أحداً إلا وهو واثق من أنه عاجز، لأنه لو أتى بالشيء على صيغة التحدي، ثم تبين قدرة المتحدَّى صار في ذلك انهزام شديد للمتحدي، ولهذا قال الله تعالى في هذه الآية: ﴿**فإنْ لم تفعلوا ولَنْ تَفْعلُوا**﴾ إشارة إلى أنهم عاجزون عما تُحدُّوا به، ولن يستطيعوا ذلك.

- ومن فوائد الآيتين الكريمتين أنه لا أحد يستطيع أن يأتي بسورة من مثل هذا القرآن ولو دعا من دعا إليه ليعاونه لقوله: ﴿**وَادعُوا شُهَدَاءَكُمْ من دونِ اللهِ**﴾ أي كل من تعبدونه وتستعينون به من دون الله فادعوهم ليكونوا معكم في الإتيان بسورة من مثله.

- ومن فوائد هاتين الآيتين أنه لن يستطيع أحدٌ من هؤلاء

المعارضين لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأتي بسورة من مثل ما جاء به الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقوله: **﴿فإن لم تَفْعَلُوا ولَنْ تَفْعَلُوا﴾**.

ـ ومن فوائدهما أنَّ من كابر وأصرَّ على عناده، وكذَّب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن النار مثواه لقوله: **﴿فاتَّقوا النَّارَ التي وقودُها الناسُ والحجارةُ﴾**.

ـ ومن فوائدهما أن يأتي المتكلم بما يقتضي التهديد لقوله: **﴿التي وقودُها الناسُ﴾** فإنه إذا قيل إن النار وقودها الناس فلا بد أن يحذر الإنسان منها ويخشى أن يكون من جملة الوقود.

ـ ومن فوائد الآيتين أن النار موجودة الآن؛ لقوله: **﴿أُعِدَّت للكافِرين﴾** فإنَّ الإعداد بمعنى التهيئة، ولا شك أنَّ الجنة والنار موجودتان الآن كما دلَّ على ذلك القرآن والسنة، فقال الله تعالى في الجنة: **﴿أُعِدَّتْ للمتقين﴾**(١) وقال في النار: **﴿أُعِدَّت للكافرين﴾**(٢) وعرضت الجنة والنار على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يصلي بالناس صلاة الكسوف ورأى في النار من يعذب. وكما أن الجنة والنار موجودتان الآن فهما باقيتان أبد

---

(١) من الآية ١٣٣ من سورة آل عمران.

(٢) من الآية ٢٤ من سورة البقرة.

الآبدين، لا تفنيان، لأن الله تعالى ذكر التأبيد في عدة آيات، فأما التأبيد في الجنة فالآيات في هذا كثيرة، وأما التأبيد في النار ففي ثلاث آيات من القرآن في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿**إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً**﴾[1] وفي سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿**إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً**﴾[2] وفي سورة الجن في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْصِ الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدينَ فيها أبداً**﴾[3] ولهذا كان من عقيدة أهل السنة والجماعة اعتقاد أن الجنة والنار موجودتان الآن، وأنهما لا تفنيان أبد الآبدين، وإن كان قد ذكر خلاف في أبدية النار فإنه خلاف مرجوح، فالراجح بل المتيقن القول بأن النار لا تفنى كما أن الجنة لا تفنى.

- ومن فوائد هاتين الآيتين أن القرآن الكريم سيبقى آية الأبد لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، لأن هذا التحدي الذي وقع به ثابت إلى يوم القيامة، فلن يستطيع أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن إلى يوم القيامة.

- ومن فوائد الآيتين الكريمتين الإشارة إلى أن هذا القرآن سيبقى، وذلك أنه قال: ﴿**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فاتَّقُوا النَّارَ التي وقُودُهَا النَّاسُ والحِجَارةُ**﴾ وإذا كان وقودها الناس، وهو يشمل

---

(١) الآية ١٦٨ ومن الآية ١٦٩ من سورة النساء.

(٢) الآية ٦٤ ومن الآية ٦٥ من سورة الأحزاب.

(٣) من الآية ٢٣ من سورة الجن.

الناس إلى يوم القيامة المخالفين لهذا القرآن دلَّ هذا على أن القرآن ثابت ومتحد لجميع الناس إلى يوم القيامة، وأن من خالفه فسيكون وقود النار.

- ومن فوائد الآيتين إثبات الجزاء فيدل على إثبات اليوم الآخر وهو أحد أركان الإيمان الستة، التي هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر: خيره وشره.

- ثم قال تعالى: **﴿وبَشِّر الَّذينَ آمَنوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أنَّ لَهُمْ جَنَّات تجري مِنْ تَحْتِها الأنهارُ كُلَّمَا رُزقوا منها من ثمرةٍ رِزْقاً قالُـوا هذا الَّذي رُزِقْنا مِنْ قَبْل وأُتُوا بهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فيها أزواجٌ مُطَهَّرَةٌ وهُمْ فيها خَالِدون﴾**.

هذه الآية الكريمة لها ارتباط بما قبلها، فإن الله - سبحانه وتعالى - بَيَّنَ فيما سبق أن النَّار أُعدت للكافرين، وكان هذا القرآن الكريم مثـاني تُثَنَّىٰ فيه المعاني، فإذا ذُكِرَ الثوابُ ذُكِرَ العقابُ، وإذا ذُكِرَ الكفر ذكر الإيمان، وهكذا كما قال الله تعالى: **﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني﴾**[1].

وفي هذه الآية الكـريمة يقول الله - عز وجل - : **﴿وبَشِّر الَّذين**

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة الزمر.

آمنوا﴾ وهنا الخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - أو لكل من يتأتى خطابه، فهو مأمور بالبشارة إن كان للرسول - صلى الله عليه وسلم - فكل من خلفه في العلم والدعوة فإنه يمكن أن يقوم بهذه البشارة، والبشارة فيها الإخبار بما يسر، وسُميت بذلك لأن الإنسان إذا أخبر بما يسره ظهر ذلك على بشرته. وهنا المُبَشَّرُ «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» والمُبشَّرُ به «جنات تجري من تحتها الأنهار» والمُبَشِّرُ الرسول عليه الصلاة والسلام، و الآمر بالتبشير هو الله - عزَّ وجل - . والذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الذين جمعوا بين الاستسلام الباطن والاستسلام الظاهر. الاستسلام الباطن في الإيمان والظاهر في عمل الصالحات، وجمعوا أيضاً بين الإخلاص والمتابعة فالإخلاص في القلب، وهو أمر باطن، والمتابعة في الجوارح وهو أمر ظاهر. فالبشرى لمن جمع بين الأمرين، بين الصلاح في الباطن والصلاح في الظاهر، والصالحات هي الأعمال التي اشتملت على الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - .
أما الإخلاص لله فأن ينوي الإنسان بعمله وجه الله والدار الآخرة، وامتثال أمر الله، وأما المتابعة فأن يكون متبعاً لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما يقول ويفعل ويذر، ولا تتحقق المتابعة إلا بموافقة العبادة للشريعة في أمور ستة: السبب والجنس والقدر والكيفية والزمان والمكان. فمن تعبَّدَ لله تعالى عبادة بسبب، مقيدة بسبب لم ترد به الشريعة فعبادته مردودة عليه غير مقبولة منه كما لو تعبَّد

الإنسان لله بذبح شاة تقرباً إلى الله تعالى عند مناسبة لا يشرع فيها ذلك، فإن هذا يكون غير مقبول عند الله، لقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «**مَنْ عملَ عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ**»[1] فإذا ضحَّى الإنسان بفرس لم تقبل منه، لأنها ليست من جنس مما يُضحَّى به شرعاً. ولو زاد الإنسان في عبادته لم تُقبل منه هذه الزيادة، لأنها ليست على أمر الله ورسوله، ولو فعل العبادة على غير الوجه الذي وردت عليه لم تُقبل منه كما لو توضَّأ مُنَكِّساً مثلاً، فإن ذلك لا يُقبلُ منه، لأنه على خلاف ما جاء عن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، ولو ضَحَّى في غير وقت الأضحية لم تُقبلْ منه، لأنها في غير الزمان المعين للأضحية، ولو اعتكف في غير المسجد لم يقبل منه، لأنه ليس في المكان الذي خُصِّصَ شرعاً للاعتكاف، فإذن لا تتحقق المتابعة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا إذا تضمنت العبادة هذه الأمور الستة. وقوله: ﴿**لَهُمْ جَنَّاتٌ تجري من تحتها الأنْهار**﴾ الجنات: جمع جنة، وجُمعت لاختلاف أنواعها وأسمائها وأحوالها، والأصل في معنى جنَّة أنها البساتين كثيرة الأشجار، لأنها تجن من فيها لكثرة أشجارها وأغصانها، والمراد بالجنة ـ التي ذكرها الله هنا ـ دار النعيم التي أعدها الله تعالى للمتقين. والأنهار التي تجري من تحتها أي من أسفلها وتحت

---

(1) سبق تخريجه، ص ٦٤ .

القصور والأشجار. أربعة أصناف بينها الله تعالى في قوله: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن﴾[1] أي غير متغير ﴿وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مُصَفًّى﴾[2] وبيَّن الله تعالى أنه كلما رزقوا من هذه الثمرات رزقاً قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل، لأنه يشبهه في اللون والحجم فيقولون: هذا الذي رزقنا من قبل، ولكنهم إذا طعموه تبيَّنَ لهم أنه غيره، وهذا من تمام لذة الآكلين إذا أتوا بالطعام أو بالثمر متشابهاً ولكنه يختلف في الذوق صار في هذا شيء من اللذة، ولهذا قال: ﴿وأُتوا به مُتَشَابِهاً﴾ وبيَّنَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - أنَّ فيها أزواجاً مطهرة، مطهرة الظاهر والباطن، فهي مطهرة الباطن من الحقدعلى زوجها والكراهة له، وفي الظاهر من كل قذر وأذى، وتمام هذا النعيم أنهم فيها خالدون.

فوائد هذه الآية:

- في هذه الآية الكريمة من الحِكَم والفوائد أنه ينبغي أن يُبشَّر العامل بما يستحق من الثواب، لأن ذلك أبلغ في نشاطه ومثابرته على العمل.

---

(١) من الآية ١٥ من سورة محمد.

(٢) من الآية ١٥ من سورة محمد.

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن البشرى بالجنة لا تكون إلا لمن آمن وعمل، فمجرد العقيدة لا تكفي للبشارة بالجنة، بل لا بد من إيمانٍ وعملٍ، ولهذا يربط الله تعالى - دائماً - الإيمان بالعمل الصالح.

- ومن فوائد الآية الكريمة أنه كلما كان الإنسان أقوى إيماناً وأكثر عملاً كان أحق بالبشارة بالجنة، وذلك لأنَّ الحكم المعلق على وصف يقوى بقوة ذلك الوصف، ويضعف بضعفه.

- ومن فوائد الآية الكريمة أن الأعمال الفاسدة لا ترفع صاحبها ولا تنفعه، بل هي حرام عليه، لأنها نوع من الاستهزاء بالله -عزوجل- ويتفرع على هذه الفائدة أنه لا يجوز للإنسان مثلاً أن يصلي بلا وضوء أو يصلي بنجاسة لا يُعفى عنها، لأن ذلك من العمل الفاسد، وإذا فعله صار كالمستهزىء بالله.

- ومن فوائد الآية الكريمة أن هؤلاء المؤمنين العاملين للصالحات جزاؤهم الذي يبشرون به هذه الجنات العظيمة التي تشتمل على كل خير. وقد بيَّن الله تعالى في آيةأخرى أن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

- ومن فوائد الآية الكريمة أن هذه الجنات فيها القصور الشامخة والأشجار العالية لقوله: ﴿مِنْ تحتها الأنهار﴾ فإن «التحت»

لا بد أن يكون له فوق، ومعلوم أن هذه الأنهار لا تجري من أصل أرض الجنة، ولكنها تجري من تحت ما فيها من الأشجار والقصور، وقد قال الله تعالى في سورة الرحمٰن ﴿**حور مقصورات في الخيام**﴾[1] وبَيَّنت السنة هذه الخيام الجميلة الرفيعة.

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن في الجنة أنهاراً لقوله: ﴿**تجري من تحتها الأنهار**﴾ وأن فيها ثماراً لقوله: ﴿**كُلَّما رُزِقوا منها من ثمرةٍ رِزْقاً قالوا هَذا الذي رُزقنا من قبل**﴾ ولكن هذه الأنهار وهذه الثمار لا تشبه - في الحقيقة - ما في الدنيا من الأنهار والثمار، فهي تختلف عنها اختلافاً عظيماً لا يمكن أن يدركه الإنسان بحسّه في الدنيا كما قال الله تعالى: ﴿**فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون**﴾[2] وكما في الحديث القدسي: «**قال اللهُ: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[3] وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «ليس مما في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء».

وقوله تعالى: ﴿**فيهما فاكهة ونخل ورمان**﴾[4] النخل والرمان

---

(١) الآية ٧٢ من سورة الرحمن.

(٢) الآية ١٧ من سورة السجدة.

(٣) الحديث أخرجه: البخاري (١٣/٥٦٩) رقم (٨٤٩٨)، ومسلم (٤/٢١٧٤) رقم (٢٨٢٤)، وابن ماجة (٢/١٤٤٧) رقم (٤٣٢٨)، والترمذي (٥/٣٧٣) رقم (٣٢٩٢) وقال: «حسن صحيح»، والدارمي (٢/٣٣٥).

(٤) الآية ٦٨ من سورة الرحمن.

والفاكهة موجودة في الدنيا، لكن تختلف كما أن الحياة هناك تختلف عن حياة الدنيا. انظر مثلاً إلى الناس في هذه الدنيا يحتاجون إلى النوم مثلاً، وفي الجنة لا يحتاجون إلى النوم فلا ينامون، تصيبهم الأمراض والأوصاب في الدنيا، وفي الجنة لا تصيبهم، في الدنيا إذا سقط الإنسان في النار احترق ومات، وفي الآخرة إذا سقط في النار فإنه - وإن احترق ونضج جلده من النار - لا يموت ﴿**كلما نضجت جلودهم بدَّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إنَّ الله كان عزيزاً حكيماً**﴾[1].

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة كما يتنعمون بالطعم يتنعمون أيضاً باللون، حيث يؤتى إليهم بهذه الفواكه المتشابهة ثم إذا أكلوها صارت مختلفة عما سبق. وهذا يعطي الإنسان زيادة في اللذة وشهوة الطعام.

- ومن فوائد الآية الكريمة أن في الجنة أزواجاً مطهرة يتلذذ الإنسان بهن ويتمتع بهن، كما قال الله تعالى: ﴿**إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك مُتَّكِئُون لهم فيها فاكهةٌ ولهم ما يدَّعون سلام قولاً من رب رحيم**﴾[2] وقال تعالى في سورة الرحمن: ﴿**فيهما من كل فاكهة**

---

(١) من الآية ٥٦ من سورة النساء.

(٢) الآيات (٥٥ - ٥٨) من سورة يس.

زوجان فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان مُتَّكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنى الجنتين دان فبأي آلاء ربكما تكذبان فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾[1] وهذا يدل على أنهم يتلذذون بهذه الزوجات في الجلوس على الأرائك والاتكاء عليها مع تقديم الفواكه من الولدان والخدم.

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة خالدون فيها. وقد بينت الآية الأخرى أن هذا الخلود خلود أبدي ﴿لا يبغون عنها حولاً﴾[2] ولا يخرجون منها.

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة الحث على الإيمان والعمل الصالح والتريث فيه، لأن الأمر بالبشارة في الجنة لمن آمن وعمل صالحاً يقتضي حث هؤلاء المبشرين على الإيمان والعمل الصالح.

ثم قال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بعوضة فما فوقها فأَمَّا الَّذينَ آمنوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحقُّ مِنْ رَبِّهم وأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فيقولونَ مَاذا أَرادَ اللهُ بهذا مثلاً يُضِلُّ به كثيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الفَاسِقِينَ﴾

---

(١) الآيات (٥٢ ـ ٥٦) من سورة الرحمن.

(٢) من الآية ١٠٨ من سورة الكهف.

في هذه الآية يقول الله تعالى: ﴿إنَّ الله لا يسْتَحي أنْ يضربَ مثلاً﴾ أي مثل كان، وذلك لأن الأمثال التي يضربها الله للناس فيها من العبر والمصالح ما يجعل ضربها من الحكم العظيمة التي ينتفع بها العباد، فقد ضرب الله مثلاً بالعنكبوت، ومثلاً بالذباب وهنا قال: ﴿بعوضَةً فما فَوْقها﴾ وقال الله تعالى: ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإنَّ أَوْهَنَ البيوت لبيت العنكبوت﴾[1] وقال الله تعالى: ﴿يا أيها الناس ضُرِبَ مثلٌ فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضَعُفَ الطالب والمطلوب﴾[2] والرب -عز وجل- يضرب هذه الأمثال من أجل العبر ومصالح العباد، ولهذا لا يستحي أن يضرب هذه الأمثال وإنْ قلَّت، قال هنا: ﴿بعوضة فما فوقها﴾ البعوضة: واحدة البعوض وهو معروف. و«ما فوقها» كالذباب والعنكبوت. فالله لا يستحي من ذلك، لأنه حق، والله تعالى لا يستحي من الحق، لما في هذه الأمثال من المصالح والمنافع العظيمة.

- ثم يبين الله تعالى في هذه الآية أن الناس انقسموا نحو هذه الأمثال إلى قسمين: ﴿فأمَّا الَّذينَ آمنوا فَيَعْلَمونَ أَنَّهُ الحقُّ مِنْ

---

(١) من الآية ٤١ من سورة العنكبوت.

(٢) الآية ٧٣ من سورة الحج.

رَبِّهم﴾ لما تتضمنه هذه الأمثال من المصالح والمنافع. ﴿**وأمَّا الذين كفـروا فيقـولون ماذا أراد اللهُ بهذا مَثَلاً**﴾ يقولون ذلك استهزاء وسخرية واحتقاراً لهذه الأمثال، وبيَّن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن الله تعالى يضل بهذا المثل من يشاء، بل يضل به كثيراً ممن اقتضت حكمته أن يضله، ويهدي به كثيراً ممن اقتضت حكمته أن يهتدوا، ولهذا قال: ﴿**ومـا يُضِلُّ به إلا الفَاسقين**﴾ الخارجين عن طاعة الله. في هذه الآية الكريمة إشارة إلى انتفاء استحياء الله ـ عز وجل ـ من الحق، وهذا يدل على أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يستحي من غير الحق، لأن الحياء من غير الحق وصف كمال، والله ـ سبحانه وتعالى ـ مُتَّصِفٌ بصفات الكمال، ولهذا جاء ثبوت الحياء لله في حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إنَّ الله حَييٌّ كريمٌ يستحي إذا رفعَ الرجلُ إليه يديه أنْ يردهما صفراً خائبتين**»[1] فالحياء هنا ثابت لله في هذا الحديث نطقـاً صحيحـاً بدلالـة المنـطوق وفي الآية الكريمة ﴿**إنَّ اللهَ لا يَسْتحي أنْ يضربَ مَثَـلاً ما بَعـوضة**﴾ ثابت لله بطريقة المفهوم، والحياء كسائر صفات الله يجب على الإنسان اعتقاد ثبوته لله ـ عزَّ وجل ـ، لأن الله أثبته لنفسه، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم بنفسه

---

(١) الحديث رواه: الترمذي (٥/ ٥٢٠) رقم (٣٥٥٦) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وأبوداود (٢/ ١٦٥) رقم (١٤٨٨)، وابن ماجة (٢/ ١٢٧١) رقم (٣٨٦٥) والحاكم (١/ ٦٧٥) وصححه.

وبغيره، فإذا أخبر عباده بصفة من صفاته وجب عليهم قبول هذه الصفـة، ولا يجوز لهم أن يعارضوها بما يظنونه عقلاً وهو وهم في الواقع، وذلك لأن كلام الله اجتمعت فيه كل الصفات التي تستلزم قبول الخبر، فإنه صادر عن تمام العلم وتمام النصح والبيان وكمال الفصاحة، وكمال الصدق، فالكمالات التي تكون في الكلام هي هذه الأوصـاف الأربعـة: العلم، والصـدق، وحسن الإرادة والقصد، والفصاحة والبيان. أما العلم فلا أحد يشك أو ينكر أن الله تعـالى أعلم بنفسـه من غيره. وأمـا الصدق فكلام الله تعالى أصـدق الكلام. وأما الفصاحة فكلام الله تعالى أفصح الكلام. ولهذا عجز العرب ـ مع كمال فصاحتهم ـ عن الإتيان بمثله. وأما الإرادة فقد قال الله تعالى: ﴿**يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**يبين الله لكم أن تضلوا**﴾[2] أي لئلا تضلوا ﴿**والله بكل شيء عليم**﴾[3] فإذا أخبرنا الله تعالى عن صفة من صفاته وجب علينا قبول هذا الخبر باعتقاد مدلوله، ولا يجوز لنا أن نحرِّف معناه إلى ما يخالف ظاهره إلا بدليل من كتاب

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة النساء.

(٢) من الآية ١٧٦ من سورة النساء.

(٣) من الآية ١٧٦ من سورة النساء.

الله أو سنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهذه هي الجادة التي بنى أهل السنة والجماعة عقيدتهم عليها .

•

فوائد هذه الآية الكريمة :

ـ من فوائد هذه الآية ضرب الأمثال بتقريب المعقولات ، لأن الأمثال تكون أموراً محسوسة يستدل بها على الأمور المعقولة .

ـ ومن فوائدها أنه ينبغي لمن أراد الإيضاح والبيان ، وكان ذلك يتوقف على ضرب المثل أن يبين ذلك بالمثل كما قال الله تعالى : **﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾** [1] وقال الله تعالى : **﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾** [2].

ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن الناس ينقسمون فيما ضرب الله من أمثال إلى قسمين : قسم مصدق مؤمن موقن بأن ذلك حق ، وقسم آخر مستكبر ساخر يقول : **﴿ماذَا أرادَ اللهُ بهذا مَثَلاً﴾** هكذا أخبر الله في هذه الآية ، وهذا هو الواقع ، ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى : **﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيُّكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما**

---

(١) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت .

(٢) من الآية ٥٨ من سورة الروم .

الـذين في قلوبهم مرضٌ فزادتهم رجسـاً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾[1] فهذا القرآن ينقسم الناس فيه إلى هذين القسمين، فمن اهتدى به فقد وفق، ومن ضلَّ عنه واستكبر فقد حُرِم خيراً كثيراً.

ـ ومن فوائـد الآية الكـريمـة أن الهداية والإضلال بيد الله ﴿يُضِلُّ به كَثيراً ويَهْدي به كثيراً﴾ وأخبر الله بذلك من أجل أن نلجأ إليه. وهذه فائدة تترتب على ما سبق، وهي اللجوء إلى الله تعالى لطلب الهداية منه والعصمة من الضلال، وألا يعتمد الإنسان على نفسه فيزكيها ولا يرى لله عليه فضلاً بالهداية، فالهداية بيد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن هداية الله وإضلاله مبنيان على الحكمة، لأن الله لا يضل إلا من كان أهلاً للإضلال، وهم الفاسقون، ونظير هذا قول الله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[2] فمن كان طالباً للخير، وسَلَكَ الأبواب التي توصله إليه، بل وسلك الطرق التي توصله إليه وُفِّقَ له، ومن فسد وأعرض فلا يلومنَّ إلا نفسه.

---

(١) الآيتان ٢٤ و ٢٥ من سورة التوبة.

(٢) من الآية ٥ من سورة الصف.

ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿**إنَّ الله لا يستحي أنْ يضربَ مَثَلاً ما بَعوضةً فما فوقها**﴾ إثبات الإرادة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، والإرادة المضافة إلى الله تنقسم إلى قسمين: إرادة شرعية، وإرادة كونية. فالإرادة الشرعية هي التي بمعنى المحبة مثل قوله تعالى: ﴿**والله يريد أن يتوب عليكم**﴾[1] والإرادة الكونية هي التي بمعنى المشيئة مثل قوله تعالى: ﴿**إن كان الله يريد أن يغويكم**﴾[2] ومثل قوله تعالى: ﴿**ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد**﴾[3] والفرق بينهما أن الإرادة الشرعية تتعلق فيما أحبه الله سواء وقع أم لم يقع، والإرادة الكونية فيما قدَّره وقضاه سواء كان يحبه أم لم يحبه، والفرق الثاني أن الإرادة الشرعية قد يقع فيها المراد وقد لا يقع، والإرادة الكونية يقع فيها المراد بكل حال، لأن الله تعالى إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ولا معقب لحكمه وهو السميع العليم.

ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة إثبات الأسباب لقوله: ﴿**وما يُضِلُّ بهِ إلا الفاسقين**﴾ فكان فسقهم سبباً في إضلال الله لهم.

ـ ومن فوائدها الحذر من الفسق وهو الخروج عن طاعة الله.

---

(١) من الآية ٢٧ من سورة النساء.

(٢) من الآية ٣٤ من سورة هود.

(٣) من الآية ٢٥٣ من سورة البقرة.

والفسق قد يكون كفراً مثل قوله تعالى: ﴿أفمن كانَ مؤمناً كمن كانَ فاسِقاً لا يستوون أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تُكذِّبون﴾[1].

ثم قال الله تعالى في وصف هؤلاء الفاسقين:

﴿الَّذينَ ينقضونَ عهدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ميثاقِهِ ويَقْطَعُونَ ما أَمَر اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ويُفسدونَ في الأرضِ أُولئِكَ هُم الخاسِرون﴾ هذه من أوصاف أهل الفسق، ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه. وعهدُ اللهِ الذي عهد إلى عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، فقد ركز الله تعالى في فطرة كل إنسان أن الرب هو الله -عز وجل-، وأنه هو الذي يجب أن يُعبد كما جاء في الحديث الصحيح: «ما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه»[2]. ومن أوصافهم أنهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل من حقوقه وحقوق عباده، فهم لا يبالون بقطيعة شريعة الله والبعد عنها، بل يحرصون غاية الحرص على أن يصدُّوا عن سبيل الله من آمن ويبغونها عِوَجاً،

---

(١) الآيات (١٨ - ٢٠) من سورة السجدة.

(٢) أخرجه: البخاري (٨/٦٥٨) رقم (٤٧٧٥)، ومسلم (٤/٢٠٤٧) رقم (٢٦٥٨) وغيرهما.

وهم كذلك يقطعون ما أمر الله به أن يوصل: من الأقارب والجيران واليتامى والمساكين وغير ذلك، لأنهم لا يؤمنون بما عند الله من الأجر والثواب، ومن فعل منهم شيئاً من هذه الصلات، صلات الخلق، فإنما يفعلها لا من باب التعبد، ولكن من باب العادة أو السجيَّة التي تقتضيها طبيعة المجتمع. وأما الوصف الثالث من أوصاف أهل الفسق فهو أنهم يفسدون في الأرض بالمعاصي، فإن المعاصي سبب الفساد في الأرض كما قال الله تعالى: **﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾**[1] فالفساد في الأرض ليس بتكسير الجسور وحفر الخنادق للسقوط فيها وما أشبه ذلك من الفساد، ليس بهذا فحسب، بل بكل معصية يعصون الله بها، لأنها سبب للفساد في الأرض. ثم بيَّن الله نتيجة هؤلاء ومآلهم فقال: **﴿أولئك هم الخاسرون﴾** وذلك لأن الربح إنما يكون لمن اتصف بالصفات الموجبة كما قال الله تعالى: **﴿والعصرِ إنَّ الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾**[2].

---

(١) الآية ٤١ من سورة الروم.

(٢) سورة العصر.

فوائد هذه الآية الكريمة:

- وفي هذه الآية الكريمة من الفوائد بيان أوصاف الفسقة، بل بيان شيء من أوصافهم، وهو أنهم ينقضون عهد الله بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض.

- ومن فوائدها التحذير من هذه الصفات؛ لأنها صفات الفاسقين الذين هم أهل الضلال، وهم المستحقون لإضلال الله إياهم.

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة وجوب الوفاء بعهد الله. ومَنْ أوفى بعهد الله أوفى الله بعهده كما قال الله تعالى في بني إسرائيل: **﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإيَّايَ فارهَبون﴾**[1].

- ومن فوائدها وجوب صلة ما أمر الله بصلته، وعلى رأس ذلك صلة الأرحام الشاملة لبر الوالدين، وصلة من عداهما. فالواجب على المسلم أن يصل ما أمر الله به أن يوصل. ولا شك أن في صلة ما أمر الله به أن يوصل فائدة عظيمة، فإن من وصل رَحِمَهُ وصله الله، ومن قطع رَحِمَهُ قطعه الله، فعلى المرء أن يكون قائماً بالقسط والعدل حتى تحصل له الصلة من الله - عزَّ وجلَّ -، ومن

(١) الآية ٤٠ من سورة البقرة.

وصله الله فهو على خير.

- ومن فوائـد هذه الآية الكريمة الإشارة إلى أن الإفساد في الأرض من صفات الفاسقين، وعلى هذا فيكون الإصلاح في الأرض من أوصاف أهل الخير والعدل والاستقامة، فيتفرع على هذه الفائدة أنه يجب على الإنسان أن يبتعد عن كل ما يكون سبباً للإفساد ويسعى في كل ما يكون سبباً للإصلاح.

- ومن فوائـد هذه الآية الكـريمـة أن هؤلاء المتصفين بهذه الصفات: الفسق وما أضيف إليه من هذه الأوصاف هم الخاسرون الذين لا ربح لهم في الدنيا وفي الآخرة.

ثم قال تعالى:

﴿**كيفَ تكفرونَ باللهِ وكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتكم ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إليهِ تُرْجَعُونَ**﴾ في هذه الآية استفهامٌ بمعنى التعجب والإنكار لأولئك القوم الذين يكفرون بالله وهم يعلمون أنهم كانوا أمواتاً فأحياهم الله ـ عزَّ وجل ـ، كانوا أمواتاً قبل أن ينفخ الله فيهم الروح، لأن الإنسان قبل نفخ الروح فيه ميت جماد فيحييه الله ـ عزَّ وجل ـ بنفخ الروح فيه، ويخرج إلى هذه الدنيا ويعمل ويكدح ثم يميته الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ثم يحييه الحياة الآخرة التي ليس بعدها موت ويرجعه إليه ليعطيه ما عمل. إن في هذه الآية الكريمة الإنكار على

أولئك الذين كفروا بالله مع أنه ـ عزَّ وجل ـ اعتنى بهم هذه العناية فأوجدهم من العدم، وأحياهم من الموت، وكان من الواجب عليهم أن يقوموا بشكر هذا الْمُنْعِم عليهم ـ سبحانه وتعالى ـ .

فوائد هذه الآية الكريمة:

ـ من فوائد هذه الآية أن الإنسان قبل أن ينفخ فيه الروح ميت جماد لا يتعلق فيه حكم من أحكام الأحياء، ويتفرع على ذلك أنه لو سقط قبل أن تنفخ فيه الروح في بطن أمه، فإنه لا يغسل ولا يكفن ولا يُصلى عليه، ولا يدفن مع الناس، لأنه عبارة عن قطعة لحم، يدفن في أي مكان من الأرض، ولا يحتاج إلى تسمية، ولا إلى عقيقة. فإن قال قائل: متى تكون الحياة فيه؟ فالجواب: أنها تكون إذا تم له أربعة أشهر كما يدل على ذلك حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: حدثنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الصادق المصدوق ـ قال: «**إنَّ أحدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بطنِ أُمه أربعينَ يوماً ثُمَّ يكون عَلَقَة مثل ذلك، ثُمَّ يكون مضغة مثل ذلَك، ثُمَّ يبعثُ اللهُ مَلَكاً بأربع كلماتٍ ويقال له: اكتب عمله ورزقه وشقي أو سعيد**»[1] فالأربعون الثلاث تكون أربعة أشهر.

---

(١) الحديث رواه: البخاري (٦/٣٧٣) رقم (٣٢٠٨) و (٤/٢٠٣٦) رقم (٢٩٤٣)، والترمذي (٤/٣٨٨) رقم (٢١٣٧)، وابن ماجة (١/٢٩) رقم (٧٦).

- ومن فوائد هذه الآية بيان قدرة الله - عزَّ وجلَّ - بإحياء الموتى، فإنه لا أحد يستطيع إحياء الموتى إلا الله - عزَّ وجلَّ -، ولهذا لما حاجَّ إبراهيم ذلك الرجل الذي حاجَّهُ في الله قال له إبراهيم: ﴿ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت﴾[1] فبين له إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن ربه هو الذي يحيي ويميت، لأنه لا يملك ذلك إلا الله، وأما قول هذا المحاج ﴿أنا أحيي وأميت﴾[2] فهذا من باب التلبيس والتمويه، حيث زعم أنه يستطيع الإحياء والإماتة، ولما كان هذا أمراً قد يخفى على الناس أو يلتبس عليهم قال له إبراهيم: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فَبُهِتَ الذي كفر﴾[3].

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة تقرير البحث بأحسن حجة، وذلك أن الإنسان كان جماداً ميتاً، ثم أحياه الله، ثم يميته مرة ثانية، ثم يحييه، فالقادر على إحيائه أول مرة قادرٌ على إحيائه في المرة الثانية كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[4] وقال تعالى: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام

---

(١) من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة.

(٤) الآية ٢٧ من سورة الروم.

وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾[1].

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة إثبات الرجوع إلى الله تعالى للمجازاة على العمل، لقوله: **﴿ثُمَّ إليه تُرجعون﴾**.

- ومن فوائدها أنه ينبغي للإنسان أن يستعد لهذه الرجعة إلى الله، لينظر ماذا يقابل به ربه، فليحرص على ألا يفقده الله حيث أمره، أو يراه حيث نهاه، لأنه سوف يرجع إلى الله وينبئه بعمله.

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن الموت قد يطلق على الشيء الذي لم تسبق موته حياة لقوله: **﴿وكُنْتُمْ أمواتاً فأحياكُمْ﴾** فإن المراد بالميت هنا من لم تنفخ فيه الروح.

ثم قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: **﴿هُو الَّذي خَلَقَ لَكُمْ ما في الأرض جَميعاً ثُمَّ استوى إلى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سموات وهُو بكُلِّ شَيْءٍ عليم﴾** وقوله تعالى: **﴿هُو الَّذي خَلَقَ لَكُمْ ما في الأرضِ﴾** أي أوجده لكم لمنافعكم ومصالحكم عناية بكم ورحمة، و«ما» هنا اسم موصول عام شامل لكل ما في الأرض. وأكد هذا العموم بقوله: **﴿جَميعاً﴾** ثم بعد خلق هذا **﴿استوى إلى السماء﴾** فهو مع علوه ـ عزَّ وجلَّ ـ على هذه السموات السبع لا يخفى عليه شيء في

---

(١) الآيتان ٧٨ و ٧٩ من سورة يس.

الأرض ولا في السماء، بل هو بكل شيء عليم. وهذه الآية لها صلة بما قبلها حيث تدل على عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ بنا، وتيسيره وتسهيله.

فوائد هذه الآية الكريمة:

ـ أن الخالق هو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ **﴿هُو الذي خَلَقَ لكم ما في الأرضِ جَميعاً﴾** وأنه لا خالق إلا الله، وقد تحدَّى الله ـ سبحانه وتعالى ـ الخلق أن يخلقوا شيئاً ولو قلَّ كما في قوله: **﴿إنَّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾**[1] وكما في قوله تعالى: **﴿أفرأيتم ما تمنون أأَنتم تخلقونه أم نحنُ الخالقون﴾**[2] وقوله: **﴿أفرَأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحنُ الزارعون﴾**[3] وقوله تعالى: **﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾**[4] وقوله: **﴿أفرأيتم النار التي تورون أأَنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون﴾**[5] فالله تعالى هو الخالق لكل ما في الأرض.

---

(١) من الآية ٧٣ من سورة «المؤمنون».
(٢) الآيتان ٥٨ و ٥٩ من سورة الواقعة.
(٣) الآيتان ٦٣ و ٦٤ من سورة الواقعة.
(٤) الآيتان ٦٨ و ٦٩ من سورة الواقعة.
(٥) الآيتان ٧١ و ٧٢ من سورة الواقعة.

- ومن فوائد الآية الكريمة أن الأصل في كل ما في الأرض من أعيان ومنافع الحِلُّ والإباحة، لأن اللام بمعنى الإباحة هنا، فكل ما في الأرض فالأصل فيه الحل من الأعيان والمنافع، ومن ادعى تحريم شيء منـه فعليه الدليل، وهذه القاعدة قاعدة مهمة نافعة تنفعك في كثير من المسائل، فعندما يختلف اثنان في حِلِّ هذا المأكول أو تحريمـه نقـول: الأصل الحِلُّ، فمن يدَّعي أنـه حرام فعليه الـدليل. وعندما يختلف اثنان في عمل في الأرض: من حراثة أو غيرها فإننا نقول: الأصل الحِلّ إلا ما قام الدليل على تحريمه، وعلى هذه القاعدة يجوز للإنسان أن يتمتع بكل ما في الأرض من مأكول ومشروب ولا حرج عليه في ذلك إلا أن يقوم دليل على التحريم. ولو تنازع رجلان في حلٍّ حيوان فقال أحدهما: هذا حلال، وقال الثاني: هذا حرام فإن القول قول من يقول بأنه حلال حتى يوجد مدَّعي التحريم دليلاً على أنه حرام.

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة بيان فضل الله - عزَّ وجلَّ - على عباده حيث وسَّع لهم هذه التوسعة البالغة بأن كل ما في الأرض فهو حلال لهم.

- ومن فوائـدها أن الأرض خلقت قبل السماء لقوله تعالى: ﴿**خَلَقَ لَكُمْ ما في الأرضِ جَميعاً ثم استوى إلى السماءِ فسواهنَّ**﴾ وهذا هو الذي تدل عليه آية فصلت كما قال تعالى: ﴿**قل أإنكم**

لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها ولـلأرض ائتيـا طوعاً وكرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها﴾[1]

وأما قوله تعالى:

﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم﴾[2] فإنه لا ينافي هذه الآية ولا آية فصّلت لأن قوله: **﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾** يدل على أن دَحْوَ الأرض كان بعد خلق السماء. وأما خلق الأرض فإنه كان سابقاً على خلق السماء.

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة إثبات علو الله - عزَّ وجلَّ - بذاته لقوله: **﴿ثُمَّ استوى إلى السَّماءِ﴾** وقد سبق أن ذكرنا هذا، وأنه - سبحانه وتعالى - فوق عباده، وأن له العلو المطلق، علو الذات، وعلو الصفة، فعلو الذات هو أنه - سبحانه وتعالى - فوق كل شيء، وعلو الصفة هو أن جميع صفاته عليا كاملة ليس فيها نقص وهذا

---

(١) الآيات (٩ - ١٢) من سورة فصلت.

(٢) الآيات (٢٧ - ٣٣) من سورة النازعات.

مذكور في عدة آيات من القرآن في قوله: ﴿**قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم**﴾(١) وفي قوله: ﴿**الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن**﴾(٢) وأما الأرض فلم تذكر صريحاً بهذا العدد في القرآن الكريم. ولكن في القرآن إشارة إلى أنها سبع، وذلك في قوله تعالى: ﴿**الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن**﴾(٣) فإن المثلية هنا ليست في الصفة ولا في الحجم، لأن السماء أعظم من الأرض وأوسع وأكبر، ولكنها في العدد، وأما السنة فقد جاءت صريحة بأن الأرضين سبع: «**من اقتطع شِبْراً من الأرضِ ظُلْماً طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يومَ القيامة من سبع أرضين**»(٤).

- ومن فوائد الآية الكريمة عموم علم الله، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ عليم بكل شيء، وهذا مكرر في القرآن الكريم كثيراً، مثل قوله تعالى: ﴿**ولتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً**﴾(٥) وهذا العلم علم كامل ليس فيه نقص بوجه من الوجوه لقوله تعالى: ﴿**إنَّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في**

---

(١) الآية ٨٦ من سورة «المؤمنون».

(٢) من الآية ١٢ من سورة الطلاق.

(٣) من الآية ١٢ من سورة الطلاق.

(٤) رواه: البخاري (٦/ ٣٦٠) رقم (٣١٩٦)، ومسلم (٣/ ١٢٣٠) رقم (١٦٠٩) واللفظ له.

(٥) من الآية ١٢ من سورة الطلاق.

السماء﴾[1] وقوله: ﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء﴾[2].

ثم قال الله تعالى: ﴿وإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ في الأرض خَليفةً قالُوا أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِد فيها ويَسْفِكُ الدماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بحمدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ قال إِنِّي أعلمُ ما لا تَعْلَمُون﴾.

في هذه الآية الكريمة يبيِّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لعباده ما جرى بينه وبين الملائكة حول خلق آدم وذريته فيقول: ﴿وإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ وهذا التركيب كثير في القرآن أعني «إذ» التي تُبدأُ بها القصة، قال أهل العلم: وهي منسوبة لفعل محذوف تقديره «اذكر» ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ للملائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ في الأرض خليفةً﴾ والملائكة هم عالم غيبي خُلقوا من نور، خلقهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لعبادته فقاموا بها، فكانوا يسبحون الليل والنهار ولا يفتُرون، وقد ذكر الله تعالى أنه جعلهم رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع. قال لهم ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿إني جاعلٌ في الأرض خليفة﴾ خليفة لمن سبقه، وذلك لأن الجان قد سبق خلقهم خلق آدم كما قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار

---

(١) الآية ٥ من سورة آل عمران.

(٢) من الآية ٦١ من سورة يونس.

السموم﴾[1] وكان الجن قد أفسدوا في الأرض، وسفكوا الدماء، فلما قال الربُّ ـ عزَّ وجلَّ ـ للملائكة: **﴿إني جاعِلٌ في الأرضِ خَلِيفَةً﴾** قالـوا مستفهمين: **﴿أَتَجعلُ فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾** مستفهمين بهذا الاستفهام، لأنهم يعلمون أن الله تعالى لن يفعل شيئاً إلا لحكمة فقال الله لهم: **﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُون﴾** يعني أن عنده ـ عزَّ وجلَّ ـ من العلم ما ليس عند الملائكة، وهو عالم ـ جلَّ وعلا ـ بأن هذه الخليقة سيكون منها الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ونعم الخليفة يكونون لمن سبقهم.

فوائد وأحكام الآية الكريمة:

ـ إثبات القول لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وأنه يقول بصوت مسموع وحروف متتالية، لأن هذا هو الكلام المعروف في اللغة العربية التي نزل بها القـرآن الكـريم، وعلى هذا جرى السلف الصالح ومن تبعهم من الأئمـة بأن الله تعـالى يتكلم بكـلام مسموع بحروف متتـالية، وأنه يقول كذلك قولاً بحروف متتابعة وصوت مسموع والأدلة على ذلك كثيرة جداً.

ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة عناية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ برسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وذلك بإضافة ربوبيته تعالى إليه أي

---

(١) الآيتان ٢٦ و ٢٧ من سورة الحجر.

إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث قال: **﴿وإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلمَلَائِكَةِ﴾** والربوبية الخاصة تقتضي عناية أكثر وأتم، وذلك أن ربوبية الله تعالى عامة وخاصة، فالعامة الشاملة لجميع الخلق المقتضية للملك والتدبير، تدبير شئون الخلق عموماً مثل قوله تعالى: **﴿قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس﴾**[1] فقال: **﴿قل أعوذ برب الناس﴾**[2] عموماً الآيات في هذا كثيرة. وأما الربوبية الخاصة فهي التي يضيفها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى سادات البشر كالأنبياء ونحوهم.

ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة إثبات الملائكة لقوله: **﴿وإذ قال ربك للملائكة﴾** وأن الملائكة لهم عقول، فهم يتكلمون ويحاورون، فإن الله تعالى قال لهم: **﴿إني جاعِلٌ في الأرضِ خليفة قالوا أتجعلُ فيها﴾** وفي هذا إبطال لقول من قال: إن الملائكة عبارة عن القوى الخيرية أو الخيِّرة، وليست أجساماً تتكلم أو تسمع، فإن هذا قول باطل يرده الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

ـ ومن فوائد الآية الكريمة إثبات قيام الأفعال بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ لقوله: **﴿إنِّي جاعِلٌ في الأرضِ خليفةً﴾** فإن الجعل يقتضي

---

(١) سورة الناس.

(٢) الآية ١ من سورة الناس.

إيجاداً بعد عدم، وهو كذلك، والله -عز وجل- موصوف بصفات الذات اللازمة لذاته وبصفات الأفعال المتعلقة بمشيئته وحكمته، هذا هو مذهب السلف وأئمة الأمة.

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة الإشارة إلى أن للأرض عُمَّاراً قبل آدم وذريته لقوله تعالى: ﴿**إني جاعلٌ في الأرضِ خليفةً**﴾ أي يخلفون من سبقهم.

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن الأمم السابقة على آدم وذريته كان فيهم من الشر والفساد وسفك الدماء ما اقتضى أن تسأل الملائكة ربها -عزَّ وجلَّ-، هل يجعل في هذه الخليفة من يكون كمن سبقهم لقولهم: ﴿**أَتجعلُ فيها مَنْ يُفسِدُ فيها ويسْفِكُ الدِّمَاء**﴾.

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة تعظيم شأن الدماء، ولهذا خصَّتها الملائكة بالذكر في قولهم: ﴿**مَنْ يُفسدُ فيها ويسفكُ الدماءَ**﴾ وإلا فمن المعلوم أن سفك الدماء من الفساد في الأرض، لكن لما عطف على العام وهو خاص دلَّ ذلك على أهميته، وأنه من أعظم الفساد في الأرض.

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن الملائكة -عليهم الصلاة والسلام- قد شغلوا أوقاتهم في تسبيح الله وتقديسه، وتسبيحُ اللهِ

معناه تنزيهه عن كل عيبٍ ونقصٍ ، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ منزَّهٌ عن العيوب والنقائص سواء أكان النقص في صفة كماله أو كان نقصاً مستقلاً، وكذلك نقول في العيوب، فينزه الله تعالى عن الوصف بالعجز والجهل والعمى والموت وما أشبه ذلك من الصفات الناقصة. وتُنزه صفاته الكاملة عن أن يلحقها شيءٌ من النقص، ولهذا قال الله تعالى: ﴿**ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب**﴾[1] فمع خلق هذه المخلوقات العظيمة في هذه المدة القصيرة لم يلحقه ـ عزَّ وجلَّ ـ لغوب وهو التعب والإعياء. وينزه ـ عزَّ وجلَّ ـ عن مشابهة المخلوقين، لأن مشابهة الناقص نقص، قال الله تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾[2]. إذن الذي ينزه الله عنه ثلاثة أشياء: مشابهة المخلوقين، والنقص المجرد، والنقص في صفات كماله. وقولهم أي الملائكة: ﴿**نقدِّسُ لك**﴾ ولم يقولوا: ﴿**نُقَدِّسُكَ**﴾ يُستفادُ منه إخلاص الملائكة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فإن اللام هنا للاختصاص، وإلا فإن الفعل يتعدى بنفسه، لكن عُدِّيَ باللام إشارة إلى إخلاصهم، وأن التقديس خالص لله تعالى وحده.

ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة بيان كمال علم الله لقوله:

---

(١) الآية ٣٨ من سورة ق.

(٢) من الآية ١١ من سورة الشورى.

﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُون﴾ وفي ذلك ردٌّ على مَنْ إذا مروا على مثل هذه الآية التي فيها اسم التفضيل حولوا اسم التفضيل إلى اسم فاعل. وقالوا «اعلم» أي «عالم»، فإن هذا صرف للكلام عن ظاهره بلا دليل. وفي الوقت نفسه هو تنقيص من المعنى، لأن أفعل التفضيل يمنع المشاركة في الكمال، لكن اسم الفاعل لا يمنع المشاركة في الوصف، بل لا يمنع المساواة أيضاً والمماثلة، وفي هذا دليلٌ على نقص علم المخلوق، وعلى هذا فإذا أشكل عليك شيء فَكِلْ علمه إلى من هو بكل شيء عليم، وهو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ .

ثم قال الله تعالى: ﴿وعَلَّمَ آدَمَ الأسماءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الملائكةِ فقالَ انبئوني بأسماءِ هؤلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقين قالوا سُبحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إلاَّ ما عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العليمُ الحكيمُ﴾.

يخبر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في هاتين الآيتين عن تعليمه لآدم، وهو أبوالبشر الأسماء كلها. فقد علَّمه أسماء كل شيء يحتاج إليه البشر، ثم عرض هذه المسميات على الملائكة فقال: ﴿انبئوني﴾ أي أخبروني ﴿بأسماءِ هَؤلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادقين﴾ ليريهم ـ عزَّ وجلَّ ـ مقدار علمه، وأن علمهم ناقص، حيث جهلوا أسماء هذه المسميات، فإذا جهلوا أسماء هذه المسميات فإنهم بجهل المستقبل لهذه الخليقة التي أخبرهم الله تعالى بأنه سيجعها فى الأرض من باب أولى وأحرى. وقال: ﴿عَرَضَهُمْ﴾ ولم يقل «عرضها» أي الأسماء، لأنه عرض عليهم المسميات كما يدل عليه قوله: ﴿فقالَ انبئوني

بأسـماءِ هؤلاءِ إنْ كُنْتُمْ صادقين﴾ فيما عندكم من العلم، ﴿قالوا سُبْحَانَكَ﴾ أي ننزهك أن يكون لدينا علم بشيء ﴿لا عِلمَ لنا إلا ما علمتنا إنَّكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ﴾. ففي هاتين الآيتين إظهار الله ـ عزَّ وجل ـ لفضل آدم، حيث علَّمهُ ـ سبحانه وتعالى ـ أسماء كل شيء يحتاج إليه لقوله: ﴿وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كُلَّها﴾.

فوائد هاتين الآيتين:

ـ حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ في امتحان الملائكة بعرض هذه المسميات التي عَلَّمَ آدم بأسمائها حتى يتبين نقصان علمهم.

ـ إثبات كلام الله ـ عزَّ وجل ـ وأنه بصوت مسموع، وحروف متتابعة في قوله: ﴿أنبئوني بأسماءِ هؤلاءِ إنْ كُنْتُمْ صادِقين﴾.

ـ تنزيه الملائكة لله ـ عزَّ وجل ـ وتعظيمهم له، لقولهم: ﴿سُبحانَكَ﴾ وقد سبق فيما مضى ذكر ما ينزه الله عنه من النقائص والعيوب ومماثلة المخلوقين.

ـ أن جميع العلوم التي عند المخلوقات من عند الله لقول الملائكة: ﴿لا عِلمَ لنا إلا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ وإن كان هذا في الملائكة الذين لهم من المزية والفضل ما هم أهل له فغيرهم من باب أولى، ولهذا لا أحد يحيط بعلم الله كما قال الله تعالى: ﴿اللهُ لا إلهَ إلا هُوَ

الحيُّ القيّومُ لا تأخذهُ سِنَةٌ ولا نومٌ لهُ ما في السموات وما في الأرض مَنْ ذَا الَّذي يشفعُ عِنْدَهُ إلَّا بإذْنِه يعلمُ ما بَيْنَ أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيءٍ من عِلْمِهِ إلَّا بما شاءَ وسعَ كرسيه السموات والأرض ولا يَؤودُهُ حِفْظُهما وَهُوَ العليُّ العظيم﴾[1].

- ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين إثبات اسمين من أسماء الله وهما «العليم» و«الحكيم»، فأما العليم فهو ذو العلم الكامل المحيط بكل شيء، وقد سبق لنا بيان إحاطة الله تعالى بكل شيء جملة وتفصيلاً. وأما الحكيم فهو من الحكم والإحكام أيضاً، فالله تعالى له الحكم في الأولى والآخرة، له الحكم الكوني والشرعي، فلا حاكم في الخلق إلا الله، ولا حاكم بينهم إلا الله، وأما الحكمة، أو الإحكام فهو إتقان الشيء بحيث يكون كل شيء في موضعه، ولهذا قالوا: الحكمة هي وضع الشيء في مواضعه، وبذلك يتبين كمال الله - عز وجل - في العلم والحكمة.

ثم قال الله تعالى: ﴿قالَ يا آدمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسمائِهِم فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أعلمُ غَيْبَ السمٰواتِ والأرضِ وأَعْلَمُ مَا تُبدونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُون﴾.

في هذه الآية ينادي اللهُ - عزَّ وجلَّ - آدم فيأمره أن ينبىء الملائكة بأسماء هؤلاء المسميات من أجل أن يظهر فضل آدم بما

(١) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة.

أعـطاه الله من علم هذه الأسـماء ومسمياتهـا، فلما أنبـأهم آدم بأسمائهم أي بأسماء هذه المسميات قال الله تعالى مخاطباً الملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غيب السَّمـوَاتِ والأرضِ﴾ أي ما غاب في السمـوات والأرض عن مشاهدة غير الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ويشمل هذا ما غاب عن المخلوقين في مكان آخر ليسوا فيه وما غاب عن المخلوقـين من علم المستقبل، وكون الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يعلم غيب السمـوات والأرض يقتضي ـ في الأولوية ـ أن يكون عالماً بالشهادة، وقـال: ﴿وأَعْلَمُ مَا تُبْـدُونَ ومـا كُنْتُمْ تَكْتُمـون﴾ أي ما تبـدونه وتظهرونه وما كنتم تكتمون فلا تبدونه.

من أحكام وفوائد هذه الآية:

ـ إثبات كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وأنه يتكلم بصوت مسموع وحروف متتابعة، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة أن الله يتكلم بصوت مسموع وحروف متتابعة، يسمعه المخاطب ويفهمه.

ـ وفيها من الفوائد العظيمة الرد على من زعم أن كلام الله هو المعنى النفسي القائم بالنفس، فإن الكلام بهذا المعنى ليس بكلام ولا يسمع.

ـ ومن فوائـد هذه الآية الكـريمـة فضـل آدم عليه الصلاة والسلام بما علمه ـ سبحانه وتعالى ـ من هذه الأسماء ومسمياتها.

- ومن فوائدها أيضاً مِنَّة الله - سبحانه وتعالى - على الملائكة بما أظهر لهم من علمه، وأنه محيط بكل شيء، فإن من تمام نعمة الله على عبده أن يبين له الحق بالطرق التي يطمئن إليها. ولو شاء الله - عزَّ وجل - لم يبين الحق، ولترك الإنسان يعمه ويضيع في ضلاله. ويتفرع على هذا أنه يجب على الإنسان أن يشكر الله - سبحانه وتعالى - على ما يعلمه من الحق الذي قد يضل عنه كثير من الناس.

- ومن فوائد الآية الكريمة إثباتُ عموم علم الله لقوله: **﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِي أَعْلَمُ غيبَ السمواتِ والأرض﴾** وذلك أن العالم بالغيب عالم بالشهادة من باب أولى.

- ومن فوائدها - أيضاً - تذكير المخاطب بما كان من قبل، لأن الله تعالى قال للملائكة: **﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِني أعلمُ غيبَ السمواتِ والأرض﴾** يقرر ذلك - عز وجل - عليهم ليبيِّن لهم أن ما قاله لهم هو الحق المطابق للواقع.

- ومن فوائدها عمومُ علمِ الله - سبحانه وتعالى - بما فعله خلقه؛ لقوله: **﴿وأعلمُ ما تبدون وما كُنْتُمْ تكتمون﴾**.

- ومن فوائد الآية الكريمة أن للملائكة إرادة وقدرة على أعمالهم وأفعالهم، وهذا فيه تكذيب دعوى من ادّعى أن الملائكة ليس لهم عقول، بل الملائكة لهم عقول بلا شك، ولهم إرادات،

ولهم قدرة على الأعمال، يُؤخذُ هذا من قوله: ﴿**وأَعْلَمُ ما تُبدون وما كُنْتُمْ تكتمـون**﴾ فإن هذا يدلُّ على أن الملائكة تبدي ما تبدي، وتكتم ما تكتم، وهذا لا يكون إلا عن علم وإرادة وقدرة.

ثم قال تعالى: ﴿**وإِذْ قُلْنَا للملائِكةِ اسجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبْلِيسَ أَبَى واسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرين**﴾.

في قوله: ﴿**وإِذْ**﴾ كلمة مُقدَّرةٌ يبينها السياق، والتقدير «واذكر إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» يعني اذكر هذه القضية منوهاً بفضل آدم عليه الصلاة والسلام، حيث أمرت الملائكة أن يسجدوا له تعظيماً واعترافاً بما وهبه الله من الفضل، لكن هذا السجود ليس سجود عبادة يكون كسجود المخلوق للخالق، بل وسيلة تعظيم مجرد من التعبد. وقوله: ﴿**وإِذْ قُلْنَا للملائكةِ**﴾ يشمل جميع الملائكة، لأن الأصل في صيغة العموم أن تكون شاملة لجميع أفرادها ما لم يكن هناك دليل على التخصيص أو إرادة التخصيص. وبَيَّنَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ أن الملائكة لما أمروا بالسجود لآدم سجدوا ولم يستنكفوا عن أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلا إبليس فإنه أَبَى واستكبر، أَبَى أن يسجد، واستكبر عن السجود، والجمع بين الإباء والاستكبار يدل على أن إباءه لم يكن لعذر أو لمانع يُعذرُ به، وإنما كان عن استكبار في قلبه. وقد بَيَّنَ اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ في آيات أخرى سبب إبائه واستكباره حيث قال: ﴿**أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقتَهُ من**

طين﴾[1] وقال: **﴿أَأَسْجُدُ لمن خلقت طيناً﴾**[2].

وقوله هنا: **﴿إلَّا إبليس﴾** اختلف أهلُ العلم في هذا الاستثناء هل هو استثناء متصل أم هو استثناء منفصل؟ فمنهم من قال: إن الاستثناء هنا متصل، لأنه الأصل في الاستثناء، أي أن الأصل في الاستثناء أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه.

ومنهم من قال: إن الاستثناء منقطع أي أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه. واستدل هؤلاء بقوله تعالى: **﴿إلا إبليسَ كانَ من الجن ففسقَ عن أمرِ ربه﴾**[3] فقال: «إن إبليس كان من الجن» ويقول النبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**خُلِقت الملائِكةُ من نورٍ وخُلِقَت الجانُّ مِنْ مارجٍ مِنْ نَارٍ وخُلِقَ آدمُ مما وصف لكم**»[4] وهذا القول أرجح، لكنه يشكل عليه كيف يكون إبليس من غير الملائكة ويصح أن يتوجه إليه الخطاب في قوله: **﴿اسْجُدُوا لآدَمَ﴾**؟ والجواب عن هذا أن نقول: صحَّ أن يتوجه إليه الخطاب، لأنه كان في عامتهم أي أنه كان معهم يعمل بعملهم، ويتعبد كما يتعبدون، لكن غلب عليه الطبع الخبيث، فلما أُمِرَ بالسجود لآدم رأى أنه فوق مرتبة آدم، وأن الأعلى لا يمكن أن يُعظِّم الأدنى، فحمله إعجابه

---

(١) من الآية ١٢ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٦١ من سورة الإسراء.

(٣) من الآية ٥٠ من سورة الكهف.

(٤) الحديث أخرجه مسلم (٤/٢٢٩٤) رقم (٢٩٩٦).

بنفسه، واحتقاره لآدم على أن يستكبر عن أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وبهـذا يزول الإشكـال. وهنـا قال: ﴿أَبَى واسْتَكْـبَرَ وكـانَ مِنَ الكـافِـرِين﴾ كان من الكافرين بإبائه واستكباره، وعلى هذا فلا تكـون «كـان» هنا دلالة على المضي. ومنهم من قال: إنَّ «كان» دالةعلى المضي ولكنه كان في علم الله من الكافرين. والأول أصح، أي أن المراد بها مجرد بيان اتصاف اسمها لخبرها، وهذا موجود في القرآن كثيراً، أي أن تأتي «كان» مسلوبة الدلالة على الزمن، ويكون المراد بها مجرد تحقيق الصفة، ويقع ذلك كثيراً في صفات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ألم تر إلى قوله: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾[1] وقوله: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾[2] مع أنه لم يزل ولا يزال كذلك؟

فوائد هذه الآية الكريمة:

- بيان فضيلة آدم حيث أُمر الملائكة الكرام بأن يسجدوا له.

- أن عبادة الله هي طاعته حتى في الأمر الذي لولا أمره به لكان شركاً، فالسجود لغير الله شرك، ولكن إذا كان بأمر الله كان

---

(١) من الآية ١٧ ومن الآية ٩٢ ومن الآية ١٠٤ ومن الآية ١١١ ومن الآية ١٧٠ من سورة النساء، ومن الآية ٤ من سورة الفتح.

(٢) من الآية ٩٦ ومن الآية ١٠٠ ومن الآية ١٥٢ من سورة النساء، ومن الآية ٧٠ من سورة الفرقان، ومن الآية ٥ ومن الآية ٥٠ ومن الآية ٥٩ ومن الآية ٧٣ من سورة الأحزاب ومن الآية ١٤ من سورة الفتح.

طاعة، كما أن قتل النفس التي حرم الله بغير حق من كبائر الذنوب، وإذا وقع امتثالاً لأمر الله كان من الطاعة، فهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أمره الله أن يقتل ابنه، وقتله من كبائر الذنوب بلا شك ومع ذلك كان امتثال إبراهيم لهذا الأمر من أرفع المقامات لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، ولكن الله - عزَّ وجلَّ - ابتلاه واختبره بهذا الأمر العظيم، وعلم - جلَّ وعلا - أنَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام منفذ لأمره حتى تلَّه للجبين ليذبحه فنزل الفرج من الله - سبحانه وتعالى - بنسخ هذا الأمر ﴿وَفَدَيْنَاهُ بذبحٍ عظيم﴾[1].

- ومن فوائد الآية الكريمة إجراء الأحكام على الظاهر، وأن من كان متظاهراً بعمل قوم فهو منهم ظاهراً. ولهذا صحَّ توجه الخطاب من الله للملائكة، إلى إبليس مع أنه ليس من جنسهم، لكنه لما كان فيهم يعمل عملهم توجه الخطاب إليه. وهكذا كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يعامل من تلبس بالإسلام ظاهراً معاملة المسلمين، ولهذا لم يقتل المنافقين مع أنهم كفار كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بأَنَّهُمْ آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾[2] لكنه عليه الصلاة والسلام عاملهم معاملة الظاهر.

---

(١) الآية ١٠٧ من سورة الصافات.

(٢) الآية ٣ من سورة «المنافقون».

ـ وفي هذه الآية الكـريمـة من الفـوائـد الحذر من الرجس والسريرة الخبيثة، لأن إبليس غلبه ما في قلبه من الرجس والسريرة الخبيثـة حتى استكـبر وأبى فرجع إلى أصله، فالواجب على المرء الحذر من مثل هذه السريرة التي تكون في القلب، وأن يصقل قلبه دائماً منها حتى لا توقعه في الهلاك. وقد صحَّ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهـل النـار، ففي الصحيحين عن سهل بن سعد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ «**أنَّ رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مالَ رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى عسكره ومالَ الآخرون إلى عسكرِهِم، وفي أصحاب رسول الله رجُلٌ لا يدع لهم شاذَّةً ولا فاذَّة[1] إلا اتَّبَعها يضربها بسيفه، فقالوا: ما أجزأ منا اليومَ أحدٌ كما أجزأ فلانٌ، فقال رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «أما إنَّهُ من أهلِ النار» فقال رجلٌ من القومِ: أنا صاحِبهُ، قال: فخرج معه كُلَّما وَقَفَ وَقَفَ معه، وإذا أَسرعَ أَسرعَ معـه، قال: فجُـرِحَ الـرجـلُ جرحاً شديداً، فاستعجلَ الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض وذُبابَهُ[2] بين ثَدْييه، ثُمَّ تحامل على سيفه**

---

(١) أي أنه لا يدع أحداً، على طريق المبالغة. قال ابن الأعرابي: يقال فلان لا يدع شاذة ولا فاذة إذا كان شجاعاً لا يلقاه أحد إلا قتله.

(٢) ذباب السيف هو طرفه الأسفل.

فقتل نفسه، فخرج الرجلُ إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: أشهدُ أنَّكَ رسولُ الله، قال: «وما ذاك؟» قال: الرجل الذي ذكرت آنفاً أنه من أهلِ النارِ، فأعظم الناسُ ذلك، فقلتُ: أنا لكم به، فخرجتُ في طلبه، ثُمَّ جُرِحَ جرحاً شديداً فاستعجلَ الموت فوضعَ نصلَ سيفه في الأرضِ وذُبَابَهُ بين ثَدْييه ثُمَّ تحامل عليه فقتلَ نفسه. فقال رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند ذلك: «إنَّ الرجُلَ ليعملُ عملَ أهلِ الجَنَّةِ فيما يبدو للناسِ وهو من أهلِ النَّار، وإنَّ الرجل ليعمل عملَ أهلِ النار فيما يبدو للناس وهو من أهلِ الجنَّة»[1] وهذا يدل على أن في قلب الرجل سريرة أدت به إلى أن يقتل نفسه. فالواجب على المرء أن يتفقد قلبه في كل وقت وفي كل حين حتى يطهره ويمحصه؛ لئلا تسوء خاتمته.

ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن ترك السجود لله ـ عزَّ وجلَّ ـ كفر، وقد استدل بهذه الآية من قال: إن تارك الصلاة يكفر، فقال: إن إبليس كفر لترك سجدة واحدة أُمر بها لغير الله أيضاً فما بالك بمن يترك صلاةأمر اللهُ بها وأن تكون لنفسه ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فيكون كفره من باب أولى، والاستدلال بهذه الآية على هذه المسألة فيه شيء من البحث والنظر والله أعلم.

(١) أخرجه: البخاري (٦/١١١ ـ ١١٢) رقم (٢٨٩٨)، ومسلم (١/١٠٦) رقم (١١٢).

ثم قال الله تعالى: ﴿**وَقُلْنَا يا آدم اسكُنْ أَنْتَ وزوجك الجَنَّةَ وَكُلا منها رَغَداً حيثُ شِئتُما وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشَّجَرة فَتَكُونَا مِنَ الظالمين**﴾.

في هذه الآية الكريمة يخبر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنه قال لآدم ممتناً عليه: ﴿**اسكُنْ أَنْتَ وزوجك الجنَّة**﴾ وزوجه هي حواء التي خلقها الله تعالى من ضلع آدم، فهي من أب بلا أم، والمراد بالجنة إما جنة الخلد التي هي مأوى المتقين، وإما جنة في الدنيا بستان ذو أشجار كثيرة، للعلماء في هذا قولان، القول الأول: أنها جنة المأوى التي هي مأوى المتقين، والقول الثاني أنها جنة في الدنيا في الأرض وهي عبارة عن بستان ذي أشجار كثيرة، والأقرب ـ والله أعلم ـ أنها جنة المأوى، جنة الخلد التي وعد المتقون، لأنها هي المعلومة عند الإطلاق، والأصل أنه إذا كان للفظ معنى ومفهوم عند الإطلاق فإنه يُحمَلُ عليه إلا بدليل على خلاف ذلك، وهذه القاعدة مفيدة في علم التفسير وغيره، أن الأصل في النصوص حملها على ما هو معلوم ومفهوم حتى يقوم دليلٌ على خلاف ذلك. وأذن الله لهما أن يأكلا من هذه الجنة رغداً بطمأنينة وسعة وكثرة حيث شاءا من أي مكان إلا أنه ـ سبحانه وتعالى ـ نهاهما عن قرب شجرة عينها لهما بالإشارة فقال: ﴿**ولا تَقْرَبَا هَذِهِ الشجرة**﴾ ولم يبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ جنس هذه الشجرة، لأنه ليس هناك ضرورة إلى معرفة جنسها، المهم معرفة القضية ومغزاها، وبَيَّنَ ـ سبحانه وتعالى ـ أنهما

إذا قربا هذه الشجرة وأكلا منها فإنهما يكونان من الظالمين، الظالمين لأنفسهما لتعرضهما لما حصل، حيث أخرجهما أكلهما من الجنة.

من فوائد هذه الآية:

- إثبات القول لله، وأنه - عزَّ وجلَّ - يخاطب من شاء من عباده بصوت مسموع وحروف مرتبة **﴿وقُلْنَا يا آدمُ اسكنْ أنتَ وزوجك الجنَّة وكُلا منها رغداً. . .﴾**.

- ومن فوائدها امتنان الله - سبحانه وتعالى - على آدم حيث أسكنه وزوجه الجنة.

- ومن فوائدها بيان قدرة الله - جلَّ وعلا -، حيث خلق حواء من ضلع آدم من أب بلا أم، قال أهل الجنة: والإنسان باعتبار مبدأ خلقه أربعة أقسام: قسم خُلق بلا أم ولا أب مثل آدم، فإن الله تعالى خلقه من تراب ثم قال له: كن فكان، وقسم خلق من أب بلا أم وهي حواء خلقت من ضلع آدم، وقسم خلق من أم بلا أب وهو عيسى بن مريم، والقسم الرابع مَنْ خلق من أبوين أي من أم وأب وهم سائر البشر، ومع هذا فإن الله تعالى يخلق ما يشاء **﴿يهبُ لمن يشاءُ إناثاً ويهبُ لمن يشاءُ الذكور أَوْ يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاءُ عَقِيماً﴾**[1] ففي هذه أيضاً أن الناس أربعة أصناف

---

(١) من الآية ٤٩ ومن الآية ٥٠ من سورة الشورى.

من حيث الإنجاب وعدمه، فمنهم من يهبه الله ذكوراً بلا إناث، ومنهم من يهبه الله إناثاً بلا ذكور، ومنهم من يزوجه الله أي يجعل نسله صنفين، والزوج بمعنى الصنف في هذه الآية، ولها نظائر أي أن الزوج يُرادُ به الصنف كما في قوله: ﴿وآخر من شكله أزواج﴾[1] وقوله: ﴿احشُروا الَّذين ظلموا وأزواجهم﴾[2] أي أصنافهم ونظراءهم والصنف الرابع من يجعله عقيماً لا يولد له، وكل هذا بقدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحكمته.

ـ ومن فوائد الآية الكريمة أن الإنسان ربما يختار ما هو أدنى على ما هو خير، لما تسول به نفسه له، فهنا آدم وحواء أذن الله لهما أن يأكلا رغداً من حيث شاءا ومنعهما من شجرة واحدة ﴿ولا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجرة﴾ ومع ذلك حصلت منهما مخالفة.

ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن اليقين يكون بالإشارة كما يكون بالنطق لقوله: ﴿ولا تَقْرَبَا هَذه الشَّجرة﴾ ولهذا لو قال الرجل: «زوجتي هذه طالق» طلقت، وإن لم يسمها، ولو قال الرجل: «زوَّجتك ابنتي هذه» انعقد النكاح وإن لم يسمها ما دامت تعينت بالإشارة. فالمهم أن في الآية دليلاً على أن التعيين كما يكون بالنطق يكون أيضاً بالإشارة.

---

(١) من الآية ٥٨ من سورة ص.

(٢) من الآية ٢٢ من سورة الصافات.

- ومن فوائد الآية الكريمة أنه إذا أُريد حِمى المحارم نُهي عن قربها، وذلك حيث تدعو النفس إلى فعل هذا المحرم والقرب منه، فإن النهي يأتي عن قربه كما في قوله تعالى: ﴿ولا تَقْرَبُوا الزنَى إنَّهُ كانَ فاحشةً وساءَ سبيلاً﴾[1] وقال تعالى: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾[2] فإن الزنى قد تدعو النفس إلى قربه وانتهاكه، وكذلك مال اليتيم لما لم يكن له من يحميه فإن النفس قد تتجرأ عليه فَنُهِيَ عن قربه.

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن الإقدام على المحرم ظلم لقوله: ﴿فتكونَا مِنَ الظَّالمين﴾ ووجه كونه ظلماً أن نفس الإنسان عنده وديعة وأمانة فيجب عليه أن يرعاها حق رعايتها، وألا يقدم على شيء يكون فيه مضرتها، فإن فعل فقد ظلمها كما قال تعالى: ﴿وما ظَلَمُونَا ولكنْ كانوا أنفسَهُمْ يَظْلِمُون﴾[3] وقال: ﴿وما ظَلَمْنَاهُمْ ولكنْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ﴾[4] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ثم قال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الإسراء.

(٢) من الآية ٣٤ من سورة الإسراء.

(٣) من الآية ٥٧ من سورة البقرة، ومن الآية ١٦٠ من سورة الأعراف.

(٤) من الآية ١٠١ من سورة هود.

فَأَخْرَجهُما مِمَّا كَانَا فيه وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عدوٌّ وَلَكُمْ في الأرضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ﴾.

قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أي أوقعهما في الزلل أو أزلهما أي أزاحهما وأزلقهما.

﴿الشيطان﴾: علم أو وصف لهذا المخلوق الذي قال الله عنه: ﴿إنَّ الشَّيطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوهُ عدواً إنَّما يدعو حزبَهُ ليكونُوا من أصحابِ السعير﴾[1] وهو من «شاط» بمعنى «غضب» أو من «شطن» بمعنى «بَعُدَ» والاشتقاق الأخير أصحّ فالنون فيه أصلية، ولا شك أن الشيطان أبعد من يكون عن رحمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

وقوله: ﴿فَأَزَلَّهما الشيطانُ عنها﴾ أي عن هذه الشجرة، وعلى هذا تكون «عن» للسببية كقوله تعالى: ﴿وما فعلته عن أمري﴾[2] أي ما فعلته فعلاً صادراً عن أمري وهنا تكون ﴿فأزلهما الشيطانُ عنها﴾ أي إزلالاً صادراً عن هذه الشجرة. وذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير في قوله: ﴿عنها﴾ يعود إلى الجنة أي أزلهما الشيطان عن هذه الجنة بسبب المعصية التي فعلها آدم كما في قوله تعالى: ﴿فَعَصَى آدمُ ربَّهُ فَغَوَى﴾[3].

﴿فَأَخرَجَهما مِمَّا كَانَا فيه﴾ أي كان سبباً في إخراجهما مما كانا فيه

(١) الآية ٦ من سورة فاطر.

(٢) من الآية ٨٢ من سورة الكهف.

(٣) من الآية ١٢١ من سورة طه.

من النعيم في هذه الجنة، وذلك بأن وسوس لهما ﴿وقاسمهما أني لكما لمن النَّاصحين﴾[1] ﴿قال يا آدم هَلْ أدلكَ على شجرةِ الخلدِ وملك لا يبلى﴾[2] فأكلا منها مع أن الله تعالى قد نهاهما عن ذلك، وحينئذ أمرهما الله تعالى أن يهبطا منها فقال: ﴿وَقُلْنَا اهبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ والضمير في قوله ﴿اهبِطُوا﴾ يعود على آدم وحواء، ووجه الخطاب إليهما بصيغة الجمع إما لأن أقل الجمع اثنان كما قيل به، أو لأن الخطاب يشملهما ويشمل ذريتهما، فإن ذرية آدم في صلبه فإذا هبط هبطت الذرية، وقيل: إن الضمير يعود على آدم وحواء وإبليس، وأن الله أمرهم أن يهبطوا إلى الأرض بعد أن كانوا في السماء.

وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ لبعضٍ عَدوٌّ﴾ يعني أن الشيطان عدو لآدم وزوجه وبنيه كما قال تعالى: ﴿إنَّ الشَّيطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فاتَّخِذوهُ عدوّاً إنما يدعو حزبَهُ ليكونوا من أصحابِ السعير﴾[3]. وقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ولَكُمْ في الأرضِ مُسْتَقَرٌّ ومتاعٌ إلى حين﴾ المستقر: موضع القرار، والمتاع: ما يتمتع به الإنسان من طعام وشراب ولباس وغيره، ولكن هذا المستقر والمتاع مؤجلان إلى أجل، إلى حين، وهو موت الإنسان، فإن الإنسان إذا مات انقطع متاعه من

---

(١) الآية ٢١ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ١٢٠ من سورة طه.

(٣) الآية ٦ من سورة فاطر.

الـدنيا، وانتقـل منها إلى دار الجزاء، وهذا «الحين» غير معلوم لا بالنسبـة لكـل واحـد من النـاس ولا بالنسبـة للجميع، فإن الله ـ سبحـانه وتعالى ـ قال: ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾[1] ومن جهل مكان موته فهو بجهل زمان موته أولى. وقال ـ عزَّ وجل ـ عن الساعة: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حفيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّما عِلْمُهَا عندَ الله﴾[2].

فوائد وأحكام هذه الآية:

ـ بيان عداوة الشيطان للإنسـان لقـوله: ﴿فَأَزَلَّهُما الشيطانُ عنها﴾ فإن من عداوته أنه كان سبباً في إغواء آدم وزوجه حتى خرجا من هذه الجنة التي أسكنهما الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيها.

ـ إثبـات الأسباب لقوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فيه﴾ وسببُ هذا الإخراج أنه لما أكل آدم وزوجه من الشجرة ﴿بَدَتْ لهما سَوْءاتهما وطفقـا يقصِفـانِ عليهـما من ورقِ الشَّجَرة﴾[3] وأمرهما اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ بالخروج منها.

ـ ومن فوائـد الآية الكـريمـة إضافة الشيء إلى سببه، وأن

---

(١) من الآية ٣٤ من سورة لقمان.
(٢) من الآية ١٨٧ من سورة الأعراف.
(٣) من الآية ٢٢ من سورة الأعراف.

للأسباب تأثيراً في مسبباتها لقوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فيه﴾ لأن الذي أخرجهما هو اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ، أمرهما أن يهبطا من الجنة، ولكن السبب في هذا الإخراج هو الشيطان فنسب الإخراج إليه، لأنه سببه، ولا ريب أن الأسباب مؤثرة في مسبباتها، ولكن تأثيرها في مسبباتها من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فهو الذي أودع فيها هذه القوة المؤثرة.وقد انقسم الناس في الأسباب إلى طرفين ووسط، فطرف من الناس غلا في إثبات الأسباب حتى جعلها مؤثرة بنفسها وأنكر ما يخرج عن سنة الأسباب، ومن الناس مَنْ فَرَّط فيها ولم يجعل لها أثراً في مسبباتها، وقال: إن المُسَبَّب يحدث عند السبب لا بالسبب، وكلا القولين خطأٌ، فإنَّ من المعلوم ـ بالحس والعقل ـ أن الحجر إذا رُمِيَ على زجاجة انكسرت به، وأن الورق إذا أُلقي في النار احترق بها، ولا أحد ينكر ذلك، ومن قال: إنه احترق عند إلقائه في النار لا بالنار، أو أن الزجاجة انكسرت عند ملامسة الحجر لا بالحجر فقد أبعد النجعة، ولكن نقول: إن الزجاجة انكسرت بالحجر؛ لأن الله تعالى جعل هذه الصدمة سبباً للكسر، والورقة احترقت بالنار، لأن الله جعل النار محرقة. ولهذا إذا أراد اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يتخلَّف المُسَبَّبُ عن السبب تخلَّف، فها هو إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أُلقِيَ في النار العظيمة التي أضرمها قومه المكذبون له ليحرقوه فقال الله تعالى للنار: ﴿كُوني بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهيم﴾[1]

(١) من الآية ٦٩ من سورة الأنبياء.

فكانت برداً وسلاماً عليه ولم يحترق بها، وهذا دليلٌ على أن الله تعالى هو الـذي يودع في الأسبـاب ما يجعلها مؤثرة. وأما من قال: إن الأسبـاب مؤثـرة بذاتهـا، وإنه لا يمكن أن يتخلَّف المسَبَّب عن السبب فقــولـه ـ أيضـاً ـ خطأ، فإن هذا يستلزم إنكـار خوارق العادات التي يجريها الله تعالى على غير الأسباب العادية، ولا أحد عنده علم بالسمع أو عقل راجح إلا أنكر هذا القول.

ـ ومن فوائد الآية الكريمة أن آدم وحواء عوقبا بالإخراج من الجنة بسبب معصية واحدة، فما بالك بمن كان عنده من المعاصي ما لا يعلمه إلا الله؟!! أفلا يكون معرضاً نفسه للعقوبة العظيمة؟! وإن كان المعلوم في الشريعة الإسلامية أن المعاصي ما عدا المعاصي المخرجة من الإسلام تحت مشيئة الله، إن شاء الله عذَّب عليها، وإن شاء عفا عنها وغفر كما قال تعالى: ﴿إنَّ اللهَ لا يغفرُ أَنْ يشركَ بهِ ويَغْفِرُ ما دونَ ذَلِكَ لمنْ يَشَاءُ﴾[1].

ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة إثبات العداوة بين الشيطان وآدم وبنيه لقوله: ﴿بَعضُكُمْ لبعضٍ عَدُوٌّ﴾ ويتفرع من هذه الفائدة أنه يجب على الإنسان أن يحترز غاية الاحتراز من كيد الشيطان، وألا يخنع له وألا يأتمر بأمره لأنه عدو، وكل عدو للإنسان فإنه لن يحمله إلا على أسوأ الحالات، ولهذا حذرنا الله تعالى من الشيطان بقوله:

(١) من الآية ٤٨ من سورة النساء.

﴿إِنَّ الشيطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فاتَّخِذُوهُ عَدوّاً إِنَّما يدعو حزبَهُ ليكونُوا من أصحابِ السعير﴾[1] وقوله: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا لا تَتَّبِعُوا خطواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِع خطواتِ الشَّيْطَانِ فإنَّهُ يأمُرُ بالفحشاءِ والمنكرِ﴾[2].

- ومن فوائد الآية الكريمة أن الأرض هي مستقر بني آدم، بل مستقر آدم وبنيه؛ لقوله: ﴿ولَكُمْ في الأرضِ مُستقرٌ وَمَتَاعٌ إلى حين﴾.

- ومن فوائـدها أن هذا المستقر والمتاع لن يدوم، ولن يؤبد لقوله: ﴿إلى حين﴾ وما كان غير دائم ولا مؤبد فهو سريع الانتهاء، لأن هذا المؤجل ينطوي بالساعات، بل بالدقائق، بل باللحظات، ولا يمكن للحظة مرت أن تعود إليك مرة أخرى، ولهذا قيل: كل يوم يمضي على ابن آدم فإنه يبعده من الدنيا، ويدنيه من الآخرة. فيجب علينا أن نستعد وأن ننتهز الفرصة بعمل ما يقربنا إلى الله - عزَّ وجلَّ - .

ثم قال الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ ربِّه كَلِماتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيم﴾.

---

(١) الآية ٦ من سورة فاطر.
(٢) من الآية ٢١ من سورة النور.

«التلقي» بمعنى الأخذ عن الغير، أي فأخذ آدم من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كلمات أعلمه الله تعالى بها، ومنها قوله تعالى عن آدم وزوجه: ﴿قَالا ربنا ظلمنا أَنْفُسَنَا وإنْ لم تغفرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ من الخاسِرين﴾[1] ثم قال: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي تاب الله على آدم، وكذلك على زوجه، لأن قضيتهما واحدة، ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيم﴾ وهذه الجملة تعليلٌ لما سبق، أي تاب عليه، لأنه ـ عزَّ وجلَّ ـ تواب رحيم، يتوب على من تاب ويرحمه حتى يكون ـ أحياناً بعد التوبة ـ خيراً منه قبل فعل الذنب، ولهذا لم يحصل الاهتداء لآدم ـ فيما نعلم ـ قبل أن يتوب إلى الله تعالى مما جرى منه من المعصية.

فوائد وأحكام هذه الآية:

ـ مِنَّة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على آدم بما ألهمه من هذه الكلمات التي كانت بها توبة الله عليه لقوله: ﴿فَتَلَقَّى آدمُ مِنْ رَبِّهِ﴾.

-أن ربوبية الله تنقسم إلى قسمين: ربوبية عامة تقتضي تمام الملك والتدبير والتصرف في الخلق شاملة لجميع المخلوقات، وربوبية خاصة تقتضي العناية والتربية الخاصة، وهي التي تكون لعباد الله المخلصين، ومنها قوله تعالى هنا: ﴿فَتَلَقَّى آدمُ مِنْ ربِّهِ كَلِماتٍ﴾.

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الأعراف.

ـ ومن فوائد الآية الكريمة أن الله تعالى تاب على عبده، بل قد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[1] وتوبة الله على العبد تتضمن العفو عن الذنب وصفحه عن العباد، وعدم المؤاخذة عليهم، وما دمنا في الكلام عن التوبة فإننا نقول: إذا تاب العبد إلى الله توبة نصوحاً تاب الله عليه، والتوبة النصوح هي التي جمعت شروطاً خمسة:

ـ الأول: الإخلاص لله ـ عزَّ وجل ـ بألا يحمله على التوبة إلا الخوف من الله ورجاء ما عنده من الثواب.

ـ الثاني: الندم على ما وقع منه من الذنوب بحيث يحزن ويتأثر ويتمنى أن لم يكن فعل هذه الذنوب.

ـ الثالث: الإقلاع عن الذنب، بأن يتخلص منه، فإن كان واجباً قام به، وإن كان محرماً فارقه، وإن كان للعباد أدَّاه إليهم.

ـ الرابع: العزم على ألا يعود في المستقبل.

ـ الخامس: أن تكون التوبة في الوقت الذي تُقبلُ فيه، وذلك بأن تكون قبل الموت، وقبل طلوع الشمس من مغربها، لأن الشمس إذا طلعت من مغربها لا تُقبلُ التوبة، وإذا حضر الموت لم تقبل التوبة لقول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التوبةُ للَّذينَ يعملونَ

(١) الآية ١٢٢ من سورة طه.

السَّيئاتِ حَتَّى إِذَا حَضرَ أحدَهُمُ الموتُ قال إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾[1] ولقوله تعالى: **﴿هَلْ ينظرونَ إِلَّا أَنْ تأتيهم الملائكة أَوْ يأتي ربك أو يأتي بعضُ آياتِ رَبِّك يومَ يأتي بعض آيات ربك لا ينفعُ نَفْسَاً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾**[2] و«بعض الآيات» هي طلوع الشمس من مغربها كما فسرها بذلك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ[3] نسأل الله أن يمنَّ علينا بالتوبة وقبولها، إنه جواد كريم.

ـ ومن فوائد الآية إثبات هذين الاسمين من أسماء الله وهما «التواب» و«الرحيم»، التواب: هو الذي يُوفِّقُ إلى التوبة، ويقبل التوبة من التائب كما قال الله تعالى: **﴿وعَلَى الثلاثةِ الَّذينَ خلفوا حتَّى إذا ضاقت عليهم الأرضُ بما رَحبَت وضاقت عليهم أَنْفُسُهُم وظَنُّوا أَنْ لا ملجأَ مِنَ اللهِ إلَّا إليهِ ثُمَّ تابَ عليهِمْ ليتوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التـوَّابُ الرَّحِيْمُ﴾**[4] فهو التواب الذي يوفق للتوبة، وهو التواب الذي يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات. وجاءت بصيغة المبالغة «التوَّاب» لأن هذه صفة لازمة لله ـ عزَّ وجل ـ. فمن صفاته

---

(١) من الآية ١٨ من سورة النساء.

(٢) من الآية ١٥٨ من سورة الأنعام.

(٣) انظر: سنن الترمذي (٥/٢٤٧) حديث رقم (٣٠٧١)، والدر المنثور للسيوطي (١٠٨/٣).

(٤) الآية ١١٨ من سورة التوبة.

الكاملة التوبة، ولأن المذنبين الذين يتوبون إلى الله كثيرون. وأما «الرحيم» فهو ذو الرحمة الواصلة إلى من شاء من عباده كما قال الله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يشاءُ ويَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾[1].

قال أهل العلم: ورحمةُ الله تعالى نوعان: عامة وخاصة. فالعامة: هي الشاملة لجميع الخلق، فإن كل الخلق داخلون في رحمة الله العامة التي بها قوام البدن وقوام الحياة. ولهذا نقول: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد رحم الكفار بما أعطاهم من نعم الدنيا؛ من عقل وصحة وطعام وشراب ولباس ومنكح ومسكن وغير ذلك. كما أنه راحم للمؤمنين بهذا. وأما الرحمة الخاصة: فهي التي تكون بها سعادة الدنيا والآخرة، وهذه خاصة بالمؤمنين فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ منَّ على المؤمنين بما رحمهم به من العلم النافع والعمل الصالح والإيمان والتقوى، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بالمؤمنينَ رَحِيماً﴾[2] وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَرَحْمَتي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذينَ يَتَّقونَ ويُؤتونَ الزكاةَ والَّذينَ هُمْ بآياتِنَا يُؤمنونَ الذين يَتَّبِعُونَ الرَّسولَ النبيَّ الأُميَّ الذي يجدونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ في التوراةِ والإنجيلِ﴾[3] واعلم أن أسماء الله ـ سبحانه وتعالى ـ تتضمن الدلالة على ذاته وعلى الصفة وعلى الأثر والحكم إذا كانت

---

(١) من الآية ٢١ من سورة العنكبوت.

(٢) من الآية ٤٣ من سورة الأحزاب.

(٣) من الآية ١٥٦ ومن الآية ١٥٧ من سورة الأعراف.

متعدية، فالعظيم مثلاً اسم من أسماء الله دال على ذات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وعلى عظمة الله، والرحيم اسم من أسماء الله دالٌّ على ذات الله وعلى رحمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعلى الأثر المترتب على هذه الصفة وهو أنه يرحم من يشاء كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾[1].

ثم قال ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿قُلْنَا اهبطُوا مِنْها جَميعاً فَإِمَّا يأْتِيَنَّكُمْ منِّي هُدَىً فَمَنْ تبعَ هُدَايَ فلا خوفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قوله: ﴿قُلْنَا اهبِطُوا منها جميعاً﴾ كالتوطئة والتمهيد لما بعده، يعني: اهبطوا من الجنة جميعاً، وسوف يأتيكم الهدى مني.

وينقسم الناس في هذا الهدى إلى قسمين: قسم يتبع هدى الله فهؤلاء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وقسم آخر يكفرون ويكذبون بآيات الله وهؤلاء هم أصحاب النار هم فيها خالدون.

يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿اهْبِطُوا منها جَميعاً﴾ نقول في الخطاب هنا في قوله «اهبطوا» ما قلناه في الخطاب السابق.

وقوله: ﴿فإما يأتِيَنَّكُمْ منِّي هدَىً﴾ هذه الجملة شرطية فيها إن الشرطية المدغمة بما وفعل الشرط فيها «يأتينكم» وجواب الشرط مركب من قوله ﴿فَمَنْ تبعَ هُدايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ

---

(١) من الآية ٢١ من سورة العنكبوت.

﴿يَحْزَنُونَ﴾ والمعنى: إن أتاكم مني هدى فإن من اتبع هذا الهدى فليس عليه خوف مما يستقبل ولا حزن على ما مضى. أما كونه لا خوف عليه في المستقبل؛ فلأنه عمل ما يحصل به الأمن من اتباع هدى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. وأما كونه لا يحزن فلأنه استغل وقته في طاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فلا يحزن على ما مضى منه، لأنه لم يفرط بل اكتسب فيه خيراً، والذي يحزن هو الذي يفوته مطلوبه أو يحصل له مرهوبه. وأما الكافر المكذب بآيات الله فهذا جزاؤه أن يخلد في نار جهنم ﴿أُولَئِكَ أصحابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُون﴾[1] وأصحاب النار هم أهلها الملازمون لها، والخلود هو المكث الدائم، هذا هو الأصل في الخلود إلا أن يقوم دليل على أن الخلود مؤقت فيتبع الدليل.

من فوائد هذه الآية:

ـ أن من حسن التعليم والتوجيه والإرشاد التوطئة للكلام والتمهيد له حتى وإن حصل في ذلك تكرار لقوله: ﴿قُلْنَا اهبِطُوا منها جميعاً﴾ مع قوله فيما سبق: ﴿وقُلْنَا اهبِطُوا بَعْضُكُمْ لبعضٍ عَدُوٌّ﴾.

(١) من الآية ٣٩ من سورة البقرة، ومن الآية ٢٥٧ من سورة البقرة ومن الآية ٣٦ من سورة الأعراف، ومن الآية ٢٧ من سورة يونس، ومن الآية ١٧ من سورة المجادلة.

- أن الله - سبحانه وتعالى - برحمته وحكمته لم يكل الأمر في عبادته إلى عقول البشر، بل جاءهم بما فيه هدى، وذلك عن طريق الرسل عليهم الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُم الكتابَ والميزانَ لِيقُوم الناس بالقِسْطِ**﴾[1].

- أن ما جاء به الرسل هدى يهتدي به الناس في ظلمات الجهل والكفر.

- أن الهدى من الله، ويتفرع عن هذا ألا تطلب الهدى إلا من الله - عزَّ وجلَّ - فتكون دائماً ملحّاً على ربك بالهداية أو بطلب الهداية حتى تستقيم على أمر الله على بصيرة من الله - عزَّ وجل - .

- أن الله أضاف هذا الهُدى إلى نفسه، ليُعلَم أن هذا الهدى حق ليس فيه باطل ولا تناقض ولا اختلاف، قال الله تعالى: ﴿**وتَمَّتْ كلمةُ رَبِّكَ صِدْقَاً وعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وهُوَ السَّميعُ العَلِيْمُ**﴾[2] وقال تعالى: ﴿**أَفَلَا يتدبرونَ القرآنَ وَلَوْ كَانَ من عندِ غيرِ اللهِ لوجدُوا فيه اخْتِلَافاً كثيراً**﴾[3].

- أن من اتبع هدى الله فقد نجا وسلم وأَمِنَ من الخوف في المستقبل ومن الحزن على ما مضى.

---

(١) من الآية ٢٥ من سورة الحديد.

(٢) الآية ١١٥ من سورة الأنعام.

(٣) الآية ٨٢ من سورة النساء.

ـ أن المؤمن المتبع لهدى الله هو الذي غنم، غنم وسلم فلا يحزن على ما مضى من زمانه، لأنه استغلَّه فيما ينفع، ولا يحزن على ما يستقبل، لقد وُعد بالثواب الجزيل، والنجاة من العقاب لاتباعه هدى الله ـ عزَّ وجل ـ .

ثم قال الله تعالى: ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بآياتِنا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فيها خالِدُون﴾

هذه الآية الكريمة قسيمة للآية التي قبلها، فإنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر في الآية التي قبلها ثواب الذين اتبعوا هدى الله بالإيمان والعمل الصالح، وذكر هنا ما يقابلهم من الكفار الذي جمعوا بين الكفر والتكذيب، وهو الاستكبار عن آيات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وترك العمل بها والتكذيب بالخبر، فهم كافرون بالأمر، مكذبون بالخبر، مكذبون ما أخبر الله به في كتبه المنزلة، وما أخبرت به رسله. وهؤلاء القوم الذين كفروا وكذبوا بآيات الله هم أصحاب النار، أهلها الملازمون لها، المخلدون فيها.

فوائد وأحكام هذه الآية:

ـ كمال هذا القرآن فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا ذكر فيه أهل الجنة وثوابهم ذكر بعد ذلك أهل النار وعقابهم في الغالب، وهذا من معنى قوله تعالى: ﴿الله نَزَّلَ أحسنَ الحديثِ كِتَاباً مُتشَابهاً مَثَانِيَ﴾[1]

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة الزمر.

أي تثنى فيه الأحكام والمعاني. ولا ريب أن هذا من كمال البلاغة، فإن الإنسان لو أتاه الخطاب بالرجاء دون التخويف لأدى ذلك إلى الأمن من مكر الله، ولو جاءه الخطاب بالتحذير والتخويف لأدى ذلك إلى القنوط من رحمة الله، فجاء القرآن الكريم النازل من عند الله بالتقسيم والمقابلة، إذا ذكر شيئاً ذكر ما يقابله حتى يبقى الإنسان دائراً بين الرجاء والخوف. ولهذا قال الإمام أحمد: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً فإن غلب أحدهما هلك صاحبه.

- ومن فوائد الآية الكريمة أن التكذيب بآيات الله كفر موجب للخلود في النار، ولكن التكذيب أحياناً يذكر وحده، وأحياناً يذكر مقروناً بالكفر، فإذا ذكر مقروناً بالكفر حُمل على تكذيب الخبر، وحُمل الكفر على ترك الأمر.

وآياتُ الله - سبحانه وتعالى - تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية، فالآيات الكونية هي مخلوقات الله - سبحانه وتعالى - ، فإن هذه المخلوقات آيات دالة على عظمة خالقها - جلَّ وعلا - ، وعلى رحمته وعلى حكمته، وعلى كل ما تقتضيه من صفة، وسميت آية لعجز المخلوق عن مثلها، فهي آية دالة على الرب - عزَّ وجلَّ - والتكذيب بها أي بالآيات الكونية يكون بإضافة هذه الآيات إلى غير الله كالذين يضيفونها إلى الطبيعة، أو بإثبات مشارك لله فيها، كالذين يقولون: هذا الشيء أوجده الولي الفلاني مع الله، أو

باعتقاد أن لله تعالى فيها معيناً، فكلُّ هذا من التكذيب بآيات الله والإلحاد فيها.

وأما الآيات الشرعية فهي ما جاءت به الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من الكتب المنزلة من عند الله، لأن هذه الكتب فيها من التعظيم للخلق في عبادتهم ومعاملاتهم ما يعجز البشر عن مثله، والقرآن الكريم قد تحدّى اللهُ الخلقَ جميعاً أن يأتوا بمثله، قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ والجنُّ عَلَى أَنْ يأتُوا بمثلِ هَذَا القرآنِ لا يأتونَ بمثلِهِ ولو كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً﴾[1] بل قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿أَمْ يقولونَ افتَرَاهُ قُلْ فأتوا بعشرِ سورٍ مثلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[2] بل تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، قال تعالى: ﴿أَمْ يقولونَ افتراهُ قُلْ فأْتُوا بسورةٍ مِثْلِه﴾[3].

ـ ومن فوائد الآية الكريمة أن الكفار المكذبين بآيات الله ملازمون للنار؛ لأنهم أصحابها لا يخرجون منها أبداً كما قال تعالى: ﴿وما هُمْ منها بِخَارِجين﴾[4].

ـ ومن فوائد الآية الكريمة إثبات الخلود في النار، وهو خلود

---

(١) الآية ٨٨ من سورة الإسراء.

(٢) من الآية ١٣ من سورة هود.

(٣) من الآية ٣٨ من سورة يونس.

(٤) من الآية ٤٨ من سورة الحجر.

مؤبد ذَكَر الله ـ سبحانه وتعالى ـ تأبيده في ثلاث آيات من كتابه، في سورة النساء في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وظَلَمُوا لَمْ يَكُنْ اللهُ ليغفر لهم ولا ليهْدِيهم طَريقاً إلاَّ طَريقَ جَهَنَّم خَالِدينَ فيها أَبَداً﴾[1] وفي سورة الأحزاب في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَعَنَ الكافرينَ وأعدَّ لَهُمْ سَعِيراً خالدينَ فيها أَبَداً لا يَجِدُونَ فيها وليّاً ولا نَصِيْراً﴾[2] وفي سورة الجن في قوله: ﴿وَمَنْ يعصِ اللهَ ورسولَهُ فَإِنَّ لَهُ نار جهنَّم خالدينَ فيها أبداً﴾[3]. ولهذا كان من عقيدة أهل السنة والجماعة تأبيد الجنة وتأبيد النار أيضاً، وأنه لا فرق بينهما، وإن كان قد وُجِدَ خلاف يسير لكنه مرجوح، والخلاف الذي وقع هو أن بعض السلف رُوِي عنهم أن النار غير مؤبدة، لكنه قولٌ مخالفٌ لصريح القرآن فلا يعوَّلُ عليه، قال الله تعالى: ﴿والَّذينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بآياتِنا أولئِكَ أصحابُ النارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدون﴾[4]

ثم قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾.

الخطابُ هنا موجّهٌ لبني إسرائيل، وإسرائيل هو يعقوب بن

---

(١) الآية ١٦٨ ومن الآية ١٦٩ من سورة النساء.

(٢) الآيتان ٦٤ و ٦٥ من سورة الأحزاب

(٣) من الآية ٢٣ من سورة الجن.

(٤) الآية ٣٩ من سورة البقرة.

إسحـــاق بن إبـــراهيم عليهم الصـلاة والسـلام. ويعقـوب هو أبويوسف، وهو أبوبني إسرائيل، فإنهم كلهم يجتمعون فيه، ومعنى إسرائيل العـابد لله. ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِي التي أَنْعَمْتُ عَلَيكُمْ﴾ يعني تَذَكَّـروها بقلوبكم واذكروها بألسنتكم، لتقوموا بشكرها، فتتبعوا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتؤمنوا به ﴿التي أنعمتُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني في السابق، واللاحق، لأن بني إسرائيل أمة واحدة سابقهم ولاحقهم، ولهذا يذكر الله تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل في عهد موسى ممتناً به على بني إسرائيل الموجودين في عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، لأنهم أمة واحدة.

﴿وَأَوْفُـوا بِعَهْدِي أوفِ بعَهْدِكُمْ﴾ يعني أوفوا بعهدي الذي عاهدتكم به وعليه أوفِ بعهدي الذي عاهدتكم به وعليه، وهذا العهـد مُبَيَّنٌ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أخذَ اللهُ ميثاقَ بنِي إسرائيلَ وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقالَ اللهُ إِنِّي معكم لئن أقمتُم الصلاةَ وآتيتم الزكاةَ وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم اللهَ قَرْضاً حسناً لأُكفِّرَنَّ عَنْكُمْ سيئاتكم ولأدخلنَّكُمْ جناتٍ تَجْري من تَحْتِها الأنهارُ فَمَنْ كَفَرَ بعدَ ذَلِكَ منكم فقد ضلَّ سواء السبيل﴾[1] فالعهد الذي أخذه عليهم هو قوله: ﴿لئن أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم اللهَ قرضاً حسناً﴾[2] والعهد الذي لهم

---

(١) الآية ١٢ من سورة المائدة.

(٢) من الآية ١٢ من سورة المائدة.

على الله، أوجبه ـ عزَّ وجلَّ ـ على نفسه: ﴿**لأكفرنَّ عنكم سيئاتِكُمْ ولأدخلنَّكُم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار**﴾[٣] والقرآن يفسر بعضه بعضاً، ويبين بعضه بعضاً، ولهذا قيل: إنه يُرجعُ في تفسير القرآن إلى القرآن ثم إلى السنة، ثم إلى تفسير الصحابة، ثم إلى تفسير كبار التابعين.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ كما أمرهم أن يوفوا بعهده ووعدهم أن يوفي بعهدهم أمرهم أن يرهبوه حيث قال: ﴿**وإيَّايَ فارهبون**﴾ والرهبة هي أشد الخوف.

فوائد هذه الآية الكريمة:

ـ في هذه الآية من الفوائد تذكير بني إسرائيل بنعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليهم في السابق واللاحق.

ـ ومن فوائدها أنه يجب على المرء أن يذكر نعمة الله عليه وعلى من سبقه حتى يحدث بذلك شكراً لله على هذه النعمة، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو المتفضل بالنعم أولاً، وهو الذي يتفضل بها ثانياً بإعانة الإنسان على شكر هذه النعمة التي أنعم الله بها عليه.

ـ ومن فوائدها بيان كرم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حيث جعل على

(١) من الآية ١٢ من سورة المائدة.

نفسه عهداً أن يوفي لمن أوفى بعهده لقوله تعالى: ﴿وأَوْفُوا بِعهدي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾.

- ومن فوائدها إثبات الصفات الفعلية لله - عزَّ وجلَّ -: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.

- ومن فوائدها توحيدُ الله - سبحانه وتعالى - بالرهبة لقوله: ﴿وإيَّايَ فارْهَبُونِ﴾ والإنسان لا بد له من رغبة ورهبة، رغبة فيما عند الله، ورهبة فيما يفعله من أسباب عقوبة الله - عزَّ وجلَّ -، فالله عنده الثواب العظيم للمحسن، وعنده العقاب الأليم للمسيء كما قال تعالى: ﴿نَبِّىءْ عِبادي أَنِّي أنا الغفورُ الرَّحيمُ وأَنَّ عذابي هو العذابُ الأليمُ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تأذَّنَ ربُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كفرتم إنَّ عذابي لشديد﴾[2].

ثم قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وآمِنُوا بِمَا أنزلتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ ولا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافرٍ بِهِ ولا تَشْتَرُوا بآياتي ثَمَناً قليلاً وإِيَّايَ فاتَّقُونِ﴾.

الخطاب هنا لبني إسرائيل على سياق الخطاب السابق، وكان في المدينة من بني إسرائيل في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم -

---

(١) الآيتان ٤٩ و ٥٠ من سورة الحجر.

(٢) الآية ٧ من سورة إبراهيم.

ثلاث قبـائـل: «بنوالنضير» و«بنو قينقاع» و«بنوقريظة» فوجَّه اللهُ إليهم هذا الخطاب: أن يؤمنوا بما أنزل مصدقاً لما معهم، يعني لما معهم من التوراة، والتصديق لما معهم له معنيان، أحدهما: أنه جاء مطابقاً لما أخبرت به. والثاني: أنه شاهد لها بالصدق، فهو مُصدِّقٌ لها أي شاهد لها بالصدق، وهو مصدق لها أي واقع على حسب ما أخبرت به كما قال الله تعالى: ﴿**الَّذينَ يتبعونَ الرسولَ النبيَّ الأُميَّ الَّـذي يجدونَـهُ مكتـوبـاً عنـدهم في التـوراةِ والإنجيـلِ يأمُرُهُمْ بالمعـروفِ وينهـاهُمْ عن المنكـرِ ويحلُّ لهم الطيباتِ ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرَهُمْ والأغلالَ التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتَّبعُوا النورَ الذي أنزل معه أولئِكَ هُم المفلِحُون**﴾[1].

وقد شهد القرآن الكريم بأن التوراة والإنجيل كليهما من عند الله ـ عزَّ وجـلَّ ـ، وقـولـه تعـالى: ﴿**ولا تكـونوا أَوَّلَ كافرٍ به**﴾ الخطاب هنا من الله لبني إسرائيل، حيث ينهاهم عن أن يكونوا أول كافر به، وقد استشكل بعض أهل العلم في قوله ﴿**أول كافر به**﴾ حيث كان مفرداً مع أن الخطاب إلى جماعة، وأجيب عن ذلك بأن المراد لا تكونوا أول فريق كافر به، والفريق جمع، يعني لا تكونوا أول من يكفـر به مع أن عنـدكم علماً بأنـه حق، كما قال الله تعالى:

---

(١) الآية ١٥٧ من سورة الأعراف.

﴿الذين آتيناهم الكتابَ يعرفونَهُ كما يعرفونَ أبناءَهُمْ﴾[1] فإنه إذا كنتم أول فريق كافر به مع علمكم بأنه حق كان ذلك أشد وأقبح .

ثم قال: ﴿ولا تَشْتَرُوا بآياتي ثَمناً قَليلاً﴾ أي لا تأخذوا ثمناً قليلاً بدلاً عن العمل بآياتي، وذلك بتقديم الرئاسة على ما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فإن بني إسرائيل كانوا يستفتحون على الذين كفروا ويقولون: سيُبعثُ نبيٌّ ونتبعه ونغلبكم، ولما بعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بني إسماعيل حسدوهم وقالوا: إن هذا ليس هو النبي الموعود، فاشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً؛ ليبقوا على رئاستهم، ولكن صار الأمر بالعكس ولله الحمد، فلم يبقوا على رئاستهم، بل فتح المسلمون بلادهم، وفتحوا بلاد الشام وهي مستوطن الروم النصارى، وفتحوا بلاد العراق وهي مستوطن المجوس الفرس، واستولى ـ ولله الحمد ـ المسلمون على بلاد هؤلاء فأورثهم الله أرضهم وديارهم وأموالهم .

ثم قال تعالى: ﴿وإيَّايَ فاتَّقُون﴾ نقول في هذه الآية ما سبق في قوله: ﴿وإيَّايَ فارهبون﴾ وهنا أمرهم بالتقوى، والتقوى: اتخاذ الوقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة :

ـ أن اليهود والنصارى مخاطبون بالإيمان بما جاء به محمد

---

(١) من الآية ١٤٦ من سورة البقرة، ومن الآية ٢٠ من سورة الأنعام .

ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ملزمون به ، وعندهم شاهد على صدقه ، حيث كان ما جاء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مصدقاً لما معهم ، وعلى هذا فإذا كفروا به لم يكونوا مؤمنين ، وإن قالوا : نحن نؤمن بالله واليوم الآخر ، فإنهم لا يتم لهم ما أرادوا حتى يؤمنوا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . ولهذا أقسم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه لا يسمع به يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بما جاء به إلا كان من أصحاب النار ، حيث قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **«والذي نفسُ محمدٍ بيده لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمَّةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسِلْتُ به إلَّا كان من أصحابِ النَّار»**[1] .

ـ ومن فوائدها أن القرآن منزل من عند الله ، والقرآن ـ كما نعلم ـ كلام ، فإذا كان نازلاً من عند الله وهو كلام فلا يكون إلا بمتكلم به ، فدلَّ هذا على أن القرآن كلام الله ، وهذا ما أجمع عليه سلف الأمة ، أن القرآن كلام الله منزل .

ـ ومن فوائدها إثبات علو الله لقوله : ﴿وبما أنزلتُ﴾ والإنزال لا يكون إلا من فوق ، وإذا كان الكلام كلام الله ، وهو صفة من صفاته ووصف بأنه منزِّل دلَّ ذلك على أن المتكلم به عالٍم فوق العباد ـ سبحانه وتعالى ـ .

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣١٤) حديث رقم (١٥٣) .

- ومن فوائـدها أن الإنسان كلما كان معه الحق يستطيع أن يتبعه، ولكن لو نكص على عقبيه كان أشد لوماً من الإنسان الجاهل لقوله: ﴿وآمِنوا بما أنزلتُ مُصَدِّقاً لما معكم﴾ فإن قوله ﴿مُصَدِّقَاً لما معكم﴾ كالبرهان الملزم لهم بالإيمان، لأن هذا القرآن لم يأتِ بأمر غريب لا يعرفونه، بل أتى بأمر يعرفونه ويعلمون أنه حق، لكنهم استكبروا وأبوا حسداً من عند أنفسهم.

- ومن فوائد الآية الكريمة أن بني إسرائيل - بما عندهم من العلم بأن ما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - حق - كان الأليق بهم أن يكونوا أول مؤمن به، ولكنهم كانوا كافرين به، ولهذا قال: ﴿ولا تكُونُوا أوَّلَ كافرٍ به﴾ مع أن قريشاً كانوا كفروا به من قبل، لكن لما كانت قريش ليس معهم كتـاب، وهؤلاء معهم كتـاب يصدقه ما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - كانوا أول كافر به مع العلم بأنه حق.

- ومن فوائد الآية الكريمة أن ما في الدنيا قليل ولو كثر لقوله: ﴿ولا تَشْتَرُوا بآياتي ثَمَناً قليلاً﴾.

- ومن فوائد الآية الكريمة أنه لا يجوز طلب العلم الشرعي من أجل الدنيا، لأن طلب العلم الشرعي من أجل الدنيا نوع من الاشـتراء بآيات الله ثمناً قليلاً، ولهذا جاء في الحديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : «مَنْ طلبَ علماً وهو مما يبتغى به وجه الله

لا يريد إلا أن ينال عَرَضَاً من الدنيا لم يرح رائحة الجنة»[1].

- ومن فوائد الآية الكريمة وجوبُ تقوى الله وإفراده بذلك لقوله تعالى: ﴿وإيَّايَ فاتَّقون﴾ فهو أهل التقوى وأهل المغفرة، ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾[2]؛ لأن المراد في قوله: ﴿اتقوا يوماً﴾ اتقوا ما يكون في هذا اليوم مما يقدره الله - عزَّ وجلَّ - من الأهوال العظيمة والعقاب لمن كذب.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تَلْبِسُوا الحقَّ بِالبَاطِلِ وتَكْتُمُوا الحقَّ وأَنْتُمْ تَعْلَمُون﴾.

فالخطاب هنا لبني إسرائيل، لأن السياق واحد، ومعنى قوله: ﴿تلبسوا﴾ أي تخلطوا الحق حتى يلتبس ويشتبه على الناس، والشيء الحق في اللغة: أي الثابت الذي لا يتزعزع، والباطل عكسه أي: الشيء الذاهب سدى الذي لا يثبت ولا يبقى، والمراد به هنا - الحق - ما جاءت به الرسل من وحي الله - عزَّ وجلَّ - كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّت كلمةُ رَبِّكَ صِدْقَاً وَعَدْلاً﴾[3] والباطل ما

(١) الحديث في أمالي ابن الشجري (١/٤٣) وإتحاف السادة المتقين للزبيدي (١/٣٦٣) والمغني عن حمل الأسفار للعراقي (١/٦١) انظر موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف (٨/٣٦٩).

(٢) من الآية ٢٨١ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ١١٥ من سورة الأنعام.

خالف ذلك، وبنو إسرائيل عندهم الأحبار والرهبان يخلطون الحق بالباطل كالكُهَّان يصدقون مرة واحدة ويكذبون مائة مرة. هؤلاء أيضاً يأتون بالحق، ولكن من أجل التمويه حتى يقول القائل: هذا الذي قاله حق، ثم يلحق به كل ما قالوه من الباطل فيلتبس الأمر، ولهـذا قال: **﴿ولا تَلْبِسُوا الحقَّ بالباطِلِ﴾** أي لا تخلطوه به حتى يلتبس ويشتبه.

﴿وَتَكْتُمـوا الحقَّ وأَنْتُمْ تَعْلَمون﴾. وهذه طريقة أخرى من طرقهم أنهم يكتمون الحق فلا يبدونه خوفاً من أن يتبعه الناس وهم لا يريدون من الناس أن يتبعوا الحق، بل يريدون أن يتبعوا أهواءهم، وجملة **﴿وأنتم تَعْلَمون﴾** حال من الفاعل في قوله: **﴿ولا تَلْبِسوا﴾** وفي قولـه: **﴿وتكتمـوا﴾** أي تعلمـون أنكم فعلتم ذلك فكتمتم ولبستم، وهذه الجملة الحالية تفيد بيان مأخذ اللوم عليهم، وأنهم لم يفعلوا هذا الفعل ـ وهو لبس الحق بالباطل أو كتمان الحق ـ عن جهل منهم، ولكن عن علم وإصرار، فيكون هذا أظهر في عنادهم وأبين في استكبارهم عن الحق.

فوائد هذه الآية الكريمة:

ـ من فوائدها تحريم لبس الحق بالباطل، لأن الله تعالى نهى عنه بني إسرائيل، وما نُهِيَ عنه بنو إسرائيل مما هو قبيح لذاته يُنهى عنه سائر الأمم، ويتفرع عن هذه الفائدة التحذير مما يصنعه أهل

البـدع من زخارف القول التي يريدون بها أن يمكنوا بدعهم من قلوب الناس، فإنك إذا قرأت كتبهم ظننت أن الحق معهم، ولكن عند التأمل يتبين أنهم يريدون إلباس الحق بالباطل، ولهذا تجدهم يأتون بعبارات مجملة فيقولون مثلاً: إن الله تعالى ليس في حيز، وليس في جهة، وليس بجسم، وما أشبه ذلك من العبارات التي يريدون بها التوصل إلى إنكار صفات الله ـ عزَّ وجل ـ ، إنكار علوه على خلقـه، فإذا قرأ القـارىء مثـل هذا الكلام وما نبهوا به من العبارات التي يحسبها الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله فوفاه حسابه والله سريع الحساب، إذا قرأ القارىء هذا الذي كتبوا ظن أن هذا هو الصواب.

ـ ومن فوائدها أن من سلك هذا المسلك من هذه الأمة ففيه شبه من اليهود والنصارى، فعليه أن يحذر من ذلك، لأن من تشبَّه بقوم فهو منهم.

ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة تحريم كتمان الحق، وكتمان الحق يكـون في حالتين: الحالة الأولى: أن يسأل سائل عن حق فَيُكْتَمُ الحق عنه، ولا يُجابُ به، لغرض من أغراض الدنيا. والحالة الثانية: أن يحتاج الناس إلى بيان الحق وإن لم يسألوا، فإذا رأى العالم الناس محتاجين إلى الحق وجب عليه بيانه، وإن لم يسألوه، والفرق بين الحالتين أن الحالة الأولى، التي يكون فيها الكتمان عند سؤال

السائل يقع السؤال بلسان المقال، أما الثانية فيقع السؤال بلسان الحال.

ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة أنه إذا كتم الحق مع العلم به كان أشد قبحاً. أما إذا لم يعلم به الإنسان فإنه لا يجوز أن يتكلم به أصلاً، لأنه إذا تكلم بما لا يعلم فقد قال على الله ما لا يعلم. وهذا من المحرم الذي حرمه الله في كتابه في قوله: ﴿قُلْ إِنَّما حَرَّمَ ربي الفواحشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وما بَطَنَ والإِثمَ والبغيَ بغيرِ الحقِّ وأَنْ تُشرِكُوا باللهِ ما لَمْ ينزلْ بهِ سُلطاناً وأن تقولُوا على اللهِ ما لا تَعْلَمُون﴾[1].

ثم قال الله تعالى: ﴿وأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وآتُوا الزَّكَاةَ وارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِين﴾.

وقوله: ﴿وأقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ يعني ائتوا بها مستقيمة تامة، وليس المراد بقوله: ﴿وأقيموا الصلاة﴾ قوموا بالإقامة التي هي إعلام بالقيام بالصلاة.

قوله: ﴿وآتُوا الزكاة﴾ أي اعطوها لمستحقها، والزكاة هي جزء معين في أموال مخصوصة تدفع لمستحقها.

﴿وارْكَعُوا مَعَ الراكِعين﴾ أي اخضعوا لله ـ عزَّ وجلَّ ـ مع الخاضعين له، فيكون المراد بالركوع هنا مطلق الذل، لأن الركوع

---

(١) الآية ٣٣ من سورة الأعراف.

في اللغة العربية يطلق على أو يراد به مطلق الذل كما في قول الشاعر:

ولا تُهينَ الفقيرَ، عَلَّكَ أنْ
تَرْكَعَ يوماً، والدهرُ قَدْ رَفَعَهْ

ويحتمل أن يكون المراد به ركوع الصلاة، ويكون تخصيصاً بعد تعميم، لأن قوله: ﴿وأَقيموا الصلاة﴾ يشمل إقامتها بقيامها وركوعها وسجودها وقعودها.

فوائد هذه الآية الكريمة:

- وجوب إقامة الصلاة، لأن الله تعالى أمر بها، والأصل في الأمر الوجوب، ولكن الإقامة، إقامة الصلاة من حيث الواقع تنقسم إلى قسمين: إقامة واجبة، وهي أن يأتي بواجبات الصلاة وأركانها وشروطها، أي أن يأتي بما لا تصح الصلاة إلا به، فهذه إقامة واجبة لا بد منها. وإقامة غير واجبة وهي أن يأتي بمكملات الصلاة التي تصح الصلاة بدونها، وكله مأمور به، لكن ما لا تصح الصلاة بدونه مأمور به على الوجوب، وما تصح الصلاة بدونه مأمور به على سبيل الاستحباب.

- ومن فوائد الآية الكريمة وجوب إيتاء الزكاة، وهي المال المدفوع لمستحقه من أموال معينة معروفة عند أهل العلم.

ـ ومن فوائدها أهمية إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لأن الله أمر بهما وخصَّصهما بعد قوله: ﴿وإيَّايَ فاتَّقُون﴾ مع أن التقوى تشمل فعل جميع الأوامر وترك جميع النواهي.

ـ ومن فوائـدها فضيلة الركوع في الصلاة إذا قلنا بأن المراد بالركوع الركوع في الصلاة، أما إذا قلنا بأن المراد بالركوع التواضع لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، والذل له، فإن في الآية فائدة وهي وجوب الذل لله والخضوع له.

ـ ومن فوائدها ما استدل به بعضُ العلماء على وجوب صلاة الجماعة، لأنه قال: ﴿وارْكَعُوا مَعَ الراكِعين﴾ وهذا الاستدلال محل نظر وتأمل، لأن الآية ليست صريحة في ذلك، إذْ يحتمل أن يكون المعنى كونوا معهم في الجملة، أي اركعوا كما يركع الناس، ولا يلزم أن يكون في ذلك مصاحبة والعلم عند الله.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

الخطاب هنا لبني إسرائيل، والاستفهامُ للتوبيخ والإنكار، يعني كيف تأمرون الناس بالبر وتتركون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب؟!

وقوله: ﴿أتأمرونَ النَّاسَ بالبرِّ﴾ البرُّ هنا: كل ما يقرب إلى الله

ـ عزَّ وجلَّ ـ من الطاعات، ويدخل في ذلك أيضاً ترك المعاصي، لأن البر إذا ذكر وحده شمل فعل الطاعات، وترك المعاصي، وإذا قُرن بالتقوى صار المراد بالبر فعل الطاعات وبالتقوى ترك المحرمات.

وقوله: ﴿وَتَنْسَونَ أنفسَكُمْ﴾ أي تتركونها، لا تأمرونها بالبر ولا تهتمون بها والحال أنكم تتلون الكتاب المُنَزَّل عليكم، وتعرفون ما فيه من بشاعة هذا المنهج وهو أمركم الناس بالبر مع نسيان أنفسكم، ثم وبَّخَهُم اللهُ مرةً أخرى بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُون﴾ أي أن فعلكم هذا ليس فعل ذي عقل؛ لأن العاقل يبدأ أول ما يبدأ بنفسه، ثم يثني بإصلاح غيره.

فوائد الآية الكريمة:

ـ الإنكار الشديد على من يأمر الناس بالبر ولا يفعله لقوله: ﴿أتأمرونَ الناسَ بالبِرِّ وتنسَوْنَ أنفُسَكُمْ﴾.

ـ أن هذا المنهج كما هو مخالف للشرع فهو مخالف للعقل لقوله: ﴿أَفَلَا تعقِلُون﴾.

ـ أن هذا المنهج يوجب ألا يأتمر الناس بأمر الآمر ولا ينتهوا بنهيه، لأنهم سيقولون: لو كان هذا خيراً لكان أول من يفعله، ولو كان هذا شراً لكان أول من يجتنبه فكيف يأمرنا ولا يفعل أو ينهانا ويفعل؟ فيكون في هذا منع لسلوك الناس سبيل البر.

ـ ومن فوائد الآية الكريمة الإشارة إلى أن الإنسان ينبغي له ـ إن لم نقل يجب عليه ـ أن يبدأ بنفسه، وقد دلَّت السنة على ذلك.

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**ابدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء فلأهلك**»[1] ولا ريب أن أقرب شيء إليك هو نفسك، فكونك تسعى لإصلاح غيرك مع فساد نفسك لا شك أن هذا خلاف الشرع وخلاف العقل.

ـ ومن فوائد الآية الكريمة أن العالم يلحقه من اللوم ومن الذم أكثر مما يلحق الجاهل لقوله هنا: ﴿**وأنتم تتلون الكتاب**﴾.

ـ ومن فوائد الآية الكريمة أن كل ما يخالف الشرع فهو مخالف للعقل، لكن المراد بالعقل العقل الصحيح السالم من الشبهات والشهوات. أما العقل الفاسد المغمور بالشهوات والشبهات فليس بعقل، ولهذا يصف الله الكفار بأنهم ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُون**﴾[2] مع أنهم أذكياء، لكن الذكاء شيء والعقل شيء آخر، فالعقل ما يعقل الإنسان عما يضره، ويمنعه مما يضره، والذكاء هو سرعة إدراك الأمور وفهمها.

ثم قال الله تعالى: ﴿**واسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرة**

---

(١) رواه: مسلم (٢/٦٩٢ ـ ٦٩٣) رقم (٩٩٧).

(٢) من الآية ١٧١ من سورة البقرة.

إِلَّا عَلى الخَاشِعِين الذين يظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِم وأَنَّهم إِليهِ رَاجِعُون﴾.

في الآية الكريمة الأولى يأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالاستعانة بأمرين: الصبر والصلاة، فالصبر حبس النفس عن التشكي والتسخط، والصلاة هي التعبد لله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالعبادة المعروفة المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم، ويبين أن الاستعانة بالصبر والصلاة كبيرة إلا على الخاشعين، أو أن الصلاة نفسها كبيرة إلا على الخاشعين، والخشوع هو الذل، بل هو أعظم الذل وأكمله، والمراد بذلك الخشوع لله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

أحكام وفوائد هاتين الآيتين:

ـ طلب الاستعانة بالصبر في مكابدة الأمور، لأن الإنسان الذي لا يصبر لا يتم له مطلوبه، فإن كثيراً من الأمور لا تأتي الإنسان بسهولة، بل تحتاج إلى تحمل وصبر. وقد ذكر أهل العلم ـ رحمهم الله ـ أن الصبر ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة. فأما الصبر على طاعة الله فهو أن يقوم الإنسان بأوامر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ غير متضجر ولا ضائق بها صدره، بل يتقبلها بانشراح وسرور حتى يقوم بالعبادة وهو يحب أن يقوم بها، وأما الصبر عن محارم الله فهو الكف عما حرم الله عليه سواء أكان مما يتعلق بحقوق الله أو ما يتعلق بحقوق

العباد، فيكف نفسه عن العدوان والظلم والكذب وعما هو أعظم من ذلك من الشرك والكفر ونحو هذا، والثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة، لأن أقدار الله تعالى قد تكون ملائمة للإنسان يفرح بها، ويطمئن إليها، ويُسرُّ بها، وهذه لا تحتاج إلى صبر اللهم إلا إذا صبر على شكرها.

والثانية: أقدار مؤلمة شاقة على الإنسان يتعب منها، فهذه تحتاج إلى مصابرة وإلى عناء، فكلما مرَّن الإنسان نفسه على الصبر والتحمل ازداد ثباتاً، وحصل له من مطلوبه ما لم يحصل له لو تضجر، وهذا شيء مجرب، أن الإنسان إذا تمرَّن على الصبر والتحمل صار عنده من مدافعة الأمور ما ليس عند غيره.

- الاستعانة بالصلاة على مكابدة الأمور أيضاً، وقد ذكر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه كان إذا حزبه أمر (يعني كربه أو شق عليه) فزع إلى الصلاة[1]، وذلك لأن الصلاة تنسي الإنسان الدنيا إذا كان مخلصاً فيها، فإن الإنسان يقف بين يدي الله - عز وجل - يناجيه ويتقرب إليه بتعظيمه وتلاوة كتابه ويناجيه بالدعاء يقول: رب اغفر لي، ارحمني، وما أشبه ذلك فيتسلى بها الإنسان عن أمور الدنيا، وحينئذ يتحمل المشاق، ولهذا قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: **«حُبِّبَ إِلَيَّ من دنياكُم النساءُ والطيبُ وجُعلت قُرَّة عيني**

---

(١) انظر منتخب كنز العمال (٣/١٤٨).

في الصـلاة»[1] فهي قرة عين المؤمن. ويُذكـر عن عروة بن الزبير ـ رحمه الله ـ وهو من الفقهاء السبعة الذين اشتهروا في زمن التابعين أنه أصابته آكلة في رجله وقرر الأطباء أنه لا بد من قطعها ولم يكن في ذلـك الـوقت بِنْـجٌ يُبَنَّجُ به الإنسان فقال لهم: إذا دخلت في الصـلاة فأتوا واقطعوها، لأنه إذا دخل في الصلاة اشتغل بها عما سواها فتقطع رجله وهو لا يشعر لشدة تعلقه بالله ـ سبحانه وتعالى ـ .

ـ ومن فوائدهما أن الخاشع المطمئن لأمر الله المُخبت له تسهل عليه الصلاة ويسهل عليه الصبر، ولا يكون أمراً شاقاً عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وإِنَّها لكبيرةٌ إلاَّ عَلَى الخَاشِعِين﴾.

وقوله تعالى: ﴿الذين يظنونَ أَنَّهُم مُلاقو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إليهِ راجِعُون﴾.

﴿يَـظُنُّـون أَنَّهم مُلاقو ربهم﴾ أي يتيقنون ذلك كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّها الإنسانُ إِنَّكَ كادحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحَاً فَمُلاقِيه﴾[2] فهم موقنون بأنهم ملاقو ربهم، وراجعون إليه، وأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ سيحاسبهم على أعمالهم.

---

(1) رواه النسـائي (٧/٧٢ ـ ٧٤) رقم (٣٩٤٩) ورقم (٣٩٥٠)، والإمـام أحمـد والحاكم والبيهقي ورمز له السيوطي بإشارة الحسن. انظر الجامع الصغير (١/٢٢٣).

(2) الآية ٦ من سورة الانشقاق.

- ومن فوائدهما إثبات لقاء الله، وأن الإنسان سيلاقي ربه وهو كذلك، قال تعالى: ﴿**يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه**﴾[1].

- ومن فوائدهما الثناء على الموقن بهذا اللقاء، لقوله: ﴿**الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم**﴾ أي يتيقنون.

- ومن فوائدهما - أيضاً - أن هذا اليقين أو العلم سبب للسعادة وللتَقَوّي على الأعمال الصالحة، لأن الإنسان إذا علم أنه سيرجع إلى ربه عمل لذلك عمله، بخلاف الإنسان الغافل الذي لا يهتم بما أمامه. فنسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يجعلنا جميعاً من المهتدين بآياته، القائمين بمرضاته، إنه جواد كريم.

ثم قال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿**يَا بني إِسْرَائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وأَنِّي فَضَّلتكم عَلَى العَالَمين واتَّقُوا يوماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عن نَفْسٍ شَيْئاً ولا يُقْبَلُ مِنْها شَفَاعَةٌ ولا يُؤْخَذُ منها عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ**﴾.

في هاتين الآيتين يُذكِّرُ الله - سبحانه وتعالى - بني إسرائيل، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، يُذكِّرُهم بنعمته التي أنعم بها عليهم، وما أكثر النعم التي

(١) الآية ٦ من سورة الانشقاق.

أنعم الله بها على بني إسرائيل ومنها أنه فضلهم على العالمين أي على عالم زمانهم، ليس على العالمين إلى يوم القيامة، لأن هذه الأمة أفضل الأمم وأكرمها على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1] ثم يأمرهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يتقوا ذلك اليوم الذي لا تجزي فيه نفسٌ عن نفسٍ شيئاً فلا أحد يغني غيره، بل لكل امرىء يومئذ شأن يغنيه، ولا يقبل من النفس شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل أي فدية، بل كل إنسان مرهون بعمله لا يُنصر ولا يقبل منه شفاعة ولا يؤخذ منه عدل.

فوائد وأحكام هاتين الآيتين:

- بيان نعمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على بني إسرائيل حيث ذكَّرهم بهذه النعمة ﴿واذكُرُوا نعمتي﴾ وهي مفرد مضاف فيشمل جميع النعم التي أنعم الله بها عليهم.

- أنه ينبغي لكل داعية أن يذكِّر المدعو بنعم الله، لأن التذكير بنعم الله يستلزم أن يقوم المدعو بطاعة المنعم، لأن ذلك هو حقيقة الشكر.

- أن الله فَضَّل بني إسرائيل على غيرهم من العالمين، ولكن

---

(١) من الآية ١١٠ من سورة آل عمران.

هذا خاص في زمانهم كما ذكرنا، أما هذه الأمة فهي أفضل من بني إسرائيل.

- التذكير بيوم القيامة الذي لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً.

- وجوب تقوى هذا اليوم، وذلك باتخاذ الوقاية من عذابه، ولا وقاية من عذاب يوم القيامة إلا بفعل أوامر الله، واجتناب نواهيه، لأن هذا هو الذي يقي من عذاب الله ـ عزَّ وجل ـ ، وهذا المعنى الذي ذكرناه للتقوى هو أجمع ما قيل فيها.

- ومن فوائد الآيتين الكريمتين أنه لا تقبل الشفاعة من النفوس في ذلك اليوم وهذا عام أريد به الخاص، وذلك أن الذين لا تقبل منهم الشفاعة هم الذين لا يرتضيهم الله ـ عزَّ وجل ـ ، وأما من ارتضاهم الله فإنَّ الله تعالى يقبل منهم الشفاعة فيمن يستحق الشفاعة. والشفاعة لا تكون إلا بشرطين:

- الشرط الأول: أن يأذن الله بها.

- والشرط الثاني أن يكون راضياً عمن شَفَع وعمن شُفِع له كما قال الله تعالى: **﴿مَنْ ذَا الَّذي يشفعُ عِنْدَهُ إلاَّ بإِذْنِهِ﴾**(١) وقال تعالى: **﴿يَوْمَئِذٍ لا تنفعُ الشفاعةُ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمنُ ورضيَ لَهُ قولاً﴾**(٢)

---

(١) من الآية ٢٥٥ من سورة البقرة.

(٢) الآية ١٠٩ من سورة طه.

وقال تعالى: ﴿ولا يشفعون إلَّا لمن ارتضى﴾[1]

- ومن فوائد هاتين الآيتين أنه لا عدل يؤخذ عن الإنسان في ذلك اليوم بخلاف المضايق في الدنيا، فإن الإنسان قد يدعو عِدلاً عنه أي شخصاً يعدله بنفسه وينجو بهذا المعادل، لكن في يوم القيامة لا يمكن ذلك.

- ومن فوائد هاتين الآيتين أيضاً أن من لا تقبل منه الشفاعة ولا يؤخذ منه عدل لا ينصر أيضاً، فلا يتناصر المجرمون في ذلك اليوم، لأن الأمر كله لله.

- ومن فوائد الآيتين التذكير العام لكل أحد بأهوال هذا اليوم العظيم الذي لا بد أن يصير إليه كل حي، فعليه أن يستعد له وأن يتأهب له بالأعمال الصالحة المقربة إلى الله - عزَّ وجلَّ - .

ثم قال الله - تعالى - : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وفي ذَلِكُمْ بلاءٌ منْ ربِّكُمْ عَظِيمٌ. وإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البحرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.

قوله: ﴿وإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ الخطاب لبني إسرائيل. و﴿آل فرعون﴾ هم أتباعه الذين يتولونه ويتوجهون بتوجيهاته، فآل

(١) من الآية ٢٨ من سورة الأنبياء.

فرعـون كانـوا يسـومون بني إسرائيل سوء العذاب، يستعبدونهم يذبحـون أبنـاءهم، ويستحيون نساءهم: أي يستبقونهن، وهذه سياسة الجور والظلم، فهم يذبِّحون الأبناء؛ لئلا ينشأوا ويقاوموا آل فرعـون، ولأجـل أن يَقِلَّ النسل في بني إسرائيل، ولأجل أن يكونوا أذلة أمام آل فرعون، لأن النساء ـ مهما كُنَّ ـ فإنهن في مقام الذل أمام العدو.

﴿وفي ذَلِكُمْ بلاءٌ منْ ربِّكُمْ عَظِيم﴾ أي اختبار عظيم لكم، هل تصبرون على ما حصل لكم من الأذى؟ وهل شكرتم لما أنجاكم اللهمن هذا البلاء؟ ثم يذكرهم الله تعالى بنعمة أخرى وهي أن الله فَرَقَ بهم البحـر فأنجـاهم وأغرق آل فرعون، وذلك حينما خرج فرعـون بجنـوده تابعـاً لموسى وقـومـه ليقضي عليهم ﴿فَلَمَّا تراءَى الجمعان قال أصحابُ موسى إنَّا لـمُدْرَكُونَ. قال كَلَّا إنَّ مَعِيَ رَبِّي سيهـدين. فأوْحينـا إلى موسى أن اضْرِبْ بِعَصَاكَ البحرَ فانفَلَقَ فكان كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ العَظِيمِ﴾[1] فدخل موسى وقومه في هذا الطريق وعلى أيمانهم وشمائلهم كتل الماء كالجبال، ولما نجوا دخل فرعون وقومه فأمر الله البحر فانطبق عليهم، فغرقوا عن آخرهم، ولهـذا قال: ﴿وأَغْرَقْنَا آل فِرعونَ وأَنْتُمْ تَنْظُرُون﴾ فكان في هذا نعمتـان لبني إسرائيل، إحـداهما: أن الله أنجاهم. والثانية: أن اللهأغرق عدوهم.

(١) الآيات (٦١ ـ ٦٣) من سورة الشعراء.

فوائد وأحكام هاتين الآيتين:

ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ نجَّى بني إسرائيل مرتين، المرة الأولى من آل فرعون حين كانوا يسومونهم سوء العذاب فيذبحون الأبناء ويستبقون النساء.

والمرة الثانية حين فَرَقَ بهم البحر فأنجاهم من الغرق، وأغرق آل فرعون وهم يشاهدون ذلك.

ـ بيان شدة بطش آل فرعون لبني إسرائيل حين كانوا يمارسون معهم هذا الإذلال العظيم، وذلك بذبح الأبناء واستبقاء النساء، فإن ذلك أكبر إذلال للشعوب، أن تذبح رجالها، وتبقى نساؤها.

ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يبتلي عباده أحياناً بالمصائب ليعلم من يكون صابراً ومن يكون ضاجراً، وأحياناً بالنعم ليعلم من يكون شاكراً ومن يكون بطراً، ولله ـ سبحانه وتعالى ـ في خلقه شؤون. والمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **«عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»**[1].

---

(١) سبق تخريجه ص ٣٨ .

- إثبات الحكمة لله - عزَّ وجلَّ - فيما يقدره على عباده، وهذا من مقتضى اسمه «الحكيم»، فإن الله - سبحانه وتعالى - حكيم فيما يقدره، وفيما يشرعه، وبه نعرف أنه لا يمكن أن يشرع شيئاً عبثاً، أو أن يقدر شيئاً عبثاً، قال الله تعالى: ﴿**وما خَلَقْنا السمواتِ والأرضَ وما بينهما لاعبين. مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بالحقِّ ولكن أكثرهم لا يَعْلَمُون**﴾(١) ولكن أحياناً تخفى الحكمة علينا؛ لقصور أفهامنا، أو لتقصيرنا في طلب الحكمة، ولكن هذا لا يمنعنا من تمام الإيمان بأن الله - سبحانه وتعالى - ذو حكمة، وأنه لا يفعل شيئاً ولا يشرع شيئاً إلا لحكمة عظيمة.

- أن بلاء الله (أي ابتلاءه) يتنوع، فمنه ابتلاء يسير، ومنه ابتلاء عظيم، وذلك حسب ما تقتضيه الحكمة، فإن الله - سبحانه وتعالى - قد يبتلي من هو قليل الصبر وقليل الشكر ببلاء يسير يناسب حاله، ويبتلي من هو قوي على الصبر وعلى الشكر ببلاء أعظم، ليكون ذلك مناسباً لحاله، ولهذا جاء في الحديث عن سعد بن أبي وقاص قال: «**قلت: يا رسولَ اللهِ أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً؟ قال: الأنبياءُ ثُمَّ الأمثلُ فالأمثلُ**..»(٢) والواقع شاهد على

---

(١) الآيتان ٣٨ و ٣٩ من سورة الدخان.

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٥٢٠) رقم (٢٣٩٨) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجة (٢/ ١٣٣٤) رقم (٤٠٢٣)، والدارمي (٢/ ٣٢٠).

ذلك، فإن الابتلاء الذي يجريه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على الأنبياء أعظم من الابتلاء الذي يجريه الله على من دونهم.

ـ بيان قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كيفية إنجاء بني إسرائيل وإغـراق آل فرعون، وذلك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل هذا البحر ـ الذي هو من الماء السائل ـ واقفاً كالطود العظيم في ضربة واحدة من موسى، أوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه فضربه فانطلق كل فرق كالطود العظيم، أي كالجبل العظيم.

وقد ذكر بعض الناس أن الله جعل في هذه الكتل المائية جعل فيهـا فرجـاً ينظر الناس بعضهم إلى بعض ليطمئن بعضهم على البعض الآخر.

ـ ومن كمال طمـأنينـة العبد أن يرى عدوه أمامه وقد هلك ﴿**وأغرقنا آل فِرعونَ وأنتم تَنْظُرون**﴾ فإن الله لو أغرق آل فرعون أو أصـابهم بعـذاب لم يشـاهده بنو إسرائيل لم تكن طمأنينة بني إسرائيل على هلاك فرعون وقومه كما لو كانت وهم ينظرون.

ـ الـرد على الذين بهرتهم صنائع أعداء الله اليوم، وغرَّتهم حتى ظنوا أنه لا يمكن الانتصار عليهم، بل ربما يتهكم بعضهم إذا قيل لهم: إننا لو رجعنا إلى دين الله حق الرجوع لانتصرنا على أعدائنا مهما بلغت قوتهم، فإننا نقول لهم: انظروا كيف كان هذا البحر طريقاً يبساً في لحظة واحدة، وفتح الله فيه اثني عشر طريقاً

بضربة واحدة بعصا موسى عليه الصلاة والسلام، ثم بقيت كتل الماء كأنها جبال، وأغرق الله تعالى عدو بني إسرائيل وهم ينظرون إليهم، ثم انظروا أيضاً ما فعل الله تعالى بعادٍ من الريح العاصفة المدمرة، وما فعل الله تعالى بثمودٍ قوم صالح حيث أخذتهم الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين، فنحن لو صدقنا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لهيأ لنا من أسباب النصر ما لا يخطر على البال.

ثم قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ : **﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا موسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وأَنْتُمْ ظَالِمُون ثُمَّ عَفَوْنَا عنكم مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون﴾**.

في هاتين الآيتين يُذكّر الله تعالى بني إسرائيل بنعمته عليهم بهذا العفو العظيم، وذلك أن الله تعالى واعد موسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاثين ليلة، فأتمها بعشر فصارت أربعين ليلة، فلما تأخر موسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الموعد الذي ذكره لبني إسرائيل فتنوا بعبادة العجل، وذلك أنهم صنعوا من الحلي من الذهب تمثالاً على هيئة العجل، وهو ولد البقر الصغير، وجعلوه على شكل يكون له خوار كخوار العجل، وأضلهم السامري فقال لهم: إن ربكم هذا العجل، وهو إلهكم وإله موسى، فعبدوا العجل من دون الله، وذكَّرهم هارون أخو موسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن إلههم هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقال: **﴿يا قوم إنما فُتنتم به وإنَّ ربكم**

الـرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري﴾[1] ولكنهم أصروا وأبوا وقالوا: ﴿لن نبرحَ عليه عاكفين حتى يرجعَ إلينا موسى﴾[2] فبقوا يعبدون هذا العجـل حتى رجع إليهم موسى عليه الصلاة والسلام، ولما رجع إليهم موسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: ﴿يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتـاب عليكم إنَّـهُ هو التـوَّابُ الرحيم﴾[3] فجعل الله تعالى من توبتهم أن يجتمعوا جميعاً ويأخذوا السكـاكـين والخنـاجر ويقتلوا بعضهم بعضاً، ويصبروا على هذه المحنة العظيمة، فلما فعلوا ذلك تاب الله عليهم، فهنا يقول ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا موسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ من بَعْدِهِ وأَنْتُمْ ظَالمون﴾ معتدون في حق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حيث اتخذتم هذا العجـل الذي صنعتموه بأيديكم إلهاً تعبدونه من دون الله، ولكن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ذكَّرهم بالنعمة عليهم، حيث عفا عنهم من بعد ذلك، لعلهم يشكرون الله على نعمه، ويتوبون إليه، ويعودون إليه.

---

(١) من الآية ٩٠ من سورة طه.

(٢) من الآية ٩١ من سورة طه.

(٣) من الآية ٥٤ من سورة البقرة.

أحكام وفوائد هاتين الآيتين:

أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ واعد موسى ثلاثين ليلة، ثم أتمها حتى صارت أربعين ليلة، ووعد الله له ثلاثين ليلة مأخوذ من آية أخرى، لكنه ـ عزَّ وجلَّ ـ مدَّد المدة لحكمة أرادها ـ سبحانه وتعالى ـ.

ـ ومن فوائدهما إثبات كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لقوله: ﴿**وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**﴾ فإن هذا الوعد لا بد أن يكون بوحي، أو بكلام من الله ـ سبحانه وتعالى ـ لموسى.

ـ ومن فوائدهما أن بني إسرائيل حين اتخذوا العجل من بعد موسى كانوا عالمين بأنهم على غير هدى، لأنهم كانوا ظالمين، فإنهم كانوا يعبدون الله من قبل، وذكَّرهم هارون بأن ربهم الرحمن ـ عزَّ وجلَّ ـ، ولكنهم أصروا واستمروا على ما هم عليه.

ـ ومن فوائدهما أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عفا عنهم بعد هذه الفعلة.

ـ ومن فوائدهما أن الإنسان إذا مَنَّ الله عليه بالعفو ووفقه للتوبة فإنه يجب أن يشكر الله على هذا التوفيق، فكم من إنسان حُرم التوبة وأَصَرَّ على ما هو عليه من الذنب حتى هلك.

ـ ومن فوائد هاتين الآيتين إثبات الحكمة لله ـ سبحانه

وتعالى - في أفعاله؛ لقوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فإن «لَعَلَّ» هنا للتعليل، ولا ريب أن جميع أفعال الله مقرونة بحكمته، لأنه - جلَّ وعلا - لا يفعل شيئاً سفهاً، ولكن الحكمة إما أن تكون معلومة لنا، وإما أن تكون مجهولة؛ لقصورنا عن إدراكها، أو تقصيرنا في طلبها.

وقبل أن أنهي الكلام عن هاتين الآيتين أنبه إلى أننا ذكرنا في أول الكلام عن الفوائد أن فيهما دليلاً على إثبات كلام الله. والحقيقة أن هذا قد لا يؤخذ من هاتين الآيتين على وجه يسلم من الاعتراض، ولكن يؤخذ من القصة في موضع آخر حيث قال الله تعالى: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلَّمه ربُّهُ قال ربِ أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾(١) ومذهب أهل السنة والجماعة في كلام الله - عزَّ وجلَّ - أنه حق على حقيقته، وأنه تعالى يتكلم متى شاء كيف شاء بما شاء، يتكلم بحرف وصوت يسمعه من كلمه الله - عزَّ وجل - ، ولهذا تجد أن الله - سبحانه وتعالى - في هذه القصة لما كَلَّمَ موسى قال له موسى: ﴿رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾(١) وفي هذه القصة دليل على أن

---

(١) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.

(١) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.

كلام الله يتعلق بمشيئته، وليس كما أطلقه بعضهم قديماً أزلياً، بل إن الصواب في ذلك أن كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ باعتبار أصله وجنسه ـ أزلي أبدي لم يزل ولا يزال متكلماً ـ سبحانه وتعالى ـ . وأما باعتبار آحاده فإنه متعلق بمشيئته متى شاء تكلم بما يشاء، هذا هو الذي مشى عليه أهل السنة والجماعة.

ثُمَّ قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يا قوم إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بارِئِكُمْ فاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خيرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

في هذه الآية الكريمة يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن نبي الله موسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنه وعظ قومه هذه الموعظة العظيمة بهذا التلطف العظيم: ﴿يا قوم إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ﴾ وأي ظلم أشد من أن يتخذ الإنسان مع بارئه وخالقه إلهاً يعبده، فإن هذا أظلم الظلم كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشركَ لظلم عظيم﴾[1] فأعظم الظلم أن يجحد الإنسان حق ربه حتى يجعل حقه لغيره، فيعبد غير الله مثلما يعبد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، يقول عليه الصلاة والسلام: ﴿فَتُوبُوا إلى بارِئِكُمْ﴾ أي ارجعوا إليه من

---

(١) من الآية ١٣ من سورة لقمان.

معصيتـه إلى طاعتـه، ومن الإشراك به إلى توحيده ﴿فـاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي ليقتل بعضكم بعضاً، وإنما عَبَّرَ بقتل النفس، لأن المؤمن أخو المؤمن، فكأنه هو نفسه، ولهذا قال الله تعالى في قصة الإفك: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقـالوا هذا إفك مبين﴾[1] فأخوك المؤمن بمنزلة نفسك، ثم قال موسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي توبتكم إلى الله بقتل أنفسكم ﴿خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ﴾ وكل إنسان فإنه يجب أن يكون الخير عند بارئه ـ تبارك وتعالى ـ لأنه خالقه المدبر له كما يشاء، فلما قتلوا أنفسهم تاب الله عليهم، إنه هو التواب الرحيم.

فوائد هذه الآية الكريمة:

ـ أن موسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذكَّـر قومه بهذه الفعلة القبيحة، وبما مَنَّ الله عليهم به من التوبة إليه، والتوبة عليهم.

ـ أنه ينبغي للداعية أن يتلطف مع من يدعوه، وأن يذكر الألفاظ التي تكون سبباً في إقبال المدعو على الداعي وتقبله ما يوجهه إليه من النصيحة، لأنه قال لقومه: ﴿يا قَوْمِ﴾.

ـ أنه ينبغي لمن ذكر الداء أن يذكر الدواء، فإن موسى ـ صلى

(١) الآية ١٢ من سورة النور.

الله عليه وسلم ـ لما ذكر أنهم ظلموا أنفسهم عرض عليهم الدواء بالتوبة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وهكذا ينبغي للداعية إذا ذكر الداء والأمراض الدينية التي في المجتمع أن يذكر لهم الدواء وطريق الخلاص منها حتى يجمع بين الأمرين.

ـ بيان سفه بني إسرائيل الذين عبدوا عجلاً صنعوه بأيديهم من الذهب، وعرفوا أنه تمثال، وأنه لا يستحق من الربوبية شيئاً، ومع ذلك عبدوه، وهذا دليلٌ على سفههم.

ـ ومن فوائد الآية الكريمة وجوب التوبة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لقوله: ﴿فتوبوا إلى بارئكم﴾ حيث إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو البارىء الذي خلق، فله الحق علينا أن نفر من معصيته إلى طاعته. والتوبة لا بد فيها من شروط خمسة:

ـ الشرط الأول: أن يخلص العبد التوبة إلى الله ـ عزَّ وجل ـ بأن يكون الحامل له عليها خوف الله ورجاء ثوابه، والخلاص من الذنب الذي وقع فيه.

ـ الشرط الثاني: الندم بحيث يتحسر على ما حصل منه من ذنب فلا يكون الأمر عنده على حد سواء، بل يتأسف ويتندم على ما حصل منه من الذنب.

ـ الشرط الثالث: أن يقلع عن الذنب في الحال، فإن كان متلبساً بمحرم تركه، وإن كان تاركاً لواجب أتى به إن كان يمكن

تداركه، وإن لم يمكن تداركه أتى ببدله إن كان له بدل، وإلا كفته التوبة.

- الشرط الرابع: أن يعزم على ألا يعود إلى الذنب في المستقبل، فأما إن قال: أنا تائب إلى الله ومن نيته أنه متى سنحت له الفرصة عاد إلى الذنب، فإنه ليس بتائب حقيقة.

- الشرط الخامس: أن تكون التوبة في الوقت الذي تُقبلُ فيه التوبة، وذلك بأن تكون قبل طلوع الشمس من مغربها وقبل حضور الأجل، لأنه إذا طلعت الشمس من مغربها، فلا توبة، وإذا حضر الأجل فلا توبة، قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : **«لا تنقطعُ الهجرةُ حتَّى تنقطعَ التوبةُ، ولا تنقطعُ التَّوبةُ حتى تطلعَ الشمسُ مِنْ مغربها»**[1] وقال الله تعالى: **﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضرَ أحدَهم الموتُ قال إني تبتُ الآن ولا الذين يموتون وهم كفار﴾**[2].

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة بيان منة الله - عزَّ وجلَّ - على هذه الأمة حيث جعل توبة بني إسرائيل بهذا الثقل وهذه الآصار،

---

(١) رواه: أبوداود (٣/٧ - ٨) رقم (٢٤٧٩)، والإمام أحمد في مسنده (٤/٩٩)، والدارمي (٢/٢٣٩ - ٢٤٠)، والطبراني في المعجم الكبير (١٩/٣٨٧) رقم (٩٠٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/١٧).

(٢) من الآية ١٨ من سورة النساء.

وأنه لا تتحقق توبتهم إلا إذا قتلوا أنفسهم. أما هذه الأمة ـ ولله الحمد ـ فإن التوبة تحصل بدون ذلك، تحصل بما ذكرنا من الشروط، وإن لم يحدث الإنسان ضرراً على نفسه.

ـ ومن فوائد الآية الكريمة أن الإقلاع عن الذنب، والتوبة إلى الله منه خير من الاستمرار عليه، بل قد يكون الإنسان بعد التوبة خيراً منه قبلها، أي أن الإنسان إذا أذنب ثم تاب إلى الله فإنه قد تكون حاله بعد التوبة من هذا الذنب خيراً من حاله قبل أن يذنب، ألم تر إلى آدم عليه الصلاة والسلام حين أكل من الشجرة قال الله تعالى في حقه: **﴿وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾**[1] فحصل له الاجتباء والهداية بعد أن تاب من تلك المعصية.

ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة بيان منة الله على عباده حيث يقبل منهم التوبة إذا صدقوا الله تعالى في التوبة، ولهذا لما صدق بنو إسرائيل في التوبة وقتلوا أنفسهم تاب الله عليهم **﴿فَتَابَ عليكم﴾** أي قَبِلَ توبتهم وعفا عنهم.

ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة إثبات هذين الاسمين الكريمين وهما «التواب» و«الرحيم»، وأن من مقتضاهما أن يتوب

---

(١) من الآية ١٢١، والآية ١٢٢ من سورة طه.

الله ـ سبحانه وتعالى ـ على من تاب ويرحمه، فالتواب كثير التوبة على عباده، فما أكثر ما تاب الله على عباده، وما أكثر الذين يتوبون إلى الله فيتوب الله عليهم. أما الرحيم فهو ذو الرحمة المقتضية للإحسان إلى الخلق إحساناً عاماً كما في الرحمة العامة وإحساناً خاصاً كما في الرحمة الخاصة. واعلم أن الرحمة تنقسم إلى قسمين: رحمة عامة، ورحمة خاصة، فالعامة هي الشاملة لكل الخلق، مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، والرحمة الخاصة هي الرحمة بالمؤمنين كما قال الله تعالى: **﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾**(١) وهذه رحمة خاصة تتصل بها سعادة الدنيا والآخرة.

ثم قال الله تعالى: **﴿وإذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لن نُؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُون ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون وظَلَّلْنا عليكم الغمامَ وَأَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ المَنَّ والسَّلْوَى كُلُوا من طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وما ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُون﴾**.

في هذه الآيات يُذَكِّرُ اللهَ تعالى بني إسرائيل بما جرى منهم، وبما كان من إحسان الله تعالى إليهم، فأمَّا الذي جرى منهم، فإنهم قالوا لموسى وهو يكلِّم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بما شاء من الوحي **﴿لَنْ**

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة الأحزاب.

نُؤْمِنُ لَكَ حتى نرى الله جهرة﴾ أي لن نؤمن لك أنك تكلم الله حتى نرى الله جهـرة أي عياناً، وهذا غاية في العناد والاستكبار والتكذيب. فلما قالوا هذه المقالة العظيمة صعقوا، أخذهم الموت فماتوا جميعاً، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ مَنَّ عليهم فبعثهم أي أحياهم من بعد موت، لأن موسى دعا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ففرَّج الله عنهم **﴿قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإيَّايَ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي بها من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾**[1] فبعثهم الله من بعـد الموت لعلهم يشكرون هذه النعمة إذا ذكروها، والشكر هو القيام بطاعة المنعم، وليس الشكر مجرد قولِ القائلِ أشكر الله، لأن القول باللسان ـ إن لم يصدقه العمل والاعتقاد ـ قول لا فائدة منـه، قال أهـل العلم: والشكـر يكـون في القلب واللسـان، وبـالجوارح، فأما شكر القلب فأن يعترف الإنسان بقلبه أن هذه النعمة من فضل الله وحده، وليست بحول المرء وقوته. وأما شكر الله باللسان فالتحدث بهذه النعمة إظهاراً لفضل الله لا افتخاراً على عباد الله، ويشمل أيضاً جميع ما يتكلم به العبد مما يقرب إلى الله ـ عزَّ وجـلَّ ـ ، وأمـا الشكـر بالجوارح فأن يقوم الإنسان بالعمل الصالح بجوارحه: اليدين والرجلين والعينين وغير ذلك من أعضائه

---

(١) من الآية ١٥٥ من سورة الأعراف.

وجوارحه، وفي هذا يقول الشاعر:

أفادتكُمُ النعماءُ مني ثلاثةً   يدي ولساني والضمير المحجب

ثم يذكِّرهم الله تعالى نعمة ثانية بعد أن أحياهم من تلك الصعقة، وهي أنه ظلل عليهم الغمام من حر الشمس، فصاروا في ظل بارد. والغمام ـ كما قال أهل العلم ـ : هو السحاب الأبيض الحاجب من حر الشمس، وأنزل عليهم المن والسلوى، فالمن طعام يجدونه منتشراً على رؤوس الشجر كأنه العسل فيأكلونه، والسلوى هو الطائر المعروف بالسمانة، وهو من ألذ الطيور لحماً، وسمي المنُّ مناً، لأنه يحصل بدون تعب ولا مشقة، ومنه الكمأة وهي الفقع لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**الكمأةُ مِنَ المنّ وماؤها شفاء للعين**»[1] وهي ـ وإن لم تكن مِنَ المنّ الذي نزل على بني إسرائيل ـ لكنها مِنَ المنّ بالمعنى العام، لأنها توجد في الأرض بدون غرس ولا بذر ولا تعب في سقي وغيره.

ثم امتنَّ الله عليهم بأن يسَّرَ لهم أكل هذه الطيبات، فقال تعالى: ﴿**كُلُوا من طَيِّبَاتِ ما رَزَقْنَاكُمْ**﴾ وهذه منَّةٌ ثالثة، لأن الإنسان ربما يتيسَّرُ له الطعام والشراب، ولكن لا يتمكن من أكله وشربه لعلة فيه فلا يحصل به كمال المنة، وربما يحرم من الطعام

---

(١) رواه البخاري (١٠/٢٠٠) رقم (٥٧٠٨)، وابن ماجة (٢/١١٤٣) رقم (٣٤٥٤) واللفظ للبخاري.

والشراب لقلتهما، المهم أن إيجاد الطعام أو الشراب نعمة من الله ـ عزَّ وجل ـ ، وأنَّ قدرة الإنسان على تناول الطعام والشراب وتلذذه بذلك وانتفاعه به من نعمة الله تعالى أيضاً، ولهذا قال: ﴿**كُلُوا من طيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾ أي من طيبات ما أعطيناكم، ثم قال: ﴿**وما ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كانُوا أنفسهم يَظْلِمُون**﴾ أي ما ظلمونا بمعاصيهم، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لن يعبأ بأحد، ولن يتضرر بمعصية العاصين، ولن ينتفع بطاعة الطائعين كما جاء في الحديث القدسي: «**يا عبادي إنكم لن تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّوني وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُوني**»[1] وقال تعالى: ﴿**ولكنْ كانُوا أنفسَهُمْ يظلمون**﴾ أي ولكن كانُوا يظلمون أنفسهم، فالإنسان المفرط في حق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ليس ظالماً لله، لأن الله تعالى لا ينقصه معصية العاصين، ولكنه قد ظلم نفسه وهضمها ونقصها حقها؛ لأن النفس أمانة عند الإنسان يجب عليه أن يرعاها حق رعايتها، وألا يوقعها في المهالك.

فوائد هذه الآيات الكريمة:

ـ عتو بني إسرائيل، وشدة عنادهم وتكذيبهم، حيث قالوا لنبيهم وهم يسمعون كلام الله: ﴿**لَنْ نؤمنَ لَكَ حَتَّى نرَى الله**

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/١٩٩٤ ـ ١٩٩٥) رقم (٢٥٧٧)، ضمن حديث طويل.

جهرة﴾ فعاقبهم الله بالصعق فصعقوا حالاً، ولهذا جاء بالفاء في قوله: ﴿**فَأَخَذَتْكُم الصاعِقةُ**﴾ الدالة على الترتيب والتعقيب.

- بيان قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على إحياء الموتى حيث أحيا هؤلاء من موتهم بدليل قوله: ﴿**ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ من بعدِ موتِكُمْ**﴾.

- أن الصاعقة أخذتهم وهم ينظرون، أي ينظر بعضهم إلى بعض يقع ميتاً حتى ماتوا عن آخرهم، أي مات جميع من تكلموا بهذا القول، أو رضوا به في ذلك المكان.

- أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينعم على العبد، برفع الضرر عنه من أجل أن يشكر نعمة الله، فإن أسباب شكر نعمة الله إما خير يجلبه الله لك، وإما شر يدفعه الله عنك، والذي حصل لهؤلاء دفع شر وحصول خير، دفع شر برفع الموت عنهم، وحصول خير بإحيائهم من بعد موتهم.

- إثبات حكمة الله، لقوله تعالى: ﴿**لعلَّكُمْ تَشْكُرُون**﴾.

وقد سبق مراراً ما يدل على إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى كما هي ثابتة فيما شرعه، ولهذا يختم الله ـ سبحانه وتعالى ـ كثيراً من آيات الأحكام بالعلم والحكمة، كما في آية قسم الصدقات: ﴿**إنَّما الصَّدَقَاتُ للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلَّفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله**

عليم حكيم﴾[1] وكما في آية المواريث: ﴿. . . **آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً﴾**[2].

- وفي قولـه تعالى: **﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُم الغَمامَ وأَنْزَلْنا عَلَيْكُم الـمَنَّ والسَّلْوى كُلُوا مِنْ طيِّبـاتِ ما رَزَقْناكُمْ وما ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كانُـوا أنفسهم يظلمـون﴾** بيان نعمة الله تعالى على بني إسرائيل بتظليلهم بالغمام من الحر، حر الشمس، والغمام وهو ـ السحاب الأبيض ـ من أبرد السحاب ظلاً.

- بـيان قدرة الله ـ عزَّ وجـلَّ ـ ، وأن كل شيء يكـون فبمشيئته، فالسحاب المسخَّر بين السماء والأرض لا يجري إلا بأمر الله وتدبير الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولا يخفى على كثير من الناس ما جرى للرجل الذي سمع قائلاً يقول من السحاب: اسقِ حديقة فلان، فنزل المطر على أرض وسال الوادي إلى هذه الحديقة، فتابعه هذا الرجـل الـذي سمع الصوت من السحاب حتى وصل إلى صاحب الحديقة، وسأله ماذا يصنع فيها فقال له: إني أقسم ريعها ثلاثة أقسام: فثلث أعيده فيها يعني أصلحها به، وثلث لي ولعيالي، وثلث أتصدق به، ثم سأله صاحب الحديقة عن سبب سؤاله إياه،

---

(١) الآية ٦٠ من سورة التوبة.

(٢) من الآية ١١ من سورة النساء.

فأخبره أنه سمع صوتاً في السحاب يقول: اسقِ حديقة فلان. ففي هذا دليلٌ على أن السحاب المسخَّر بين السماء والأرض يسير بإذن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وبأمره.

ـ ما منَّ اللهُ به على بني إسرائيل من إنزال المن والسلوى، هذا الطعام الطيب اللذيذ الذي يأخذونه بدون كلفة ومشقة.

ـ أن الله تعالى أنعم عليهم بتيسير الحصول عليه والتمتع به حيث قال: **﴿كُلُوا من طيباتِ ما رَزَقْنَاكُمْ﴾** وهذا الأمر للامتنان والإباحة.

ـ أنَّ الله إنما أذن لعباده أن يأكلوا من الطيبات دون الخبائث، والخبائث كل ما حرمه الله على العباد، فهو خبيث لا ينتفعون به، ولكن ربما يحرم الله على عباده بعض الطيبات عقوبة لهم، كما في قوله تعالى: **﴿فبظلمٍ من الذين هادُوا حرَّمنا عليهم طَيِّباتٍ أُحِلَّت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾**[1].

وقد يُحرمُ الإنسانُ من الطيبات لا تحريماً شرعياً، ولكن بما يُصابُ به من الأمراض التي تجعله لا بد أن يحتمي من بعض

---

(١) الآيتان ١٦٠ و ١٦١ من سورة النساء.

المأكولات والمشروبات، وهذا نوعٌ من التحريم، لكنه تحريم كوني لا شرعي، فقد يبتلى الإنسان العاصي بأمراض تمنعه من التمتع بالطيبات التي أحلها الله له.

ـ أن ما نتمتع به من مأكول ومشروب، فإنما هو رزق من الله، وعطاء منه ومِنّة ليس بحولنا وقوتنا، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في سورة الواقعة فقال: **﴿أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكّهون إنّا لمغرمون بل نحن محرومون﴾**[1].

ومن المعلوم أننا لسنا الذين نزرعه وننميه، ولكن الذي يزرعه وينميه هو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. أما نحن فمنا السبب، والله هو المسبب ـ جلَّ وعلا ـ، ثم قال الله تعالى في سورة الواقعة: **﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء لجعلناه أُجاجاً فلولا تشكرون أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين﴾**[2].

فإذا علم العبدُ أن ما يتمتع به من النعم هو من رزق الله

---

(١) الآيات (٦٣ ـ ٦٧) من سورة الواقعة.
(٢) الآيات (٦٨ ـ ٧٣) من سورة الواقعة.

أوجب ذلك له الشكر لله ـ عزَّ وجل ـ على هذه النعم، وأوجب له أن يتبرأ من حوله وقوته بإيجاد هذه الأرزاق، وأوجب له أن يعرف قدر نعمة الله عليه بهذه الأرزاق التي قد يكون كثير من الناس محروماً منها.

ـ ومن فوائدها أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لن ينقص ملكه معصية العاصين ولن يضره ذلك لقوله: ﴿**وما ظَلَمُونا**﴾، فالإنسان ـ مهما كان عليه من معصية ـ لن ينقص الله شيئاً، ولن يضر الله شيئاً، قال الله تعالى: ﴿**ومن كفر فإن الله غني عن العالمين**﴾[1].

ـ ومن فوائدها أن العاصي ظالم لنفسه، معتدٍ عليها، غير قائم بما يجب لها، لأن نفسك أمانة عندك، فكما أنه يجب عليك أن تتوقى ما يضر بدنك حساً، فإنه يجب عليك أن تتوقى ما يضر دينك، ومن المعلوم أنه لا يجوز للإنسان أن يلقي بنفسه إلى التهلكة في الأمور الحسية كالأشياء التي تضره في بدنه، كما قال الله تعالى: ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم**﴾[2] وقال: ﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾[3] فكذلك أيضاً لا يجوز له أن يلقي بنفسه إلى التهلكة فيما يضره في دينه، بل إن ما يضره في دينه أولى بالمراعاة مما يضره في بدنه، لأن ضرر الدين

---

(١) من الآية ٩٦ من سورة آل عمران.

(٢) من الآية ٢٩ من سورة النساء.

(٣) من الآية ١٩٥ من سورة البقرة.

ضرر في الدنيا والآخرة، أما ضرر البدن فهو ضرر في الدنيا فقط.

- ومن فوائـدها بيان قصور الآدمي، وأنه عدو نفسه يظلم نفسه، وهو لا يشعر أنه ظالم لنفسه، لقول الله تعالى: ﴿**وما ظَلَمُونا ولكن كانوا أنْفُسَهُمْ يَظْلِمون**﴾.

- ومن فوائـدها أنه ينبغي للإنسان بل يجب عليه أن يتبصر ويتيقظ وينظر مدى الخسارة العظيمة التي تلحقه بفعل المعاصي أو ترك الواجبات حتى يحمي نفسه من هذا الظلم وهذا الضرر.

ثم قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا ادخُلُوا هَذِهِ القَرْيَةَ فكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وادْخُلُوا البَابَ سُجَّداً وقُولُوا حِطَّة نَغْفِر لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وسَنَزِيدُ الـمُحْسِنِيْنَ فَبَدَّلَ الَّذين ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذي قِيْلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِيْنَ ظَلَمُوا رِجْزَاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ**﴾.

في هاتين الآيتين يُذَكِّرُ اللهُ بني إسرائيل بهذه النعمة التي أنعم اللهُ بها عليهم ولكنهم كفروها فيقول لهم: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا ادخُلُوا هَذِهِ القَـرْيَةَ**﴾ وهذا القول يحتمل أن يكون قولاً كونياً أو قولاً شرعياً. ﴿**ادْخُلُوا هذه القرية**﴾ وهي القرية التي فتحوها قيل لهم ادخلوها، ﴿**فَـكُلُوا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَـدَاً**﴾ حلالاً لكم. ﴿**وادخُلُوا البـابَ سُجَّـداً**﴾ سُجَّـداً لله تعالى شاكرين له هذه النعمة العظيمة التي منحكم إياها. ﴿**وقُولُوا حِطَّة**﴾ أي قولوا احطط عنَّا ذنوبنا واغفر

لنـا ﴿نَغْفِرُ لكم خَطَاياكم﴾ أي نغفر لكم آثامكم وذنوبكم التي ارتكبتمـوها، وسنزيد المحسنين إحساناً على التوبة إذا أحسنوا في معـاملة الله، ولكن كانت النتيجة أن بدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم، وقال ﴿فبدَّل الذين ظلموا﴾ ولم يقل «بدلتم» إشارة إلى أنهم كانوا ظالمين فيما بدَّلوه، بدلوا قولاً غير الذي قيل لهم، قيل لهم ادخلوا الباب سُجَّداً، ولكنهم لم يدخلوا سُجَّداً، بل دخلوا على استاههم، أي على ألياتهم وعجائزهم، وقيل لهم: ﴿وقُولُوا حِطَّة﴾ أي احطط عنا ذنوبنا، ولكن لم يقولوا ذلك، بل قالوا: حنطة، أي سألوا طعاماً يملؤون به بطونهم، ولم يسألوا مغفرة لذنوبهم.

قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِين ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِمَا كانُوا يَفْسُقُون﴾ أنزل على الذين ظلموا، أي عليهم، ولكنه كرَّر الظلم تشنيعاً عليهم ﴿رِجْزاً مِنَ السَّماءِ﴾ أي عَذاباً من السَّماء.

﴿بما كانُوا يَفْسُقُون﴾ أي بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

في هاتين الآيتين يُذَكِّرُ اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ بني إسرائيل بما أنعم عليهم من إباحة دخول هذه القرية فاتحين آكلين مما رزقهم الله أكـلاً رغـداً لا شبهـة فيه، ويُذَكِّـرُهُـمْ أيضـاً بأنـه أمرهم بما فيه مصلحتهم وحسن عاقبتهم وهو أن يقولوا «حطة» أي احطط عنا

ذنوبنا واغفر لنا حتى يغفر لهم، ثم يذكرهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنهم بَدَّلُوا قولاً غير الذي قيل لهم، فلم يدخلوا سُجَّداً، ولم يقولوا: حطّة، ظلماً وعدواناً وإنكاراً لفضل الله تعالى عليهم ونعمته، فكانت عاقبتهم أن أنزل الله عليهم رجزاً من السماء بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله.

فوائد هاتين الآيتين الكريمتين:

ـ مِنَّة الله على نبي إسرائيل بما أباح لهم من دخول هذه القرية، وما أباح لهم من أكل ما رزقهم منها رغداً ليس فيه حرج ولا تبعة.

ـ ومن فوائدهما ـ أيضاً ـ أن الله أمرهم بأن يدخلوا الباب سُجَّداً، ويتفرع عن هذا مشروعية السجود، سجود الشكر عند تجدد النعم كما هو المشروع في شريعتنا أن الإنسان إذا تجددت له نعمة، فإنه يُسنُّ له أن يسجد لله تعالى شكراً. وسجود الشكر سجودٌ مجردٌ ليس صلاة، بل يكبر الإنسان ويسجد ويقول: سبحان ربي الأعلى، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، ثم يثني على الله تعالى بما أنعم به من هذه النعمة، ويشكره عليها، ثم يرفع بدون تكبير ولا تسليم.

ـ ومن فوائدهما أنه ينبغي للإنسان إذا نصره الله ويسَّر له

أسباب النصر ألا يغترَّ بنفسه، وألا يعجب بعمله، بل يسأل الله المغفرة، مغفرة الذنوب حتى لا يشمخ ويتعالى ويترفع لقوله تعالى: ﴿**وقولُوا حِطَّة**﴾.

- ومن فوائد الآيتين الكريمتين أن الله تعالى وعد من استغفره وطلب منه مغفرة الذنوب أن يغفر له لقوله: ﴿**نَغْفِر لكُمْ خطاياكم**﴾ وهذا مشروط بها إذا كانت التوبة نصوحاً. وقد مَرَّ علينا من قبل بيان التوبة النصوح وهي التي جمعت خمسة شروط.

- ومن فوائدهما أن الله تعالى يزيد المحسنين من فضله إحساناً وفضلاً، وهذا كقوله تعالى: ﴿**وإذْ تأذَّنَ ربكم لئن شكرتم لأزيدنَّكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد**﴾[1] وكقوله: ﴿**هل جزاء الإحسان إلا الإحسان**﴾[2] فالله - سبحانه وتعالى - أكرم من عبده وأجزل عطاء، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

- ومن فوائد هاتين الآيتين أن بني إسرائيل من أبعد الناس عن شكر نعمة الله، ولهذا بدَّلوا قولاً غير الذي قيل لهم، فبدلوا قول الله لهم: ﴿**ادخلوا الباب سُجَّداً**﴾ بدَّلُوه بأن دخلوا يزحفون على

---

(١) الآية ٧ من سورة إبراهيم.

(٢) الآية ٦٠ من سورة الرحمن.

أستاههم وعجائزهم، وبدلوا قول الله تعالى: ﴿**قولوا حِطَّة**﴾ بقولهم: «حنطة» يعني أنهم لم يهتموا بذنوبهم، وإنما كان همهم أمراً مادياً، وهو أن يشبعوا بطونهم.

- ومن فوائد هاتين الآيتين أن من خالف أمر الله فإنه حري بأن يُعَذَّب ويُعاقب لقوله تعالى: ﴿**فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزَاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يفسُقُون**﴾.

- ومن فوائد هاتين الآيتين إثبات الحكمة والعلة لأفعال الله، وأن أفعال الله تعالى مربوطة بحكمها وأسبابها؛ لقوله: ﴿**فأنزلنا على الذين ظلموا رِجْزَاً من السماء**﴾ فإن قوله: ﴿**على الذين ظَلَموا**﴾ كالتعليل لإنزال الرجز، أي أنهم أُنزل عليهم الرجز لظلمهم، وعلة أخرى وهي فسقهم، لقوله تعالى: ﴿**بما كانوا يفسقون**﴾.

- ومن فوائد هاتين الآيتين إثبات الأسباب في المقتضيات لمسبباتها، وهذا ـ لا شك ـ من تمام حكمة الله، أَنْ ربط الأشياء بأسبابها، وهو دليل على أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يخلق خلقاً عبثاً، ولا يشرع تشريعاً باطلاً ﴿**وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار**﴾[1].

---

(١) الآية ٢٧ من سورة ص.

ثم قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الحَجَرَ فانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَـــاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا واشْرَبُـــوا مِنْ رِزْقِ اللهِ ولا تَعْثَـوا في الأَرْضِ مُفْسِدِين﴾ .

في هذه الآية الكريمة يُذَكِّرُ اللهُ ـ تعالى ـ بني إسرائيل بهذه النعمــة العـظيمــة التي يجريها على يد نبيه موسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فبينما كان موسى وقومه محتاجين إلى الماء استسقى موسى لقومه فسأل الله تعالى أن يسقيهم فأمره الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أَنْ يضرب بعصاه الحجر، فضرب الحجر فانفجرت منها اثنتا عشرة عيناً، حجرٌ واحد نبعت منه اثنتا عشرة عيناً على عدد أسباط بني إسرائيل ، فإنهم كانـــوا اثني عشر سبـطاً. هذه العيون توزَّعت فعلم كل أنــاسٍ مشربهم، هؤلاء مشربهم هذه، وهؤلاء مشربهم هِذه، لئلا يحصل التزاحم بينهم والتقاتل على الماء. قال الله تعالى: ﴿كُلُوا واشربوا من رزقِ الله ولا تعثوا في الأرضِ مُفْسِدين﴾ فأباح الله لهم امتناناً منه وفضلاً أن يأكلوا ويشربوا من رزق الله ، وأن يقيدوا هذه النعم بشكرها ، فلا يعيثون في الأرض مفسدين، وإفساد الأرض ليس الإفســاد الحسي الـذي يكـون بتـدمـير الـديار، وتخـريب الآبـار والحروث ، ولكنه بالمعاصي كما قال كثير من السلف في قوله تعالى : ﴿ولا تُفْسِـدُوا في الأرض بعدَ إصلاحها﴾[1] قال: لا تفسدوها

(١) من الآية ٥٦ من سورة الأعراف.

بالمعاصي، ولا شك أن المعاصي سبب في الدمار والفساد الحسي؛ لقول الله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾[1] ولقوله تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾[2].

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

- افتقار الخلق إلى الله، ولو كانوا أعلى أصناف الخلق وهم الرسل، ولهذا استسقى موسى لقومه، واستسقى أشرف الأنبياء محمد - صلى الله عليه وسلم - لقومه حين دخل رجلٌ يوم الجمعة والنبي - صلى الله عليه وسلم - يخطب فقال: **«يا رسولَ الله هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادعُ الله يغيثنا. فرفع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يديه ثم قال: «اللهُمَّ أغثنا، اللهُمَّ أغثنا، اللهُمَّ أغثنا». قال أنس: ولا والله ما نرى في السماء من سحابة ولا قزعة**[3] **وما بيننا وبين سَلعٍ**[4] **من بيت ولا دار. قال: فطلعت من ورائه سحابة مثلُ التُّرس، فلما توسطت السماء انتشرت، ثم**

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الشورى.

(٢) الآية ٤١ من سورة الروم.

(٣) القزعة: هي القطعة من السحاب.

(٤) هو جبل معروف في المدينة.

أمطرت، فلا والله ما رأينا الشمس سبتاً، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة ـ ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائم يخطب ـ فاستقبله قائماً فقال: يا رسول الله هلكت الأموالُ، وانقطعت السُبُلُ، فادعُ الله يمسكها عنا، قال: فرفع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يديه ثم قال: «اللهُمَّ حوالينا ولا علينا، اللهُمَّ على الآكامِ والظراب[1] وبطونِ الأودية ومنابت الشجر» قال: فأقلعت وخرجنا نمشي في الشمس»[2] ففي هذه القصة، وفي قصة موسى ـ صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم ـ دليلٌ على أن الخلق مفتقرون إلى الله مهما بلغت منزلتهم عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فإن موسى قال الله عنه: ﴿**وكان عند الله وجيهاً**﴾[3] ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعظم الناس وجاهةً عند ربه، ومع ذلك كل منهما مفتقر إلى الله، يسأله، ويلجأ إليه، ويتضرع إليه. فإذا كان هذا مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فما بالك بمقام من دونهم؟ ويتفرع عن هذه الفائدة أنه يجب على الإنسان الذي أصابه الضر ألا يلجأ إلا لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، لا يلجأ إلى فلان وفلان من الأحياء أو الأموات فيدعوهم ويستغيثهم ويسألهم كشف الضر، فإن دعوة

---

(١) الظراب: الروابي الصغار.

(٢) الحديث أخرجه: البخاري (٢/٦٤٥) رقم (١٠١٤)، ومسلم (٢/٦١٢ ـ ٦١٤) رقم (٨٩٧)، والنسائي (٣/١٧٨ ـ ١٧٩) واللفظ للبخاري.

(٣) من الآية ٦٩ من سورة الأحزاب.

غير الله ـ عزَّ وجلَّ ـ شرك، شرك أكبر مخرج عن الملة، قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ المضطَّرَ إذا دَعَاهُ ويكشفُ السوءَ ويجعلكم خلفاءَ في الأرضِ أَإِلَهٌ مَعَ الله﴾[1] ليس هناك إله مع الله يستطيع هذا.

ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة بيان ما حصل من عصا موسى من الآيات حيث ضرب بها الحجر فانفجر عيوناً. وهذه العصا حصل فيها ثلاث آيات عظيمة: إحدى الآيات: أنه إذا ألقاها صارت حية تسعى، والآية الثانية: أنه ضرب بها هذا الحجر فانفجر عيوناً، والآية الثالثة: أنه ضرب بها البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم.

ـ ومن فوائد هذه الآية بيان عظم قدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حيث تفجر من هذا الحجر ـ الذي ضربه موسى بالعصا ـ اثنتا عشرة عيناً والناس ينظرون، فهذا دليل على كمال قدرة الله، وأنه ـ عزَّ وجلَّ ـ إذاأراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون. قال أهل العلم: وما من آية لنبي إلا كان لنبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثلها أو أعظم منها إما على يد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مباشرة أو على يد أتباعه الذين صدقوا في اتباعه، قالوا: وهذا الماء الذي تفجَّرَ من الحجر لموسى

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة النمل.

ـ صلى الله عليه وسلم ـ حصل لنبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما هو أعظم منه، فإن الناس في غزوة الحديبية أصابهم عطش وقلة ماء فجاءوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكان بين يديه ركوة (إناء من جلد صغير) فقالوا: يا رسول الله عطشنا، يعني شكوا إليه قلة الماء، فوضع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يده في هذه الركوة، وجعلت هذه الركوة تفور كأمثال العيون[1] فارتوى الناس كلهم بإبلهم ورجلهم وكانوا ألفاً وأربعمائة أو قريباً من ذلك. فخروج هذا الماء، ونبوع هذا الماء، وفوران هذا الماء من هذه الركوة أعظم من خروجه من الحجر، لأن الحجر جرت العادة أن تتفجر منه العيون كما قال الله تعالى: ﴿وإنَّ مِنَ الحجارةِ لما يتفجر منه الأنهار﴾[2] أما الركوة فلم تجرِ العادة أن تتفجر العيون منها، ولكن الله تعالى على كل شيء قدير ﴿إنما أمره إذاأراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[3] وقال الله تعالى: ﴿وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان علياً قديراً﴾[4].

---

(١) انظر فتح الباري (٧/ ٥٦٠) حديث رقم (٤١٥٢)، وصحيح مسلم (١٤٣٣/٣) حديث رقم (١٨٠٧)، ومسند الإمام أحمد (٤/ ٢٩٠)، وطبقات ابن سعد (١/ ١٧٩).

(٢) من الآية ٧٤ من سورة البقرة.

(٣) الآية ٨٢ من سورة يس.

(٤) من الآية ٤٤ من سورة فاطر.

ـ ومن فوائد الآية الكريمة أنه ينبغي قسم الماء بين الناس عند الكثرة وتوزيعه عليهم حتى لا يحصل الازدحام والاقتتال والعداوة والبغضاء بينهم، لأن النفوس مجبولة على محبة الاستئثار بالشيء، فإذا توزَّعَ الشيء وصار كل طائفة لهم جهة معينة مخصوصة كان ذلك أقرب إلى السلامة مما يترتب من الآثار السيئة على اجتماعهم على مشرب واحد.

ـ ومن فوائد الآية الكريمة بيان ما امتنَّ الله به على بني إسرائيل من هذا الماء والطعام الذي أذن لهم في أكله وشربه، فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ : **﴿كُلُوا واشربوا من رزقِ اللهِ﴾**.

ـ ومن فوائد الآية الكريمة جواز إضافة الماء النابع إلى المختص به؛ لقوله: **﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾** وفي هذه الإضافة فائدة وهي أن صاحبه يكون أحق الناس به ولا يزاحمه أحد عليه. أما جواز بيعه وعدمه فهذا له شأن آخر.

ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة أنه يجب على المرء ـ إذا أنعم الله عليه نعمة ـ أن يجعل النعمة سبباً للقيام بطاعته، لا سبباً للأشر والبطر، ولهذا أعقب قوله: **﴿كُلُوا واشْرَبوا من رزقِ اللهِ﴾** أعقبه بقوله: **﴿ولا تَعْثَوا في الأرضِ مُفسدين﴾** لأن الطبيعة البشرية ـ إذا لم يؤيدها الله تعالى بالوحي ـ من طبيعتها أن تحملها سعة الرزق على الأشر والبطر، ولهذا نَهَى بني إسرائيل عن العثو في الأرض فساداً،

حيث يسَّر لهم الأكل والشرب من رزق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ويتفرع عن هذا أن يتذكر الإنسان ويفكر فيما هو عليه من النعم حتى لا يجعلها سبباً للأشر والبطر ونسيان أوامر الله والكفر بشريعة الله .

ثم قال الله تعالى : ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذي هُوَ أَدْنَى بالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوامِصْرَاً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِم الذِّلَّةُ والمَسْكَنَةُ وَبَاءَوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وكَانُوا يَعْتَدُونَ**﴾ .

في هذه الآية يُذَكِّرُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بني إسرائيل بما جرى لهم مع نبيهم موسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث قالوا له : ﴿**لَنْ نصبرَ على طعامٍ واحدٍ**﴾ والطعام الواحد هو المن والسلوى الذي أنزله الله عليهم بدون تكلفة وبدون مشقة، وهو من أطيب أنواع الطعام لكنهم ـ والعياذ بالله ـ لم يصبروا على هذه النعمة، وطلبوا من موسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يدعو لهم ربه ليخرج لهم مما تنبت الأرض لا مما ينزل من المن والسلوى ﴿**مِنْ بَقْلها وَقِثّائها وفومها وعدسها وبصلها**﴾ كل هذه الأنواع هي أقل بكثير ودون ما أنزل الله عليهم من المن والسلوى، ولهذا قال لهم نبيهم موسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ﴿**أَتَسْتَبْدِلُونَ الذي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ**﴾ وهذا

الاستفهام للإنكار عليهم، يعني كيف يليق بكم أن تستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير؟، أي أن تأخذوا الأدنى بالأعلى، هذا لا يليق بكم، وإذا شئتم هذا الأدنى فلا حاجة إلى دعاء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يخرجه لنا **﴿اهبِطُوا مصراً﴾** أي مصرٍ تهبطونه تجدون هذا الشيء، لأن هذه أنواع منتشرة، ليست أنواعاً من أطيب الأنواع التي لا توجد إلا في محل دون محل، ولا يقدر عليها واحد دون آخر، بل هي أنواع موجودة مبذولة، ولهذا قال: **﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾** وليس المراد مصر المعيَّنة، بل المراد أي مصر كان تهبطونه فإنكم ستجدون ذلك، **﴿فإنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾** ومن أجل عدم الصبر على طعام واحد، ومن أجل المعاصي العظيمة التي ارتكبوها ضُرِبَتْ عليهم الذلة والمسكنة. الذلة في القلوب، والمسكنة في الجوارح، فكانوا أذلَّ الناس وأجبنهم وأخوفهم، ولهذا تجد اليهود أذل الناس وأجبنهم، لأنهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة. قال الله تعالى: **﴿لا يُقاتلونكم جميعاً إلا في قرى مُحصَّنة أو من وراءِ جُدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شَتَّى﴾**[1].

﴿وَبَاءوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ أي رجعوا بغضب من الله عليهم، حيث كفروا نعمته، وعصوا رسوله، ولم يصبروا على نعمه. قال: **﴿باءوا بغضبٍ من الله﴾** وعلل ذلك بقوله: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كانوا**

---

(١) من الآية ١٤ من سورة الحشر.

يكفرون بآياتِ اللهِ﴾ يكفرون بآيات الله الكونية والشرعية، ففي الآية الكونية لم يصبروا على طعام واحد، ولم يقتنعوا بهذه الآية العظيمة، ويشكروا الله عليها، أن أنزل عليهم المنَّ والسلوى. وفي الآية الشرعية قيل لهم: «قولوا حطة» فبدلوا وقالوا: «حنطة» وأُمروا فلم يأتمروا، ونُهوا فلم ينتهوا، فكفروا بآياتِ الله، وبسبب هذا الكفر وقتلهم النبيين بغير حق ضُرِبت عليهم الذلة والمسكنة وكان هذا القتل للنبيين والكفر بآيات الله كان عصياناً عظيماً ولهذا قال: **﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وكَانُوا يَعْتَدُون﴾** فكانوا عصاة معتدين. نسأل الله العافية.

فوائد هذه الآية الكريمة:

- بيان سفه بني إسرائيل، حيث لم يصبروا على هذا الطعام الطيب الذي أنزله الله من السماء تكريماً لهم، وإتماماً للنعمة، ولكنهم كفروا به وقالوا: **﴿لَنْ نصبرَ على طعامٍ واحدٍ﴾**.

- جواز التَّوَسُّل بدعاء من تُرْجَى إجابته، فإن هؤلاء قالوا: **﴿فادعُ لنا ربَّك يُخرجُ لنا مما تنبتُ الأرض﴾** وقد قررت شريعتنا هذا النوع من التوسل، فإن الناس يأتون إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسألونه أن يدعو الله لهم كما في قصة الرجل الذي دخل يوم الجمعة والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخطب فقال: **«يا رسول الله**

هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا . .»[1] وكما قال عكاشة بن محصن حين تحدث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه يدخل من أمته الجنة سبعون ألفاً بلا حساب ولا عذاب فقال عكاشة بن محصن: ادع الله أن يجعلني منهم قال: «**اللهُمَّ اجعله منهم**»[2].

فالتوسل إلى الله بدعوة من تُرْجَى إجابته جائز، ولكن هل هو مطلوب أم لا؟ نقول: إن كان لأمر عام فهو أمر مطلوب، يعني أنه يُسنُّ للإنسان أن يطلب أو أن يتوسل بدعاء مَنْ تُرجى إجابته في أمر عام للمسلمين، كما في طلب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ من العباس بن عبدالمطلب أن يستسقي للمسلمين، وكما في طلب الرجل الذي قال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «فادعُ الله يغيثنا . .». وأما إذا كان لأمر خاص فإن كان طالب الدعاء يريد بذلك أن ينفع المطلوب إذا دعا لأخيه بظهر الغيب فإنه يكون محسناً إليه ويُرجى أن تجاب دعوته ويُعطى مثلها، لأن الرجل إذا دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين ولك بمثلها. أما إذا قصد

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٤٠ .

(٢) انظر فتح الباري (١١/٤٩٤ ـ ٤٩٥) حديث رقم (٦٥٤٢)، وصحيح مسلم (١/١٩٧) حديث رقم (٢١٦)، وسنن الترمذي (٤/٥٤٤ ـ ٥٤٥) رقم (٢٤٤٦)، وسنن الدارمي (٢/٣٢٨)، والإصابة (٤/٥٣٣).

المتوسِّلُ بدعاء من تُرجى إجابته مصلحة نفسه الخاصة فهذا لا ينبغي، بل قد صرح بعض أهل العلم بأنه من المسألة المذمومة، وأنت أيها الأخ المسلم إذا أردت الدعاء فادع الله بنفسك، لا تعتمد على غيرك، لأن دعاءك الله عبادة، وربما يحدث لقلبك من الإنابة إلى الله والرجوع إليه والافتقار إليه ما هو أفضل بكثير من إجابة دعوتك التي تريد.

- ومن فوائد الآية الكريمة إثبات أن بني إسرائيل يؤمنون بأنه لن يقدر على إنبات الزرع وإخراجه من الأرض إلا الله، لأنهم قالوا لموسى: ﴿**فادعُ لنا ربَّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تنبتُ الأرضُ من بقلها وقِثَّائها**..﴾.

- ومن فوائدها التوسل إلى الله تعالى باسم الرب عند الدعاء لقولهم: ادع لنا ربك، ولهذا كان قول الداعي: يا رب يا رب من أسباب إجابة الدعاء كما أشار إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب.

وكذلك إذا تأملت الدعاء المذكور في القرآن وجدت كثيراً منه مصدراً باسم الرب «يا ربنا».

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة انحطاط همم بني إسرائيل،

حيث نزلوا من الأعلى إلى الأدنى، فطلبوا من موسى عليه الصلاة والسلام أن يدعو الله أن يخرج لهم مما تنبت الأرض من هذه الأنواع التي تعد نازلة بالنسبة إلى المن والسلوى، ولهذا قال لهم نبيهم - صلى الله عليه وسلم - : ﴿**أتستبدلونَ الَّذي هُوَ أَدْنى بالَّذي هُوَ خَيْرٌ**﴾ وهذا يدل على سفههم وعدم صبرهم على ما مَنَّ اللهُ به عليهم.

- ومن فوائدها جواز تفضيل الأطعمة بعضها على بعض، وأنه يجوز للإنسان أن يقول: هذا أدنى من هذا، أو هذا أعلى من هذا، أو هذا أردأ من هذا، أو هذا أطيب من هذا.

- ومنها أنه لا يلام الإنسان إذا اختار الأطيب من الطعام، ولا يُعدُّ ذلك من باب الإسراف، وقد أقرَّت شريعتنا هذا، فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - جيء إليه بتمر طيّب فسأل: «**أكل تمر خيبر هكذا**» قال: لا، والله يا رسول الله إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين والصاعين بالثلاثة فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «**فلا تفعل بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيباً**»[1] فقد أرشدهم - صلى الله عليه وسلم - إلى أن يبيعوا التمر الرديء بدراهم، ثم يشتروا بالدراهم تمراً جيداً، ولم ينههم عن اختيار التمر الطيب يقدمونه إلى رسول الله - صلى الله عليه

---

(١) انظر صحيح مسلم (٣/١٢١٥).

وسلم ـ ، فإذا اختار الإنسان من الطعام أطيب الأنواع وكانت حاله تتحمل هذا، ولا يُعدَّ ذلك سَرَفاً بالنسبة إليه فإنه لا بأس به، ولا يُلامُ الإنسان عليه، بل هذا من باب التمتع بنعم الله، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يحب من عباده أن يتمتعوا بنعمه، وينهاهم أن يحرموا شيئاً من الطيبات على أنفسهم كما قال تعالى: ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبات ما أحلَّ الله لكم ولا تعتدوا إنَّ الله لا يحبُ المعتدين**﴾(١) وذلك لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ كريم، والكريم يحب أن يتمتع من يناله كرمه بكرمه.

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن ما كان موجوداً مبذولاً لا يحتاج الإنسان أن يدعو الله تعالى لحصوله، لأن الدعاء في مثل هذا سفه، فإنه موجود بين يديك، ولكن ادع الله تعالى ببقائه واستمراره وألا يرفعه عنك، لأن هذه الدعوة في محلها. أما أن تقول: اللهم ارزقني كذا وكذا وهو بين يديك فهذا لا وجه له، ولهذا قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿**اهْبِطُوا مِصرْاً فإنَّ لكم ما سألتم**﴾.

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن الله ضرب على بني إسرائيل الذلة والمسكنة فهم دائماً في ذل، ودائماً في مسكنة حتى وإن اغتنوا فإن قلوبهم فقيرة، ولهذا تجد اليهود أشد طلباً للمال وفناء في

---

(١) الآية ٨٧ من سورة المائدة.

تحصيله، يحرصون على تحصيل المال بأي ثمن ولو بالطريقة المحرمة، قال الله تعالى: ﴿فبظلمٍ من الذين هادوا حَرَّمنا عليهم طيبات أُحِلَّت لهم وبصدّهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾[1] فهم أخَّاذون للربا، أكَّالون للسحت، ظالمون للعباد، فهذا دأب اليهود بالنسبة لأخذ المال، هم في مسكنة دائمة، وفي فقر دائم، لكنه فقر قلبي، وإن كان عندهم من الأموال عدد كثير.

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة حلول الغضب على بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَاءوا بِغَضَبٍ من الله﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شرٌّ مكاناً وأضل عن سواء السبيل﴾[2].

- ومن فوائد الآية الكريمة أن الله تعالى لا يظلم أحداً، لكن الذي يظلم هو الإنسان نفسه، ولهذا لما ذكر الله عقوبتهم بضرب الذلة والمسكنة وحلول الغضب عليهم بَيَّنَ أن هذا بسبب كفرهم فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ يَكْفرونَ بآياتِ اللهِ ويَقْتلونَ النبيِّينَ بغيرِ الحقِّ

---

(١) الآيتان ١٦٠ و ١٦١ من سورة النساء.

(٢) الآية ٦٠ من سورة المائدة.

ذلك بِمَا عَصَوا وكانُوا يَعْتَدون﴾ فكفرهم بآيات الله معصية عظيمة أكبر المعاصي، وكانت سبباً لضرب الذلة والمسكنة عليهم.

- ومن فوائد هذه الآية إثبات تعليل أفعال الله أي أن أفعال الله مُعللة أي مقرونة بالحكمة، فما من فعل يفعله الله ولا حكم يشرعه الله إلا مقرون بالمشيئة، فيجب أن نعلم أنها ليست مشيئة مجردة، وإنما هي مشيئة اقتضتها الحكمة ويدل على هذا قوله تعالى: **﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً﴾**[1] فأشار الله تعالى في هذه الآية إلى أن مشيئته مقرونة بحكمته فقال: **﴿إنَّ الله كان عليماً حكيماً﴾**[2].

- ومن فوائد هذه الآية أن بني إسرائيل - مع عدوانهم في حق الله - هم معتدون على عباد الله، فهم يقتلون النبيين بغير الحق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس بغير الحق، وفي قوله: **﴿بغيرِ الحقِّ﴾** تشنيعٌ عليهم، وأن قتلهم للأنبياء في غير محله، لأنه قتل بغَير حق فالصفة هنا ليست صفة مقيدة، وإنما هي صفة كاشفة موضحة أن قتل النبيين بغير حق، فيكون في هذا فائدة وهي زيادة التشنيع على بني إسرائيل بقتلهم النبيين.

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الإنسان.

(٢) من الآية ٣٠ من سورة الإنسان.

- ومن فوائد هذه الآية بيان عصيان بني إسرائيل واعتدائهم، وأنهم أصحاب معصية واعتداء على الله، وعلى عباد الله - عزَّ وجلَّ - .

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا والنَّصَارَى والصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

في هذه الآية يقول الله - عزَّ وجلَّ - مُبيِّناً كمال عدله، وأنه لا يضيع عمل عامل عمل صالحاً وآمن يقول: ﴿إنَّ الذينَ آمنوا﴾ وهم أتباع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ﴿والَّذينَ هادُوا والنصارى والصابئين﴾ الذين هادوا: هم أتباع موسى - صلى الله عليه وسلم - ، ووصفوا بهذه الصفة؛ لأنهم قالوا: إنا هُدنا إليك، أي رجعنا إليك، والنصارى: أتباع عيسى بن مريم، وسُموا نصارى إما نسبة إلى بلدة تسمى الناصرة، وإما من النصرة، لأن عيسى لما قال: ﴿مَنْ أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله﴾[1] وأما الصابئون فهم قوم لهم دين يتدينون به، وقيل: إن الصابىء في الأصل من لا دين له، ولكن الذين هادوا والنصارى والصابئين قُيِّد استحقاقهم الأجر بالإيمان بالله واليوم الآخر والعمل

(١) من الآية ٥٢ من سورة آل عمران ومن الآية ١٤ من سورة الصف.

الصالح . أما المؤمنون فقد استحقوا هذا الوصف، فالقيد إن كان وارداً في حقهم فهو على سبيل التوكيد، وذلك أن الذين بقوا على اليهودية والنصرانية والصابئة بعد بعثة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليسوا على حق، ولا يصدق عليهم أنهم مؤمنون بالله واليوم الآخر، لأنهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر حقاً لاتبعوا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿**الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث**﴾[1] والذي كانوا يستفتحون به على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فهم ـ أعني اليهود والنصارى والصابئين بعد بعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يصدق عليهم أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون صالحاً إلا إذا اتبعوا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿**مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخرِ**﴾ الإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، فمن أنكر الله فليس بمؤمن، ومن لم يوحده بربوبيته فليس بمؤمن، ومن لم يوحده بألوهيته فليس بمؤمن، ومن لم يوحده بأسمائه وصفاته فيثبتها على ما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل فليس بمؤمن. إذن

---

(١) من الآية ١٥٧ من سورة الأعراف.

الإيمان بالله يتضمن أربعـة أشياء: الإيمان بوجوده، وبتوحيده في الربوبية، وبتوحيده في الألوهية، وبتوحيده في الأسماء والصفات.

وأما قوله: ﴿وعملَ صَالِحًاً﴾ فالعمل الصالح هو الذي اجتمع فيه شرطان:

الشرط الأول: أن يكون خالصاً لله لا يشوبه إشراك.

والشرط الثاني: أن يكون مُتَّبَعاً فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا يشوبه ابتداع، ولهذا لا يكون العمل عملاً صالحاً إلا إذا كان لله خالصاً، ولشرعه موافقاً، فإذا اجتمع الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ثبت الأجر. والإيمانُ باليوم الآخر يتضمَّنُ الإيمان بكل ما أخبر به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما يكون بعد الموت، فيشمل الإيمان بما يكون في القبر من سؤالِ الملكين الميّتَ عن ربه ودينه ونبيه، ومن عذاب القبر ونعيمه وكذلك ما يكون يوم القيامة من الجزاء ثواباً وعقاباً، وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتاب والسنة. وأما الأجر فهو الثواب على هذا العمل المبني على الإيمان بالله واليوم الآخر، وهو الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن قام بهذين الوصفين: الإيمان والعمل الصالح فإنه يأمن من كل خوف من مستقبل وحزن على ما مضى.

فوائد هذه الآية الكريمة:

ـ بيان عدل الله ـ عزَّ وجـل ـ وأن من قام بالإيمان والعمـل الصالح فإن له الأجر عند ربه سواء أكان من المؤمنين الذين بعث

فيهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أم من اليهود والنصارى والصابئين، فاليهود مثلاً حين كانت شريعتهم قائمة ـ إذا اتصفوا بالإيمان والعمل الصالح ـ كان لهم أجرهم كاملاً مُوفَّراً، وكذلك النصارى، وكذلك الصابئون. أما إذا كان دينهم منسوخاً فإن الواجب عليهم أن يتحولوا عنه إلى الدين الناسخ، والملة الجديدة، ولهذا يعد اليهود كفاراً بالنسبة للنصارى أي كافرين بعيسى بن مريم، ويعد النصارى كفاراً بالنسبة لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والكافر بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كافر حتى بنبيه، لأن الأنبياء قد بشروا به كما قال الله تعالى: **﴿وإنه[1] لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين وإنه لفي زبر الأولين أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾**[2].

فمن كفر بمحمدٍ ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد بعثته فإنه ـ حقيقة ـ لم يؤمن حتى برسوله، وعلى هذا فاليهود والنصارى والصابئون الموجودون اليوم لو قالوا إنهم مؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون عملاً صالحاً فإننا نقول لهم: هذا لا ينفعكم، لأن الإيمان بالله واليوم الآخر يستلزم الإيمان بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ،

---

(١) أي القرآن الكريم.

(٢) الآيات (١٩٢ ـ ١٩٧) من سورة الشعراء.

والعمـل الصالح لا يكون عملاً صالحاً إلا بموافقة شريعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، نسأل الله أن يجعلنا من المخلصين له، المتبعين لرسوله.

ـ ومن فوائد هذه الآية أن العمل لا يثبت فيه الأجر إلا إذا كان عمـلاً صالحاً، والعملُ الصالحُ ـ كما أسلفنا ـ ما اجتمع فيه شرطـان: الإخـلاص لله، والمتـابعة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فمن عمل عملاً يتضمن شيئاً من الشرك فإن عمله ليس بصالح، وليس بمقبول عند الله لقول الله تعالى: **﴿فمنْ كانَ يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾**[1].

وفي الحـديث الـصحيح عن رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «**قال اللهُ تباركَ وتعالى: أَنَا أَغْنى الشُّركاءِ عنِ الشِّركِ. مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فيه مَعِي غيري تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ**»[2] فمن تعبَّدَ لله عبـادة يرائي فيها الناس فإنها لا تُقبلُ منه، لأنها ليست عملاً صالحاً ولكن هنا مسألة يسأل عنها كثير من الناس، وهي أن كثيراً من الناس يقول: إذا هممت بعمل صالح أتاني الشيطان وقال إنك مراءٍ فيقعدني عن العمل فما هو الحل لهذه المشكلة؟

---

(١) من الآية ١١٠ من سورة الكهف.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٣ .

وجوابنا على هذا هو أن الحل لهذه المشكلة أن يتعوذ الإنسان بالله من الشيطان الرجيم، وأن ينتهي عن ذلك، وأن يستمر في عمله الصالح معرضاً عما يلقيه الشيطان في قلبه من أنه مُريدٌ للرياء، ويفكر فلو أنه سُئل هل هو مراءٍ بهذه العبادة؟ لقال: لا، إذن لا يصدنه الشيطان عنها بهذه الوسوسة، فعليه أن يستمر في العمل ولا يهمنه.

ويشكو بعض الناس أيضاً من أنه يدخل في العبادة ليس في رياء، ثم يحدث له الرياء في أثناء العبادة فما الحل؟

جوابنا على هذا أن يسعى في طرده، والتخلص منه، وأن يقبل على عبادة الله، ويعرض عما ألقى الشيطان في قلبه من الرياء، وهو إذا دافع هذا الرياء فإنه لا يضره، ولا يؤثر على عبادته.

- ومن فوائد هذه الآية - أيضاً - أن العمل الذي لا يكون موافقاً لشريعة الرسول - عليه الصلاة والسلام - لا يقبل حتى وإن كان بنية خالصة ليس فيها شرك، لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[1] وبناء على ذلك

(١) سبق تخريجه ص ٦٤ .

فإن جميع العبادات البدعية التي يتعبد بها أهلها مهما كثرت ومهما أثـرت من لين القلب ودمـع العين فإنها لا تنفعهم عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، لأنها على غير صراط الله ، وقد قال الله تعالى : **﴿وأن هذا صراطي مستقيـماً فاتبعـوه ولا تتبعـوا السبـل فتفـرق بكم عن سبيله﴾**[1] فأي إنسان يتعبد لله عبادة قولية كانت أم فعلية فعليه الـدليل على أن هذه العبادة ثابتة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وإلا فإن عمله سيكون هباء ، ووبالاً عليه ، لأنه ابتدع في دين الله ، فقد قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **«فعليكم بِسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنـواجـذ ، وإيَّاكُمْ ومحدثات الأمور ، فإن كلَّ محدثة بدعة وكل بدعـة ضلالة»**[2] والبدع ـ مهما حسنت في قلوب مبتدعيها ـ فإنها سيئة ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال كلمة عامة شاملة : **«كلُّ بدعـةٍ ضلالـةٌ»** ولم يستثنِ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئـاً ، والبدع ـ وإن حسنت في قلوب مبتدعيها ـ فإنها شر تفرق الناس في دين الله ، وتجعل كل طائفة من الناس تضلل الأخرى ، ويكون كل حزب بما لديهم فرحـون ، كما هوالواقع الآن لما انتشرت البدع في

---

(١) من الآية ٥٣ من سورة الأنعام .

(٢) رواه : أبوداود (٥/١٣ ـ ١٥) رقم (٤٦٠٧) ، والترمذي (٥/٤٣) رقم (٢٦٧٦) وقال : «هذا حديث حسن صحيح» ، وابن ماجة (١/١٦) رقم (٤٢) ، والدارمي (١/٤٤ ـ ٤٥) .

الأمـة الإسلامية، ومنذ زمن بعيد صارت الأمة الإسلامية متفرقة يضلِّلُ بعضها بعضاً، وربما يصل الأمر إلى أن يُكفِّرُ بعضهم بعضاً، قال الله تعالى: **﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى به نُوحاً والَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَابِهِ إِبْراهِيْمَ ومُوسَى وعِيْسَى أَنْ أقيموا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فيه﴾**[1] وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: **﴿إِنَّ الَّذينَ فَرَّقُوا دِيْنَهُمْ وَكَانُوا شِيَعَاً لَسْتَ مِنهُمْ في شَيْءٍ إِنَّـما أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُون﴾**[2].

وإنني بهذه المناسبة أوجه النصيحة إلى إخواني المسلمين، أن يحرصوا على أن تكون أعمالهم كلها مبنية على شريعة الله، على ما جاء عن رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ، فإن هديه خير الهدي، وما خرج عن هديه فهو ضلال وفتنة وبدعة. وأن يحرصوا ـ أيضاً ـ على الإخلاص لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فلا يفعلون العبادة من أجـل مراءاة الخلق أو سماع الخلق، لأن الخلق لا ينفعونهم، فلا ينفعهم إلا الخالق ـ عزَّ وجلَّ ـ.

ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة الدليل على عظم الأجر على الإيمان والعمـل الصالح، لأن الله تعالى أضافه إلى نفسه فقال:

---

(١) من الآية ١٣ من سورة الشورى.

(٢) الآية ١٥٩ من سورة الأنعام.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وما كان من عند الله فهو من عند الكريم العظيم، وعطاء الكريم العظيم يكون عطاء عظيماً.

- ومن فوائد الآية الكريمة بيان نعمة الله - عزَّ وجلَّ - على عباده بهذا الثواب، حيث جعله بمنزلة الأجر اللازم الذي لا بد من إيفائه، وهذا من نعمة الله، وهو الذي تكفَّلَ وكتب على نفسه أن من عمل صالحاً جزاه الله تعالى بالأجر الذي يستحقه.

- ومن فوائد الآية الكريمة أنه بالإيمان والعمل الصالح يُطردُ الخوف ويُطردُ الحزن في الدنيا وفي الآخرة، ولهذا كان أشرف الناس صدراً، وأنعمهم بالاً، وأطمنهم قلباً هم المؤمنون العاملون عملاً صالحاً، ولهذا قال بعض السلف: «لو يعلم الملوكُ وأبناءُ الملوك ما نَحْنُ فيه لجالدونا عليه بالسيوف».

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ واذْكُرُوا ما فيه لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾.

الخطاب هنا لبني إسرائيل، يُذَكِّرُهُم الله - سبحانه وتعالى - بما أخذ عليهم من الميثاق حين رفع فوقهم الطور وهو الجبل المعروف وذلك بعد فسوقهم وعصيانهم. وأَمَرَهُم الله أن يأخذوا ما آتاهم من الشرع بقوة لا ضعف فيها ولا هوادة، وأن يذكروا ما في هذا الذي

آتـاهم من المـواعظ والأحكام؛ ليصلوا بذلك إلى تقوى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ولكنهم تولوا بعد ذلك، ولولا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ تداركهم بفضله ورحمته لكانوا من الخاسرين أبد الآبدين.

فوائد وأحكام هاتين الآيتين الكريمتين:

- تذكير الإنسان بما أنعم الله به عليه من النعم، ليذكر هذه النعمة فيشكر الله عليها، ولا سيما مع طول العهد وتناسي هذه النعم.

- أن الله تعـالى أخذ العهد والميثاق على بني آدم أن يوحدوه ويؤمنـوا به، وذلك بما ركب فيهم من العقول، وأنزل عليهم من الكتب وأرسل إليهم من الرسل، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيْثَاقَكُمْ﴾.

- بيان قدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعظمته، حيث رفع هذا الجبل العظيم فوقهم تخويفاً وإنذاراً، وهذه الأمة ـ أعني الأمة المحمدية ـ لم يكن فيها مثل هذا الإنذار، ولكن كان فيها إنذار من نوع آخر مثل كسوف الشمس وخسوف القمر، فإن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما كسفت الشمس في عهده بين أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده، وأنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فبيَّن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الله يخوف بهما العباد

من أجل أن يرجعوا إلى ربهم، ولهذا شرع للناس الذين يرون الكسوف أو الخسوف أن يفزعوا إلى ذكر الله واستغفاره والصلاة والصدقة والعتق.

ـ وجوب أخذ الإنسان بشريعة الله على وجه القوة التي ليس فيها ضعف ولا توان، لأن الإنسان إذا قابل أوامر الله بالضعف والتواني استولى عليه الشيطان، واستحوذ عليه الشيطان حتى أوصله إلى تركها. والتواني في أوامر الله ينقسم إلى قسمين: الأول: التواني في فعل المأمورات بأن تتكاسل في فعل الواجبات، وتتراخى في فعل المندوبات فيضعف إيمانك بذلك وينقص. والثاني: الضعف في ترك النواهي، بحيث يضعف الإنسان أمام الشهوة الدافعة إلى فعل المعصية، وأعني بالشهوة شهوة الإرادة لا شهوة الجنس، وشهوة الجنس تكون ـ بلا شك أحياناً ـ من الشيء المحرم إذا كانت على غير الأزواج وما ملكت اليمين. المهم أن الضعف كما يكون في فعل الأوامر يكون كذلك في ترك النواهي بحيث يضعف الإنسان أمام شهوات نفسه، فيعجز عن كبحها عمَّا حَرَّمَ اللهُ عليه.

ـ ومن فوائد الآيتين الكريمتين ـ أيضاً ـ وجوب ذكر ما في الكتب المنزلة من الوحي، وذكره على نوعين: النوع الأول: أن يذكر باللسان، وهذا يكون بتلاوة ما يُتلى وتعليم ما يُعلَّم. والثاني: أن يُذْكَر بالعمل، وذلك بالتطبيق، فإن تطبيق أوامر الله كأنه ذكر لها.

- أن أخـذ الشرائع بالقوة وذكرْ ما فيها على حسب النوعين السابقين يكون سبباً للتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾.

والتقوى مأخوذة من الوقاية وهي أن يتقي الإنسان عذاب الله - عزَّ وجلَّ -، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه. وقد فُسِّرَت التقوى بتفـاسـير متعـددة، لكنهـا لا تخرج عما ذكرنا وهي فعل أوامر الله واجتنـاب نواهيه - تبارك وتعالى -، لأن الوقاية من عذاب الله لا تكون إلا بذلك.

- ومن فوائد الآيتين الكريمتين إثبات الأسباب، لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـون﴾ فإن «لعـل» هنـا للتعليل، والعلة: السبب، والناس في الأسباب انقسموا إلى ثلاثة أقسام:

قسم أَفْرطوا فيها، وقسم فرَّطوا فيها، وقسم وسط.

فأمـا الـذين أفـرطـوا فيهـا - أي بالغوا وغالوا - فإنهم أثبتوا الأسبـاب وجعلوهـا هي الفائدة المؤثرة التي لا يمكن أن يتخلف المُسَبَّبُ فيها عن السبب.

وأمَّا الذين فَرَّطوا في الأسباب فهم الذين قالوا: إن الأسباب ليس لها تأثير في مسبباتها، وإن الذي يحصل بهذه الأسباب لم يكن بها، ولكنه عندها مثال ذلك لو انكسرت زجاجة بحجر رُميت به، فعند القسم الأول الذي أفرطوا في إثبات الأسباب يكون انكسار الزجاجة بها أمراً طبيعياً لا بد منه، وعند الآخرين لم يكن الانكسار

بسبب اصطدام الحجر بالزجاجة، وإنما كان عند اصطدام الحجر بالزجاجة لا به، ولا شك أن هذين القولين بعيدان عن الصواب، وأن الصواب هو القول الثالث الوسط، الذين أثبتوا الأسباب وتأثيرها في مسبباتها، ولكنهم جعلوا ذلك مما خلقه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيها من القوة، فهي لم تنفرد بالتأثير، ولكن خلق الله فيها هذا التأثير، ويدل لذلك السمع والعقل، فأما السمع فإن الآيات والأحاديث في إثبات الأسباب وتأثيرها لا تكاد تحصى كثرةً. وأما الواقع أو العقل فإن الحسَّ شاهد بذلك، فكل إنسان يعرف أن انكسار الزجاجة لرميها بالحجر إنما كان بالحجر لا عند اصطدامه بها، ولهذا لو وضعت الحجر عليها وضعاً لم يكن له تأثير فيها. ويدل على أن الأسباب لا تفعل بنفسها ولكنها تؤثر بما أودع الله فيها من القوة أن النار المحرقة الحارة حين أمرها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم كانت برداً وسلاماً عليه، فإن إبراهيم أُضرمت له نار كبيرة عظيمة وأُلقي فيها حتى إن بعض العلماء قال: إن قومه لما أرادوا أن يلقوه في النار لم يتمكنوا من القرب منها فوضعوه في منجنيق ورموه بوساطته إلى النار، فقال الله تعالى: ﴿**يَا نَارُ كُونِي بَرْدَاً وَسَلاَمَاً عَلَى إِبْرَاهِيم**﴾[1] فكانت برداً وسلاماً عليه، ولم تؤثر فيه شيئاً، وهذا يدل على أن تأثير الأسباب ليس تأثيراً ذاتياً حتمياً لا بد

---

(١) من الآية ٦٩ من سورة الأنبياء.

منه، بل إنه بما خلقه الله فيها من القوة المؤثرة لا الفاعلة.

- ومن فوائد الآيتين أن بني إسرائيل - بعد هذا الإنذار الشديد - لم ينتفعوا بما أنذروا به، بل تولوا من بعده، وهذا يدل على قسوة قلوبهم، وأنهم من أشد الناس طغياناً وضلالاً.

- ومن فوائد هاتين الآيتين إثبات فضل الله - عزَّ وجلَّ - على بني إسرائيل، وما أكثر نعمه على بني إسرائيل، ولكنهم قوم لا يشكرون، بل كانوا يصفون الله - عزَّ وجلَّ - بما يُنَزَّهُ عنه كقولهم: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾[1]، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّت أَيْدِيْهِمْ وَلُعِنُوا بما قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[2]، ووصفوا الله - سبحانه وتعالى - بالفقر، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قولَ الَّذِينَ قالُوا إنَّ اللهَ فقيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ ما قالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ. ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيْكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيْدِ﴾[3].

- ومن فوائد هاتين الآيتين تذكير آخر الأمة بما صنع أولها، لأنه إن كان خيراً كان من الفضل أن يتبعوا من سبقهم فيه، وإن كان من الشر كان من الحكمة والعقل أن يبتعدوا عنه. واستنبط بعضُ

---

(1) من الآية ٦٤ من سورة المائدة.
(2) من الآية ٦٤ من سورة المائدة.
(3) الآيتان ١٨١ و١٨٢ من سورة آل عمران.

العلماء من هذا أن صنيع أول أمة يصح أن ينسب إلى آخرها، لأن الله خاطب بني إسرائيل في عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما صنعه آباؤهم وأجدادهم، وهذه الفائدة محل نقاش ومحل تأمل.

ـ ومن فوائد هاتين الآيتين أنه ينبغي للإنسان ألا يضيف ما مَنَّ الله به عليه من فضل إلى مجرد فعله هو فينسى بذلك نعمة الله وفضله، ويقع في الإعجاب بالنفس الذي هو محط كل شر.

ثم قال الله تعالى: **﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كونُوا قِرَدَةً خَاسِئِين فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِـمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْـمُتَّقِينَ﴾**.

يؤكد الله تعالى في هاتين الآيتين في خطاب بني إسرائيل في عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم قد علموا حال الذين اعتدوا منهم في السبت، وهو اليوم الذي كانوا يعظمونه، وكان الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد حَرَّمَ عليهم الصيد في هذا اليوم وابتلاهم، حيث كانت تأتيهم الحيتان في هذا اليوم شُرَّعاً طافيةً على ظهر الماء كثيرة يسهل أخذها، وفي غير هذا اليوم لا تأتيهم الحيتان فطال عليهم الأمد وقالوا: لا يمكن أن ندع هذه الحيتان تأتي وترجع دون أن نصيدها فعملوا لذلك حيلة ووضعوا «شُبَّاكاً» في يوم الجمعة فإذا

جاءت الحيتان يوم السبت وقعت في هذا «الشُبَّاك» وإذا كان يوم الأحد أتوا إلى الشُبَّاك فأخذوا ما فيه من الحيتان، فعاقبهم الله تعالى بهذه العقوبة العظيمة أن جعلهم قردة خاسئين. و«القردة»: جمع قرد، والخاسىء: هو الذليل. بعد أن كانوا بشراً سوياً ذا عناد ورفعة، فجعل الله هذه العقوبة نكالاً لما بين يديها للأمة المعاصرة لهم، وما خلف هذه الأمة الآتية بعدهم، وجعلها كذلك موعظة للمتقين، أي سبباً لاتعاظهم. وقد سبق الكلام عن التقوى.

في هاتين الآيتين يذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ بني إسرائيل الذين كانوا في عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما حدث لمن سبقهم من بني إسرائيل بما ذكر عن السبت.

فوائد وأحكام هاتين الآيتين:

ـ تذكير الأمة بما فعل سلفها، ليتخذوا منه عبرة.

أن التَّحَيُّل على محارمِ الله لا يقلبها إلى حلال، بل إنَّ التَّحيُّل على المحارم لا يزيدها إلا قبحاً، لأن التحيُّل على المحارم فيه محذور فعل المحرم ومحذور الخداع لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فيكون المُتَحَيِّلُ جامعاً بين فعلِ المعصية المنهي عنها وخيانة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وخداعه. قال تعالى: ﴿**وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيرُ الماكِرِيْن**﴾[1] ولما كان التحيُّل كذلك نجد أن المنافقين أعظم ذنوباً

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة الأنفال.

وأكبر جرماً من الكافرين الصرحاء كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُم﴾[1] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّار﴾[2].

وبَيَّنَ اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ أن المنافقين هم العدو الحقيقي الأكبر للمؤمنين كما ذكره الله ـ سبحانه وتعالى ـ في سورة المنافقين في قوله: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾[3] ومن هنا نعلم أن الذين يتحيلون على الربا بالطرق الملتوية أشد إثماً من الذين يأتون الربا على وجه صريح، لما في فعلهم من الوقوع في محذور الربا من وجهٍ ومن مخادعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ من وجهٍ آخر.

وهناك معنى ثالث في المخادعة وهو أن المخادع يظن أنه على صواب، وأنه لم ينتهك المحرم فلا يزال مستمراً عليه، ولا يحدث نفسه بالتوبة منه بخلاف الذي يأتي المحرم على وجه صريح فإنه يرى نفسه مذنباً مُقصِّراً في حق الله، فيخجل من ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ، وربما يأتي اليوم الذي يتوب فيه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ، فيكون الآتي للمحرم صريحاً أقرب إلى التوبة من المخادع الماكر، ولهذا لُعِنَ الرجل الذي يتزوج امرأة لتحليلها لزوجها الأول كما جاء في الحديث: «**لَعَنَ رسولُ اللهِ ـ صلَّى الله عليه وسلم ـ**

(١) من الآية ١٤٢ من سورة النساء.
(٢) من الآية ١٤٥ من سورة النساء.
(٣) من الآية ٤ من سورة المنافقين.

المحلِّلَ والمُحَلَّلَ لَه»[1] والتحليل هو أن الرجل يتزوج امرأةً طلَّقها زوجها ثلاثاً من أجل أن يجامعها فيحلها لزوجها الأول. وهذا لا شك أنه مُحَرَّمٌ، وأنه لا ينفع، ولهذا قال أهلُ العلمِ: إنَّ الرجل إذا تزوج امـرأة على سبيل التحليل فإنها لا تحل للزوج الأول ولو أن الثاني جامعها، وذلك لأن نكاح التحليل نكاحٌ لا يُرادُ به حقيقته، فإنه (المحلِّل) إنما يتزوج هذه المرأة من أجل أن يجامعها ثم تعود إلى زوجهـا الأول. قال أهـلُ العلم: ومـع ذلك فإنها لا تحل للزوج الأول، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال في كتابه: ﴿**فَإِنْ طَلَّقَها**[2] **فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ**﴾[3] ونكاحُ التحليل ليس بنكاحٍ شرعي، لأنه نكاحٌ غير مقصود، فإن من المعلوم أن المقصود بالنكاح هو بقاء المرأة عند زوجها، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل من فوائد النكاح أن يسكن الرجل إلى زوجته وتسكن إليه، فإذا كان النكـاح ليس نكاح رغبة، وإنما تزوجها ليطلقها إذا أحلها للزوج الأول فإن ذلك ليس بنكاح شرعي، وحينئذٍ لا تحلُّ للزوج الأول،

---

(١) الحديث رواه: أبوداود (٢/٥٦٢ ـ ٥٦٣) رقم (٢٠٧٦) و(٢٠٧٧)، والترمذي (٣/٤٢٨) رقم (١١٢٠) وقـال الـترمـذي: «هـذا حديث حسن صحيح»، والنســائي (٦/٤٦١) رقم (٣٤١٦)، وابن ماجـة (١/٦٢٢) رقم (١٩٣٤) و(١٩٣٥)، والدارمي (٢/١٥٨) وغيرهم.

(٢) أي الطلقة الثالثة.

(٣) من الآية ٢٣٠ من سورة البقرة.

وإنما نبهتُ إلى ذلك ـ وإن كان ولله الحمد قليلاً عندنا ـ لأنه قد يخفى على بعضِ الجُهَّالِ فيريدون فعل المعروف للزوج الأول، ولكنهم يسيئون إلى أنفسهم ولا يفيدون الزوج الأول شيئاً، لأن الزوجة لا تحل للزوج الأول إذا كان النكاح الثاني نكاح تحليل لا رغبة.

ـ ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين أن العقوبة تكون مجانسة للعمل كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾[1] فهؤلاء القوم ـ لما تَحَيَّلوا على فعل المحرم بما ظاهره الإباحة حيث نصبوا الشباك في يوم الجمعة وأخذوا الحيتان الواقعة فيه في يوم الأحد وظاهر هذا الفعل أنهم لم يصطادوا في يوم السبت، وأنهم فعلوا فعلاً حلالاً ـ قلبهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى أقرب الحيوانات شبهاً بالإنسان وهي القردة.

ـ ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين أن قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ينقسم إلى قسمين: قول كوني كما في هذه الآية: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينْ﴾ فإن هذا القول كوني وليس بشرعي، لأنه ليس باستطاعتهم أن يقلبوا أنفسهم إلى قردة ولكنه القول الكوني الذي قال الله عنه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2]

---

(١) من الآية ٤٠ من سورة العنكبوت.

(٢) الآية ٨٢ من سورة يس.

وأما القولُ الشرعي فهو ما جاءت به الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] فإن قوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قول شَرعي يُؤمر به العبد ويمكنه امتثاله، والفرق بين القولين ـ الكوني والشرعي ـ أن القول الكوني لا بد من نفوذه ووقوعه. أما القولُ الشرعي فإنه قد يمتثل المقول له وقد لا يمتثل.

ـ ومن فوائد هاتين الآيتين إثبات القول لله، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قائل ويقول، كما أنه متكلم ويتكلم، والكلام وصْفُهُ ـ سبحانه وتعالى ـ القائم به، وهو وصفٌ ذاتي فعلي. فالكلام ـ باعتبار أصله ـ وصفٌ ذاتي لم يزل الله ولا يزال مُتَّصِفاً به. وباعتبار آحاده وصفٌ فعلي يتكلم بما شاء. وهذا هو ما ذهب إليه السلف وأهل السنة والجماعة من أن الكلام وصفٌ لله تعالى قائم بذاته متعلق بمشيئته.

ـ ومن فوائد الآيتين الكريمتين بيانُ قدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، حيث انقلب هؤلاء البشر من الإنسانية إلى الحيوانية البهيمية لقوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فكانوا قردة، ويبقى سؤالٌ يطرح نفسه وهو: هل هذه القردة الموجودة الآن من نسل بني إسرائيل أم هي جنسٌ من المخلوقات منفرد؟

---

(١) من الآية ٦٠ من سورة غافر.

وجوابنا على هذا أن نقول: هذه القردة الموجودة الآن جنس منفـرد من مخلوقات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، مُستقلٌّ بنفسه. أما الَّذينَ قُلِبُوا قردةً من بني إسرائيل فإنه ليس لهم نسلٌ، بل ماتوا وهلكوا وبادوا كما قرَّر ذلك أهلُ العلم، وذلك أن بني آدم من آدم، وآدم خلقه الله تعالى من تراب، ثم قال له: كُنْ فيكون. قال الله تعالى: **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فيكون﴾**(١).

ـ ومن فوائد هاتين الآيتين تكذيبُ من زعم أن البشر أصلهم قردة، ثم تطور حتى صار بشراً، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل الإنسان قرداً حينما أراد أن يعاقبه لمخالفة أمره، وقد جاءت الآيات والأحاديث الصحيحة الصريحة على أن آدم خُلِقَ من تراب وأجمع على ذلـك المسلمون، ولم يختلف فيه اثنان منهم، فمن اعتقد أن أصل بني آدم قردة فإنه مُكَذِّبٌ بالكتاب السنة وإجماع المسلمين، فإن قاله عن جهلٍ ـ لكونه عاش في بيئة لا تعلم سوى ذلك ـ فإنَّهُ يُعَلَّمُ، فإنْ أصرَّ على ما كان عليه صار كافــراً، وإنْ لم يقله عن جهل، بأن كان عائشاً في بلاد المسلمين الذين يقرؤون كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه يكون كافراً بمجرد قوله:

---

(١) الآية ٥٩ من سورة آل عمران.

إن بني آدم أصلهم قردة، لأن هذا تكذيبٌ صريحٌ لما عُلِمَ بالضرورة من دين الإسلام.

- ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين أن من رام المرتبة بغير استحقاق لها فإنه يعاقب بنقيض قصده، لأن هؤلاء الذين اعتدوا واستكبروا وتعالوا عوقبوا بنقيض قصدهم، عوقبوا بأن حُوِّلُوا إلى قردةٍ خاسئة ذليلة. وهكذا كل من أراد علواً في الأرض أو فساداً فإنَّ الله - سبحانه وتعالى - لا يصلح عمله، بل يحطه وينزله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِيْنَ﴾[1] ومن تواضع لله رفعه، ومن تعالى على الله وضعه، ولهذا فإن الإنسان كلما تواضع للحق وللخلق ازداد رفعة عند الله وعند الخلق أيضاً.

- ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين إثباتُ العقوبة، وأن العقوبة لا بد أن يكون لها تأثير لقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لما بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ ووجهُ ذلك أن كل من اطَّلَعَ على حال هؤلاء فلا بُدَّ أن ينكل أي يمتنع عما كان عليه من الإثم والعدوان سواء كان ذلك بترك الواجب، أو انتهاك المحرم. واعلم أن «الجعل» - الذي جعله الله لنفسه - ينقسم إلى قسمين: قسم كوني وقسم شرعي، فمن الكوني قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الليلَ لِبَاسَاً وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشَاً﴾[2].

(١) من الآية ٨١ من سورة يونس.
(٢) الآيتان ١٠ و ١١ من سورة النبأ.

ومن الشرعي قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيْرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ﴾[1] أي ما شرع هذه الأشياء.

- ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين أَنَّ الموعظة إنما ينتفع بها المتقون، لقوله: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِين﴾ فمن ليس بمتقٍ فإنه لا ينتفع بالموعظة، وكلما كان الإنسانُ أتقى لله كان أوعى للموعظة وأكثر انتفاعاً بها، وشاهِدُ هذا ظاهرٌ في المحسوس، فإنك تجد الرجل المتمادي في المعاصي، المنهمك فيها لا ينتفع بالموعظة والإرشاد، وتجد الرجل المستقيم المتقي إذا وُعِظَ انتفع، فإنْ كان في اتجاه إلى محرم عَدَل عنه، وإن كان متهاوناً في مأمور اتجه إلى فعله واستبق إليه.

- ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين أن للتقوى فوائد منها الاتعاظ بما يحصل من آيات الله الكونية أو آيات الله الشرعية، وللتقوى فوائد كثيرة ذكرها الله في كتابه العظيم منها: أنها سبب لتيسير الأمور كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾[2] ومنها: أنها سبب للهداية والنور كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُم وَيَغْفِرْ لَكُمْ واللهُ ذُو الفَضْلِ

(١) من الآية ١٠٣ من سورة المائدة.

(٢) من الآية ٢ ومن الآية ٣ من سورة الطلاق.

العَظِيْم﴾[1] فإذا كانت التقوى بهذه المثابة كان لزاماً على العاقل أن يلتزم التقوى حتى تحصل له هذه الفوائد العظيمة التي رُتبت عليها.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِيْنَ. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ. قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ. وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ. فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ المَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

في هذه الآيات الكريمة يُذَكِّرُ اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ بني إسرائيل، وذلك أنَّهم قتلوا نفساً فاختصموا فيها وتدارءوا فيها وكل

---

(1) الآية ٢٩ من سورة الأنفال.

قبيلة تدعي أن القبيلة الأخرى هي التي قتلت هذه النفس، واشتبه عليهم الأمر فارتفعوا إلى موسى عليه الصلاة والسلام، فقال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُـرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُـوا بَقَـرَةً﴾ ولكن لطغيانهم وعتوهم واستبعادهم ما عند الله - عزَّ وجلَّ - سخروا بموسى وقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾ فقال لهم موسى - عليه الصلاة والسلام - ﴿أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ الذين يجهلون حق البشر، أو الذين يعتدون على البشر، وذلك لأن الجهل قد يُرادُ به عدم العلم، وقد يُرادُ به العدوان وهو الجهالة كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِيْنَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾[1].

ومن ذلك أيضاً قولُ النبي - صلى الله عليه وسلم -: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قولَ الـزُّورِ والجهْـلَ والعَمَلَ بِهِ، فَلَا حَاجَةَ لِلهِ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»[2] يعني بالصوم، فالجهالة قد تكون بمعنى السفاهة وسوء التصرف والعدوان على الغير، وقد تكون بمعنى عدم العلم، فقول موسى: ﴿أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ يحتمل المعنيين جميعاً. فلما رأوا أن موسى جادٌّ فيما قالَ لم يمتثلوا أيضاً امتثالاً فورياً

---

(١) من الآية ١٧ من سورة النساء.

(٢) رواه: ابن ماجة (١/٥٣٩) رقم (١٦٨٩) بهذا اللفظ، ورواه بنحوه: البخاري (٤/١٤٦) رقم (١٩٠٣)، والترمذي (٣/٨٧) رقم (٧٠٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأبوداود (٢/٧٦٧) رقم (٢٣٦٢).

يدل على الانقياد التام، ولكنهم عاندوا بالاستفسار فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا ما هِيَ﴾ أي ما سنها؟ وما عمرها؟ وهل هي كبيرة أم صغيرة؟ فقال: ﴿إِنَّهُ[1] يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ ولا بكرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ. قَالُوا ادعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ أي أنهم لم يمتثلوا ولم يفعلوا ما أُمروا به، بل ذهبوا يستفسرون استفساراً آخر عن اللون، فقال موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿إِنَّهُ[2] يقولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ فبيَّن اللهُ ـ عَزَّ وجلَّ ـ أنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين، والمراد بقوله فاقع لونها أي واضح الصفار، وهي تسر الناظرين بحسنها وجمالها.

ولم يقتصروا على ذلك، بل طلبوا تفصيلاً آخر فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا ما هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُون﴾ يعني أنهم تشابهت عليهم البقر الصفر، لأنهم يشاهدون بقرات صفراء فقالوا: فماذا يراد منا أن نذبح من هذه البقرات؟ قال موسى: ﴿إِنَّهُ يقولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثيرُ الأَرْضَ ولا تَسْقِي الحَرْثَ﴾ أي أنها بقرة لا تستعمل في الحرث لا سقيا ولا إثارة لا تثير الأرض بحرثها ولا تسقي الزرع القائم ﴿مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فيها﴾ بعد قوله: ﴿لا تُثيرُ الأَرْضَ ولا تَسْقِي الحرثَ﴾ لئلا يقولوا إنها بقرة

---

(١) أي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ .

(٢) أي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ .

هزيلة عجفاء ليس بها حراك فقال: ﴿مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فيها﴾ أي ليس فيهـا عيب، وحينئذ قالوا: ﴿الآنَ جِئْتَ بِالحَقِّ﴾ تأمل ماذا تدل عليه هذه الكلمـة من الاستخفـاف بموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبيان أنهم لن يقبلوا من أمره إلا ما ظنوا أنه الحق، حيث قالوا: ﴿الآنَ جِئْتَ بِالحَقِّ فَذَبَحُوهَا﴾ على الوصف الذي بيَّنَهُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ على لسان موسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ومع ذلك ذبحوها وهم لم يقاربوا فعل الذبح أي من أجل تأخرهم وتوانيهم وتكاسلهم عن تنفيذ ما أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي ذبحوها بعد أن كادوا أي قاربوا ألا يفعلوا، لأنهم قوم عنـدهم من الطغيان والعتو على شرع الله ما لا نعلمه صدر عن أمة سواهم اللهم إلا ما ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن قوم نوح حين قال نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ : ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِـرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَـابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ واسْتَغْشَوا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا واسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارَاً﴾[1] ثم بَيَّنَ اللهُ تعالى بعد ذكر أوصاف هذه البقرة ونهايته، وغايتها بَيَّنَ سبب هذه القصة فقال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسَاً فادَّارَءتُمْ فِيْها واللهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي قتلتم نفساً محرمـة فاختلفتم فيهـا فبـيَّن الله ـ سبحـانـه وتعـالى ـ ما حصـل بواسـطة هذه البقـرة التي ذُبحت، وذلك بأن يضربوا هذا القتيل

---

(١) الآية ٧ من سورة نوح.

ببعضها، قال الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ المَوْتَى ويُرِيْكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فضربوا بعضو منها ولا ضرورة لتعيينه، ثُمَّ نطق القتيل وقال: إنَّ الذي قتلني فلان فبين الله تعالى ما كانوا يكتمون.

قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يتفجَّرُ مِنْهُ الأنهارُ وإِنَّ مِنْها لَمَا يشَّقَّقُ فيخرجُ مِنْهُ الماءُ وَإِنَّ مِنْهَا لما يَهْبِطُ من خَشْيَةِ اللهِ. وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

في هذه الآية الكريمة يُبيِّنُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن بني إسرائيل بعد أن أنعم الله عليهم ببيان قاتل القتيل الذي ادَّارءوا فيه، وكادت تحصل فتنة عظيمة لولا أن الله مَنَّ عليهم بما ذُكر.

بعد هذا، أي بعد ما حصل من هذه النعمة الكبيرة قست قلوبهم أي صَلُبَتْ وعظم استكبارهم فكانت قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة، وإنما ضرب الله المثل بالحجارة دون الحديد، لأن الحديد قد يلين مع النار، لكن الحجارة لا تلين، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، بل إن الحجارة خير من قلوبهم، لأن الحجارة يخرج منها ما فيه منافع للناس، ويهبط منها ما يهبط من خشية الله، فمن الحجارة ما تتفجر منه الأنهار، ومن الحجارة ما يشَّقَّقُ: أي يتشقق فيخرج منه الماء، ومن الحجارة ما يهبط من خشية الله، ثم ختم الله

الآية الكـريمـة ببيان كمال مراقبته وعلمه فقال تعالى: ﴿وما اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

فوائد الآيات الكريمة:

- من فوائد هذه القصة العظيمة في هذه الآيات أن الرجوع إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الأمور الهامة التي طريقها الشرع كان أمراً فطرياً سار الناس عليه منذ زمن بعيد، ويتفرع عن هذه الفائدة أن الواجب على الأمة إذا أشكل عليهم شيء من أمور دينهم أن يرجعوا إلى أهل العلم بشريعة الله، وذلك لأن شريعة الله ولا سيما الشريعة الإسلامية التي جاء بها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيها شفاء لكل داء، وفيها حل لكل مشكل، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ في شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ والرَّسُولِ﴾[1] أي إلى كتاب الله وإلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حياته وإلى سنته بعد مماته، ولم يأمرنا الله تعالى بالرجوع إلى الله ورسوله إلا لأننا سنجد الحل الشافي الكافي في الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وما ضرَّ الأمة وأوجد عندها المشاكل التي لا منتهى لها إلا غفلتهم عن كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

---

(١) من الآية ٥٩ من سورة النساء.

- ومن فوائـد هذه الآيات الكـريمـة بيان عتو بني إسرائيل وتأخرهم في تنفيذ أوامر الله، وأنهم قوم معاندون متشددون، فشدد الله عليهم، لأنهم ذكروا استفصالات كثيرة في هذه البقرة التي أُمروا بذبحها، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة حينما أُمروا أن يذبحوا بقرة لحصل لهم المقصود، لكنهم شدّدوا فشدد الله عليهم.

- ومن فوائد هذه الآيات الكريمة أن الأمر إذا جاء مطلقاً فإنه لا ينبغي أن يستفصل فيه، لأن الاستفصـال قد يؤدي إلى إضافة شروط ثقيلة، فإذا جاء أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في زمن الوحي مطلقاً فإن الاستفصال عن قيود من شأن القوم الذين لا يريدون امتثال الأمر على وجه الفورية. أما بعد انقطاع الوحي فإنه لا حرج على الإنسان إذا ورد الأمر مطلقاً أن يبحث عن شيء مقيِّد له، وذلك لأن الشريعة قد تمت، ولا يمكن زيادة إضافات إليها، فهنا يُفَرَّقُ بين أن يجد الإنسان أمراً مطلقاً في القرآن والسنة فيبحث عن تقييد له فيما بعد انقطاع الوحي، وفيما كان في زمن الوحي، فما كان في زمن الوحي فإنه لا ينبغي الاستفصال عن قيود، لئلا ترد قيود تضيِّق الأمر. وأما بعد زمن الوحي فلا بأس من البحث عن قيود، لأن النصوص أحياناً تأتي مطلقة، وتُقَيَّدُ في موضع آخر.

- ومن فوائد هذه الآيات الكريمة بيان ما عليه بنو إسرائيل من سوء الظن، فإنَّ موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أعظم أنبياء

بني إسرائيل، ومع ذلك قال له بنو إسرائيل حين أمرهم أن يذبحوا بقرة: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾.

ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمة تحريم الاستهزاء بالغير، والسخرية به لقول موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ : ﴿أَعوذُ باللهِ أَن أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ فالاستهزاء بالغير، والسخرية بالغير جهالة وعدوان على المُسْتَهْزَأ به، المسخور منه، لا يقع إلا من سفيه، أو جاهل بالشريعة.

ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمات أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لا يلجؤون إلا لله ـ سبحانه وتعالى ـ، وإذا كان الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لا ملجأ لهم إلا الله، فما بالك بمن دونهم؟! ويتفرع عن هذا قطع الشرك الذي يقع فيه كثير من الناس حينما يلجؤون إلى الموتى من الأنبياء أو ممن يزعمونهم أولياء يلتجئون إليهم، ويستعيذون بهم، ويستعينون بهم، فإن الاستعاذة بغير الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في أمر لا يقدر عليه المستعاذ به من الشرك، وكذلك الاستغاثة بغير الله في أمر لا يقدر عليه المستغاث به هو من الشرك أيضاً، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الملجأ الذي يلجأ إليه كل مخلوق، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم.

ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمات أن المجمل إذا عُلِمَ المراد منه فلا بأس أن يكون الجواب عليه مُفَصَّلاً، وإن كان هو مجملاً

لقولـه: ﴿**قـالُوا ادعُ لنا ربَّكَ يُبَيِّنْ لنا ما هي قَالَ إنَّهُ يقولُ إنها بقـرة...**﴾ فإن قولهم: ﴿**يبـيِّنْ لنـا ما هي**﴾ مجمل مبهم، لأن الأسماء الموصولة من الأسماء المبهمة المجملة، فلا يُعلم ماذا يريدون بقولهم ما هي، لكن إذاكان المخاطب يعلم المراد بهذا المجمل المبهم فلا بأس أن يكون الجواب على حسب ما فهمه المخاطب، ولهذا قال لهم موسى: ﴿**قال إنَّهُ يقولُ إنها بقرةٌ لا فارِضٌ ولا بِكْرٌ...**﴾.

ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمات أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ مجيب لمن دعاه، لأن موسى دعا ربه ـ سبحانه وتعالى ـ أن يبيِّنَ له ما هي فأخبره الله أنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك.

ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمات أن أحسن شيء يُتَقَرَّبُ به إلى الله ما كان فوق الصغر ودون الكبر الكثير؛ لقوله: ﴿**إنَّها بقرةٌ لا فارِضٌ ولا بِكْـرٌ عوانٌ بين ذلـك**﴾ ولهـذا جاء في الحـديث الصحيح: «**لا تَذْبحـوا إلَّا مُسِنَّـةً إلَّا أَنْ يَعْسُرَ عليكم فتـذبحوا جَذَعَـةً مِنَ الضَّـأْنِ**»[1] فنهى النبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن التقرب إلى الله بذبح الصغيرة.

ومن المعلوم أنـه كلما كبرت البهيمة قلَّ شأن لحمها وتردَّى،

---

(١) أخـرجـه: مسـلم (٣/١٥٥٥) رقـم (١٩٦٣)، وأبـوداود (٣/٢٣٢) رقم (٢٧٩٧)، والنسائي (٧/٢٤٩) رقم (٤٣٩٠)، وابن ماجة (٢/١٠٤٩) رقم (٣١٤١).

فلهذا يكون ما بين الصغيرة والكبيرة هو الأفضل فيما يُتقرَّبُ به إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ

ـ ومن فوائد هذه الآيات أنه يجب على المأمور أن يمتثل ما أُمر به؛ على الوجه الذي أُمر به لقوله: ﴿**فافعلوا ما تُؤمرون**﴾ و«ما» هذه موصولة تشمل عين المأمور ووصف المأمور، وما أُمر به شرعاً فإن الامتثال لا يحصل فيه إلا إذا فعله الإنسان على وجه ليس فيه زيادة ولا نقص، لأن الزيادة غلوٌّ والنقص تفريط.

ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمات أن بني إسرائيل عندهم من التهاون والتفريط في تنفيذ أوامر الله ما يتبين من هذه القصة وغيرها، فهم حين طُلِبَ منهم أن يفعلوا ما يُؤمرون لم يفعلوا، بل ازدادوا تعنتاً وتشدداً فقالوا: ﴿**ادعُ لنا ربَّك يبيِّنْ لنا ما لونها...**﴾ ويستفاد من هذه الآية: ﴿**ادعُ لنا ربَّك يبين لنا ما لونها...**﴾ شدة تعنت بني إسرائيل وتشددهم، وإلا فما شأن اللون بالنسبة للغرض المقصود من ذبح هذه البقرة، ولكنهم لتشددهم وتمنعهم في تنفيذ أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ صاروا يسألون عن اللون، ولعل هذا السؤال من حكمة الله تعالى أن يشدِّد عليهم، فإنهم لما شدَّدوا شدَّدَ الله عليهم.

ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمة أن ما كان جميلاً من الحيوان الذي يُتقرَّبُ به إلى الله فهو أكمل لقوله: ﴿**فاقعٌ لونها تسرُّ**

النَّاظرين﴾ فإن قال إنسانٌ: ما شأن هذا أو ما علاقة هذا بما يُتَقَرَّبُ به إلى الله؟ فالجواب عن ذلك أن نقول: إنه لما كانت هذه البقرة مما أمر الله به كانت قربة إلى الله، لأن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمر قومه أن يذبحوا هذه البقرة، فامتثالهم لأمر موسى قربة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وإن كان الغرض من هذا هو الإرشاد فإن فيه شائبة القربة، وقد يقال: إنه قربة محضة، لأنه يحصل به درء مفسدة وفتنة كادت تقع بين بني إسرائيل لولا أن الله تعالى أبان القتيل بهذه الوسيلة.

ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمات أنه يجوز أن يحمل المخاطب الشيء المبهم المجمل على ما يظنه من المراد حيث قالوا: **﴿ادعُ لنا ربَّك يبينّ لنا ما هي إنَّ البقرَ تَشَابه علينا وإنَّا إنْ شاء اللهُ لمهتدون. قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول. . .﴾** فإن **﴿ما هي﴾** هي الصيغة التي وردت في قوله في أول القصة: **﴿ادعُ لنا ربَّك يبين لنا ما هي﴾** ومع ذلك كان الجواب هناك بقوله: **﴿إنها بقرة لا فارِضٌ ولا بِكْرٌ﴾** والجواب هنا بقوله: **﴿إنَّها بقرةٌ لا ذلولٌ تثيرُ الأرضَ ولا تسقي الحرثَ﴾** مع أن جملة الاستفهام واحدة في صيغتها لكن المخاطب يفهم من كل صيغة ما يقتضيه المقام.

ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمة أن بني إسرائيل لما قالوا: **﴿وإنَّا إن شاءَ اللهُ لمهتدون﴾** وفقهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ للهدى

في النهاية ولو أنهم عزموا على أن يكونوا مهتدين بدون أن يقولوا: «إن شاء الله» فإنهم حريٌّ ألا يُوفقوا، لأن قرن الخبر بالمشيئة على فعل المستقبل أمر مطلوب، فإن ذلك مما يسهل هذا الأمر، ولهذا قال سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «**لأطُوفَنَّ الليلة على سبعينَ امرأةً**[1] **كُلُّهُنَّ تأتي بغلامٍ يقاتِلُ في سبيلِ اللهِ. فقالَ له صاحبُهُ أو المَلَكُ: قل: إن شاء اللهُ، فلم يقل. وَنَسِيَ. فلم تأتِ واحدة من نسائِهِ إلا واحدةٌ جاءت بشقِّ غلامٍ** » **فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ**: «**ولو قالَ: إنْ شاءَ اللهُ لَمْ يَحْنَثْ، وكان دَرَكاً له في حاجته**»[2] وليس هذا من باب الخبر عن أمر واقع، فإن الخبر عن أمر واقع لا يحتاج إلى قول: «إن شاء الله» إلا على سبيل التبرك أو التعليل، ولهذا كان القول الراجح في قول الإنسان: أنا مؤمن إن شاء الله إذا كان غرضه الإخبار عن الأمر الواقع فإنه لا يحتاج إلى قول إن شاء الله، لأن هذا خبر عن شيء حصل إلا أن يريد بذلك أن إيمانه حصل بمشيئة الله، أو أنه يريد التبرك بهذا، أي بإضافة إيمانه إلى مشيئة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وبراءته من حوله وقوته أي من حول نفسه وقوتها إلى مشيئة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فإن هذا لا بأس به، ومن ثم كان الاستثناء في الإيمان يختلف، فإن كان الحامل عليه الشك

---

(١) أي بالجماع.

(٢) الحديث رواه: البخاري (١١/ ٧٣٧) رقم (٦٧٢٠)، ومسلم (٣/ ١٢٧٥) رقم (١٦٥٤) واللفظ له، والنسائي (٧/ ٣٩) رقم (٣٨٦٥).

في وجود الإيمان فهذا حرام ولا يجوز، لأن الإنسان يجب أن يؤمن إيماناً جازماً لا شك فيه، وإن كان الغرض من ذلك التبرك أو بيان أن ما حصل واقع بمشيئة الله فإن هذا لا بأس به، وبهذا التفصيل ينجلي الإشكال الذي حصل عند كثير من أهل العلم: هل يجوز للإنسان أن يستثني في إيمانه فيقول: أنا مؤمن إن شاء الله أو لا يجوز.

ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمة أنه إذا ذكرت أوصاف في شخص يُخشى منها أن يتوهم المخاطب شيئاً خلاف الواقع فإنه لا بد من ذكر قيد يرفع هذا التوهم، وذلك في قوله تعالى: **﴿قَالَ إِنَّهُ يقولُ إنها بَقَرَةٌ لا ذلولٌ تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلَّمة لا شية فيها﴾** فإن في قوله: **﴿لا ذلولٌ تثير الأرض ولا تسقي الحرث﴾** قد يقول قائل إن فيها عيباً لأنها لا تقدر على أن تثير الأرض أو تسقي الحرث فبيَّن الله تعالى أنها **﴿مسلَّمة لا شية فيها﴾** وهذا يسمى بالاحتراز أو بالاحتراس في علم البلاغة، وقد جاء ذلك في القرآن في مواقع منها قوله ـ تبارك وتعالى ـ : **﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يحكُمانِ فِي الحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فيهِ غَنَمُ القَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيمانَ وكُلًّا آتينا حُكْماً وعِلْماً وسَخَّرنَا مع دَاوُدَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ والطَيْرَ وكُنَّا فَاعِلِينْ﴾**(١) فلما ذكر الله تعالى أنه فهَّم الحكم

---

(١) الآيتان ٧٨ و ٧٩ من سورة الأنبياء.

الصحيح سليمان، وكان ذلك يُخشى منه أن تهبط منزلة داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ بيَّن الله تعالى أنه قد آتى داود وسليمان حكماً وعلماً، وأن الله سخر لداود الجبال تسبح معه والطير. . . الخ. الآيات.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿لا يَسْتَوي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وقاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وقاتلُوا وكُلًّا وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى﴾[1] فإن قوله: ﴿أُولئِكَ أعظمُ دَرَجَةً من الَّذِينَ أنفقوا من بَعْدُ وقاتلوا﴾ قد يؤدي إلى انحطاط كبير في رتبة الآخرين الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا فرفع الله ذلك في قوله: ﴿وكُلًّا وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى﴾.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿لا يَسْتَوي القاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولي الضَّرَرِ والمجاهدونَ في سبيلِ اللهِ بِأَموالِهِمْ وأَنْفسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ المجاهدينَ بأموالِهِمْ وأنفسهم على القاعدينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى﴾[2]. فلما ذكر تفضيل المجاهدين على القاعدين قال: ﴿وكُلًّا وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى﴾ لئلا يتوهم واهم نزول رتبة الآخرين نزولاً فاحشاً.

---

(١) من الآية ١٠ من سورة الحديد.

(٢) من الآية ٩٥ من سورة النساء.

- ومن فوائد هذه الآيات الكريمة بيان ما عليه بنو إسرائيل من التعاظم والترفع والاستعلاء لقولهم: ﴿الآنَ جِئْتَ بالحَقِّ﴾ فكأنهم هم الذين يحكمون على موسى - عليه الصلاة والسلام - ، بل هم الذين يحكمون على ما جاء به موسى من كونه حقاً أو باطلاً لقولهم: ﴿الآنَ جئتَ بالحق﴾ ومن المعلوم أن موسى - عليه الصلاة والسلام - قد جاء بالحق في ذلك الآن وقبله.

- ومن فوائد هذه الآيات الكريمات أنه يجوز حرث الأرض بالبقر، وسقي الحرث بها؛ لقوله: ﴿لا ذلولٌ تثيرُ الأرضَ ولا تسقي الحرث﴾.

- ومن فوائدها الإشارة إلى أنه ينبغي ألا نستعمل في حرث الأرض وسقي الزرع إلا ما كان ذلولاً طيعاً، وذلك لأن الشموس أو الصعب قد يفسد أكثر مما يصلح، ويمكن أن نفرع عن هذه الفائدة فائدة أخرى وهي ألا نستعمل من الأشياء إلا ما دَلَّت التجارب على أنه صالح فيها حتى لا نقع في الخطأ والزلل.

- ومن فوائد هذه الآيات الكريمة أن بني إسرائيل حين امتثلوا ما أمرهم موسى - عليه الصلاة والسلام - بذبح البقرة مع التشدد والتعنت والاستفصال لم يذبحوها عن انقياد تامٍ، وتنفيذ فوري، وإنما ذبحوها ﴿وما كادُوا يفعلون﴾ أي ما قاربوا الفعل لكونهم متصفين بالعلو والاستكبار.

ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمة أنه يجوز ذكر المسبَّب قبل ذكر السبب، فإن الذبح كان سببه الاختلاف الذي وقع بين بني إسرائيل بشأن القتيل، ومع ذلك ذكر قبل أن يذكر السبب، لأنه هو محل العبرة، وهو الذي يكشف حال بني إسرائيل على وجه الحقيقة، وأنهم قوم لا يمتثلون لأوامر الله ورسوله إلا بعد أن تقبله نفوسهم وكأنهم يريدون أن يتبع الحق أهواءهم ويدل لهذا قولهم: ﴿الآنَ جِئْتَ بالحق﴾.

ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمة بيان قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث كان ضرب هذا القتيل سبباً لحياته، فإن إحياء الموتى لا يكون إلا بقدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ولهذا لما ناظر إبراهيم مَنْ حاجَّهُ في الله قال له إبراهيم: ﴿رَبِّي الذي يُحيي ويُميت﴾[1] قال هذا المحاج: ﴿أَنَا أُحيي وَأُميت﴾[2] وهو كاذب فيما ادعاه، فإنه لا يقدرُ على الإحياءِ والإماتة إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمات أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليم بكل شيءٍ، وأن ما كتمه الإنسان فإن الله تعالى سيخرجه ولا سيما إذا كان في خروجه للعباد مصلحة كما قال الله تعالى: ﴿والله مُخْرِجٌ ما كنتم تَكْتُمون﴾.

---

(١) من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة.

- ومن فوائدها أن القاتل لا بد أن يخرجه الله ويبينه كما قال تعالى: ﴿**ومَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فلا يُسْرِف في القتل**﴾[1] فإن الآية الكريمة تدل على أن ولي المقتول له سلطان شرعي وسلطان قدري، فإن الله تعالى يبين هذا القاتل حتى يُقتل، ولهذا قال: ﴿**فَلَا يُسْرِف في القَتْلِ**﴾[2].

- ومن فوائد هذه الآيات الكريمات أن هذه القصة قصةٌ من خمسِ قصص في سورة البقرة كلها في إحياء الموتى وسنبيِّن ذلك ـ إن شاء الله ـ فيما بعد.

- ومن فوائد الآيات الكريمات جواز الأمر بالمبهم إذا كان يمكن امتثاله؛ لقوله تعالى: ﴿**فَقُلْنَا اضْربوهُ ببَعْضِها**﴾ فإنَّ البعض يتناول أي جزء من أجزائها: كاليد أو الرجل أو القلب أو الكبد أو أي جزء من أجزائها لقوله: ﴿**اضربوهُ ببَعْضِها**﴾ وبناء على ذلك لو أنك قلت للشخص افعل بعض هذه الأشياء وذكرت له أشياء محصورة فإن هذا الأمر صحيح، ويبرأ الإنسان الذي أمرته بفعل بعضه، أي بفعل ما شاء، أما إذاكان هذا الإبهام لا يمكن تحقيقه فإن الواجب الاستفسار، ولهذا لما قال الله تعالى للقلم اكتب قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هُوَ كائن إلى يوم القيامة. فكتب

---

(١) من الآية ٣٣ من سورة الإسراء.

(٢) من الآية ٣٣ من سورة الإسراء.

القلم ما هو كائن إلى يوم القيامة وذلك قبل أن يخلق الله السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

- ومن فوائد هذه الآيات الكريمة بيان قدرة الله - سبحانه وتعالى - على إحياء الموتى، وقد ذكرنا فيما سبق أن الله ذكر خمس قصص في سورة البقرة فيها إحياء الموتى، فمن ذلك ما سبق في قوله - تبارك وتعالى - : **﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتَّى نَرَى اللهَ جَهْـرَةً فَأَخَـذَتْكُم الصَّـاعِقَـةُ وأَنْتُمْ تَنْظُرون ثُمَّ بعثناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون﴾**[1].

ومنها هذه القصة، قصة القتيل الذي اختلف بنو إسرائيل في قاتله، ومنها قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم، ومنها قصة الرجل الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال: أنّى يحيي الله هذه بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه، والخامسة قصة إبراهيم حيث قال: **﴿ربِّ أرني كيفَ تُحيي الموتى قالَ أولم تؤمِن قَالَ بَلَى ولكن لِيَطْمَئِنَّ قلبي قَالَ فَخُذْ أربعةً مِنَ الطير فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يأتينكَ سَعْياً واعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ﴾**[2].

---

(١) الآيتان ٥٥ و ٥٦ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٢٦٠ من سورة البقرة.

والله ـ سبحـانه وتعالى ـ قادرٌ على إحياء الموتى كلهم بكلمة واحدة كما قال الله تعالى: ﴿**فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة**﴾[1].

ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمة أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أرى عبـاده من آياتـه ما يكـون به العقل والرشد؛ لقوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يُحيي اللهُ الموتى وَيُرِيْكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ وآيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية. فالآيات الكونية: ما يحصل بخلقه وتقديره مثل السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب.

والآيات الشرعية: ما جاءت به الرسل من الأوامر والنواهي وغيرها من أقسام الوحي.

ـ ومن فوائد الآيات الكريمة أن تدبّر الأسباب سببٌ للعقل لقـولـه: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ والعقـلُ عقلان: عقل إدراك وعقل تصرف، فعقل الإدراك: هو الذي يترتب عليه التكليف في المؤمن والكافر والبر والفاجر. وأما عقل التصرف: فهو ما يحصل به الرشد وهو حسن التصرف في أفعال الإنسان وأقواله، وهذا خاص بمن آتاه الله الحكمة كما قال تعالى: ﴿**يُؤْتي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ**

---

(١) الآيتان ١٣ و ١٤ من سورة النازعات.

الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرَاً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[1] وعلى هذا فلو سألنا سائلٌ هل الكفار عقلاء؟ فالجواب أن نقول: هم عقلاء من حيث عقل الإدراك الذي يترتب عليه التكليف، وليسوا عقلاء من حيث عقل التصرف الذي يحصل به الرشد، ولهذا ينفي الله عنهم ـ أي عن الكفار ـ كثيراً سمة العقل كما في قوله: ﴿إنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿إنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ولَو عَلِمَ اللهُ فيهم خَيْرَاً لَأَسْمَعَهُمْ﴾[3]. فالكفار ليس لهم عقل تصرف يوصلهم إلى الرشد، وإن كان عندهم عقل إدراك يترتب عليه التكليف والمؤاخذة.

ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمة إثبات الأسباب في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. وقد تقدم الكلام فيما سبق عن ذكر اختلاف الناس في الأسباب وبيّنا أن القول الوسط هو إثبات تأثير الأسباب لكن لا بذاتها، ولكن بما أودع الله فيها من القوة التي تؤثر في المسبَّبات.

ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمات أن بني إسرائيل ـ بعد هذا

---

(1) الآية ٢٦٩ من سورة البقرة.

(2) الآية ٥٥ من سورة الأنفال.

(3) الآية ٢٢ ومن الآية ٢٣ من سورة الأنفال.

كله ـ قست قلوبهم، ولم يزداودا بهذه الآيات والنعم ليناً للحق وقبولاً له، ولكنهم قست قلوبهم من بعد ذلك.

ـ ومن فوائـد هذه الآيات الكريمات التحذير مما جرى لبني إسرائيل من قسوة القلب بعد أن نرى الآيات التي يرينا الله إياها، فمثلاً إذا رأينا من آيات الله ما تلين به القلوب، ويحصل به الرجوع إلى الله فإن الواجب علينا أن نقوم بذلك، أي بالرجوع إلى الله، وأن تلين قلوبنـا لذكـر الله. أماإذا كان الأمر بالعكس، لا يزداد الإنسان من رؤية الآيات إلا قسوة قلب وتمرداً في الفعل فإن هذا وقوع فيما كانت عليه بنو إسرائيل، نسأل الله السلامة.

ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمة التحذير من قسوة القلب بعـد ظهـور الآيات، لأن هذا أعـظم شراً وأكبر إثماً مما إذا لم يرَ الإنسان من آيات الله ما تقوم به الحجة، ومع الأسف أن بعض الناس بعد ظهور الآيات لا يزداد إلا كبراً وعناداً، فتجد من آيات الله ما يظهر ظهوراً بيِّناً سواء أكانت هذه الآيات من الأمور الفلكية أو الأرضية أو الواقعة بين الناس، فإن كثيراً من الناس لا يهتم بها، ولا يذكرها إلا على سبيل أنها واقعة فقط. فعند كسوف الشمس أو خسوف القمر لا نجد كثيراً من الناس يتأثر أو يقبل على المساجد؛ ليفعل ما أمر به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الصلاة، وعند حصول الزلازل والفيضانات والعواصف الشديدة لا نجد كثيراً من

الناس يهتم بها، ويقلق منها، ويخشى أن يصاب بمثلها، بل لا يذكرونها إلا على أنها حوادث وقعت وكأنها كما يقولون كوارث طبيعية لا يلتفت إليها، ونجد كثيراً من الناس تقع بينهم الحروب والفتن ويعتدي بعضهم على بعض بالقتل والنهب وانتهاك الحرمات، ومع هذا لا يعدونها شيئاً يُذكر، بل يذكرونها على أنها حوادث تاريخية، وليست من الآيات التحذيرية التي يحذر الله بها العباد فتجدهم بعد أن تزول هذه الكوارث، وهذه الحوادث العظيمة يرجعون إلى غيّهم، بل ربما يرجعون إلى أكبر من غيهم، نسأل الله السلامة. والواجب على المؤمن أن يتخذ من هذه الآيات عبرة، وأن يرجع إلى الله رجوعاً حقيقياً حتى لا ترجع هذه الحوادث والكوارث على وجه أكبر مما كانت عليه من قبل.

- ومن فوائد هذه الآيات الكريمة أن قلوب بني إسرائيل التي قست كانت كالحجارة أو أشد.

- ومن فوائدها أن من الحجارة ما هو خير من هذه القلوب، فمنها ما يتفجر منه الأنهار، ومنها ما يشّقق فيخرج منه الماء، ومنها ما يهبط من خشية الله، وقلوب هؤلاء القوم التي قست لا يأتي منها خير، ولا تلين لحق.

- ومن فوائد هذه الآيات الكريمة عموم رقابة الله - عزَّ وجلَّ - وأنه على كل شيء رقيب، ولا يفوته شيء، ولا يخفى عليه شيء؛

لقوله تعالى: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

- ومن فوائد هذه الآيات الكريمة تحذير المرء من العمل الذي لا يرضاه الله - عزَّ وجلَّ -، لأنه مهما عمل فالله تعالى عالم به، مطّلع عليه، رقيب عليه.

- ومن فوائد هذه الآيات الكريمات إثبات الصفات المنفية عن الله - عزَّ وجلَّ -، يعني الإيمان بأن الله موصوف بالإثبات وبالنفي. أما وصف الله بالإثبات فكثير جداً في القرآن الكريم والسنة النبوية. وأما وصف الله تعالى بالنفي فهو أقل من وصفه بالإثبات، ولم يذكر الله تعالى أوصاف النفي إلا لأسباب تقتضيها مثل توهّم النقص في صفاته كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّموات والأرضَ وما بَيْنَهُمَا في سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾(١). ومنها أن الصفات المنفية تذكر؛ لدفع ما افتراه الكاذبون في حق الله كما في قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَه﴾(٢). ومنها أن الصفات المنفية قد تذكر للتهديد كما في هذه الآية: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فإن المراد بهذه الجملة تهديد المخاطب ببيان أن الله تعالى لن يغفل عما عمل من خير أو شر قليل أو كثير. وقد ذكر أهل العلم أن ما جاء من صفات النفي في حق اللهِ - عزَّ وجلَّ - ليس بنفي

---

(١) الآية ٣٨ من سورة ق.

(٢) من الآية ٩١ من سورة «المؤمنون».

محض، بل هو نفي متضمن للإثبات. وهذا الإثبات هو كمال ضد المنفي، فمثلاً يقال في قوله تعالى: ﴿وما مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾[1] المقصود بهذا النفي إثبات كمال قوته ـ عزَّ وجلَّ ـ، وأنه لكمال قوته لم يمسه تعب ولا إعياء ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيد﴾[2] يُرادُ بنفي الظلم هنا عن الله إثبات كمال عدله، وأنه لكمال عدله لا يقع في إثباته ظلم إطلاقاً، وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَه﴾[3] يُرادُ بذلك إثبات كمال غناه عن كل أحد، وإثبات وحدانيته، وأنها وحدانية مطلقة ليس معه فيها إله وعلى هذا فقِسْ. فكل ما جاء من صفات منفية عن الله فليس المراد بها مجرد النفي، وإنما المراد بها إثبات كمال الضد مع نفي هذه الصفة المعينة التي جاء النفي عنها. ثم اعلم أن أهل السنة والجماعة ـ وأعني بذلك سلف الأمة ومَنْ تبعهم في هديهم ـ ليسوا كأهل البدع الذين لا يصفون الله تعالى إلا بصفات النفي، فتجدهم يكثرون من صفات النفي في حق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. وأما صفات الإثبات فإنهم لا يهتمون بها، ولو ذكروها لذكروها على وجه مُؤَوَّلٍ تأويلاً بعيداً عن الصواب. وحقيقته أنه تحريف وليس بتأويل.

---

(١) من الآية ٣٨ من سورة ق.

(٢) من الآية ٤٦ من سورة فصلت.

(٣) من الآية ٩١ من سورة «المؤمنون».

- ومن فوائد هذه الآيات الكريمة أن هذا القرآن الكريم جاء تفصيلاً لكل شيء يحتاج الناس إلى تفصيله من أجل أن يكون موعظة تامة في جميع الأحوال، فإن في ذكر أخبار من سبق عبرة لمن اعتبر كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

ثُم قال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ. أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

في هذه الآيات الكريمات يقول الله - عزَّ وجلَّ - مخاطباً رسوله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي أهل الكتاب. يعني أترجون أن يؤمنوا لكم والحال أن فريقاً منهم يسمعون كلام الله - وهم العلماء منهم - ، يسمعون كلام الله في التوراة، أو يسمعون كلام الله الذي أوحاه إلى موسى - عليه الصلاة

---

(١) الآية ١١١ من سورة يوسف.

والسلام ـ حين اختار من قومه سبعين رجلاً لميقات ربه ﴿**يسمعون كلام الله ثم يحرفونه**﴾ أي يصرفونه عن المراد به إلى معانٍ يريدونها هم، فيجعلون معنى كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ تابعاً لأهوائهم، يفعلون ذلك بعد أن عقلوا المعنى وعرفوه، فهم يفعلون هذا عن عمد، وهم يعلمون أنهم يفعلون ذلك عن عمد، لكنهم يريدون أن يتبعوا أهواءهم. ومن شأن هؤلاء المحرفين أنهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، إذا لقوا المؤمنين قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض ﴿**قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم**﴾ بما أعلمكم به، وأخبركم به من صفات محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليحاجوكم به عند ربكم، لأنكم إذا ذكرتم أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاء وصفه في التوراة، وأنه يبعث ويكون رسولاً إلى كافة الناس فإنهم سوف يحاجونكم به عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. ثم يوبخ هؤلاء أقوامهم فيقولون ﴿**أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ أفلا تكونون عقلاء، قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿**أَوَلاَ يَعْلَمونَ أَنَّ اللهَ يعلمُ ما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنُونَ**﴾ فهم وإنْ أسروا وكتموا صفة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو أعلنوها، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عالم بصنيعهم وسيجازيهم على ما فعلوا من كتمان الحق، وتحريف الكتاب.

فوائد وأحكام هذه الآيات:

ـ تأييس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه من إيمان هؤلاء المعاندين المحرفين.

ـ أن المعانـد الـذي يعصي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن عناد تبعد هدايته، لأنه لا خير فيه، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1] فالإنسان إذا رد الحق أول مرة مع علمه به وفهمه له فإنه يبعد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يهديه، لأن قلبه ـ والعياذ بالله ـ قد زاغ، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2].

ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمة إثبات كلام الله تعالى، وأن الله تعالى يتكلم.

ـ ومنها: أن كلامه يسمع؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ﴾ وهذا يدل على أن كلام الله بصوت مسموع يسمعه من وُجِّه الخطاب إليه، وهذا أمر متفقٌ عليه بين أهل السنة والجماعة، ويدل عليه القرآن والسنة، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطور الأيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾[3] والمناداة والمناجاة لا تكونان إلا بصوت، لكن المناداة تكون بصوتٍ عالٍ لمن بَعُدَ، والمناجاة تكون بصوت خفيٍّ لمن كان قريباً.

---

(١) الآية ١١٠ من سورة الأنعام.
(٢) من الآية ٥ من سورة الصف.
(٣) الآية ٥٢ من سورة مريم.

ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمة ذمُّ تحريف الكلم عن مواضعه، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ قال أهلُ العلم: تحريفُ الكلم ينقسم إلى قسمين: أحدهما: تحريف اللفظ، والثاني: تحريف المعنى. فتحريف اللفظ يكون بتغيير الشكل أو تغيير بنية الكلمة وما أشبه ذلك مثل لو قرأ قارىء قول الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾[1] فقال: ﴿وَكَلَّمَ اللهَ مُوسَى تكليماً﴾ لكان محرفاً للكلم، ولو قال: ﴿الحمدُ للهِ ربَّ العالمين﴾ لكان محرفاً للكلم أيضاً. لكن الفرق بين هذا والذي قبله أن تحريف قوله: ﴿وكَلَّمَ اللهَ موسى تكليماً﴾ يتغير به المعنى فيكون المُكلِّمُ موسى وليس الله. أما ﴿الحمدُ للهِ ربَّ العالمين﴾ فإنه لا يتغير به المعنى، ولكنه لا يجوز ارتكابه، لأنه تحريف للكلم.

وأما تحريفُ المعنى فإنه هو الذي وقع فيه كثير من الناس بحيث يصرف معنى اللفظ عن ظاهره بدون دليل مثل تحريف بعضهم قول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى﴾[2] فقال معناه: الرحمن على العرش استولى، ولكنه أبقى اللفظ كما هو. فهذا تحريف معنوي، وهو بلا شك محرم، لأنه قول على الله بلا علم، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما خاطبنا بالقرآن العربي؛

---

(١) من الآية ١٦٤ من سورة النساء.

(٢) الآية ٥ من سورة طه.

لنفهمه على مقتضى اللغة العربية إذا لم ينقل المعنى إلى معنى شرعي، فإذا صرفنا إلى ما لا تقتضيه اللغة العربية كان ذلك تحريفاً للكلم عن مواضعه.

- ومن فوائد هذه الآيات الكريمة شدة لوم هؤلاء الذين حرَّفوا ما سمعوا من كلام الله، حيث إنهم حرَّفوه بعد ما عقلوه وفهموه.

- ومن فوائدها أن تحريف الشيء بعد أن يعقل ويفهم أشد من تحريفه إذا لم يكن قد عقله الإنسان، لأنه إذا لم يكن قد عقله فقد يكون معذوراً لهذا التحريف، لأنه لم يعقله تمام العقل، فإذا كان قد عقله كان تحريفه أشد وأعظم.

- ومن فوائد هذه الآيات أن هؤلاء - الذين حرفوا الكلم عن مواضعه بعد أن عقلوه - إنما حَرَّفوه وهم يعلمون أنهم مُحَرِّفون له. فيكون تحريفهم إصراراً على عناد، وليس إصراراً عن جهل أو تهاون، بل هو إصرار على خطأ متعمَّد، نسأل الله العافية.

- ومن فوائد هذه الآيات أن من هؤلاء - وأعني بهم بني إسرائيل في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم -، من سلك مسلك النفاق، فصار إذا لقي الذين آمنوا قال: آمنت، ولكنه إذا خلا إلى قومه صار بعضهم ينكر على بعض لقوله: ﴿**وإذا لقوا الَّذينَ آمنُوا قالُوا آمَنَّا**﴾ أي آمنا بمحمدٍ - صلى الله عليه وسلم -،

لكنهم على خلاف ذلك في الباطن.

- ومن فوائد هذه الآيات الكريمة أن نبوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - كانت معلومة عند بني إسرائيل، وأنهم يعرفونها تماماً ويعدونها من الفتح الذي فتحه الله عليهم، لقوله: ﴿قالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللهُ عليكم﴾ وهذا أمر معلوم بيَّنهُ الله تعالى في كتابه في قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التوراةِ والإِنْجيل يَأْمُرُهُمْ بالمعروفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ التي كانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[1] وقد بشَّر به عيسى قومه فقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يأتي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[2] صلوات الله وسلامه عليه.

- ومن فوائد الآيات الكريمة بيان أن ما علمه أهل الكتاب من صفة النبي - صلى الله عليه وسلم - هو فتح من الله فتح به عليهم، وقد بيَّن الله - عزَّ وجلَّ - أنهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا قبل بعث الرسول - عليه الصلاة والسلام -، أي أنهم يستنصرون بمحمد - صلى الله عليه وسلم - على الكافرين؛ لأنهم

---

(١) من الآية ١٥٧ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٦ من سورة الصف.

يعلمون فيما علموه من التوراة أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ منصور، وستكون له العاقبة، ولكنهم ـ والعياذ بالله ـ لما بان الحق واتضح وبُعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ صدَّهم الحسد عن الإيمان به ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ـ ومن فوائد هذه الآيات أن أهل الكتاب يؤمنون بالبعث لقوله: ﴿لِيُحَاجُّوكم به عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ وقد اتفقت الأديان السماوية كلها على إثبات البعث، وأن الناس سوف يبعثون ويجازون على أعمالهم إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر.

ـ ومن فوائد الآيات الكريمة أن الخصومة ستقع بين يدي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من المؤمنين والكافرين، بخصام بعضهم بعضاً، فيفصل الله بينهم، ويقضي بينهم بحكمه، ويدل لهذا أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ. ثُمَّ إِنَّكُمْ يومَ القِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيْعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيْهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[2] وغير ذلك من الآيات الكريمة الدالة على أن أولياء الله وأولياء الشيطان يختصمون عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيقضي بينهم بحكمه وعدله ـ جلَّ وعلا ـ .

---

(١) الآيتان ٣٠ و ٣١ من سورة الزمر.

(٢) من الآية ٤٨ من سورة المائدة.

ـ ومن فوائـد هذه الآيات الكـريمة أن ما ذهب إليه هؤلاء ـ الذين يقولون عند المؤمنين آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض أنكر بعضهم على بعض ـ مخالف للعقل، لقوله تعالى: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ فإن مقتضى العقل أن الإنسان إذا آمن عن اقتناع آمن به ظاهراً وباطناً في حضور الخصم وحضور الولي. أما هؤلاء فكانوا مذبذبين يؤمنـون عنـد المؤمنـين، ولكن إذا رجع بعضهم إلى بعض وخلا بعضهم إلى بعض أنكروا ما حدث.

ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمة إثبات عموم علم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وأنه يعلم ما يسرون وما يعلنون، أي ما يسرونه من مخالفة الحق، وكتمان الحق، وما يعلنونه عند المؤمنين بقولهم: إنهم آمنوا، وإن صفة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ موجودة عندهم في التوراة.

ـ ومن فوائـد هذه الآيات الكـريمة تهديد المرء وتحذيره من مخالفة أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والوقوع فيما يغضبه سواء أكان سراً أم علنـاً، لقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنُونَ﴾ فإن المراد بذلك تهديد هؤلاء وأمثالهم ممن يظنون أن الله لا يعلم إلا ما كان علناً.

ثم قال الله تعـالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

يبين الله في هذه الآية الكريمة أن من بني إسرائيل قوماً أميين لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ أي إلا قراءة، فهم يقرؤون التوراة، ولكنهم لا يفهمون معناها، ولهذا وصفهم الله تعالى بالأمية. والأمي هو الذي لا يعرف أن يقرأ ويكتب نسبة إلى الأم، لأن الإنسان إذا خرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً كما قال الله تعالى: **﴿واللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئَاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**[1] فمن بني إسرائيل قوم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيّ، إلا قراءة، **﴿وإنْ هُم إلا يَظنونَ﴾** أي ما هم إلا يظنون ظناً.

فوائد هذه الآية الكريمة:

- بيان أن من بني إسرائيل من لا يفهم المعنى، ولكنه يقتصر على اللفظ.

- ذم من لا يفهم معنى كتاب الله لقوله: **﴿ومنهم أُمِّيُّونَ لا يعلمونَ الكِتَابَ إِلَّا أماني﴾**.

- الحثُّ على تعلُّم معاني كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. وقد كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ الذين يقرؤون القرآن لا يتجاوزون

(١) الآية ٧٨ من سورة النحل.

عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل فتعلموا القرآن والعلم والعمل جميعاً.

ـ الحثُ على فهم كتاب الله، وأنه ينبغي للإنسان أن يتعلم معاني الكتاب كما يتعلم لفظه. وإن من المؤسف أن واقع أكثر المسلمين اليوم على غير هذا المنهج، أي أنهم يقرؤون القرآن للتعبُّد بلفظه فقط دون أن يفهموا معناه، أو أن يطبقوا أحكامه، وهذا بلا شك قصور عظيم، ولذلك ظهر أثر هذا على المسلمين، حيث تخلفوا كثيراً عما كان عليه السلف الصالح من تطبيق القرآن لفظاً ومعنى وعملاً، ففاتهم ـ بذلك ـ خير كثير.

ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن من لا يعلم الكتاب إلا لفظاً يقع في الوهم والظن والتخبط فيما لا يعرف، لقوله: ﴿**وإنْ هُمْ إلَّا يظنونَ**﴾ وعلى هذا فينبغي للمسلم أن يكون حريصاً على فهم كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، يتلقى تفسيره من كتب التفسير المعتمدة الموثوق بها أو من أفواه العلماء المخلصين الذين يوثَقُ بعلمهم.

ثُمَّ قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيْلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ**﴾.

في هذه الآية الكريمة تَوَعَّدَ اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ هؤلاء

الذين يكتبون الكتاب بأيديهم. وفي قوله: ﴿بأيديهم﴾ تأكيد لهذه الكتابة أنها من عند أنفسهم، ثم يقولون للناس: هذا من عند الله، يفعلون ذلك لغرض من الدنيا، ليشتروا به ثمناً قليلاً، ثم بَيَّنَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن هذا الوعيد حاصل على أمرين: الأمر الأول: ما كتبـوه. والأمـر الثاني: ما كسبوه من هذه الكتابة، فإن هؤلاء يكتبـون الكتاب ليس من عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ولكنه من عند أنفسهم من أجل أن ينالوا جاهاً أو مالاً أو رئاسة أو غير ذلك من متاع الدنيا وهو قليل بالنسبة لمتاع الآخرة، فيأثمون على الأمرين: على الكتابة التي يضل بها الناس، وعلى ما كسبوه.

فوائد هذه الآية الكريمة:

ـ تحريم أن يقول الإنسان القول من عند نفسه أو يكتبه من عند نفسه ثم يقول للناس: إن هذا من عند الله من أجل أن يشتري به ثمناً قليلاً، ووجه التحريم الوعيد الذي رُتب على هذا الفعل، لأن التحريم يستفاد إما من لفظ التحريم مثل: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾(١) وإما من النهي، وإما من ترتيب العقاب عليه، وإما من الوعيد عليه.

وللعلم بالتحريم طرق معروفة في أصول الفقه.

---

(١) من الآية ٣ من سورة المائدة.

ـ أن من أسلوب القرآن الكريم تأكيد الشيء بما هو معلوم؛ لقوله: ﴿**يكتُبونَ الكتابَ بِأيديهِمْ**﴾. ومن المعلوم أن الكتابة تكون باليد، لكن هذا من باب تأكيد هذه الكتابة، وأنها ليست من عند الله، بل هي بأيديهم.

ـ بيان أن هؤلاء الذين كتبوا هذا الكتاب بأيديهم، وقالوا: إنه من عند الله من أجل أن يشتروا به ثمناً قليلاً وهو كل ما يكون من متعة الدنيا.

ـ أن ما يحصل من الدنيا مهما بلغ فإنه قليل بالنسبة إلى الآخرة، ولهذا جاء في الحديث: «**إنَّ موضعَ سَوْطٍ في الجنَّةِ لخيرٌ من الدنيا وما فيها. . .**»[1].

ـ أن العمل إذا ترتب عليه سيئات فإن الإنسان يُعاقب على كل سيئة ترتبت على هذا العمل السيىء، لقوله تعالى: ﴿**فويلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أيديهم وويلٌ لهم مِمَّا يكْسِبون**﴾ وإذا كان العمل السيىء إذا ترتب عليه سيئات فإن الإنسان يأثم به، فالعمل الصالح إذا ترتب عليه حسنات فإن الإنسان يُثابُ عليه، لأن رحمة الله تعالى

---

(١) الحديث رواه: الترمذي (٥/٢١٦ـ٢١٧) رقم (٣٠١٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح» وروى نحوه ابن ماجة (٢/١٤٤٨) رقم (٤٣٣٠)، ورواه الدارمي (٢/٣٣٢ـ٣٣٣).

سبقت غضبه، ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «**مَنْ سنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وأجرُ مَنْ عَمِلَ بها بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أن ينقُص مِنْ أجورِهِمْ شيءٌ . .**»[1].

ثم قال الله ـ تعالى ـ مُبَيِّناً ما ادَّعاه هؤلاء المكذبون المفترون: ﴿**وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدَاً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ هذه المقالة من مقـالـة اليهود، ادَّعوا أن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة ثم يخلفهم المسلمون فيها، وقد كذبوا فيما ادعوه في الأول وفي الثاني، فالنار لن تمسهم أياماً معدودة فحسب، بل هم خالدون مخلدون فيها إذا ماتوا ولم يدخلوا في دين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «**والَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيدِهِ لا يَسْمَعُ بي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ ولا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ ولَمْ يُؤْمِنْ بالَّـذِي أُرسِلتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[2]. فهم ـ أعني اليهود ـ من أصحاب النار مخلدون فيها إذا لم يدخلوا في دين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وثانياً: هم كاذبون في قولهم: إنكم تخلفوننا فيها، فإن المسلمين موعدهم الجنة، وهم أصحاب الجنة،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢/٧٠٥) رقم (١٠١٧).

(٢) الحديث أخرجه: الإمام مسلم في صحيحه (١/١٣٤) رقم (١٥٣).

فكـل من مات مؤمنـاً بمحمـد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، متبعـاً لشريعته فإنه من أهل الجنة، وبيَّن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن هذه الدعوة كذب بطريق السبر والتقسيم فقال: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدَاً﴾ فإن كان الأمر كذلك فإن الله لن يخلف عهده. ﴿أم تقولُونَ عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ وإذا كان كذلك فإنَّ هذه دعوى مجردة عن العلم فلا تكون مقبولة.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

ـ بيان كذب اليهود، وأنهم أهل كذب، كما أنهم أهل غدر وخيانـة، لا يفونَ بعهد، ولا يقومون بواجب أمانة، بل صفاتهم الكذب والحسد والخيانة والمكر.

ـ حسن استـدلال القـرآن في مقابلة خصومه، حيث قال: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدَاً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُـونَ﴾ وهـذه الـطريق من طرق الحجج مما يفحم الخصم، ومن نظائرها قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَـيَنَّ مَالاً وَوَلَدَاً أَطَّلَعَ الغَيْبَ أم اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدَاً كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذَابِ مَدَّاً﴾[1].

---

(١) الآيات (٧٧ ـ ٧٩) من سورة مريم.

ـ أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لن يخلف عهده، لأنه ـ جلَّ وعلا ـ أصدق القائلين وأتم المعاهدين، وأقدر على تنفيذ وعده وعهده، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ المِيْعَادَ﴾[1].

ـ أن اليهود لا يبالون إذا قالوا على الله ما لا يعلمون لنيل مآربهم وأطماعهم.

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيْئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ﴾.

هذه الآية ردٌّ لدعوى اليهود الذين قالوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامَاً مَعْدُودَةً﴾ بَيَّنَ الله فيها كذب هذه الدعوى، وأنها باطلة، لقوله: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيْئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ﴾ أي من كسب سيئة كبرى تكون سبباً لإحاطة خطيئته به حتى لا يبقى له حسنات، وذلك مثل سيئة الشرك والكفر، فهؤلاء هم أصحاب النار المخلَّدون فيها، وليسوا المسلمين كما زعم هؤلاء اليهود، وحينئذٍ يكون أحق الناس بالخلود في النار هم هؤلاء اليهود.

---

(١) من الآية ٣١ من سورة الرعد.

أحكام وفوائد هذه الآية:

- إبطال ما ادَّعاه هؤلاء اليهود الذين ادعوا أنَّهم أولياء الله، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، ثم يخلفهم المسلمون فيها.

- أن أحكام الله - عزَّ وجلَّ - الجزائية معلقة بأوصاف لا بأعيان، ولهذا قال: ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ من أي أحد من الأمم فله هذا الحكم سواء كان من العرب أم من بني إسرائيل أم من غيرهم.

- أنه لا يستحق الخلود في النار إلَّا من أحاطت به خطيئته، أما من لم تُحط به خطيئته، بأن كان عنده عمل صالح وآخر سيىء فإنه لا يكون من أصحاب النار المخلدين فيها، ولكنه تحت مشيئة الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عاقبه بذنبه، وقد يحول بينه وبين العقوبة شفاعة ممن يشفعون عند الله أو غير ذلك من الأسباب التي ترفع عنه العقوبة، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، أن العصاة من المسلمين تحت مشيئة الله إنْ شاء الله عاقبهم على معاصيهم، وإنْ شاء غفر لهم كما يدل على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[1] وقوله: ﴿مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي ما دون الشرك. وهذه الآية يذهب بعض

---

(١) من الآية ٤٨ من سورة النساء.

الناس إلى التعلّل بها، فتجده يعمل ما شاء من الذنوب، ويقول:إن شاء الله غفر لي، والذي لا يُغفر هو الشرك فنقول له: وهل تعلم أن الله شاء أن يغفر ذلك؟ ربما لا تدخل أنت تحت من شاء الله أن يغفر لهم، لأن الله لم يقل: «ويغفر ما دون ذلك» وأطلق، بل قال: «لمن يشاء» فأنت لا تعلم أنك داخل في هذه المشيئة، ولا يجوز أن تمني نفسك المحال، بل إن الحزم والعزم أن تتجنب معاصي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خوفاً من أن ينالك عقابه.

ـ أن أصحاب النار هم أهلها الذين يبقون فيها، لأن مَنْ عُذب في النار بقدر ذنوبه، ثم خرج منها لا يُعَدُّ من أصحابها في الواقع، إذ إن المصاحبة هي الملازمة، وعلى هذا يكون في الآية دليل على أن أصحاب النار مخلدون فيها تخليداً أبدياً كما جاء ذلك في آيات أخرى، فقد ذكر الله تأبيد الخلود في ثلاث آيات من كتابه فقال ـ جلَّ وعلا ـ في سورة النساء: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيْقاً. إِلَّا طَرِيْقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فيها أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً**﴾[1].

وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿**إِنَّ اللهَ لَعَنَ الكَافِرِيْنَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيْراً خَالِدِيْنَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيَّاً وَلاَ نَصِيْراً**﴾[2].

---

(١) الآيتان ١٦٨ و ١٦٩ من سورة النساء.

(٢) الآيتان ٦٤ و ٦٥ من سورة الأحزاب.

وقال الله تعالى في سورة الجن: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيْهَا أَبَدَاً﴾[1] فهذه آيات ثلاث فيها التصريح بأن أصحاب النار خالدون فيها أبداً، وبعد هذا التصريح لا يمكن أن نعارض لمجرد أقيسة عقلية، ونصوص عامة، لأن اللفظ الصريح لا يرفعه إلا لفظ صريح، ثم إن الظاهر أنه لا يمكن أن يقع لفظ صريح يخالف هذا، لأن هذا خبر، وخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يناقض بعضه بعضاً. والأحكام الشرعية يمكن أن يدخلها النسخ، أما الأحكام الخبرية فإنها لا يمكن أن يدخلها النسخ، لأننا لو جَوَّزنا نسخ أحد الخبرين بالآخر لزم منه تكذيب أحد الخبرين بالآخر، وهذا محال في كلام الله، وكلام رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ﴾.

هذه هي طريقة القرآن: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا ذكر أصحاب النار وعقوبتهم ذكر أصحاب الجنة ومثوبتهم، لأن القرآن مثان تُثنى فيه الأحكام والمعاني، ولأجل أن يكون الإنسان دائراً في عبادته بين الخوف والرجاء، يقول ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿والَّذِينَ آمَنُوا

---

(1) من الآية ٢٣ من سورة الجن.

وعَمِلوا الصَّالحاتِ﴾ آمنوا بالغيب الذي يجب الإيمان به، وقد بَيَّنَ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أركان الإيمان حين سأله جبريل عن الإيمان فقال: «. . . **أن تُؤْمِنَ باللهِ وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليومِ الآخرِ والقَدَرِ كله خيره وشرِه. . .**»[1].

وأما عملُ الصالحَات فهو القيام بالأعمال الصالحة، والعمل الصالح هو ما جمع بين وصفين: الوصف الأول: الإخلاص لله تعالى بألا يريد بعمله إلا وجه الله والدار الآخرة لا يريد شيئاً من الدنيا. والثاني: المتابعة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، بحيث يكون متأسياً به ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فإن فُقِد الإخلاص صار في عمل الإنسان إشراك، والله لا يقبل الشرك كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ربه: «**قَالَ اللهُ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالى ـ: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ. مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فيهِ مَعِيَ غيري تَركتُهُ وشِرْكَهُ**»[2] وإذا لم يكن متبعاً فيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان عملاً

---

(١) رواه ضمن حديث طويل عن عمر: مسلم في صحيحه (١/٣٦ ـ ٣٨) رقم (٨)، وأبوداود (٥/٦٩ ـ ٧٣) رقم (٤٦٩٥)، والترمذي (٥/٨ ـ ٩) رقم (٢٦١٠)، والنسائي (٨/٤٧٢ ـ ٤٧٥) رقم (٥٠٠٥)، وابن ماجة (١/٢٤ ـ ٢٥) رقم (٦٣) وغيرهم، ورواه عن أبي هريرة: البخاري في كتاب الإيمان، باب ٣٧ (١/١٥٣) رقم (٥٠).

(٢) سبق تخريجه ص ٢٣ .

بدعياً، والعمـــل البـــدعي مردود، لقـول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «مَنْ أَحْـدَثَ في أَمْرِنا هذا ما لَيسَ مِنهُ فهو ردٌّ»(1) وفي رواية: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً ليسَ علَيه أمرنا فَهُوَ ردٌّ»(2) فالعمل الصالح هو ما جمع هذين الوصفين: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ثم بينَّ ـ عزَّ وجلَّ ـ جزاء هؤلاء الذين اتصفوا بهذين الوصفين: الإيمان والعمل الصالح فقال: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فيها خَالِدُونَ﴾ الجنة: هي الدار التي أعدَّها اللهُ للمتقين، وفيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فوائد الآية الكريمة:

ـ بيان جزاء المؤمنين الذين عملوا صالحاً، وهو أنهم مخلدون في الجنة.

ـ أنه لا يتم دخول الجنة إلا بهذين الأمرين: الإيمان والعمل، فالإيمان وحده لا يكفي، والعمل وحده لا يكفي، لا بد من إيمان

---

(1) انـظر: فتح الباري (٤/٤٤٦) و (١٣/٣٩١)، وصحيح مسلم (٣/١٣٤٣) حديث رقم (١٧١٨)، وسنن أبي داود (٥/١٢) رقم (٤٦٠٦)، وسنن ابن ماجة (١/٧) رقم (١٤).

(2) سبق تخريجه ص ٦٤ .

وعمل، ولهذا ينبغي أن نركز في خطابنا في الوعد والدعوة إلى الله على الأمرين جميعاً: على الإيمان الذي هو أساس العقيدة، وعلى العمل الصالح الذي به تتم هذه العقيدة.

- أن العمل لا ينفع إلا إذا كان صالحاً، وهو ما جمع بين الإخلاص والمتابعة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما أسلفنا في تفسيرنا لهذه الآية.

- بطلان العمل الذي فيه الشرك، لأن الله اشترط لتأثير العمل واستحقاق الجزاء عليه أن يكون عملاً صالحاً.

- أن أهل الجنة مخلدون فيها، وتخليدهم أبدي كما دلَّت على ذلك آيات كثيرة، وأجمع عليه سلف الأمة.

ثم قال الله تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيْثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبالوالِدَين إِحْسَاناً وَذِي القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِين وَقُولُوا للنَّاس حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تولَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾**.

قوله: **﴿وإِذْ أَخَذْنَا مِيْثَاقَ﴾** الضمير في قوله: **﴿أَخَذْنَا﴾** راجع إلى الله - عزَّ وجلَّ - وجاء بهذه الصيغة تعظيماً لله، لأنه - سبحانه وتعالى - يعبر عن نفسه أحياناً بصيغة الجمع وأحياناً بصيغة واحد، والتعبير بصيغة الجمع للدلالة على العظمة، وذلك

لأن ضمير الجمع تارةً يُرادُ به الجمع الذي هو العدد، وتارةً يُرادُ به التعظيم كما في هذه الآية: ﴿وإِذْ أَخَذْنَا مِيْثَاقَ بني إِسْرَائيلَ﴾ والميثاق هو العهد، وسُمي ميثاقاً؛ لأنه توثقة بين المتعاهدين، وبنو إسرائيل هم بنو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عم للعرب، لأن العرب من ذرية إسماعيل، وبنو إسرائيل من ذرية إسحاق، وإسماعيل وإسحاق أخوان، أبوهما إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ. هذا الميثاق هو أولاً ألا يعبدوا إلا الله، لا يعبدون ملكاً ولا رسولاً ولا حجراً ولا شجراً ولا غير ذلك مما سوى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وثانياً: أن يحسنوا إلى الوالدين بالبر إليهما، وعدم العقوق، وثالثاً: أن يحسنوا إلى ذوي القربى بالصلة وعدم القطيعة، ورابعاً: أن يحسنوا إلى اليتامى وهم الذين ماتت آباؤهم قبل أن يبلغوا ويشمل الذكور والإناث من الأيتام، وخامساً: الإحسان إلى المساكين وهم الفقراء المعدمون، وسموا بذلك، لأن الفقر أسكنهم وأذلهم، فإن الفقر يوجب سكون الإنسان وذله. نسأل الله أن يغنينا بفضله عن خلقه. وسادساً: أن يقولوا للناس حسناً، وهذا يشمل المخاطبة فيما بينهم وبين الناس، ويشمل ما يدعون الناس إليه مما يكون شريعة، بحيث لا يقولون للناس إلا ما هو حسن، ولا يكون المدعو إليه حسناً إلا إذا كان موافقاً لشريعة الله، وسابعاً: إقامة الصلاة أي أداؤها على الوجه الذي أمر الله به، وثامناً: إيتاء الزكاة أي إعطاء ما يجب إعطاؤه من المال إلى أهله،

ولكن هل قام هؤلاء الذين أُخذ عليهم الميثاق بذلك؟ يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ﴾ والخطاب في قوله: ﴿توليتم﴾ لبني إسرائيل الموجودين في عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا قليلاً منهم، فإنهم قاموا بهذا العهد، وآمنوا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثل عبدالله بن سلام، والنجاشي. وعبدالله بن سلام من اليهود، والنجاشي من النصارى، فهذان وأمثالهما ممن لم يتولوا بل قاموا بالعهد والميثاق على ما عاهدوا عليه، وواثقوا عليه، ثم قال: ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي أنهم تولوا وهم معرضون، ليس فيهم شيء من الإقبال على ما جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

ـ بيان عتو بني إسرائيل، وأنهم مع العهود والمواثيق لا يفون.

ـ التحذير مما وقع فيه هؤلاء من مخالفة الميثاق، وعدم الوفاء به، لأن الله تعالى إذا ذكر أخبار من سبق فإنه لا يذكرها على سبيل التلهي بها والنظر المجرد، ولكنه يذكرها ـ عزَّ وجلَّ ـ من أجل أن نعتبر بها، وأن نأخذ منها عبرة، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[1].

---

(١) من الآية ١١١ من سورة يوسف.

- أن الدعوة للإخلاص في جميع الأمم؛ لقوله: ﴿لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ﴾ وهذه الدعوة جاء بها كل الرسل - عليهم الصلاة والسلام - كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[1] وكما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فاعْبُدُونِ﴾[2].

- وجوب الإحسان إلى الوالدين. والإحسان يكون بالقول، ويكون بالفعل، فالإحسان بالقول معناه أن يُلين الإنسان لهما قوله، وأن يكون قولاً كريماً طيباً سمحاً، والإحسان بالفعل يكون ببذل المال. وبخدمة البدن وغير ذلك مما يكون إحساناً والآية مطلقة ﴿وبِالوالِدَينِ إِحْسَاناً﴾ وليعلم أن أحق الوالدين بالصحبة هي الأم كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - حين جاءه رجل فقال: «يا رسولَ الله مَنْ أحقُّ الناس بِحُسْن صحابتي[3]؟ قال: (أُمُّكَ)، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: (أُمُّكَ)، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: (أُمُّكَ)، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قال: ثُمَّ أبُوكَ»[4] ولكن هذا لا يعني ألا نعطي الأب حقه،

---

(١) من الآية ٣٦ من سورة النحل.

(٢) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء.

(٣) الصحابة هنا بمعنى الصحبة.

(٤) الحديث رواه: البخاري (١٠/٤٩١) رقم (٥٩٧١)، ومسلم (٤/١٩٧٤) رقم (٢٥٤٨)، وابن ماجة (٢/٩٠٣) رقم (٢٧٠٦).

بل له حق وللأم حق، لكن لما كانت الأم أنثى والغالب عليها الضعف، وأنها تحتاج إلى لينٍ أكثر صارت أحق الناس بصحبة الولد.

والإحسان للوالدين بالفعل يكون ببذل ما يحتاج إليه الوالدان من المال من نفقة وكسوة وغير ذلك بقدر المستطاع، ويكون أيضاً بالبدن وهو القيام بخدمة الوالدين حينما يحتاجان لذلك، ولهذا قال الله تعالى: **﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيْمَاً واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيْرَاً﴾**[1].

ـ وجوب الإحسان إلى ذي القربى، أي إلى أصحاب القرابة سواء أكانوا من قبل الأم أم من قبل الأب. والإحسان إليهم يكون كالإحسان إلى الوالدين، أي بالقول وبالفعل، ولكن الإحسان إلى الوالدين أوكد وأعظم، لأنهم أقرب القربى إليك.

ـ وجوب الإحسان إلى اليتامى، وهم الذين ماتت آباؤهم قبل أن يبلغوا، وذلك لأن هذا اليتيم قد انكسر قلبه بفقد أبيه وراعيه، فكان من رحمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحكمته أن أوصى بالإحسان إليه.

ـ وجوب الإحسان إلى المساكين عند الضرورة إلى ذلك،

---

(١) من الآية ٢٣، والآية ٢٤ من سورة الإسراء.

ومشروعيته على سبيل الاستحباب إذا لم يكن هناك ضرورة، وذلك لأن المساكين قد أسكنهم الفقر وأذلهم، فهم بحاجة إلى من يجبرهم بالإحسان إليهم، ولهذا وصَّى الله بذلك، وجعله من العهود والمواثيق على بني آدم.

ـ وجوبُ القول الحسن في مخاطبة الناس، وفي دعوتهم، لقوله تعالى: **﴿وقولُوا للنَّاس حُسْنَاً﴾** والظاهر ـ والله أعلم ـ أن القول الحسن ـ إن كان المراد بضد القول السيىء ـ فإن القول الحسن هنا يكون واجباً، أي أنه يجب على الإنسان أن يخاطب الناس بما لا يسيء إليهم، بل بما يكون فيه منفعتهم الدينية والدنيوية. ومن القول الحسن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله، فإن هذا كله من القول الحسن، وضده القول السيىء الذي يكون به الإساءة والعدوان على الناس، فإنه مُحَرَّمٌ.

ـ وجوبُ إقامة الصلاة، أي الإتيان بها على الوجه المشروع إلزاماً في الواجبات، وندباً في المستحبات، والصلاة معروفة، وهي موجودة في جميع الملل كما يفيده قوله تعالى: **﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ واسْجُدِي وارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾**[1] وكما تفيد هذه الآية الكريمة من أن بني إسرائيل قد أُخذ عليهم الميثاق بأن يقيموا الصلاة.

---

(١) الآية ٤٣ من سورة آل عمران.

- وجوبُ إتيان الزكاة، وهي القدر المفروض في المال الزكوي يؤتى إلى أهل الزكاة لا إلى غيرهم.

- بيان عتو بني إسرائيل، وأنهم - مع هذا العهد والميثاق على هذه الخصـال الحميدة - لم ينقادوا لهذا العهد، ولم يفوا به، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ﴾.

- بيان عدل الله - عزَّ وجلَّ - ، وذلك باستثناء هؤلاء القليل ممن تولى، إذ لم يحكم بالتولي على جميع بني إسرائيل، وإنما حكم به على من قام به واستحقه، وهذا من كمال عدل الله - عزَّ وجلَّ - .

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن بني إسرائيل مع توليهم ونكثهم لهذا الميثاق كانوا مُعرضين عن الحق، غير متجهين إليه، فجمعوا بين الانحراف القلبي والانحراف البدني.

ثُمَّ قال الله - تعـالى - : ﴿وَإِذْ أَخَـذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَـاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُـونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَـارِكُمْ ثُمَّ أَقْـرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ. ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَـادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ وما اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

بَيَّنَ اللهُ ـ تعالى ـ في هاتين الآيتين أنه أخذ ميثاقاً آخر على بني إسرائيل، وهو عدم العدوان من بعضهم على بعض، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيْثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ قوله: ﴿لا تَسفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ يعني لا تريقونها بالقتل. وإنما أضاف الدماء إليهم والإخراج إلى الأنفس، لأن الأمة الواحدة كأنها نفس واحدة، فإخراج بعضهم يكون كإخراج أنفسهم هم، ولهذا قال: ﴿ولا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي من كان منكم من دياركم ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي أنكم مقرون بهذا الميثاق، شاهدون به، ولكن هل استمروا عليه؟ والجواب: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤلاء تقتلونَ أنفسَكُمْ وتُخْرِجُونَ فَرِيقَاً مِنْكُمْ من دِيَارِهم﴾ فلم تفوا بالميثاق، بل قتلتم أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم وأخرجتموهم على وجه من العلو والاستكبار عليهم ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بالإِثمِ والعدوان﴾ ومع ذلك إذا أتوكم أسارى فاديتموهم، يعني لو أُسروا فإنكم تحرصون على أن تفادوهم مع أن إخراجهم في الأصل حرام عليكم، ففي هذا الفعل تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، تؤمنون ببعض الكتاب مثل إنقاذ من أُسر منكم بالمفاداة ﴿وَتَكْفُرُونَ ببعض﴾ مثل قتل بعضكم بعضاً وإخراج بعضكم بعضاً من ديارهم ﴿فما جزاءُ مَنْ يفعلُ ذَلِكَ منكم إلا خزيٌ في الحياة الدنيا﴾ جزاء: أي مجازاته ومكافأته على عمله، وقوله: ﴿يفعلُ ذَلِكَ منكم﴾ احتراز من العموم، لأنه ليس

كلهم يفعلون هذا، ولكن من يفعل هذا فهذا جزاؤه الخزي في الحياة الدنيا وبيان عيبه ﴿**ويوم القيامةِ يُرَدُّونَ إلى أشدِّ العذاب وما الله بغافلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ وإنما يردون إلى أشد العذاب، لنكثهم العهد والميثاق الذي بينهم وبين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ثم ختم الله الآية ببيان كمال علمه ومراقبته في قوله: ﴿**وما اللهُ بِغَافلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾.

فوائد وأحكام هاتين الآيتين:

ـ العدول عن الكلام بصيغة الغيبة إلى الكلام بصيغة الخطاب، لأنه أشد وأوقع في النفس، ففي الآية التي سبقت هاتين الآيتين يقول الله تعالى: ﴿**وإذْ أَخَذْنَا ميثاقَ بني إسرائيل**﴾ وهنا يقول: ﴿**وإذْ أَخَذْنَا ميثاقكم لا تَسْفِكُونَ دماءَكُمْ**﴾ فعدلَ من الكلام بالغيْبة إلى الكلام بالخطاب، لأنه أبلغ وأشد.

ـ تحريم الدماء في الأمم السابقة كما هو محرم في هذه الشريعة وقد أعلن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا التحريم في أكبر مجتمع اجتمع به مع أمته، وذلك في حجة الوداع، حيث سألهم: أي يوم هذا؟ وأي شهر هذا؟ وأي بلد هذا؟ ثم قال: «**فإنَّ دماءَكُمْ وأموالكم وأعراضكم بينكم حرامٌ كحرمةِ يَوْمِكُمْ هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا**»[1].

---

(١) رواه: البخاري (١/٢٠٩) رقم (٦٧)، ومسلم (٣/١٣٠٥ ـ ١٣٠٦) رقم (١٦٧٩)، والترمذي (٤/٤٠١) رقم (٢١٥٩) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجة (٢/١٠١٥) رقم (٣٠٥٥)، والدارمي (٢/٦٧-٦٨).

والـدمـاء من أعـظم العدوان حرمة وجزاء، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدَاً فِيها وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً﴾[1] وقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - : «**أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء**»[2].

- تحريم إخراج الإنسان من بلده إلا بمقتضى الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تُخرجونَ أَنفسَكُمْ مِنْ دياركم**﴾.

- استعـمال ما يوجب العطف والحنان والرحمة في الخطاب؛ لقوله: ﴿**لا تَسْفِكُونَ دماءكم ولا تُخرجونَ أنفسكم**﴾ حيث جعل دمـاء الغـير كدمـاء الإنسان نفسه، وجعل إخراج الغير كإخراج الإنسان نفسه.

- بيان عتـو بني إسرائيل، حيث إنهم أقـروا بهذا الميثـاق، وشهدوا به، ولكنهم لم يقوموا بتطبيقه والعمل به.

- التحذير من العمل بما عمل به هؤلاء من أخذ الميثاق بين العبد وبين ربه، ثم بعد ذلك ينكثه، ولا يفي به.

---

(١) الآية ٩٣ من سورة النساء.

(٢) رواه البخاري (١١/٤٨١) رقم (٦٥٣٣)، ومسلم (٣/١٣٠٤) رقم (١٦٧٨)، والترمذي (٤/١١) رقم (١٣٩٧)، والنسائي (٧/٩٦) رقم (٤٠٠٤)، وابن ماجة (١/٨٧٣) رقم (٢٦١٧).

- أن هؤلاء الذين لم يطبقوا الميثاق وصاروا يقتلون أنفسهم، ويخرجـون فريقاً منهم من ديارهم يعدون مؤمنين ببعض الكتاب وكـافرين ببعض. والإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه كفر به جميعاً؛ لقوله: ﴿فما جزاءُ مَنْ يفعلُ ذلكَ منكم إلَّا خزيٌ في الحياةِ الـدنيا ويوم القيامة يُرَدُّونَ إلى أشدِّ العَذَابِ﴾ وأشد العذاب لا يكون إلا للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿إنَّ الَّذينَ يَكْفُرُونَ بالله ورُسُلِه وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ويُرِيْدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبيلاً أُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقّاً﴾ فبيَّنَ اللهُ أنَّ هؤلاء الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض كافرون حقاً. وهذه مسألة خطيرة عظيمة، لأن بعض الناس يؤمن ببعض الشريعة ويكفر ببعضها، ثم يقول: إنه مؤمن باعتبار أصل عقيدته، وهذا لا ينفعه، فلا بد في الإيمان من أن يكون إيماناً شاملاً لكل ما جاءت به الشريعة.

- تنـاقض بني إسرائيل حيث إنهم يخرجـون فريقاً منهم من ديارهم متعـالـين عليهم بالإثم والعـدوان، ثم إذا أتوهم أسارى فادوهم، وهذا تناقض، كيف يخرجونهم من ديارهم، ثم يفادونهم إذا أتوهم أسرى؟

- أن عمـل بني إسرائيل من الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه كان سبباً لهذه العقوبة العظيمة، أنهم يخزون في هذه الدنيا، وفي يوم القيامة يردون إلى أشد العذاب.

ـ بيان عدل الله ـ عزَّ وجل ـ في الاحتراز من العموم إذا لم يكن الحكم عامَّـاً، ولهذا قال: **﴿فما جزاءُ من يفعلُ ذلك منكم﴾** ولم يقل: «فما جزاؤكم» مع أن الخطاب في الأول كان للجميع حيث قال: **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُم﴾** وقال: **﴿ثُمَّ أنتم هَؤُلاء تقتلُونَ أنفسكم﴾** ثم قال: **﴿فما جزاءُ مَنْ يفعلُ ذلك منكم﴾** وهذا من باب الاحتراز الدال على كمال عدل الله ـ عزَّ وجل ـ حتى في التحدث عن الغير.

ـ أنه يجب على الإنسان مراعاة العدل فيما يخاطب به غيره، فلا يتكلم عن أمة في مدح أو قدح على سبيل العموم إذا لم تكن كذلـك، ولا يتكلم أيضاً عن أفعال الشخص المعين من قدح أو مدح على سبيل العموم إذا لم يكن كذلك، لأن هذا هو الحق والعدل.

ـ أن العذاب مراتب، بعضه أشد من بعض، لقوله: **﴿إلى أشد العذاب﴾**.

ـ إثبات الصفات المنفية في صفات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بمعنى أن الله موصـوف بالإثبات وموصوف بالنفي في قوله تعالى: **﴿وما الله بِغَافِلٍ عَمَّا تعملون﴾**. لكن لِيُعْلم أن الصفات المنفية عن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يراد بها مجرد النفي، وإنما يُرادُ بها بيان كمال ضدها، فإذا قال: **﴿وما الله بغافلٍ عَمَّا تعملون﴾** كان دالاً على كمال علمه،

وكمال مراقبته لعباده ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وأنه ليس بغافل عنهم .

ـ بيان كمال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في عموم علمه ومراقبته ؛ لقوله : ﴿**وَمَا اللهُ بغافلٍ عما تعملون**﴾ لأن «ما» من صيغ العموم ، والعموم في اسم الموصول أو غيره يدل على السعة والشمول .

ثُمَّ قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الحَيَاةَ الدُّنيا بالآخِرةِ فلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ**﴾ .

الإشارة في قوله : ﴿**أولئك**﴾ إلى هؤلاء الذين نكثوا العهد من بني إسرائيل ، فبيَّن اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ أنَّ هؤلاء الذين نكثوا العهد إنما نكثوه لأغراض الدنيا وأعراضها ، ولذلك قال : ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشتروا الحياةَ الدنيا بالآخِرة**﴾ أي أخذوا الدنيا بدلاً عن الآخرة ، وهؤلاء حكمهم في الآخرة أنه لا يُخففُ عنهم العذاب ولا هم ينصرون ؛ لأنهم ماتوا وهم ناكثون لعهد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ .

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة :

ـ بيان أن من خالف أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإنما يخالفه لغرض من الدنيا .

ـ سفه هؤلاء الذين نكثوا عهد الله ، حيث اختاروا الدنيا على الآخرة مع أن الآخرة خير وأبقى كما قال تعالى : ﴿**بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياةَ**

الدُّنيا والآخرةُ خيرٌ وأَبْقَى﴾[1].

ـ التحذير من اختيار الدنيا على الآخرة، ومن ذلك أن يتعامل الإنسان مع الناس بمعاملات محرمة كالربا والغش والكذب وغير ذلك من أجل أن ينال عَرَضاً من الدنيا، فإن هذا من السفه والخطأ، لأن الدنيا زائلة فانية والآخرة هي الباقية، وقد حَذَّر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هذه الفتنة في قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : **«بادروا بالأعمال فِتَناً كقطعِ الليلِ المُظْلِم . يُصبحُ الرجلُ مؤمناً ويمسي كافراً. أو يمسي مؤمناً ويصبحُ كافراً يبيعُ دينَهُ بِعَرَضٍ من الدنيا»**[2].

ـ إثبات العذاب والجزاء، وأن من اشترى الحياة الدنيا بالآخرة لا يخفف عنه العذاب، لأنه اختار الدنيا على الآخرة فيبقى مخلداً في النار لا يُخفف عنه العذاب، وليُعْلَم أن أصحاب النار يقولون لمالك: **﴿يا مالك لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ﴾**[3] ويقولون لخزنة جهنم: **﴿ادعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ العذاب﴾**[4] فأما جواب

---

(١) الآيتان ١٦ و ١٧ من سورة الأعلى.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١/ ١١٠) رقم (١١٨)، والترمذي (٤/ ٤٢٢) رقم (٢١٩٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) من الآية ٧٧ من سورة الزخرف.

(٤) من الآية ٤٩ من سورة غافر.

مالك لهم فهو قوله: ﴿إِنَّكُمْ ماكِثُونَ﴾[1] وأما جواب خزنة النار فهو قولهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالبَيِّنَاتِ قالُوا بَلَى قالُوا فادعُوا وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلَّا في ضَلَالٍ﴾[2].

ـ أن أصحاب النار الذين هم أهلها لا تنفع فيهم الشفاعة، لقوله تعالى: ﴿وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ والشفاعة نوع من النصر، ولكن هؤلاء المستحقون الخلود في النار لا تنفع فيهم الشفاعة كما قال الله تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شفاعةُ الشَّافِعِينَ﴾[3].

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بالـرُّسُلِ وآتَيْنَا عِيْسَى بنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيْقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾.

يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في هذه الآية إنه أعطى موسى الكتاب وهو التوارة، ويؤكد ذلك الإعطاء بالقسم المقدر واللام وقد، وهذا الكتاب الذي أوتي موسى لم يكن آخر كتاب نزل على بني إسرائيل، بل إن الله ـ تعالى ـ قَفَّى من بعده بالرسل فأرسل إلى بني إسرائيل

(١) من الآية ٧٧ من سورة الزخرف.
(٢) من الآية ٥٠ من سورة غافر.
(٣) الآية ٤٨ من سورة المدثر.

الـرسـل تبـاعـاً، وختم رسل بني إسرائيل بعيسى ـ عليه الصلاة والسـلام ـ فقـال الله ـ عزَّ وجـلَّ ـ : ﴿وَآتَيْنَا عِيْسَى بنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ﴾ أي الآيات البيِّنات، وهي ما حصل من حمل أمه به من غير أب، ومن نطقـه في المهد، ومما جاء به من إخراج الموتى من قبورهم، وإحياء الموتى قبل الدفن، وإبراء الأكمه والأبرص ـ بإذن الله ـ . كل هذه الآيات التي جاء بها آيات بينات، لكن فيها آيات سبقت وجوده ـ أي وجود عيسى ـ ، وآيات بعد وجوده ورسالته، ومع هذا فإن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع أنه أوتي البينات ـ قد أيده الله ـ تعالى ـ بروح القدس، وهو جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، أيَّد اللهُ به عيسى أي قوَّاه به ونصره. ثم قال مخاطباً بني إسرائيل وموبخـاً لهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جاءَكُمْ رسـولٌ بما لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ يعني أفتبلغـون إلى هذا الحـال إذا جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم وإذا جاءكم رسول بما تهوى أنفسكم قبلتم. ولكن هذا الأخير قد لا تدل عليه الآية الكريمة، لأن جميع الرسل الذين جاؤوا إلى بني إسرائيل جاؤوا بما لا تهواه أنفسهم، ثم انقسم بنـوإسرائيل بالنسبة إلى هؤلاء الرسل ففريقاً كذبوا وفريقاً قتلوا، وآخر من كذبوه هو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فإنهم كذبـوه بعـد أن جاءهم بالبينـات حتى كانـوا يعرفونه كما يعرفون أبنـاءهم، ولكنهم استكـبروا، ولم يقبلوا ما جاء به، بل عاهـدوه ونقضوا العهد معه، وقاتلوا أصحابه، وما زالوا إلى يومنا هذا أعداء

لأتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿فَفَرِيْقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ بَيَّنَ الله - عزَّ وجلَّ - حال بني إسرائيل مع الرسل أنهم على هذين القسمين: إما أن يكذبوا وإما أن يقتلوا. فتكذيبهم تكذيب بالحق، وقتلهم قتل بغير حق كما قال الله - تعالى - في آية أخرى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بغيرِ حق﴾[1].

فوائد هذه الآية الكريمة:

- بيان ما منَّ الله به على موسى - صلى الله عليه وسلم - من إتيان الكتاب، وموسى - عليه الصلاة والسلام - هو أفضل أنبياء بني إسرائيل، والتوراة هي أعظم الكتب النازلة على بني إسرائيل، ولهذا يقرن الله - تعالى - بينها وبين القرآن أحياناً، لأن القرآن أفضل الكتب المنزلة على الأنبياء، والتوراة أفضل الكتب المنزلة على بني إسرائيل.

- إثبات نبوة موسى - صلى الله عليه وسلم - لقوله: ﴿وَلَقَد آتينا مُوسَى الكِتابَ﴾.

- أن الله - سبحانه وتعالى - لم يهمل الخلق بلا رسل فإنه قفَّى من بعد موسى بالرسل تباعاً من أجل هداية الناس. وقد قال الله

---

(١) من الآية ٢١ من سورة آل عمران.

ـ تعالى ـ : ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(١) فكل أمة خلا فيها نذير؛ لتقوم الحجة على العباد، فإن العباد إذا لم يأتهم رسل قد يكون لهم حجة على ربهم ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ولكنه ـ سبحانه وتعالى ـ منع هذا الاحتجاج بإرسال الرسل كما قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِيْنَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(٢).

ـ أن الله أعطى عيسى بن مريم بينات من الأمر تبين رسالته، وأنه عبد الله ورسوله، والبينات هذه شاملة جميع الرسل، فما من رسولٍ إلا آتاه الله ما على مثله يؤمن البشر كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾(٣).

ـ بيان حكمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، حيث إنه ـ جلَّ وعلا ـ إذا أرسل الرسل جعل معهم بينات تشهد لهم بالصدق، وهذا من كمال حكمته، وكمال رحمته أيضاً، لأنه لو جاء رسول من الخلق دون أن تكون معه آية تدل على صدقه لم يقبل الناس منه، ولكن الله تعالى ـ بحكمته ورحمته ـ جعل مع كل رسول آية تدل على صدقه، وأنه رسول الله حقاً.

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة فاطر.

(٢) من الآية ١٦٥ من سورة النساء.

(٣) من الآية ٢٥ من سورة الحديد.

ـ مِنَّةُ الله على عبده ورسوله عيسى بن مريم حيث أيَّده بروح القدس جبريل.

ـ ومن فوائدها بطلان دعوى النصارى ألوهية عيسى بن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لأنه أُيِّد بروح القدس، ولو كان إلهاً لم يحتج إلى تأييد أحد، ولكنه عبدالله ورسوله كما قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«مَنْ شَهدَ أَنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأنَّ مُحَمَّداً عبده ورسولُهُ وأن عيسى عبدُ الله ورسولُهُ وكلمتهُ ألقاها إلى مريم وروحٌ منه. . .»**[1] وقد تَبَرَّأَ عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من دعوى من ادَّعى أنه إله معبود مستحق للعبادة في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين يسـأله الله يوم القيامة، حيث قال تعـالى: **﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يا عِيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّـاس اتَّخِـذُوني وأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ الله قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا في نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا في نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوب مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَني بِهِ أَنِ اعبُدوا اللهَ رَبِّي وربَّكُم وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيْدَاً مَا دُمْتُ فِيْهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيْبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيْدٌ﴾**[2].

---

(١) رواه: البخاري (٦/٥٨٦) رقم (٣٤٣٥)، ومسلم (١/٥٧) رقم (٢٨) وغيرهما.

(٢) الآيتان ١١٦ و ١١٧ من سورة المائدة.

- إثبات الملك الكريم جبريل - عليه الصلاة والسلام - الذي وصفه الله بأنه روح القدس في هذه الآية وفي غيرها، قال الله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾[1].

- بيان أن بني إسرائيل لا يقبلون ما جاءت به الرسل، بل كلما جاءهم رسول - أي بما لا يعتقدون أنه حق - استكبروا.

- أن بني إسرائيل انقسموا في جانب الرسل إلى قسمين: فريق كذب الرسل، وفريق قتلوهم لقوله: ﴿فَفَرِيقاً كَذَّبْتُم وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيْلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وقالوا﴾ الضمير يعود على بني إسرائيل، لأن هذه الآيات كلها في التحدث عنهم. ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي مغلفة لا يصل إليها ما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - من الحق، فبيَّن اللهُ - عزَّ وجلَّ - بطلان دعواهم هذه في قوله: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي أن الله طردهم وأبعدهم عن رحمته بكفرهم فران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، وإذا ران على القلب عمل العبد فإنه لن يصل إليه

(١) من الآية ١٠٢ من سورة النحل.

الخير، يُطبع على قلبه فلا يصل إليه الخير فيظن أن قلبه لم يُخلق منفتحاً لهذا الخير ويَدَّعي أن قلبه أغلف. ثم قال تعالى: ﴿فَقَلِيلًا ما يُؤْمِنُونَ﴾ أي أن إيمانهم قليل بسبب لعنة الله لهم.

فوائد هذه الآية الكريمة:

- أن بني إسرائيل يدَّعون ما ليس بحق حينما يدعوهم النبي - صلى الله عليه وسلم - أو غيره من أنبيائهم فيقولون: إن قلوبهم غلف. يعني مغلفة لا يصل إليها ما يدعونهم إليه، ووجه إبطال هذا قوله: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي بل ليس الأمر ما يدَّعون، وإنما الأمر أنهم كفروا فلعنهم الله فلا يصل إلى قلوبهم الخير.

- بيان عقوبة الله لهؤلاء باللعنة وهي الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

- إثبات الأسباب، لقوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾.

- أن الكفر - والعياذ بالله - يوجب انطماس القلب، والطبع عليه، بحيث لا يصل إليه الخير، لقوله: ﴿بَلْ لَعَنهم اللهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

- أن بني إسرائيل يقل فيهم الإيمان، والقلة هنا إما أن يكون المراد بها العدم، لقوله: ﴿فقليلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾ وإما أن يراد بها أنه

قد ترد على قلوبهم أحياناً واردات يكون فيها شيء من الإيمان، ولكنه شيء قليل لا يصل إلى إزالة الكفر عن هذه القلوب.

ثم قال الله تعالى: **﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ﴾**.

يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ **﴿لما جاءَهم كِتَابٌ مِنْ عندِ اللهِ﴾** المراد به القرآن، وهو من عند الله، لأن الله تعالى تكلم به وتلقاه جبريل، ثم نزل به على قلب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ **﴿مُصَدِّقٌ لما مَعَهُم﴾** أي أن هذا القرآن مصدق ما معهم من الكتب، وتصديق القرآن لما معهم من الكتب على وجهين: الوجه الأول: أنه حكم بصدق هذه الكتب السابقة، وأوجب على الناس أن يؤمنوا بها، وهذا يعني أنه قال: إنها صادقة.

والوجه الثاني من التصديق: أن الكتب السابقة أخبرت به فجاء مصدقاً لما أخبرت به مطابقاً له، وكلا الوجهين حق، جاءهم هذا الكتاب من عند الله مصدقاً لما معهم. **﴿وكانُوا مِنْ قبلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُوا﴾** يعني أن هؤلاء اليهود كانوا من قبل يستنصرون عليهم بالرسول الذي وُعدوا به، وكانوا يقولون للكافرين: إنه سيبعث نبي، وسنكون من أتباعه، وسننتصر عليكم. **﴿فلما جَاءَهُم ما عَرَفُوا﴾** أنه الحق وأنه الرسول الذي كانوا

ينتظرونه ﴿كفرُوا بِهِ﴾ لم يقبلوا ما جاء به. ﴿فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ يعني أن هؤلاء لما كفروا بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي عرفوه كما يعرفون أبناءهم استحقوا اللعنة من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وهي الطرد والإبعاد عن رحمة الله. وهنا قال: ﴿فلعنةُ اللهِ عَلَى الكافِرِينَ﴾ ولم يقل: «فلعنة الله عليهم» والإظهار في موضع الإضمار له فوائد منها: الحكم على مرجع الضمير بهذا الوصف الظاهر الذي حلَّ محل الضمير، ومنها: إرادة التعميم فمثلاً لو قال: «فلعنة الله عليهم» لم تشمل غيرهم، ولكن إذا قال على الكافرين شملتهم، وشملت غيرهم من الكفار، ثم لو قال: «فلعنة الله عليهم» لم يتبين أنهم كفار بهذا الكفر، ولكنه قال: ﴿فلعنةُ اللهِ على الكَافِرين﴾ ليحقق بذلك اتصافهم بالكفر.

فوائد هذه الآية الكريمة:

ـ أن بني إسرائيل قد امتد طغيانهم وعتوهم وتكذيبهم للأنبياء حتى آخر الأنبياء وخاتمهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ـ أن القرآن الذي جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عند الله ليس منقولاً عليه.

ـ إثبات كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، لأن القرآن كلام بلا شك، فإذا كان من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ دلَّ هذا على أنه كلامه، وهذا هو ما يذهب إليه أهل السنة والجماعة من أن القرآن كلام الله،

حروفه ومعانيه، وأنه منزَّل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود.

- الثناء على كتاب الله - عزَّ وجلَّ - القرآن، لكونه مصدقاً لما سبقه من الكتب لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٌ لما معهم﴾.

- أن الحجة على بني إسرائيل كانت معهم، وبين أيديهم، فكتبهم كلها ناطقة متحدثة عن هذا القرآن الكريم، مصدقة له، مخبرة به، ومع ذلك كفروا به عتواً وطغياناً.

- بيان الحسد العظيم في بني إسرائيل، حيث كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ظناً منهم أن النبي الذي تحدثت عنه كتبهم سيكون من بني إسرائيل فلما تبين أنه من بني إسماعيل كفروا به، قال - تبارك وتعالى - : ﴿ودَّ كثيرٌ مِنْ أهل الكِتاب لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ﴾(١).

- أن بني إسرائيل كفروا عن عناد وبيان؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم ماعرفوا كَفَروا بِهِ﴾.

- ومن فوائدها أن الكفر عن معرفة أشد من الكفر عن جهل؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم ما عَرفوا﴾ ولم يقل: «فلما جاءهم الرسول» أو «جاءهم صاحب هذا الكتاب» أو ما أشبه ذلك بل قال: ﴿فلما جَاءَهُم ما عَرفُوا﴾ بياناً لشناعة ما حصل منهم.

---

(١) من الآية ١٠٩ من سورة البقرة.

- أن بني إسرائيل لما كفروا استحقوا اللعنة التي أوجبها الله - سبحانه وتعالى - على كل كافر، أي أن لعنة الله حاقة على كل كافر، ولهذا قال: ﴿فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ﴾.

ثم قال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿بِئْسَ مَا اشْتَرَوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

يبين الله - سبحانه وتعالى - قبح ما ذهبوا إليه، لكونهم اختاروا لأنفسهم الكفر بما أنزل الله حسداً وبغياً منهم أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فإنهم حسدوا العرب حينما كان النبي - صلى الله عليه وسلم - منهم واختاروا لأنفسهم الكفر على الإيمان، قال الله - تعالى - : ﴿فَبَاءوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ أي أنهم أتوا بغضب على غضب، وهذا لا يعني أنهم باءوا بغضبين فقط، بل بأكثر، فهم استحقوا غضب الله - عزَّ وجلَّ - بعبادة العجل في زمن موسى - عليه الصلاة والسلام - ، وبتكذيب محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فهم باءوا بغضب على غضب، أي رجعوا به - والعياذ بالله - والغضب الذي رجعوا به هو غضب من الله - سبحانه وتعالى - ثم قال: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مهينٌ﴾ وهذه عامة وأول من يدخل بها هؤلاء الذين كفروا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ، واختاروا لأنفسهم الكفر، وإنما قال: ﴿عذابٌ مهينٌ﴾ لأنهم كفروا

استكباراً وتعاظماً وعلواً، فكان جزاؤهم هذا العذاب الذي يهينهم ويلحقهم الذل والهوان.

فوائد هذه الآية الكريمة:

- قُبح ما اختاره هؤلاء المكذبون لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - من بني إسرائيل، لقوله: ﴿**بِئْسَ ما اشْتَرَوا بِهِ أَنْفُسهم**﴾.

- إثبات أن ما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - من عند الله لقوله: ﴿**بما أنزلَ اللهُ**﴾.

- أن الذي حملهم على ذلك هو البغي والعدوان، وهذا من طبيعة بني إسرائيل، أنهم بغاة عتاة متمردون على الحق.

- بيان أن العلم الذي يهبه اللهُ إلى الشخص في شريعة الله من فضله، بل هو أعظم فضل يمن اللهُ به على العبد بعد هدايته لدينه أن يرزقه الله - تعالى - العلم، والعلم أفضل من المال، لما فيه من النفع الكثير الواسع. وقد جاءت آيات كثيرة، بل وأحاديث كثيرة تدل على بيان فضل العلم وأنه أعظم منة مَنَّ اللهُ بها على العبد.

- إثبات المشيئة لله لقوله - تعالى - : ﴿**عَلَى مَنْ يشاءُ**﴾ ومشيئة الله - تعالى - عامة، عامة في كل شيء، فيما يفعله هو بنفسه، وفيما يفعله العباد.

- أن هؤلاء الذين اختاروا لأنفسهم الكفر بمحمد - صلى الله عليه وسلم - قد باءوا بغضب على غضب، أي تراكم عليهم الغضب من الله - عزَّ وجلَّ - ، وهذا يدل على أن الغضب إذا تكرر كان أعظم قبحاً مما إذا كان غير متكرر.

- إثبات العذاب للكافرين، وأنه عذاب مهين يلحقهم بالذل والهوان لقوله - تعالى - : ﴿وللكافرينَ عَذابٌ مُهينٌ﴾.

ثم قال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

قوله: ﴿وإذا قِيلَ لَهم﴾ أي لبني إسرائيل الموجودين في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ﴿آمِنُوا بما أنزلَ اللهُ﴾ وهو هذا القرآن الذي أنزله الله على محمد - صلى الله عليه وسلم - لم يقبلوا هذا القول، بل يردونه بقولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ من الكتب التي نزلت عليهم كالتوراة على اليهود، والإنجيل على النصارى ﴿ويكفرونَ بما وراءَهُ﴾ أي بما سواه، ﴿وَهُوَ الحقُّ﴾ يعني أن الذي كفروا به هو الحق ﴿مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ﴾ والحق هو الشيء الثابت، وضده الباطل الزائل، وقوله: ﴿مُصَدِّقاً لما معهم﴾ أي أن القرآن الكريم صدق ما معهم من كتب، وكان تصديقه لها على وجهين: الوجه الأول: أنه بيَّن أنها كتب مشتملة على الصدق، والوجه الثاني: أنه

صدقهـا حيث كانت تتحدث عنه، وتبينه، وأنه سيكون فكان، يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿وهُوَ الحقُّ مُصَدِّقاً لِـمَا مَعَهُمْ قُلْ﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أنبياءَ اللهِ مِنْ قبلُ إنْ كُنْتُمْ مُؤمنينَ﴾ أي إذا كنتم تدعـون أنكم تؤمنون بما أنزل عليكم، فلم تقتلون أنبياء الله الذين جاءوا بالوحي من الله، وهل هذا إلا كذب منكم وعدوان واستكبار على الحق، ولو كنتم مؤمنين حقاً ما قتلتم الأنبياء الذين جاءوا منكم، وأتوا بالكتب منزلة عليكم.

فوائد هذه الآية الكريمة:

ـ بيان تعصب اليهود والنصارى لما هم عليه من الطريق، ولو كانت طريقاً خاطئة، لأن دين اليهود والنصارى نُسِخَ بمجيء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصـار دينـاً غير مقبـول عنـد الله لقـوله ـ تعالى ـ : ﴿إنَّ الدينَ عِنْدَ اللهِ الإسلامُ﴾[1] وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيْناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[2].

ـ التحذير من التعصب لما مع الإنسان إذا كان باطلاً، لأن الله ذكر هذا عن بني إسرائيل تحذيراً من طريقتهم.

ـ أن بني إسرائيل ـ إذا عرض عليهم الحق ردوه، وتعصبوا

(١) من الآية ١٩ من سورة آل عمران.

(٢) من الآية ٨٥ من سورة آل عمران.

للباطل الذي هم عليه، وكفروا بما سواه، لقوله: ﴿ويَكْفُرُونَ بِمَا وراءَهُ﴾.

- أن بني إسرائيل يردون الحق المصدِّق لما معهم، وكان الذي يجب عليهم عقلاً وشرعاً أن يقبلوا الحق، ولا سيما أنه مصدق لما معهم، ومبين أنه الحق، لقوله: ﴿وهُوَ الحقُّ مُصَدِّقاً لما مَعَهُمْ﴾.

- إقامة الحجة على كذب هؤلاء، الذين يَدَّعون أنهم يؤمنون بما أُنزل إليهم، لأنهم كانوا يقتلون الأنبياء، ولو كانوا صادقين في الإيمان بما أنزل إليهم ما قتلوا الأنبياء.

- أنه ينبغي عند المحاجة أن يذكر المحاج ما يفحم به الخصم ويبيِّن كذبه، وبطلان دعواه، لقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أنبياءَ اللهِ مِنْ قبلُ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ﴾.

- بيان أن بني إسرائيل لا يقبلون الحق من كل ما جاء به، ولكن إذا جاءهم ما تهوى أنفسهم سكتوا، وإذا جاءهم ما لا تهوى أنفسهم قتلوا أو يكذّبون ويصرّحون بالتكذيب إذا لم يبلغوا إلى حد القتل كما سبق في آية قبل هذه.

ثم قال الله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ جاءَكُمْ مُوسَى بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

في هذه الآية يخاطب الله بني إسرائيل موبخاً إياهم على ما

حصـــل منهم، حيث إن موسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاءهم بالآيات البينـات الـدالة على رسالته، وصدق دعوته، ومع ذلك اتخذوا العجل من بعده إلهاً وهم ظالمون، أي ظالمون لأنفسهم بهذا الاتخاذ، وسبب ذلك أن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعده الله ـ سبحـانـه وتعالى ـ ثلاثين ليلة وأتمها بعشر فبقي غائباً عن قومه أربعين ليلة وكان خلف عليهم هارون ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلما تأخر عن الثلاثين فُتنوا بما صنعه السامري من العجل المكون من الذهب الذي استعاروه وقال لهم: إن هذا هو إلهكم وإله موسى، فعبـدوا العجـل وهم يعلمون أنه من صنعهم، وأنهم هم الذين صنعوه وأحدثوه ومع ذلك اتخذوه إلهاً، وقد نصحهم هارون ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولكنهم ﴿**قالُوا لن نَبْرَحَ عليه عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلينَـا مُوسَى**﴾[1] وهــذا ـ لا شك ـ دليل على سفههم وعتـوهم وطغيانهم، أن يتخـذوا إلهاً على صورة العجل هم الذين صنعوه بأنفسهم من جملة القبائح التي هم عليها.

فوائد الآية الكريمة:

ـ بيان واحد من أمور كثيرة تدل على عتو بني إسرائيل، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم.

---

(١) الآية ٩١ من سورة طه.

- المناداة على سفه هؤلاء الذي اتخذوا العجل إلهاً فعبدوه مع أنه لا يرجع إليهم قولاً، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً.

- أن بني إسرائيل اتخــذوا العجــل على حال ظلم؛ لأنهم يعلمون أن هذا العجل هم الذين صنعوه، وأنه ليس إلهاً، ولكنهم - والعياذ بالله - تعنتوا هذا التعنت ونصحهم هارون ولكنهم لم يقبلوا هذا النصح.

ثم قال الله - تعالى - : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ واسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ العِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

هذه الآية خطاب لبني إسرائيل في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولكنهم لما كانوا أمة واحدة مع من سبقهم صحَّ أن يُوجَّـه الخطاب إليهم بالشناعة عليهم بفعل غيرهم فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي العهد الثقيل الموثق ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُم الطُّور﴾ وهـو الجبـل المعـروف رفعه الله عليهم تخويفاً وإنذاراً حتى صار كالظلة فوق رؤوسهم، وأمرهم أن يأخذوا ما آتاهم بقوة، أي أن يأخذوا الكتاب الذي أنزله الله إليهم وهو التوراة بقوة في تصديق أخبـاره، والعمـل بأحكـامـه، وأمرهم أن يسمعوا، ولكنهم عتوا وقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وكان الواجب عليهم - وهم عباد الله

الـذين خُلقـوا لعبـادتـه ـ أن يقـولوا: سمعنا وأطعنا، وكان هذا العصيان والتمرد نتيجة ـ والله أعلم ـ لما أُشرب في قلوبهم من حب العجل، فإن هذا العجل الذي صنعوه وعبدوه تمكَّن في قلوبهم حتى شربته، أي شربت حبه بسبب كفرهم بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فهم لما عدلوا عن الحق عوقبوا بالإغراء بالكفر، لأن القلوب إما على حق وإما على باطل، فإذا انتفى الحق ثبت الباطل، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿**قُلْ بِئْسَ ما يأمُرُكُمْ بِهِ إيمانُكُم**﴾ أي بئس الأمر الذي يأمركم به إيمانكم من عبادة العجل والطغيان والعتو ﴿**إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ**﴾ ومن المعلوم أن من عبد مع الله غيره فليس بمؤمن ولو ادعى أنه مؤمن، ولكن هذه الصيغة التي جاءت في آخر الآية من باب التحدي لهم إذا كانوا مؤمنين فلماذا يعبدون العجل، هل الإيمان يأمر بعبادة غير الله؟ لا .

فوائد هذه الآية:

ـ التأكيد على ما سبق من قبح أعمال بني إسرائيل المتكرر.

ـ قدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حيث نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة، مع أن الجبل من الرواسي، فإن الجبال جعلها الله ـ تعالى ـ رواسي ثابتة في الأرض، ولكنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن، فيكون.

ـ بلوغ الغـاية في عتـو بني إسرائيل، حيث إنهم قيل لهم: ﴿**خُذُوا ما آتيناكُمْ بقوةٍ واسْمَعُوا**﴾ ولكنهم قالوا: ﴿**سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا**﴾.

- وجوب الأخذ بقوة فيما نزل على الإنسان من وحي الله، وألا يقابل هذا الوحي بالكسل والضعف، ويشهد لهذا قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ. وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ واسْتَعِنْ بِاللهِ ولا تَعْجَزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فلا تَقُلْ: لو أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ. وَمَا شَاءَ فَعَلَ. فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»(1).

- أن الإنسان قد يُبْتَلَى بحب الباطل إذا أعرض عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿**وأُشْرِبُوا في قُلُوبِهِمُ العِجْلَ بِكُفْرِهِمْ**﴾.

- إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿**بِكُفْرِهِمْ**﴾ فإن الباء هنا للسببية.

- التحذيرُ من ردّ الحق، وأن الإنسان قد يُبتلَى إذا ردَّ الحق بمحبة الباطل حتى يبقى عليه، وقد حذَّر اللهُ - سبحانه وتعالى - من هذا بما ذكره في قوله تعالى: ﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يؤمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾(2) فإن الإنسان

---

(1) أخرجه: مسلم في صحيحه (٤/٢٠٥٢) حديث رقم (٢٦٦٤)، وابن ماجة (١/٣١) رقم (٧٩).

(2) الآية ١١٠ من سورة الأنعام.

إذا ردَّ الحق، ولم يستجب له من أول الأمر قد يُبتَلى بأن يُقلِّب اللهُ تعالى قلبه وبصره حتى يكون في أمر مريج.

ـ تقبيح ما ذهب إليه هؤلاء من محبة العجل، وعصيانهم وكفرهم؛ لقوله: ﴿بِئْسَ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

ـ أنه ينبغي عند المحاجة أن يسلك المحاج ما فيه التحدي لخصمه حتى يتبين قدرته على المدافعة، لأن مقام المتحدِّي أعلى وأقوى من مقام المتحدَّى. وقد جاء في القرآن الكريم كثير من هذا النوع، أعني تحدي الخصم حتى يتبين عجزه، وأنه ليس على حق، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] ومثل قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾[2] وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي فيها تحدي الخصم حتى يتبين عجزه.

ثم قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ

---

(١) الآية ٢٣ من سورة البقرة.

(٢) الآيتان ٣٣ و ٣٤ من سورة الطور.

صَادِقِينَ. وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدَاً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيْهِمْ واللهُ عَلِيمٌ بالظَّالِمِينَ. وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ واللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

الخطاب في قوله: ﴿**قُلْ**﴾ للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمره الله ـ تعالى ـ أن يقول لهؤلاء الموجودين في عهده من بني إسرائيل ﴿**إنْ كانَتْ لكم الدَّارُ الآخرةُ عند الله خالصةً من دُونِ الناسِ فَتَمَنَّوا الموتَ**﴾ وذلك أنهم كانوا يدَّعون أنهم هم أهل الجنة، وأنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم يخلفهم المسلمون فيها، ويدَّعون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم خلاصة الله ـ تعالى ـ من البشر إلى غير ذلك من الدعاوى الباطلة التي يشهد ببطلانها حالهم التي هم عليها، فيقول الله ـ تعالى ـ لنبيه: ﴿**قُلْ إنْ كانت لكم الدارُ الآخرة عند اللهِ خالصةً مِنْ دُونِ الناسِ فتمنوا الموتَ إنْ كنتم صادقين**﴾.

ومن المعلوم أنهم لن يتمنوا الموت، لأنهم يعلمون أنهم على باطل، فقال تعالى: ﴿**وَلَنْ يتمنوهُ أَبداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ أي بسبب ما قدمت أيديهم من الكفر والظلم والطغيان. ومن كانت هذه حاله، فإنه لا يمكن أن يتمنى الموت، لأنه لو تمنى الموت في هذه الحال لكان معناه أنه يتمنى استعجال العقوبة على نفسه، ثم قال تعالى: ﴿**واللهُ عَلِيمٌ بالظَّالِمِينَ**﴾ هذه جملة استئنافية تبين أن الله

- تعالى - يعلم أن هؤلاء ظلمة، وأنهم لا يمكن أن يتمنوا الموت، لما هم عليه من الظلم، ثم قال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أحرصَ النَّاسِ عَلَى حياةٍ﴾ أي لتجدن هؤلاء الموجودين من بني إسرائيل أحرص الناس على حياة، وإن كانت قليلة، يتمنون أن يبقوا في هذه الحياة الدنيا ولو قليلاً، ليتمتعوا بما فيها من اللذات التي لا تنفعهم يوم القيامة، ولهذا قال: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يعني أنهم أحرص الناس على حياة حتى من المشركين ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لو يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ولكنه لو عمر لم ينفعه ذلك ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العذابِ أَنْ يُعَمَّرَ واللهُ بصيرٌ بما يعملُونَ﴾ وسيجازيهم الله على أعمالهم بما يستحقون.

فوائد هذه الآيات الكريمة:

- تحدي هؤلاء الذين ادّعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الدار الآخرة لهم، وأنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، تحديهم بأمر هم قادرون عليه لو شاءوا، وهو تمني الموت إذا كانوا صادقين بأن الدار الآخرة لهم.

- أن هؤلاء الموجودين من بني إسرائيل في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يمكن أن يتمنوا الموت؛ لأنهم يعلمون أنهم على باطل، ومن كان يعلم أنه على باطل فلا يمكن أن يتمنى الموت؛ لأنه لو تمناه لكان يستعجل العذاب لنفسه.

- بيان علم الله - عزَّ وجلَّ - لقوله: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدَاً بما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

ـ أنَّ التـأبيد إنـما يكون بحسب الحال والقرينة، فلا يكون تأبيداً مطلقاً أبداً، وذلك لأن أهل النار في النار يتمنون الموت كما قال الله تعـالى: ﴿**وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ**﴾[1] وهؤلاء المكذبون لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بني إسرائيل هم من أهـل النار كما قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**والَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيدهِ لا يسمعُ بي أحدٌ من هذهِ الأُمَّة يهوديٌّ ولا نَصْرانيٌّ، ثم يَمُوْتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بالَّذي أُرسِلْتُ بِهِ، إلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[2].

ـ بيان أن بني إسرائيل أحرص الناس على حياة، وإن كانت حياة زهيدة قليلة، لقوله: ﴿**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحرصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ**﴾.

ـ أن طول العمر لا يغني شيئاً إذا لم يكن الإنسان على حق وعلى خير، ولهذا جاء في الحديث: «**أن رجلاً قال: يا رسولَ اللهِ أيُّ النـاسِ خيرٌ؟ قَالَ: مَنْ طَالَ عُمرُهُ وَحَسُنَ عَملُهُ. قالَ فأيُّ النَّاسِ شرٌّ؟ قَالَ: مَنْ طَالَ عُمرهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ**»[3].

---

(١) من الآية ٧٧ من سورة الزخرف.

(٢) سبق تخريجه ص ٣١٢ ,

(٣) رواه الـترمذي (٤/٤٨٩) رقم (٢٣٣٠) وقال: «هذا حديث حسن صحيح» وأورده الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (٤/٢٥٤) وقال: «رواه الترمذي =

وهذا يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بمزحزحِهِ من العذابِ أن يُعَمَّرَ﴾.

ـ أن عمر الإنسان ـ حقيقة ـ ما أمضاه في طاعة الله، وليس عمر الإنسان ما طال، فإن الإنسان قد يكون قصير العمر، ولكن يجعل الله في عمره بركة ينتفع بنفسه، وينتفع غيره، كما يوجد من بعض العلماء الذين عمروا قليلاً، ولكنهم خلفوا خيراً كثيراً للأمة.

ـ أنه ينبغي لمن دعا لشخص بطول العمر أن يقرن ذلك بطاعة الله فيقول: أطال الله عمرك على طاعته، لأن طول العمر بدون طاعة لا يفيد الإنسان شيئاً، بل إذا كان في معصية فإنه لا يزيده إلا شراً.

ـ إثبات عموم علم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، لقوله: ﴿والله بصيرٌ بما يَعْمَلُونَ﴾[1] وهذا قد دلَّت عليه النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة حيث دلت على عموم علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بكل شيء سواء من أفعاله أو من أفعال عباده. ذكر الله ذلك جملة، وذكره

= وقال: حديث حسن صحيح، والطبراني بإسناد صحيح والحاكم والبيهقي في الزهد وغيره».

(١) من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة، ومن الآية ٣٥ من سورة النور، ومن الآية ٦٤ من سورة النور، ومن الآية ١٦ من سورة الحجرات، ومن الآية ١١ من سورة التغابن.

تفصيلاً فذكره جملة مثل قوله تعالى: ﴿والله بكل شيء عليم﴾ والتفصيل مثل قوله تعالى: ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً﴾[1] ومثل قوله تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾[2] ومفاتيح الغيب هي الخمس المذكورة في قوله تعالى: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾[3].

وآيات العلم كثيرة في كتاب الله - عز وجل -، وكذلك أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - في علم الله، والفائدة من علمنا بذلك هي أن يكون الإنسان مراقباً لربه، يخشى ربه في السر والعلانية، لا يكتم شراً، ولا يقول شراً، ولقد قال الله تعالى: [4] ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[5] فبين الله - سبحانه وتعالى - أنه يعلم ما

---

(١) الآية ١٠٨ من سورة النساء.

(٢) الآية ٥٩ من سورة الأنعام.

(٣) الآية ٣٤ من سورة لقمان.

(٤) الآية ١٦ من سورة ق.

توسوس به نفس الإنسان تحذيراً من أن يضمر الإنسان في قلبه ما لا يرضاه اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ .

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كانَ عَدُوّاً لجبريلَ فإنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بإذنِ اللهِ مُصَدِّقاً لما بينَ يَدَيْهِ وهُدَىً وبُشْرَى للمؤمنين. مَنْ كانَ عَدُوّاً لِلهِ وملائكتهِ ورُسُلِهِ وجبريلَ وميكالَ فإنَّ اللهَ عدوٌّ للكافرين. ولَقَدْ أَنْزَلْنَا إليكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وما يكفرُ بها إلَّا الفاسِقُون﴾.

في هذه الآيات الكريمة يأمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقول لكل من كان عدواً لجبريل: ﴿فإنَّهُ نزَّلَهُ على قلبك بإذنِ الله﴾ حيث إن جبريل نزَّلَ هذا القرآن على قلب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإذن الله، وأول من صرح بأنه عدوٌّ لجبريل هم اليهود، وذلك لأن جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ ينزل بهذا الوحي من عند الله فيفضحهم، ويبين جبروتهم وطغيانهم، فكان عدواً لهم، فأمر الله نبيه بهذه الآية أن يقول: ﴿مَنْ كان عدواً لجبريل فإنه نزَّلَهُ على قلبك بإذن الله﴾ ولا يضر جبريل أن يكون هذا عدواً له، وإنما خصَّ الله التنزيل على القلب؛ لأن القلب هو محل الوعي، وهذا كقوله تعالى: ﴿وإنَّه لتنزيلُ رب العالمين. نزلَ به الرُّوحُ الأمينُ. على قلبك لتكون من المنذرين﴾[1]. وأما قوله

(١) الآيات (١٩٢ ـ ١٩٤) من سورة الشعراء.

تعالى: ﴿مُصَدِّقاً لما بينَ يديه﴾ فقد سبق الكلام عن معناه، وأما قوله: ﴿وهُدىً وبُشْرَى للمؤمنين﴾ فالمعنى أن هذا القرآن هدى وبشرى للمؤمنين. يبشرهم بما أعد الله لهم من الثواب والنعيم المقيم على إيمانهم. ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿مَنْ كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدوٌّ للكافرين﴾ هذه الجملة الشرطية فيها بيان أن من كان عدواً لله فإنه يكفر، وكذلك من كان عدواً لملائكته ورسله وجبريل وميكال. وجبريل وميكال من الملائكة، ولكنهما خُصَّا بالذكر؛ لأن جبريل يتنزل بما فيه حياة القلوب، وميكائيل مأمور بالقطر والنبات وفيه حياة الأرض. وفي قوله: ﴿فإنَّ الله عدوٌّ للكافرين﴾ إظهار في موضع الإضمار؛ لبيان حكم من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال أنه كافر، ولأجل أن يكون هذا عاماً لكل كافر سواء أكان كفره بسبب عداوته لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال أم بسبب آخر. وفي قوله تعالى: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ يؤكد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن الله أنزل إلى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ آيات بينات، وهي هذا القرآن العظيم الذي بيَّنَ اللهُ فيه كل ما تحتاجه الأمة في معاشها ومعادها، وما يكفر بهذه الآيات إلا الفاسقون الخارجون عن طاعة الله.

فوائد هذه الآيات الكريمة:

- إثبات أن جبريل - عليه الصلاة والسلام - نزل بالقرآن الكريم على قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - .

- بيان فضيلة جبريل، حيث كان موكلاً بتنزيل الوحي على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

- أن القلب هو محل الوعي والحفظ.

- أن نزول جبريل بالوحي على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان بإذن الله الشرعي والقدري، وقد قسَّم أهل العلم إِذْن الله - تعالى - إلى قسمين: إذن كوني، وإذن شرعي، فما تعلَّق بالمخلوقات فهو من الإذن الكوني، وما تعلَّق بالوحي فهو من الإذن الشرعي، ومثال الإذن الشرعي قوله - تعالى - : **﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾**[1] وقوله: **﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لكم أم على الله تَفْتَرُون﴾**[2].

ومثال الإذن الكوني قوله تعالى: **﴿وما هُمْ بضارينَ به من أحدٍ إلاَّ بإذنِ الله﴾**[3] أي بإذن الله الكوني.

- بيان أن لجبريل - عليه الصلاة والسلام - وإن كان من

---

(١) من الآية ٢١ من سورة الشورى.

(٢) من الآية ٥٩ من سورة يونس.

(٣) من الآية ١٠٢ من سورة البقرة.

الملائكة ـ أعداء من البشر من بني آدم، ومن أولهم اليهود كما ذكر ذلك المفسرون.

ـ أن هذا القرآن لا يهتدى به وينتفع به ويكون بشرى إلا للمؤمن. أما غير المؤمن فإنه لا ينتفع بهذا القرآن، ولا يكون القرآن بشرى له.

ـ أن كل من كان عدواً لله أو لملائكته أو لرسله أو لجبريل وميكال فإنه كافر، لقوله ـ تعالى ـ : **﴿فإنَّ الله عدوٌّ للكافرين﴾**.

ـ أن كلَّ كافر هو عدو لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ويشهدُ لهذا قوله ـ تعالى ـ : **﴿يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا لا تَتَّخِذُوا عدوي وعدوكم أولياءَ تُلْقُونَ إليهم بالمودَّةِ وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾**[1].

ـ أن كلَّ من كان عدواً لله فإنه يجب أن يكون عدواً للمؤمن؛ لأن من أحب أحداً كان ولياً لمن والاه، وعدواً لمن عاداه.

ـ في قوله تعالى: **﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾** تأكيد من ثلاثة وجوه: اللام وقد والقسم المقدر، يؤكـد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيها أنه أنزل إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ آيات بينات.

ـ أن القرآن آيات بينات، ليس فيها غموض، ولا إشكال.

ـ الرد على من قال: إن مشتبهات لا يعلم معناها الناس، فإن

---

(١) من الآية ١ من سورة الممتحنة.

جميع آيات القرآن الكريم معلومة المعنى، وليس فيها شيء مجهول المعنى لجميع الأمة، لو كان فيها شيء مجهول المعنى لجميع الأمة لم يكن القرآن بياناً، بل كان بعضه بياناً وبعضه غير بيان.

- أنه لا يكفر بهذه الآيات التي أنزلها الله - تعالى - على محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا الفاسق الخارج عن طاعة الله - عزَّ وجلَّ - .

- أن كل من كان أطوع لله - عزَّ وجلَّ - وأقوم لطاعته كان ظهور الآيات الكريمة في القرآن أبين عنده وأوضح؛ لأن الحكم إذا رُتِّبَ على شيء، أي على وصف فإنه يثبت بثبوته، وينتفي بانتفائه، ومن فوائدها أنه يجب علينا أن نعتني بهذا القرآن الكريم، وأن نستبين ما فيه من الآيات حتى ننتفع به، وحتى يكون منهجاً نسير عليه في اعتقاداتنا، وفي عباداتنا، وفي معاملاتنا، فإن هذا القرآن شفاء لما في الصدور وهدىً ورحمة للمؤمنين.

ثم قال تعالى: **﴿أو كُلَّما عَاهَدُوا عَهْدَاً نبذَهُ فريقٌ مِنْهُمْ بَلْ أكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾**.

يقول الله - عزَّ وجلَّ - في هذه الآية موبخاً هؤلاء القوم بنبذ فريق منهم لما عاهدوا عليه، يقول: **﴿أو كُلَّما عاهدوا عهداً نبذه فريقٌ منهم﴾** ثم يبين أن هذا النبذ بالعهد؛ لكون أكثرهم لا يؤمنون.

أحكام وفوائد هذه الآية :

ـ توبيخ من عاهد عهداً فنبذه .

ـ أنه إذا وقع الخطأ من بعض قوم فإنه لا يُنسب إلى الجميع ، بل العدل أن يشار إلى أن هذا ـ الذي حصل ـ إنما كان من فريق منهم ؛ لئلا يلحق العار جميع القوم مع براءة بعضهم منه .

ـ أن نقض العهد علامةٌ على نقص الإيمان ، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن من خصائل النفاق الغدر بالعهد .

ثم قال الله تعالى : ﴿**ولما جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نبـذَ فريقٌ مِنَ الَّـذينَ أوتُـوا الكِتَـابَ كِتَـابَ اللهِ وراءَ ظُهُورِهِمْ كأَنَّهُمْ لا يعلمون**﴾ .

هذه الآية كسابقتها فيها التوبيخ لهؤلاء القوم الذين عرفوا الحق ، ولكن فريقاً منهم نبذه ، وكأنهم لا يعلمون به ، فيقول ـ جلَّ وعلا ـ : ﴿**ولما جاءهم رسولٌ من عندِ اللهِ**﴾ وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿**مُصَدِّقٌ لما معهم**﴾ وذلك من وجهين : الأول : أن القرآن شهد بصدق ما جاء به موسى وعيسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ . والثاني : أنه صدق ما أخبرا به من هذا الرسول الذي بُشِّرَ به بنوإسرائيل كما قال عيسى بن مريم : ﴿**يا بني إسرائيلَ إنِّي رسولُ اللهِ إليكم مُصَدِّقاً لما بينَ يديَّ من التوراةِ ومُبَشِّراً برسولٍ**

يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحرٌ مبين﴾[1] ويبينُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ في هذه الآية ـ أعني آية البقرة ـ أنه لما جاءهم هذا الرسول المصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم، ولم يقل: «فريق منهم» بل قال: ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ زيادة في التشنيع عليهم، حيث أوتوا الكتاب، وعرفوا الحق، ولكنهم نبذوه، والذي نبذه فريق منهم، ومنهم من آمن به وصدقه كالنجاشي ـ رحمه الله ـ، وكعبدالله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ فالنجاشي كان من النصارى فلما بلغته رسالة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ آمن به، وعبدالله بن سلام كان من اليهود، فلما قدم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة أتى إليه، وآمن به، ولم يكن كل اليهود أو النصارى كفروا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، ثم يبين اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ أن هؤلاء الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون الحق، كأنهم جُهَّالٌ به وهم عالمون به.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

ـ صدق رسالة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: لقوله: ﴿ولما جاءهم رسولٌ من عند اللهِ﴾.

---

(١) من الآية ٦ من سورة الصف.

- أنَّ رســول الله - صلى الله عليه وسلم - مرســل إلى بني إسرائيل، كما أنه مرسل إلى الأميين، وهم العرب، بل وإلى الناس أجمعين، قال الله - تبارك وتعالى - : ﴿**قُلْ يا أيُّها النّاسُ إني رسولُ اللهِ إليكم جميعاً الَّذي له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ لا إله إلا هُوَ يُحْيِي ويميتُ فآمِنُـوا باللهِ ورسولِهِ النبي الأمي الذي يؤمنُ باللهِ وكلماتِهِ واتَّبِعُوهُ لعلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾[1].

وثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ﴿**والَّذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيدِهِ لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثُمَّ يموتُ ولم يؤمِنْ بالَّذي أُرْسِلْتُ بِهِ، إلَّا كَانَ مِنْ أصحابِ النَّارِ**﴾[2].

- أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان مصدقاً لما جاءت به الرسل السابقة، أي مُقِراً بأنها صدق، وشاهداً بصدقها، حيث أخبرت به فجاء طبقاً لما أخبرت به.

- قيام الحجة على بني إسرائيل، حيث كان محمدٌ - صلى الله عليه وسلم - مصدقاً لما معهم، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم.

---

(١) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف.

(٢) سبق تخريجه ص ٣١٢ .

ـ أن الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم من بني إسرائيل نبذوه عن علم؛ لأنهم أوتوا الكتاب، وعرفوا الحق، وقد بيَّنَ اللهُ تعالى أنهم يعرفون محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما يعرفون أبناءهم، وهذا أشد لوماً وتوبيخاً وجريمة ممن لا يعلم، ولم يؤت من الكتاب شيئاً.

ـ أن نبذ هؤلاء الفريق من الذين أوتوا الكتاب نبذ لا يُرجى معه إقبال، لقوله: ﴿وراء ظهورهم﴾ والذي ينبذ كتاب الله وراء ظهره في الدنيا يؤتى كتابه يوم القيامة من وراء ظهره جزاءً وفاقاً.

ـ أن من نبذ عن علم أشد قبحاً ولوماً ممن نبذ عن جهل، ولهذا قال: ﴿كأنهم لا يعلمون﴾.

ـ التحذير من رد الحق بعد العلم به، لأن الله ساقَ هذه الآية على وجه اللوم والتوبيخ لهؤلاء الذين نبذوا الحق بعد أن عرفوه.

ـ أن من نبذ الحق بعد العلم به ففيه شبه من بني إسرائيل من اليهود والنصارى الذين ردوا الحق بعد أن علموا به.

ثم قال الله تعالى: ﴿واتَّبَعُوا ما تَتْلُو الشياطينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيمانَ وما كَفَرَ سليمانُ ولكنَّ الشَّياطينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِحْرَ وما أُنْزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ ببابِلَ هاروتَ وماروتَ وما يُعَلِّمانِ مِنْ أحَدٍ حتَّى يقولا إنَّما نَحْنُ فتنةٌ فلا تكفُرْ فيتعلمونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بينَ المرءِ وزوجِهِ وما هُمْ بضارينَ بهِ من أحدٍ إلَّا بإذنِ اللهِ

ويتعلَّمونَ ما يَضرُّهُمْ ولا ينفعُهُمْ ولَقَدْ عَلِمُوا لَمَن اشتراهُ ما لَهُ في الآخرةِ مِنْ خَلاَق ولَبِئْسَ ما شرَوا بِهِ أنفُسَهُمْ لو كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ .

في هذه الآية يبين الله ـ تعالى ـ أن قوماً من بني إسرائيل اتبعوا ما تتلو الشياطين على مُلك سليمان، وكانت الشياطين تتلو ما تتلوه من أنواع السحر، بل ومن أنواع الكفر أيضاً، فتمليه على الناس بما تلقيه في قلوبهم من ذلك، وقوله: **﴿على مُلْكِ سليمان﴾** لأن سليمان عليه الصلاة والسلام قد آتاه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وسخَّرَ له الريح، وسخَّر له الشياطين كل بناء وغوَّاص. وسليمان هو ابنُ داود، وهو من أفضل أنبياء بني إسرائيل، وهو من بعد موسى بأزمنة طويلة، يقول ـ عزَّ وجلَّ ـ : **﴿وما كفرَ سليمانُ ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناسَ السحر﴾** يعني أن سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يعلم الشياطين ما تتلوه من السحر فيكون ـ بذلك ـ كافراً، بل هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ نبيٌّ رسولٌ معصومٌ من الكفر وأسباب الكفر، ولهذا قال: **﴿وما كفرَ سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾** ومِنْ كفرهم أنهم يعلمون الناس السحر.

والسحر ـ بالشعوذة ودعاء الشياطين والاستعانة بهم على إيذاء الخلق ـ نوعٌ من الكفر، ولهذا قال: **﴿ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾** قال: **﴿وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾** يعني أن ما أُنزل على الملكين ببابل ـ وبابل اسم مكان ـ ، والملكان أحدهما هاروت، والثاني ماروت، وهما ملكان

من المـلائكة أنزلهما الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى الأرض لاختبار الناس، يعلمان الناس السحر بأمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ولكنهما كما قال الله تعالى : **﴿وما يعلمان من أحدٍ حتَّى يقولا إنما نحنُ فتنةٌ فلا تكفر﴾** فيتعلم النـاس منهـما على بصـيرة، وعلى علم، يتعلمون منهما ما يفـرقون به بين المرء وزوجه من السحر، وهو ما يسمى بالعطف والصرف، وهـو نوعٌ خبيثٌ من أنـواع السحـر، ومن أشد أنواع السحـر ضرراً، حيث يفرق به بين المرء وزوجه. ومن المعلوم أن الصلة بين المـرء وزوجـه من أقـوى الصلات كما قال الله تعالى : **﴿ومِنْ آياتِهِ أَنْ خلقَ لكم من أنفسِكُمْ أزواجاً لتسكنوا إليها وجعلَ بينكُم مَودَّةً ورحمة﴾**[1] فهذان الملكان يعلمان الناس، ويقولان : إنما نحن فتنة فلا تكفر، ولكن بعض الناس يصمم على أن يتعلم، وهـذا من اختبـار اللهِ ـ عزَّ وجـلَّ ـ لعباده، **﴿فيتعلمون منهما ما يفرِّقونَ به بين المرءِ وزوجه وما هُمْ بضارين به من أحدٍ إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾** يعني يتعلمون من السحر ما هو ضرر لهم في دينهم ودنياهم، ولا ينفعهم، وإنْ قُدِّر أنهم انتفعوا به في الدنيا فإن ضرره أكبر من نفعه. قال الله تعالى : **﴿ولقد علموا لمن اشـتراه ما له في الآخـرة من خلاق﴾** يعني علم هؤلاء الذين أصروا على تعلّم السحر أن من اشتراه أي تعلمه ما له في الآخرة من

---

(١) من الآية ٢١ من سورة الروم.

خلاق يعني ليس له في الآخرة نصيب، وذلك لأنه أتى الكفر، والكافر ليس له نصيب في الآخرة، إنما يُمتَّعُ في الدنيا كما تُمَتَّعُ الأنعام، النار مثوى له، قال الله تعالى: **﴿ولبئسَ ما شروا به أنفسهم لو كانُوا يعلمون﴾** أي لبئس ما باعوا به أنفسهم، وهو هذا السحر الذي تعلموه، ثُمَّ قال: **﴿لو كانُوا يعلمون﴾** يعني لو كانوا من ذوي العلم لعرفوا قبحه، وأبعدوا عنه، ولم يحاولوا تعلّمه، هذا معنى الآية إجمالاً.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

- أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ سخَّر الشياطين لسليمان، وامتحن الناس بهم، لقوله: **﴿واتَّبعوا ما تتلو الشياطين عَلَى مُلْكِ سليمان﴾**.

- أن سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يكفر بكفر هؤلاء الشياطين الذين تعلموا السحر، وصاروا يتلونه ويلقونه على الناس، وذلك لأن الأنبياء معصومون من الكفر والشرك.

- أنَّ العمل بالسحر كفر؛ لقوله تعالى: **﴿ولكن الشياطين كفروا﴾**.

- أنَّ تعليم الناس السحر من الكفر، لقوله تعالى: **﴿ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾** والسحر نوعان: النوع الأول: سحر الشياطين الذي يكون بالاستعانة بهم، والتعوذ بهم،

والالتجاء إليهم، وهذا كفر لا شك فيه.

والثاني: سحر بالأدوية والأوراق والأشجار وما أشبه ذلك مما لا علاقة للشياطين به، فهذا لا يصل إلى حد الكفر، لكنه مُحَرَّمٌ تحريماً شديداً لما يحصل فيه من الأذية والضرر على الغير.

وإذا ثبت السِّحر على شخص ـ فإن كان من النوع الأول ـ فإنه يُقتل كفراً وردةً. وإن كان من النوع الثاني فإنَّهُ يُقتلُ لاتّقاء شره وأذيته على المسلمين.

ـ أنَّ الحق ما أذن الله فيه وأمر به، ولو كان في نفسه باطلاً، فهذان الملكان نزلا إلى الأرض، ليعلما الناس السحر، وتعليم السحر ـ كما سبق ـ كفرٌ، لكن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أباح لهذين الملكين أن يعلما الناس من أجل هذا الامتحان الذي حصل بتعليمهما، والشيء قد يكون كفراً، وقد يكون طاعة، ولو كان واحداً من نوعه، وأضرب لهذا مثلين: المثل الأول: السجود لغير الله كفر وشرك، وإذا سجد الإنسان لغير الله بأمر الله كان عبادة، ألَمْ تر قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿**وإذْ قُلْنا للملائكة اسجدوا لآدمَ فسجدوا إلا إبليس**﴾(١) فهنا نجد السجود لغير الله كان طاعة وعبادة؛ لأن الله أمر به، ويكون شركاً في الحالة التي لم يأمر الله به فيها. والمثل الثاني: قتل النفس فإنه من كبائر الذنوب، ولا سيما إذا كان المقتول

---

(١) من الآية ٣٤ من سورة البقرة.

من أقارب القاتل، ومع ذلك كان طاعة يُمدحُ عليه وذلك في قصة إبراهيم مع ابنه إسماعيل، فإنَّ إبراهيم رأى في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل، فقصَّ الرؤيا على ابنه فقال: **﴿يا أبتِ افعلْ ما تُؤمر ستجدني إن شاء اللهُ مِنَ الصابرين﴾**[1] فأسلما أمرهما لله، واستسلما لقضاء الله وشرعه، فلما تلَّ ابنه للجبين ليذبحه جاء الفرج من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ **﴿وناديناهُ أَنْ يا إبراهيمُ قدْ صدَّقتَ الرؤيا إنَّا كذلك نجزي المحسنين. إنَّ هذا لهو البلاءُ المبينُ﴾**[2] فامتحن اللهُ إبراهيم بأمره بقتل ابنه حتى أسلم لله، وانقاد، فصار ذبح ابنه طاعة لله، ولكنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تداركه بلطفه وإحسانه فكتب له أجر الممتثل، وقال له: **﴿قدْ صدَّقتَ الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين﴾** فالملكان اللذان نزلا يعلمان الناس السحر نزلا بأمر الله، وبإذن الله، فكان تعليمهما للسحر طاعة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ لكنه ـ باعتبار المُعَلَّم ـ كفر، ولهذا قال: **﴿وما يُعلِّمانِ من أحدٍ حتى يقولا إنما نحنُ فتنة فلا تكفر﴾**.

ـ ومن فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة أن الله تعالى قد يسر للإنسان أسباب المعصية، ليبلوه هل يعصي الله أم لا يعصي الله؟، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ قد يسَّر للناس تعلُّم السحر بما أُنزل على

---

(١) من الآية ١٠٢ من سورة الصافات.

(٢) الآيات (١٠٤ ـ ١٠٦) من سورة الصافات.

الملكين، وبما بذلاه من أنفسهما لتعليم الناس.

- أنه يجب أن يُبينَّ الأمر لطالبه على وجه صريح، لا لَبْس فيه، فإنَّ هذا من تمام النصح والبيان؛ لأن الملكين لا يعلمان من أحد حتى يقولا: إنما نحن فتنة فلا تكفر، فيبينان حالهما، وحال المتعلِّم منهما، يبينان حالهما أنهما نزلا فتنة، ويبينان حال المتعلِّم منهما بأن تعلّمه كفر.

- أن من أعظم أنواع السحر التفريق بين الرجل وزوجته؛ لقوله: ﴿**فيتعلمون منهما ما يفرِّقونَ به بينَ المرءِ وزوجه**﴾ وهذا ما يسمى بالعطف والصرف، فإن من أنواع السحر ما إذا سُحِرَ به الإنسان انعطف على غيره انعطافاً بالغاً شديداً لا يملك أن يتصرف بنفسه معه حتى يكون وراء هذا الشخص الذي عُطِفَ عليه كما تكون الشاة وراء الراعي الذي يدعوها، ومن السحر ما يكون بالعكس، يوضع للشخص؛ ليفرق بينه وبين حبيبه، مثل أن يفرق بينه وبين زوجته، فيصبح يرى زوجته وكأنها من أعدى أعدائه أو بالعكس، وهذا من أشد أنواع السحر إيذاء وضرراً.

- أنَّ ما يقع من تأثير السحر إنما يقع بأمر الله - عزَّ وجلَّ - وإرادته لقوله تعالى: ﴿**وما هُمْ بضارينَ به من أحدٍ إلا بإذنِ الله**﴾.

- أنَّهُ متى لَجَأَ الإنسانُ إلى ربه، واستعاذ به، واستغاثه من الأمر الذي نزلَ به فإنَّ الله - سبحانه وتعالى - قادر على أن يصرفه عنه ولو كان قد نزل به الشر، لقوله تعالى: ﴿**وما هُمْ بضارينَ به**

من أحدٍ إلا بإذن الله﴾.

- الإشارة إلى أنه ينبغي للمسحور أن يلجأ إلى الله تعالى، وأن يسأله رفع ما نزل به بصدق وإخلاص وضرورة، فإن الله تعالى يقول: **﴿أَمَّن يُجِيبُ المضْطَرَّ إذَا دَعَاهُ ويكشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خلفاءَ في الأرضِ أإلهٌ معَ اللهِ قليلاً ما تَذَكَّرُون﴾**[1] قد يكون لجوء الإنسان إلى الله في الحال التي يصاب فيها بالسحر وشدة تضرعه إليه قد يكون من أقوى الأدوية تأثيراً إن لم يكن أقوى الأدوية تأثيراً؛ ولهذا لما سُحِرَ النبي - صلى الله عليه وسلم - بسحر عظيم أنزل الله عليه سورتي المعوذتين: قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس فرقاه بهما المَلَك فشفاه الله تعالى من ذلك.

- أنَّ السحر ضرر على الساحر كما هو ضرر على غيره، وإنْ ظنَّ الساحرأنه ينتفع بذلك، وأنه يكسب من ورائه، فإنَّ هذا الكسب الذي حصده كسب خبيث لا يزيده من الله إلا بعداً، ولا يزيده إلا خساراً، ولهذا قال: **﴿يتعلمونَ ما يضرهم ولا ينفعهم﴾**.

- أنَّ الساحركافر؛ لقوله تعالى: **﴿ولقد علموا لمن اشتراه ما لَهُ في الآخرةِ من خَلَاق﴾** أي ما له من نصيب، ولا أحد لا نصيب له في الآخرة مطلقاًإلا الكافر، فإن الكافر لا نصيب له في الآخرة.

- تقبيح ما حصل من هؤلاء من تعلُّم السحر، حيث قال:

---

(١) الآية ٦٢ من سورة النمل.

﴿**ولبئسَ ما شروا به أنفسهم**﴾.

- أنَّ هؤلاء الذين اختاروا تعلُّم السحر وأهلكوا أنفسهم به كانوا من أجهل الناس سواء علموا ذلك أو لم يعلموه مع أن قوله: ﴿**ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خَلَاق**﴾ يدل على أنهم يعلمون أن الساحر ليس له نصيب في الآخرة، فيكونون قد خالفوا وعصوا على بصيرة - والعياذ بالله - .

ثم قال الله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ آمنُوا واتَّقَوْا لَمُثُوبَةٌ مِنْ عندِ اللهِ خَيْرٌ لو كانُوا يعلَمُونَ**﴾.

في هذه الآية يعرض الله - عزَّ وجلَّ - على هؤلاء الذي كفروا بتعلُّم السحر يعرض الله - عزَّ وجلَّ - عليهم الإيمان والتقوى أن المثوبة التي عند الله لهم - بإيمانهم وتقواهم - خير مما يحصلونه في الدنيا من جراء السحر لو كانوا من ذوي العلم.

فوائد وأحكم هذه الآية:

- سعَة فضل الله - عزَّ وجلَّ - وإحسانه وكرمه، فهؤلاء الذين عتوا وبغوا على الخلق بما يتعلمونه من السحر، ويضرون به الناس يعرض الله عليهم أن يؤمنوا ويتقوا حتى يكون لهم المثوبة، وهذا أنموذج من نماذج سعة رحمة الله وفضله وإحسانه، ومن نماذجه أن الله تعالى قال في سورة البروج: ﴿**إنَّ الَّذينَ فَتَنُوا المؤمنينَ والمؤمناتِ**

ثُمَّ لم يتُوبُوا فلهم عذابُ جَهنَّمَ ولَهُمْ عذابُ الحريق﴾[1] فهؤلاء الـذين قتلوا أولياءه وأحـرقوهم في النار يعرض الله عليهم التوبة فيقـول: ﴿**إنَّ الـذين فتنـوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذابُ جهنم ولهم عذاب الحـريق﴾** فلو تابـوا لنجوا من عذاب النار، هؤلاء أيضاً لو أنهم آمنوا ـ أعني الذين تعلموا السحروأضروا النـاس به ـ لو أنهم آمنـوا واتقوا لمحا الله عنهم الآثار السيئة لهذا السحر، وأثابهم على ذلك، وكان خيراً لهم.

ـ أنَّ ما عنـد الله من الثـواب خير مما يحصـل في الدنيا من المكاسب، وهذا ظاهر بالأثر والنظر، أما الأثر فقد بيَّن الله ـ تعالى ـ في غير آية أن الآخرة خيرٌ من الدنيا، فقال تعالى: ﴿**بلْ تُؤثِرُونَ الحياةَ الدنيا والآخرةُ خَيْرٌ وأبقى﴾**[2] وقال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ﴿**وللآخرةُ خيرٌ لكَ من الأولى﴾**[3] وقال تعالى: ﴿**وما عند الله خير وأبقى. . . ﴾**[4] يعني لمن اتقى، والآيات في هذا كثيرة وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « . . . **وموضعُ سَوطِ أحدِكُمْ من الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها. . .** »[5].

---

(١) الآية ١٠ من سورة البروج.

(٢) الآيتان ١٦ و ١٧ من سورة الأعلى.

(٣) الآية ٤ من سورة الضحى.

(٤) من الآية ٣٦ من سورة الشورى.

(٥) رواه البخاري (١٠٦/٦) رقم (٢٨٩٢) واللفظ له، والترمذي (١٥٤/٤ ـ =

وهنا قال الله تعالى: ﴿لمثوبة من عند الله خيرٌ﴾.

- أنَّ هؤلاء الذين تعلموا السحر - مع علمهم بأن من اشتراه لا خلاق له في الآخرة - من ذوي الجهالة، وكأنهم لا يعلمون، لذا قال: ﴿لوكانوا يعلمون﴾.

- الحث على العلم والعمل به، وأن من لم يعمل بعلمه فهو كالجاهل، بل وأشد قبحاً من الجاهل؛ لأن الجاهل قد يُعْذَر، وقد يستقيم إذا علم الحق، بخلاف من خالف الحق مع علمه به، فإنه ليس بمعذور، ورجاء رجوعه إلى الحق بعيد.

ثم قال اللهُ تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وقولُوا انظُرْنَا واسمَعُوا وللكافرينَ عذابٌ أليمٌ﴾.

يخاطب الله تعالى المؤمنين بصفة الإيمان، لينهاهم عن هذه الكلمة التي كانت اليهود تقولها لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ﴿راعنا﴾ يريدونها من الرعونة لا من الرعاية، فتكون ﴿راعنا﴾ تعني: «أنك ذليل»، وليس المراد الرعاية، فنهى الله عباده المؤمنين عن قول هذه الكلمة، ولكنه أرشدهم إلى كلمة خير منها وهي بمعناها قال: ﴿وقولُوا انظُرْنَا واسمعوا وللكافرين عذاب أليمٌ﴾

= ١٥٥) رقم (١٦٤٨) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجة (٢/ ١٤٤٨) رقم (٤٣٣٠)، والدارمي (٢/ ٣٣٢ - ٣٣٣)، والإمام أحمد في مسنده (٢/ ٤٣٨).

يعني اسمعوا ما نهيتكم عنه، ولا تخالفوه، فإن مخالفته من الكفر ﴿وللكافرين عذابٌ أليمٌ﴾ أي مؤلم، لأنه شديد ـ والعياذ بالله ـ كما بيَّنَ اللهُ شدة عذاب النار في آيات كثيرة من القرآن، وبيَّنَها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أحاديث كثيرة من السنة.

فوائد وأحكام هذه الآية:

ـ أن من خصال المؤمن أن يمتثل؛ لأنه مؤمن، والمؤمن يهديه إيمانه إلى امتثال أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

ـ أنه ينبغي أن يُنادى الإنسان بأحب الأوصاف إليه، ولا شك أن أحب أوصاف المؤمن إليه أن ينادى بإيمانه.

ـ أن مخالفة ما ذكر نقصٌ في الإيمان، وأن موافقته من مقتضى الإيمان، ولهذا وُجِّه الخطاب إلى المخاطب بوصف الإيمان.

ـ تحريم الخطاب بالكلمات المحتملة للحق والباطل بالنسبة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولهذا قال: ﴿ولا تقولوا راعِنا﴾.

ـ النهي عن مشابهة غير المؤمنين، لأن هذا الخطاب «راعنا» مما يدندن به اليهود إذا خاطبوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

ـ أنه إذا ذكر باب ممنوع مسدود أمام الناس فإنَّ الحكمة تقتضي أن يُذكر لهم ما يستغنون به عنه من الأشياء المباحة، ولهذا قال: ﴿وقولوا انظُرنا﴾ فهو لم ينههم ويجعلهم عائمين لا يدرون ما يقولون، بل أرشدهم إلى القولة المباحة النافعة، وهي قوله:

﴿انظرنا﴾، فإذا نهيت الناس عن شيء يحتاجون إليه فافتح لهم باباً يغني عنه حتى يسهل تركهم لما نُهوا عنه، وفعلهم هذا الذي أُرشِدوا إليه، ونظير ذلك ما ثبت في الصحيح: **«أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث أخا بني عدي الأنصاري واستعمله على خيبر فقدِمَ بتمرٍ جَنيبٍ**[1]**، فقال له رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أكل تمر خيبر كذا؟ قال: لا والله يا رسولَ اللهِ، إنَّا لنشتري الصاعَ بالصاعين من الجمع، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «لا تفعلوا، ولكن مثلاً بمثل، أو بيعوا من هذا واشتروا بثمنه من هذا، وكذلك الميزان»**[2]. فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرشدهم إلى أن يبيعوا التمر الرديء بالدراهم ثم يشتروا بالدراهم، تمراً جيداً، ومنعهم من أخذ الصاع بالصاعين أو الصاعين بالثلاثة لأنه ربا، فإن بيع التمر بالتمر يجب فيه التساوي في الكيل، فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين بَيَّنَ لهم أن هذا ممنوع أرشدهم إلى البيع المباح، وهذا نظير هذه الآية الكريمة **﴿لا تقولوا راعنا﴾** هذا ممنوع **﴿وقولوا انظرنا﴾** هذا بدل عنه.

---

(١) نوع من التمر، من أعلا.

(٢) رواه: البخاري (١٣/٣٩١ ـ ٣٩٢) رقم (٧٣٥٠ و ٧٣٥١)، ومسلم (٣/١٢١٥) رقم (١٥٩٣)، والنسائي (٧/٣١٣ ـ ٣١٤) رقم (٤٥٦٧)، والدارمي (٢/٢٥٨).

ـ وجوب السمع والطاعة لأوامر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، لقوله تعالى : ﴿**واسمعوا**﴾ .

ـ ثبوت الجزاء على العمل، لقوله : ﴿**وللكافرين عذابٌ أليمٌ**﴾ .

ـ أنَّ مخالفة أمر الله ورسوله من الكفر؛ لأنه أعقب النهي عن قول «راعنا» والإرشاد إلى قول «انظرنا» والأمر بالسماع ، أعقب ذلك كله بقوله : ﴿**وللكافرينَ عذابٌ أليمٌ**﴾ فدلَّ هذا على أن المخالفة لأمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نوع من أنواع الكفر.

ثم قال الله تعالى : ﴿**مَا يودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ ولا المُشْرِكِينَ أَنْ يُنزَّلَ عليكم من خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ واللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ**﴾ .

﴿**ما يودُّ**﴾ يعني ما يحب ﴿**الَّذين كفروا من أهل الكتاب**﴾ وهم الذين لم يؤمنوا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿**ولا المشركين**﴾ يعني ولا الذين كفروا من المشركين، لا يودون أن ينزل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته من خير، لأنهم حسدة، والحاسد لا يحب أن ينزل الله الخير على غيره، ولهذا قال : ﴿**من خير من ربكم**﴾ ثم قال : ﴿**واللهُ يختصُّ برحمتِهِ من يَشَاءُ**﴾ أي يخص من شاء من عباده برحمة خاصة غير الرحمة العامة لجميع الخلق، لأن رحمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نوعان : رحمة عامة تشمل جميع

الخلق حتى الكُفَّــار، فإن الله ينـزل عليهم الغيث، ويخـرج لهم الزرع، ويكثر لهم المال والولد، وهذه رحمة، كذلك يفعل بالمؤمنين والـرحمـة العـامة رحمة متعة فقط، يستوي فيها جميع الخلق حتى البهـائم. أما الرحمة الخاصة فهي التي قال الله عنها: ﴿**فسأكتُبُها لِلذينَ يتَّقون ويُؤتونَ الزَّكَاةَ والَّذين هُم بآياتنا يُؤمِنُونَ**﴾[1] ويقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿**والله يختصُّ برحمته من يشاء**﴾ يعني فليس لأحد أن يحجر على الله أن ينزل فضله على مَنْ شاء من عباده ﴿**والله ذُو الفضـل العظيم**﴾ أي صاحب الفضل العظيم، العظيم كميةً، والعظيم كيفيةً، العظيم شمولاً في المكان، وشمولاً في الزمان. فبيَّن اللهُ ـ عزَّ وجـلَّ ـ في هذه الآية حقد الكفار من المشركين واليهود والنصارى الذي بلغ بهم إلى هذا الحد.

فوائد وأحكام هذه الآية:

ـ بيان أن اليهــود والنصــارى والمشركــين لا يودون الخـير للمسلمـين، وهـذا ليس خاصـاً بزمن الـرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل هو عام إلى يوم القيامة؛ لأن الكفار من اليهود والنصارى والمشركـين أعـداء لنا، وأعداء لربنا، وأعداء لرسولنا، ومن كان كذلك فإنه لا يمكن أبداً أن يحب نزول الخير إلينا.

---

(١) من الآية ١٥٦ من سورة الأعراف.

- الحذر من مكر الكفار من اليهود والنصارى والمشركين، فلا نغتر بما يبذلونه لنا من حلاة اللسان، وإظهار انشراح الصدر بنا؛ لأنهم إنما يفعلون ذلك من أجل خير عائد عليهم أكثر مما يتحملونه من كراهتهم للخير النازل إلينا؛ أو لأنهم يتربصون بنا الدوائر حتى يقضوا على ما لنا من الخير.

- أنَّ من كره الخير للمؤمنين عموماً، أو لبعض منهم على سبيل الخصوص فإن فيه شبهاً من اليهود والنصارى والمشركين.

- تحريم كراهة نزول الخير للمؤمنين وكراهة نزول الخير للغير هو الحسد، ولهذا قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: إنَّ التفسير الصحيح للحسد ليس أن يتمنى الإنسان زوال نعمة الله على غيره، ولكن التفسير الصحيح هو أن يكره الإنسان ما أنزل الله على غيره من الخير سواء تمنى زواله أو لم يتمنَّ، وهذا التفسير هو الأقرب.

- بيان ما منح اللهُ هذه الأمة من الربوبية الخاصة، ولهذا قال: ﴿من خير من ربكم﴾ وربوبية الله لعباده المؤمنين ربوبية خاصة. والربوبية نوعان: عامة وخاصة. فالعامة: هي الشاملة لجميع الخلق، ومنها قوله تعالى: ﴿الحمدُ للهِ ربِّ العالمين﴾[1] والخاصة: هي الربوبية المضافة للمؤمنين أو للرسل مثل قوله عن عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وذرياتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ واجْعَلْنَا

---

(١) الآية ٢ من سورة الفاتحة.

للمتَّقينَ إمَاماً﴾[1] فإن هذه الربوبية خاصة، وقد اجتمع النوعان في قولـه تعالى: ﴿قالُوا آمنَّا بربِّ العالمين. ربِّ موسَى وهارون﴾[2] فقوله: ﴿برب العالمين﴾ هذه الربوبية العامة، وقوله: ﴿رب موسى وهارون﴾ هذه الربوبية الخاصة.

ـ أنَّ فضل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد يختص لأناس دون آخرين؛ لقوله: ﴿واللهُ يختصُّ برحمتِهِ مَنْ يشاءُ﴾.

ـ إثبات المشيئة لله، لقوله: ﴿واللهُ يختصُّ برحمته من يشاء﴾ ولا شك أن ما كان من أفعال الله فإنه صادر عن مشيئة منه ـ عزَّ وجلَّ ـ، وكذلـك ما صـدر مـن أفعـال العبـاد فإنـه صـادر عن مشيئة منه وإذن منه بذلك كما مرَّ علينا في قوله: ﴿وما هم بضارين به من أحدٍ إلاَّ بإذنِ الله﴾[3] فكل شيء يقع في السموات والأرض ـ من أفعال الله أو أفعال الخلق ـ فإنه واقعٌ بمشيئة الله، قال الله تعالى: ﴿وما تَشاؤون إلاَّ أنْ يشاءَ اللهُ رَبُّ العالمين﴾[5] ولكن هل في هذه الآية ومـا في معنـاهـا من النصـوص حجة للعاصي على معصيتـه، بحيث يقـول: إن معصيتي لله ليست بمشيئتي ولكنها بمشيئة الله، لأن الله تعالى يقول: ﴿لِمَنْ شاء مِنْكُمْ أن يستقيم وما

---

(1) من الآية ٧٤ من سورة الفرقان.

(2) الآيتان ١٢١ و١٢٢ من سورة الأعراف.

(3) من الآية ١٠٢ من سورة البقرة.

(4) الآية ٢٩ من سورة التكوير.

تشاؤون إلّا أن يشاء اللهُ ربُّ العالمين﴾[1] ويقول: **﴿ولو شاءَ اللهُ ما اقتتل الَّذينَ مِن بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءتهم البيِّنَاتُ ولكن اختلفوا فمنهم مَنْ آمنَ ومنهم مَنْ كفرَ ولو شاءَ اللهُ ما اقتتلوا﴾**[2]؟؟.

وجوابنا على هذا أن نقول: ليس للعاصي حجة على معصيته؛ لأنَّ الله تعالى أمدَّه وأعدَّه، أمده بالعقل، وأعدَّهُ لمعرفة الهدى والحق، وأرسل إليه الرسل، وقد قطع الله الحجة على الخلق بإرسال الرسل، فقال تعالى: **﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ لِئَلَّا يكُونَ للنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بعدَ الرسل وكانَ اللهُ عزيزاً حكيماً﴾**[3] فالعاصي ليس له حجة على معصيته، بل ليس له حجة على الله في معصيته، لما ذكرنا، ولهذا نجد العاصي يختار من الأمور ما شاء، ويُقدم عليه، يختار أن يسافر إلى مكة، يختار أن يسافر إلى المدينة، يختار أن يسافر إلى البلد الفلاني أو الفلاني بإرادته وقدرته، ولا يحتج بالقدر على ذلك، فإذا كان هكذا فلِمَ يحتجُّ بالقدر على معصية الله ولا يحتج بالقدر على السفر والذهاب والمجيء والأكل والشرب واللباس وغير هذا؟ ثم إنَّ القدر سرٌّ مكتوم لا يُعلمُ عنه إلا بعد وقوعه، فكيف يحتج العاصي بالقدر على معصيته قبل أن تقع المعصية، لماذا لم يقدر

---

(١) الأيتان ٢٨ و ٢٩ من سورة التكوير.

(٢) من الآية ٢٥٣ من سورة البقرة.

(٣) الآية ١٦٥ من سورة النساء.

هذا العاصي أن الله كتب له أن يكون من المتقين، فيتقي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولهذا أبطل اللهُ هذه الحجة في قوله: ﴿سيقولُ الَّذينَ أَشْركُوا لو شَاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنَا ولا آباؤنَا ولا حرَّمْنَا مِنْ شيءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حتَّى ذاقُوا بأسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فتخرجوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ. قُلْ فَللَّهِ الحُجَّةُ البالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لهداكُمْ أَجْمعينَ﴾[1] فهنا قال الله تعالى ﴿حتَّى ذاقوا بأسنا﴾ ومن المعلوم أنهم لن يذوقوا بأس الله إلا حين يرتكبون معصيته، وتبطل حجتهم بما احتجوا به من مشيئة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

ـ إثبات أن الله تعالى موصوف بالفضل العظيم حيث قال تعالى: ﴿واللهُ ذو الفضلِ العظيم﴾.

ـ أنَّهُ لا يليق بالإنسان أن يطلب الفضل من غير الله، بل يطلب الفضل من الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ والإنسان إذا طلب الفضل من الله فقد طلب الفضل من أهله، وهو ـ عزَّ وجلَّ ـ أكرم الأكرمين وأجود الأجودين، فإذا دعاه الإنسان وسأله من فضله بنية صالحة، وعزم صادق، وافتقار إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ سهَّل اللهُ أمره، وآتاه من فضله.

---

(١) الآيتان ١٤٨ و ١٤٩ من سورة الأنعام.

ثم قال اللهُ تعالى: ﴿**ما نَنسَخ من آيةٍ أو نُنسِهَا نَأْتِ بخَيْرٍ منها أو مِثْلَها أَلَمْ تعلمْ أنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قدير. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ وَمَا لكم من دُونِ اللهِ مِنْ ولي ولا نَصِيرٍ**﴾.

قوله تعالى: ﴿**ما نَنسَخ من آية**﴾ النسخ بمعنى الرفع والإزالة، أي ما نرفَع آيةً أو حكمها إلا أتينا بخير منها أو مثلها، وذلك أن النسخ يكون إلى ما هو خير من المنسوخ، وإلى ما هو مثله، وإلى ما هو دونه. فأما النسخ إلى ما هو خير من المنسوخ فلا ريب في أنه خير، والنسخ إلى مثل المنسوخ لا ريب أنه خير، لأنه يكون مماثلاً للمنســوخ من حيث العمــل، ولكنــه ليس مماثــلاً له من حيث النتيجة، والثواب والأجر كما سنبينه ـ إن شاء الله تعالى ـ وأما النسخ إلى ما هو دونـه فإن ذلك لن يكون، ولن يليق بحكمة الله ـ عزَّ وجـلَّ ـ؛ لأن النسـخ إلى ما هو دون يكون تدنياً من الأعلى إلى الأسفـل، وهـذا لا يليق بجـلال الله ـ عزَّ وجـلَّ ـ، يقول ـ عزَّ وجـلَّ ـ: ﴿**ما نَنسَخ من آية**﴾ أي ننسخ لفظها أو حكمها ﴿**أو نُنسِهَـا**﴾ أي ننسهـا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى لا يذكرها، ما يحصلُ هذا إلا أتى الله بخير منها أو مثلها، بخير منها عملاً وثواباً، أو مثلها عملاً وخير منها ثواباً، ثم قال: ﴿**ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير**﴾ ومن قدرته ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يمحو ما يشاء، ويثبت وينسخ ما يشاء ويُحكم ﴿**ألم تعلم أنَّ الله له مُلك السموات**

والأرض﴾ وإذا كان له ملك السموات والأرض فهو ـ عزَّ وجلَّ ـ له التدبير المطلق في هذا الملك، ولا أحد ينازعه في ملكه، لا تقديراً ولا تدبيراً. **﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾** فهو الذي يتولى أموركم وهو الذي ينصركم إذا استنصرتموه، وقمتم بأسباب النصر.

فوائد وأحكام هاتين الآيتين:

ـ ثبوت النسخ في آيات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهو رفع الحكم أو اللفظ، أو اللفظ والحكم جميعاً، فالنسخ يكون على ثلاثة أقسام: نسخ اللفظ وبقاء الحكم، ونسخ الحكم وبقاء اللفظ، ونسخهما جميعاً.

فأما نسخ اللفظ وبقاء الحكم فمثَّلَ له العلماء بآية الرجم، أي بآية رجم الزاني إذا زنى وهو محصن، فإنه يُرجم بالحجارة حتى يموت، سواء أكان رجلاً أم امرأة، واستدلوا على ذلك بما ثبت في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال وهو جالس على منبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **«إنَّ اللهَ قد بعث محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم. قرأناها ووعيناها وعقلناها فرجم رسولُ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وَرَجَمْنا بعده فأخشى إن طال بالناس زمانٌ أن يقول قائلٌ ما نجد الرجم في كتاب**

الله فيضِلُّوا بترك فريضة أنزلها الله، وإنَّ الرجم حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف»(١) فهنا لا نجد في القرآن الكريم الذين بين أيدينا آية تدل على الرجم في حق الزاني المحصن، فهي منسوخة لفظاً باقية حكماً.

وأما نسخ الحكم وبقاء اللفظ فمنه قوله تعالى: ﴿**إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشرون صابرون يغلبوا مائتين وإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مائةٌ يغلبوا أَلْفَاً من الذين كفروا بأنهم قومٌ لا يفقهون الآن خَفَّفَ اللهُ عنكُمْ وعلم أَنَّ فيكم ضعفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مائةٌ صابرةٌ يغلبوا مائتين وإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا ألفين بإذنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصابرينَ**﴾(٢) فالآية الأولى نُسخت بالثانية، وبقيت الأولى متلوة في كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

وأما نسخهما معاً ـ أعني اللفظ والحكم ـ فمثلوا له بحديث عائشة الثابت في صحيح مسلم أنها قالت: «**كانَ فيما أُنْزِلَ من القرآن عشرُ رضعات معلومات يُحَرِّمنَ، ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ معلوماتٍ. فتوفي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهُنَّ فيما يُقرأ**

---

(١) رواه: البخاري (١٢/١٧٤ ـ ١٧٥) رقم (٦٨٣٠)، ومسلم (٣/١٣١٧) رقم (١٦٩١) واللفظ له، وابن ماجة (٢/٨٥٣) رقم (٢٥٥٣).

(٢) من الآية ٦٥، والآية ٦٦ من سورة الأنفال.

مِنَ القرآن»[1] ونحن لا نجد هذه الآية ـ أعني أن عشر رضعات معلومات يحرمن، ولا نجد خمس رضعات معلومات يحرمن أيضاً، فيكـون النسـخ باعتبـار عشر رضعـات نسخـاً للحكم واللفظ، وباعتبار الخمس نسخاً للفظ دون الحكم، ولا يشكل ـ على هذا ـ قولها ـ رضي الله عنها ـ : «**فتوفي رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهُنَّ فيما يُقرأُ من القرآن**» لأن الذين يقرؤونها من القرآن لم يعلموا بالنسـخ فصـاروا يقـرؤونها، فهذه أقسام ثلاثة للنسخ، فإن قال قائل: ما الحكمة من نسخ اللفظ وبقاء الحكم؟ قلنا: الحكمة في هذا ـ والله أعلم ـ في آية الرجم هي بيان فضل هذه الأمة، حيث عملوا بالـرجم بشيء لا يجدونـه في القرآن على العكس من أهل الكتـاب اليهـود الـذين كتموا آية الرجم، ولم يعملوا بها مع أنها موجودة نصاً في التوراة.

وأما نسخ الحكم وبقاء اللفظ فالحكمة منه أن يتعبد الناس بتلاوته، وأن يذكروا نعمة الله عليهم بهذا النسخ الذي كان فيه التخفيف. وأما نسخهما معاً فالحكمة فيه أن هذا الذي نُسخ لفظاً وحكماً لم يبقَ له أثر بالنسبة للعمل به، ولا بالنسبة لتلاوته، فصار من الحكمة أن ينسخه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لفظاً وحكماً.

---

(١) رواه: مسلم في صحيحـه (٢/١٠٧٥) برقم (١٤٥٢)، وأبوداود (٢/٥٥١ـ ٥٥٢) رقـم (٢٠٦٢)، والـنسـائي (٦/٤٠٩) رقم (٣٣٠٧)، والـدارمي (٢/١٥٧) وغيرهم.

ـ ومن فوائد وأحكام الآيتين الكريمتين أن الله ـ تعالى ـ قد يُنسي الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الآية من كتاب الله إذا شاء اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ ألا يبقى حكمها في عباده، قال الله تعالى: ﴿**سَنُقْرِئُكَ فلا تَنْسَى إلَّا ما شاءَ اللهُ إنَّهُ يَعْلَمُ الجهرَ وما يخْفَى**﴾[1].

ـ أن النسخ إذا وقع فإنه يكون إلى خير من المنسوخ، أو مثل المنسوخ، والخير قد يكون بالنسخ من الأخف إلى الأشد، أو من الأشد إلى الأخف، أو من مماثل لمماثل، وكل ذلك مطابق للحكمة، فالنسخ من الأسهل إلى الأصعب نسخ الصيام حيث كان الصيام أول ما فرض مخيراً فيه بين الصوم والإطعام، ثم بعد ذلك تعيَّنَ الصيام، فإن التخيير بين شيئين أيسر من تعيُّن أحدهما، ولكن الله بحكمته جعل فرض الصوم متطوراً هكذا ليسهل على النفوس قبوله، والخيرية في النسخ من الأخف إلى الأشد هي استكمال الأجر في هذا الأشد من وجه، وبيان حكمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في تشريعه لعباده، حيث كان يدرجهم من الأسهل إلى استكمال الشرع بأشد، وأما العكس ـ وهو النسخ من الأشد إلى الأخف ـ ففيه الخير، وهو التيسير على العباد، ومن ذلك ما ذكرناه في آيتي المصابرة، حيث فرض الله في الآية الأولى المنسوخة أن يصابر الإنسان عشرة، ثم خفف ذلك، وأوجب أن يصابر الإنسان اثنين، ولا شك أن هذا

---

(١) الآيتان ٦ و ٧ من سورة الأعلى.

تخفيف من الله تعالى على العباد، وتيسير عليهم.

وأمـا إذا كان النسخ لمماثل ففيه خير أيضاً، وهو بيان امتثال المكلَّف، ومن ذلك نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فإن هذا النسخ باعتبار عمل المكلف لا يختلف؛ لأن المكلف ليس عنده فرق بين أن يستقبل بيت المقدس أو أن يستقبل الكعبة من حيث تكلُّفَ العمـل والمشقـة فيه، ولكن فيه خير باعتبـار بيان امتثـال المكلف، وأنه تابع لأمر الله، إذا أمره بشيء فعله، وإذا نهاه عن شيء تركه، ويشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ التي كُنْتَ عليها إلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرسولَ مِمَّن ينقلبُ عَلَى عَقِبَيْه﴾[1] وعلى هذا يكون المراد بقوله تعالى: ﴿أو مثلها﴾ أي مثلها في العمل، وليس المعنى، أو مثلها في الخيرية، لأنه لو كان هذا المعنى لكان النسخ عبثاً لا فائدة فيه.

- ومن فوائـد وأحكـام هاتين الآيتين إثبات القدرة لله - عزَّ وجلَّ - في قوله تعالى: ﴿ألم تعلم أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قدير﴾، وأن القدرة متقررة عند الإنسان بفطرته.

- ومن فوائد الآيتين عموم قدرة الله في كل شيء في قوله: ﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ فهو قادر - عزَّ وجلَّ - على الموجود أن يعدمه، وعلى المعدوم أن يوجده.

---

(١) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة.

ـ ومن فوائدهما تقرير ملك الله ـ عزَّ وجلَّ ـ للسموات والأرض، لقوله: ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾.

ـ ومن فوائدهما اختصاص ملك السموات والأرض لله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يملكهما أحد سواه، قال الله تعالى: ﴿والَّذينَ تدعونَ من دونه ما يملكونَ من قِطْمِيرٍ إنْ تدعوهم لا يسمعوا دعاءَكُمْ ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويومَ القيامة يكفرون بشرككم ولا يُنَبِّئُكَ مثلُ خبير﴾(١) وقال تعالى: ﴿قُل ادعوا الَّذينَ زعمتم من دونِ اللهِ لا يملكونَ مثقالَ ذَرَّةٍ في السموات ولا في الأرضِ وما لهم فيهما من شِرْكٍ وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾(٢) فملك السموات والأرض لله وحده، لا يشاركه أحد في ذلك، فإن قال قائل: أليس الله تعالى قد أثبت للإنسان ملكاً فقال: ﴿والَّذينَ يبتغونَ الكِتَابَ مِمَّا ملكت أيمانكم فكاتبوهم﴾(٣) وقال: ﴿والَّذين هم لفروجهم حافِظُونَ إلاَّ عَلَى أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾(٤) فالجواب: بلى، أثبت الله للإنسان الملك، ولكن ملك الإنسان لما يملكه مُلْك مُقَيَّد، مقيَّدٌ من جهة العموم، حيث لا يملك الإنسان كل شيء، لا يملك إلا ما كان في حوزته، مقيد

(١) من الآية ١٣، والآية ١٤ من سورة فاطر.

(٢) الآية ٢٢، ومن الآية ٢٣ من سورة سبأ.

(٣) من الآية ٣٣ من سورة النور.

(٤) الآية ٥ والآية ٦ من سورة «المؤمنون».

من حيث التصرف والتدبير، فالإنسان لا يملك أن يفعل في ملكه ما شاء؛ لأنه مقيد بالشرع، فلا يتصرف في ملكه إلا بما تقتضيه الشريعـة، مقيَّدٌ من جهة الزمن، فملك الإنسان لما يملكه ليس دائماً، قد يتلف هذا المملوك، وقد يبيعه الإنسان بخلاف ملك الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإنه مُلْك شامل دائم، فلا منافاة بين ما أثبت الله للعبد من الملك، وبين ما أثبته لنفسه من الملك.

ـ ومن فوائد الآيتين الكريمتين أَنَّهُ لا ولي لأحد إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ولا ناصر لأحد إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وليُعْلَم أن ولاية الله عامة وخاصة، فالعامة: هي تولي أمور الخلق، وهذه عامة لكل أحـد حتى للكفـار، وخـاصة: وهي الولاية التي تتضمن العناية والتوفيق والسداد، وهذه خاصة بالمؤمنين، فمن المعنى الأول قوله تعالى: ﴿حَتَّى إذا جاءَ أحدَكُمْ الموتُ توفتْهُ رُسُلُنَا وهُم لا يُفرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إلى مَوْلاهُمُ الحق﴾[1] ومن المعنى الثاني قوله تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الـذين آمنُـوا يخرجهم من الظُّلُماتِ إلى النور والذين كفروا أوليـاؤهُمُ الـطاغـوتُ يخرجـونهم مِنَ النـور إلى الـظُّلُمات أُولئِكَ أصحابُ النَّارِ هُمْ فيها خَالِدُون﴾[2].

---

(١) من الآية ٦١ ومن الآية ٦٢ من سورة الأنعام.

(٢) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تسألُوا رسولَكُمْ كما سُئِلَ مُوسى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يتبدَّلِ الكُفْرَ بالإيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبيل﴾.

الخطاب في قوله: ﴿أم تريدون﴾ لهذه الأمة، لأصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - والمراد بقوله ﴿رسولكم﴾ محمد - صلى الله عليه وسلم -. يقول الله - عزَّ وجلَّ - أتريدون أن تسألوا النبي - صلى الله عليه وسلم - آيات تقترحونها كما سُئِلَ موسى من قبل، فقيل له: أرنا الله جهرة، وهذا الاستفهام للإنكار عليهم، يعني لا تسألوا الآيات وتقترحوها كما فعل ذلك من قبلكم، فإن هذا نوع من الكفر؛ لأن الإنسان إذا كان لا يؤمن إلا حيث أتي بالآيات التي يقترحها صار إيمانه تبعاً لهواه لا تبعاً لهداه، ولهذا قال: ﴿ومن يتبدّل الكفرَ بالإيمان﴾ أي يأخذ الكفر بدلاً عنه ﴿فَقَدْ ضلَّ سواء السبيل﴾ أخطأ سواء السبيل، وسواء السبيل وسطه المستقيم.

أحكام وفوائد هذه الآية:

- توبيخ الأمة لو سألت كما سأل أصحاب موسى.
- بيان حال قوم موسى من التعنُّت، والتشدُّد، واقتراح الآيات.
- إثبات أن موسى - عليه الصلاة والسلام - رسول.
- بيان أن موسى - عليه الصلاة والسلام - قد أوذي من قبل،

وأن إيذاء الـرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من ديدن المكذبين الذين أشركوا برسالتهم.

ـ أن من أخذ الكفر بديلاً عن الإيمان فإنه ضال مخطىء مهما ازدهرت له الدنيا، ومهما زانت في وجهه فإنه ضال سواء السبيل.

ـ أنَّ من تبدل الإيمان بالكفر فقد هدي، ويتفرع على هذه القاعدة أنه إذا منَّ اللهُ عليه بالهداية بعد الضلال فليحمد الله على ذلك، فإنه قد أصاب سواء السبيل.

ـ أن جميع الكفار قد أخطؤوا سواء السبيل، ووقعوا في السبيل المعوج الذي يتيهون به عن طريق الحق.

ثم قال اللهُ تعالى: **﴿ودَّ كثيرٌ مِنْ أهلِ الكِتَابِ لو يرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدَاً من عند أنفسهم مِنْ بَعْدِ ما تبيَّنَ لهم الحقُّ فاعْفوا واصْفَحوا حتَّى يأتيَ اللهُ بأمرِهِ إنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قدير﴾**.

قولـه: **﴿ودَّ﴾** يعني أحبَّ، والودُّ خالص المحبة، ففي هذه الآية يخبر الله أن كثيراً من أهل الكتاب يودون أن يردوا أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كفاراً من بعد الإيمان، وأنه لا يحملهم على ذلـك إلا الحسـد، حسد المسلمين على ما أنعم الله عليهم من اتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وكان اليهود ـ فيما سبق ـ يستفتحـون على الـذين كفـروا ويقـولون: سيبعث نبيٌّ،

وسوف ننصر به عليكم، فلما جاءهم ما عرفوه كفروا به ـ والعياذ بالله ـ حسداً من عند أنفسهم، وهذا الحسد من عند أنفسهم كان بعد أن تبين لهم الحق، وأن الحق مع ما جاء به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وما كان عليه أصحابه، وفي هذه الحال أمر الله المؤمنين أن يعفوا ويصفحوا ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ أن يعفوا فلا يؤاخذوهم بالذنب، ويصفحوا فيعرضوا عما حصل إعراضاً كلياً ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ وهو الأمر بقتالهم، وهذا حكم مغيّا بغاية، والحكم المغيّا بغاية يزول بزوال الغاية وانتهائها، فلما جاء الله بأمره وأمر بقتالهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، صار هذا الحكم ـ وهو العفو والصفح ـ منتهياً بانتهاء مدته وأَمَده الذي جعله الله تعالى له، وبيّنَ اللهُ في ختام الآية أن الله على كل شيء قدير، فلا يعجزه شيء، ولا يمنعه شيء.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

- بيان ما عليه أهل الكتاب من الحسد العظيم لهذه الأمة.
- أن من كان فيه حسد للناس على ما آتاهم الله من فضله فإن فيه شبهاً باليهود.
- الحذر من كيد الأعداء ومخادعتهم؛ لأنهم كانوا يودون أن يردونا كُفَّاراً، فإنهم لم يألوا جهداً في سبيل الوصول إلى هذه الغاية منذ عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى يومنا هذا، ولهذا نجد

النصارى يرسلون الفرق والطوائف المنصِّرة إلى البلاد الإسلامية، ولا سيما البلاد الفقيرة التي يسيطرون عليها من هذه الزاوية، ليخرجوا الناس من دين الحق إلى الدين المنسوخ الذي لا يقبله الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

ـ أن هذا الحسد من أهل الكتاب نابع من عند أنفسهم، لم يؤذن لهم فيه، ولم يكن عن رويَّة وتعقُّل.

ـ الحذر من محبة الكفر للمسلمين، وكذلك يجب الحذر من محبة المعاصي أن تنتشر بين المسلمين.

ـ أن هؤلاء الذين يودون هذا لهذه الأمة يودونه عن عمد وعناد من بعد ما تبيَّن لهم الحق.

ـ التدرج في معاملة الكفار، حيث أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه الآية أن نعفو ونصفح حتى يأتي الله بأمره.

ـ أنَّ الأحكام التي يحكم الله بها تنقسم إلى قسمين: أحكام مؤمَّدة ـ أي إلى أمد ـ، وأحكام مؤبَّدة ـ أي إلى الأبد ـ، فمن الأحكام المؤمَّدة هذه الآية: **﴿فاعفوا واصْفَحُوا حتَّى يأتي اللهُ بأَمْرِهِ﴾**، ومن أمثلة ذلك ـ أيضاً ـ قوله تعالى: **﴿واللاتي يأتينَ الفاحِشَةَ مِنْ نسائِكُمْ فأمسِكُوهُنَّ في البيوتِ حتَّى يتوفاهُنَّ الموتُ أو يجعلَ اللهُ لهُنَّ سَبِيْلاً﴾**[1] فهنا قال: **﴿حتَّى يتوفاهُنَّ الموتُ أو يجعل**

---

(١) الآية ١٥ من سورة النساء.

اللهُ لهُنَّ سبيلاً﴾ وقد جعل الله لهن سبيلاً كما أعلن ذلك رسولُ اللهُ - صلى الله عليه وسلم - فقال: « . . . **البِكْرُ بالبِكْرِ جَلْدُ مائةٍ ونَفْيُ سَنَةٍ، والثيِّبُ بالثَّيِّب جَلْدُ مائةٍ والرَّجْمُ**»[1].

- أنَّ الإنسان يُعذر بجهله إذا خالف الأمر أو النهي؛ لقوله: **﴿من بعد ما تبينَّ لهم الحقُّ﴾** وهذا الأصل قد دلَّ عليه الكتاب والسنة، ففي القرآن يقول اللهُ - عزَّ وجلَّ - : **﴿وما كُنَّا مُعَذِّبينَ حتى نبعث رَسولاً﴾**[2] ويقول تعالى: **﴿رُسُلاً مُبَشِّرينَ ومُنْذِرينَ لِئَلَّا يكُونَ للنَّاسِ عَلَى اللهِ حجة بعد الرُّسُل﴾**[3] ويقول تعالى: **﴿وما كان اللهُ لِيضل قوماً بعد إذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لهم ما يتقون﴾**[4] ويقول الله - سبحانه وتعالى - : **﴿وما كانَ ربُّكَ مُهْلِكَ القُرَى حَتَّى يَبْعَثَ في أُمِّها رَسُولاً يتلو عليهم آياتنا وما كُنَّا مُهْلِكي القُرى إلاَّ وأهلُها ظالمون﴾**[5]

وأما السنة فمن أدلتها أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يأمر

---

(١) أخرجه: مسلم (٣/١٣١٦) رقم (١٦٩٠)، وأبوداود (٤/٥٦٩ - ٥٧١) رقم (٤٤١٥)، والترمذي (٤/٣٢) رقم (١٤٣٤)، وابن ماجة (٢/٨٥٢ - ٨٥٣) رقم (٢٥٥٠)، و الدارمي (٢/١٨١)، وأحمد في المسند (٣/٤٧٦).

(٢) من الآية ١٥ من سورة الإسراء.

(٣) من الآية ١٦٥ من سورة النساء.

(٤) من الآية ١١٥ من سورة التوبة.

(٥) الآية ٥٩ من سورة القصص.

المسيء في صلاته أن يقضي ما فعله جاهلاً، وكان المسيء في صلاته لا يطمئن في ركوع ولا سجود ولا قيام ولا قعود حتى بيَّن له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يأمره بالإعادة، أي بإعادة ما سبق من الصلوات مع أنه كان لايطمئن، فالقول الصحيح الراجح أن من لم تبلغه الدعوة فإنه ليس عليه حرج فيما إذا مات وهو مسلم، لكن يفعل ما يخرج من الإسلام جهلاً، أو يترك ما يجب الإيمان به جهلاً.

ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة إثبات عموم قدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لقوله: ﴿إنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قدير﴾ ولا يستثنى من هذه القضية الكلية العامة شيء، كل شيء فالله قادر عليه، قادر على إيجاد المعدوم، وعلى إعدام الموجود، وعلى تغيير الشيء من حال إلى أخرى، وهنا نذكر ما يقوله بعض الناس عند الحديث عن قدرة الله حيث يقول: إنه على ما يشاء قدير، فإن هذا يقتضي تقييد القدرة بما يشاء الله، والله تعالى قادر على ما يشاء وما لا يشاء، وتقييد القدرة بما يشاء تضييق لمعناها العام الذي أراده الله تعالى بها، فالواجب أن تجرى على عمومها بدون استثناء، ويُقال: إن الله على كل شيء قدير.

ثم قال اللهُ تعالى: ﴿وأَقِيموا الصَّلاَةَ وآتُوا الزكاةَ وما تُقَدِّمُوا لأنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تجدوه عِنْدَ اللهِ إنَّ اللهَ بما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

في هذه الآيةً يأمر اللهُ تعالى بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصلاة تشمل الفرض والنفل، وهي معروفة، والزكاة هي الفرض فقط؛ لأن ما سوى الزكاة يُسمى صدقة أو نفلاً أو ما أشبه ذلك، والزكاة هي المال الذي أوجبه الله تعالى على عباده في أشياء معينة من الأموال، ويخرج منها الإنسان قدراً معيناً حسب ما عليه من المؤونة، ففي الحبوب والثمار يكون فيما سُقي بلا مؤونة العشر كاملاً، وفيما سُقي بمؤونة نصف العشر، حسب ما ينظر ولي الأمر في ذلك، ثم بيَّنَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ أن كل ما نقدمه من الخير فإنما نقدمه لأنفسنا، ونجد ثواب ذلك عند الله تعالى مُدَّخراً ولذلك قال: ﴿**وما تُقَدِّموا لأنفسكم من خيرٍ تجدوه عند اللهِ**﴾ ثمَّ بَيَّنَ الله تعالى أنه عليم بكل ما نعمل، بصير به، لا يخفى عليه شيء من أعمالنا.

فوائد وأحكام هذه الآية:

ـ وجوب إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿**وأقيموا الصَّلاة وآتوا الزكاة**﴾ وهذا ـ أعني إقامة الصلاة الواجبة ـ فيما هو واجب كالشروط والأركان والواجبات، أما ما كان مستحباً فإن الأمر بإقامته على سبيل الاستحباب.

ـ وجوب إيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿**وآتوا الزكاة**﴾ أي أعطوها مستحقها، وقد بيَّنت السُّنَّةُ كيف تكون إقامة الصلاة، وكيف يكون إيتاء الزكاة على وجه مبينٍ مُفَصَّل، فما توفي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا وقد أبان للأمة كل ما تحتاج إليه في أمور

دينها ودنياها، قال أبوذر ـ رضي الله عنه ـ : لقد توفي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً.

ـ الحث على تقديم الخير، لقوله تعالى: **﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾**.

ـ أن ما نقدمه من الخير لن يضيع، بل سنجده عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مُدَّخراً أحوج ما نكون إليه، ولكن يجب أن ننتبه هنا إلى أن ما نجده يوم القيامة من الخير قد يكون لغيرنا كما قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ : **«أتدرونَ ما الْمُفْلِسُ؟» قالوا: المفلس فينا مَنْ لا دِرهَم له ولا متاعَ. فقال: «إنَّ الْمُفْلِسَ من أمتي، يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شتمَ هَذَا، وقذفَ هذا، وأكل مالَ هذا، وسَفَكَ دمَ هذا، وضربَ هذا، فَيُعْطَى هَذَا من حسناتِهِ، وهذا من حسناته. فإن فنيت حسناتُهُ قبل أن يُقْضَى ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فَطُرِحَتْ عليه. ثُمَّ طُرِحَ في النَّار»**[1].

ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بصير بكل ما نعمل من خير وشر، لقوله تعالى: **﴿إنَّ الله بما تعملون بصير﴾**.

---

(١) الحديث رواه: مسلم في صحيحه (٤/١٩٩٧) رقم (٢٥٨١)، والترمذي (٤/٥٢٩ ـ ٥٣٠) رقم (٢٤١٨) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٠٣).

ـ تحذير العباد من المخالفة؛ لأن الله تعالى إنما قال: ﴿**إنَّ الله بما تعملون بصير**﴾ تحذيراً من أن نخالف أوامره، وأن نقع في نواهيه، فإننا ـ إن فعلنا ذلك ـ لن يخفى عليه شيء من أحوالنا.

ثم قال الله تعالى: ﴿**وقالُوا لَنْ يدخلَ الجَنَّةَ إلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أو نَصَارى تِلْكَ أمانيُّهُم قُلْ هاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صادِقِين بَلَى من أسْلَمَ وجهه لله وهو مُحْسِنٌ فَلَهُ أجرُهُ عِنْدَ ربه ولا خوفٌ عليهم ولا هُمْ يحزنون**﴾.

﴿**وقالوا**﴾ أي اليهود والنصارى ﴿**لن يدخلَ الجنة إلا من كان هُوداً**﴾ يقوله اليهود، ﴿**أو نصارى**﴾ يقوله النصارى، يعني وأنتم أيها المسلمون لن تدخلوا الجنة، قال الله تعالى: ﴿**تِلْكَ أمَانيُّهُم**﴾ أي هذه أماني وأوهام باطلة لا تستند إلى شيء من الوحي المنزَّل على الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، ولهذا قال: ﴿**قُلْ هاتوا برهانكم**﴾ أي قل لهؤلاء القائلين هذه المقولة متحدياً لهم ﴿**هاتوا برهانكم**﴾ أعطونا حجتكم التي تثبتون بها ما زعمتم من أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴿**إنْ كُنتم صادقين**﴾ فيما تقولون، ومن المعلوم أنهم لن يجدوا حُجّة لما قالوه، ولهذا قال بعدها: ﴿**بَلَى من أسلمَ وجْهَهُ لله وهو مُحْسِنٌ**﴾ «بلى» فيها إبطال لما سبق من دعواهم أنه لن يدخل الجنة إلَّا من كان هوداً أو نصارى، ثم يبيّن اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ من الذي يدخل الجنة حيث يقول: ﴿**مَنْ**

أسلمَ وجهه لله وهو محسنٌ﴾ وقوله: **﴿أسلم وجهه لله﴾** أي جعله مستسلماً لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، مقبلاً عليه، **﴿وهو محسن﴾** في أعماله. والإحسان هو اتباع شريعة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فشرط الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمرين: الأمر الأول: الإخلاص بأن يكون أسلم وجهه لله، والثاني: المتابعة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، بأن يكون قد أحسن، فهذا له أجره عند ربه، أي ثوابه وسمَّى اللهُ الثواب أجراً؛ لأن الله تعالى التزم به لمن عمل صالحاً فصار بمنزلة الأجر الذي يستوفيه المستأجَر على العمل **﴿فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم﴾** فيما يستقبل من أمرهم **﴿ولا هم يحزنون﴾** على ما مضى من أمرهم.

فوائد وأحكام هاتين الآيتين:

ـ بيان دعوى أهل الكتاب من اليهود والنصارى أنه لا يدخل الجنة إلا من كان مثلهم: يهودياً أو نصرانياً.

ـ أن أهل الكتاب يؤمنون بالبعث والجزاء؛ لأنَّ الجنة إنما يدخلها أهلها بعدالبعث يوم القيامة.

ـ أن يُقَدِّم المناظِر الحكم على قول مناظِره، ثم يطلب منه الحُجَّة على إثباته، ولهذا قال: **﴿تِلْكَ أمانيُّهُم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾** ونظير ذلك أن يقول قائل: هذا واجب لا بُدَّ من فعله، فأقول: هذا قولك فهات دليلك إن كنت صادقاً فيُثْبِت

المَناظِر أولاً أن هذا قول المناظِر، وأن هذا ليس له أصل، ثم يتحداه بطلب الدليل.

ـ قوة المحاجة في كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ التي تدحض الخصم وتفحمه، تدحض حجته وتفحمه، ولهذا قال: ﴿**قُلْ هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾. ومن المعلوم أنه لا برهان لهم في ذلك، فإن دخول الجنة ليس معلقاً باليهودية أو النصرانية، بل هو مُعَلَّقٌ بما ذكره الله تعالى فيما بعد.

ـ الإنصاف في معاملة الخصم، وإلا فإنه يكفي أن يقول اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ هذا باطل، ولكنه ـ سبحانه وتعالى ـ حكم عدل، فطلب من هؤلاء المدَّعين أن يأتوا بالحجة والبرهان.

ـ أنه لا تُقبل الدعوى إلا ببينة، فمن ادَّعى حُكماً من أحكام الله الأخروية أو الدنيوية فإن عليه أن يبرهن على ما قال، فإنْ أثبت ما قال بالبرهان والدليل وإلا وجب رده عليه.

ـ أنَّ اليهود والنصارى لا حُجَّة لهم إطلاقاً فيما ادَّعوه من أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وما أكثر دعاوى اليهود والنصارى بأنهم أهل الجنة، وبأنهم يُخرجون من النار إن عُذبوا بها، وبأنهم أبناء الله وأحباؤه، وكل هذه الدعاوى يبطلها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ويبين كذبها.

ـ أن الثواب لا يحصل إلا بأمرين: الأمر الأول: إسلام الوجه لله، وذلك بأن يخلص الإنسان قصده، فلا يقصد

بعبادة الله تعالى ملكاً مقرباً، ولا نبياًمرسلاً، ولا محاباة لأحد، ولا توصلاً لسلطان أو جاه أو مال، وإنما يقصد بذلك ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وهذا المفهوم من قوله: ﴿**بَلَى من أسلم وجهه لله**﴾. الأمر الثاني: أن العبادة لا تقبل ولا تنفع إلا بالإحسان، وهو متابعة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحيث تكون العبادة على وفق ما جاء عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودليل هذين الأصلين العظيمين قوله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿**فمن كانَ يرجو لقاءَ رَبِّهِ فليعملْ عملاً صالحاً ولا يُشْرِكْ بعبادةِ ربه أحداً**﴾[1] وقوله تعالى: ﴿**ومَنْ يُشَاقِقِ الرسولَ من بعدِ ما تبينَّ لَهُ الهُدَى ويتَّبِعْ غيرَ سبيلِ المؤمنين نوله ما تولَّى ونُصْلِهِ جهنَّم وساءت مصيراً**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**قُلْ إنْ كُنتم تحبون الله فاتبعوني يُحبِبْكُمُ اللهُ ويغفِرْ لكم ذنوبكم**﴾[3].

وثبت عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «**إنما الأعمال بالنيَّات ولكلِّ امرىءٍ ما نوى. فَمَنْ كانت هجرتُهُ إلى اللهِ وإلى رسولـه فهجـرتُهُ إلى الله وإلى رسوله. ومَنْ كانت هجرتُهُ لدنيا يصيبها، أو امرأةٍ يتزوجها، فهجرتُهُ إلى ما هاجر إليه**»[4].

(١) من الآية ١١٠ من سورة الكهف.

(٢) الآية ١١٥ من سورة النساء.

(٣) من الآية ٣١ من سورة آل عمران.

(٤) رواه: البخاري (١/ ١٧٩ ـ ١٨٠) رقم (٥٤)، ومسلم (٣/ ١٥١٥ ـ ١٥١٦) رقم (١٩٠٧)، وأبوداود (٢/ ٦٥١ ـ ٦٥٢) رقم (٢٢٠١)، والترمذي =

وثبت عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: **«قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : أنا أغنى الشركاء عن الشّرك مَنْ عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركتُهُ وشركَه»**[1].

وثبت عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: **«مَنْ عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»**[2].

فلا بد للعمل من شرطين: أحدهما: الإخلاص لله، والثاني: المتابعة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وليُعلم أنَّ المتابعة لا تتحقق إلا إذا وافق العمل الشريعة في أمور ستة: الأول: في الجنس، والثاني: في الصفة والكيفية، والثالث: في القدر، والرابع: في السبب، والخامس في العدد، والسادس: في الزمان والمكان، فمن شرع عبادة لسبب لم يجعله الشارع سبباً لها لم تقبل منه هذه العبادة، من تعبد لله بعبادة على سبب لم يجعله الشارع سبباً لها فإنها لا تُقبل منه، ومن تعبد لله بجنسٍ غير ما شرع فإنه لا يُقبل منه، مثل أن يُضَحِّي الإنسان بفرسٍ، فإن ذلك لا يُقبلُ منه أضحية، ولو كان الفرس أغلى من البعير، لأنها من جنس غير ما

= (٤/١٥٤) رقم (١٦٤٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (١/٦٢ ـ ٦٣) رقم (٧٥)، وابن ماجة (٢/١٤١٣) رقم (٤٢٢٧)، والإمام أحمد في مسنده (١/٢٥).

(١) سبق تخريجه ص ٢٣ .

(٢) سبق تخريجه ص ٦٤ .

أُذن فيه، ولو أنَّهُ خالف الشرع في القدر بأن صَلَّى الظهر خمساً أو ثلاثاً، فإنها لا تُقبل منه، لأن المخالفة للشرع في القدر، ولو خالفت الشرع في الزمن بأن ضَحَّى الإنسان في غير أيام الذبح فإنها لا تقبل منه، أو حجَّ في رمضان فإن ذلك لا يُقبل منه، لأنه في غير الزمن المحدد شرعاً، أو المكان فلو خالف في المكان لم تُقبل منه العبادة مثل أن يعتكف في غير المسجد، فإن هذا الاعتكاف لا يُقبل منه، لأنه في غير المكان الذي عيَّنَه الشرع للاعتكاف، وكذلك لو خالفت العبادة الشرع في الهيئة والكيفية، بأن صلَّى صلاة منكسة، يبدأ بالسجود قبل الركوع، أو يتوضأ وضوءاً منكساً، يبدأ بالرجلين قبل بقية الأعضاء، فإن ذلك لا يصح.

- ومن فوائد وأحكام الآيتين أنَّ من عمل عملاً مبنياً على الإخلاص والمتابعة فإن أجره يثبت له عند الله، لقول الله - تعالى - : ﴿**فَلَهُ أجره عند ربه**﴾.

- أن من وُفِّقَ للعمل على هذا الوجه فإن ذلك من ربوبية الله له، الربوبية الخاصة، لقوله: ﴿**عند ربه**﴾.

- أنَّ من قام بالعبادة على هذا الوجه: الإخلاص والمتابعة، فإنه لا خوف عليه في مستقبله ولا حزن عليه في ماضيه، لأنه سوف يصل إلى النعيم والسعادة، قال الله تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينَّهُ حياةً طيبةً ولنجزِيَنَّهم أجرهم**

بأحسنِ ما كانُوا يعملُون﴾[1].

ـ أنَّ من لم يتَّصف بهذه الصفة (أي من لم يسلم وجهه لله وهو محسن) فإن عمله هباء، ليس فيه أجر، فلو عمل الإنسان عبادة أشرك فيها مع الله فهي مردودة عليه، ولو عمل عبادة ليست متمشية مع السنة التي جاء بها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن عبادته مردودة عليه.

ـ أنَّ من لم يتعبد لله بهذين الشرطين: الإخلاص والمتابعة فإنه يحل به الخوف والحزن، الخوف في المستقبل، والحزن في الماضي، ولهـذا يتمنى الكُفَّار يوم القيامة أن يردوا إلى الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً فيقولون: **﴿يا ليتنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبُ بآياتِ ربنا ونكونَ من المؤمنين﴾**[2] قال الله تعالى: **﴿بَلْ بَدَا لهم ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبلُ ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهُوا عنه وإنَّهُمْ لكاذبون﴾**[3].

ـ أنَّ الثواب والأجر ـ الذي يحصل لمن أسلم وجهه لله وهو محسن ـ ثوابٌ عظيم؛ لأنَّ الله أضافه لنفسه فقال: **﴿فَلَهُ أجرُهُ عند ربه﴾** والثواب من العظيم يكون عظيماً ولا شك.

ثم قال الله تعالى: **﴿وقَالَتِ اليهُودُ ليْسَتِ النَّصارى عَلَى شيَءٍ**

---

(١) الآية ٩٧ من سورة النحل.

(٢) من الآية ٢٧ من سورة الأنعام.

(٣) الآية ٢٨ من سورة الأنعام.

وقَالت النَّصَارى ليْسَتِ اليهودُ عَلَى شيءٍ وهُمْ يتلونَ الكِتابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قولِهِمْ فاللهُ يحكمُ بينَهُمْ يومَ القيامةِ فيما كانُوا فيه يَخْتَلِفُونَ﴾ .

اليهود هم أتباع موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، والنصارى أتباع عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وكل منهما يضلل الآخر كما في هذه الآية الكريمة : ﴿قالت اليهود ليست النصارى على شيءٍ وقالت النصارى ليست اليهودُ على شيءٍ﴾ يضلل بعضهم بعضاً ﴿وهم يتلون الكتاب﴾ ويعلمون من هو على الحق ، ولا شك أنَّ النصارى كانوا على الحق حين كانت ملتهم قائمة قبل بعثة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأنَّ اليهود كانوا على باطل ، حيث كفروا بعيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع أنه مرسل إليهم ، لقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيْسَى ابنُ مريمَ يا بني إسرائيلَ إنِّي رسولُ اللهِ إليكم مُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراةِ ومُبَشِّراً بِرَسُولٍ يأتي مِنْ بَعْدِي اسمُهُ أحمدُ﴾(١) وبعد أن بُعث النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانوا كلهم على دين منسوخ ، وليسوا على شيء ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ومَنْ يبتغِ غير الإسلام ديناً فَلَنْ يُقبلَ مِنْهُ وهُوَ في الآخِرةِ مِنَ الخاسرين﴾(٢) وكانوا أولياء بعضهم لبعض كما قال الله تعالى :

---

(١) من الآية ٦ من سورة الصف .

(٢) من الآية ٨٥ من سورة آل عمران .

﴿يـا أيُّها الَّذينَ آمنُوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياءُ بعض﴾[3] وصارت النصارى كاليهود في كونهم علموا الحق ولم يتَّبعوه، قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قالَ الذينَ لا يعلمون الحق مثل قولهم﴾ أي قال أهل الجهل والضلال مثل قولهم أي في أنهم على الحق ومَنْ سواهم على الباطل وليس على شيء ﴿فاللهُ يحكم بينهم فيما كانُوا فيه يختلفون﴾ إذا بُعِثَ الناسُ فإنَّ الله يَفْصِلُ بين الخلق، من هو على الحق، ومن هو على الباطل.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

- بيان عداوة اليهـود والنصـارى بعضهم لبعض، وأن كل طائفة منهم تضلل الطائفة الأخرى، ولكن هذه العداوة بعد بعثة محمـد - صلى الله عليه وسلم - صارت ولاية كما قال الله تعـالى: ﴿والَّـذينَ كفروا بعضهم أولياءُ بعض﴾[2] وقال تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمنُوا لا تَتَّخِذُوا اليهودَ والنَّصارى أولياء بعضهم أولياءُ بعض﴾[3].

- أنَّ هذه المقالة التي قالتها اليهود، وقالتها النصارى يقولها - أيضاً - كلُّ من كان جاهلاً، أي كل من كان ذا جهالة، وليس

(١) من الآية ٥١ من سورة المائدة.
(٢) من الآية ٧٣ من سورة الأنفال.
(٣) من الآية ٥١ من سورة المائدة.

عنده علم، فإنه يقول مثل هذا القول الباطل الذي يريد أن يدحض به الحق.

- إثبات الجزاء يوم القيامة؛ لقوله تعالى: **﴿فاللهُ يحكمُ بينهم يومَ القيامة﴾**.

- أنَّ الذين اختلفوا في الكتاب وفي الرسل سوف يقضي الله تعالى بينهم يوم القيامة، ويبيِّنُ من هو على الحق، ومن هو على الباطل، وقد قال اللهُ - سبحانه وتعالى - في سورة النساء: **﴿فاللهُ يحكمُ بينكم يوم القيامة ولَنْ يجعلَ اللهُ للكافرينَ على المؤمنينَ سبيلاً﴾**[1].

- إثبات يوم القيامة وهو اليوم الآخر. والإيمان به أحد أركان الإيمان الستة، لقول النبي - صلى الله عليه وسلم - لجبريل حين سأله أن يخبره عن الإيمان: **«الإيمان أن تؤمِنَ باللهِ وملائكتِهِ وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»**[2].

ثم قال الله تعالى: **﴿ومَنْ أظْلَمُ مِمَّن منعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيْهَا**

---

(١) من الآية ١٤١ من سورة النساء.

(٢) رواه: البخاري (١/١٥٣) رقم (٥٠)، ومسلم (١/٣٧ - ٣٨) رقم (٨) و(٩) وغيرهما.

اسْمُهُ وسَعَى في خرابِها أُولئِكَ ما كَانَ لَهُمْ أَنْ يدخُلُوها إلاَّ خائفينَ لَهُمْ في الدنيا خزيٌ ولَهم في الآخرةِ عذابٌ عظيمٌ﴾.

قوله: ﴿ومن أظلم﴾ يعني لا أحد أظلم، فالجملة استفهام بمعنى النفي، فلا أحد أظلم من شخص أو طائفة تمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، أي تمنع الناس من دخول مساجد الله ليذكروا فيها اسم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالصلاة وغيرها ﴿وَسَعَى في خرابها﴾ أي أن منع المساجد أن تُدخل ويُذكر فيهااسم الله خرابٌ لها، فإن عمارة المساجد إنما تكون بما يُقام فيها من ذكر الله، وبينَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن هؤلاء الذين منعوها وكان لهم السلطة سوف تدور عليهم الدوائر حتى لا يدخلوها إلا خائفين، أي لا يدخلون هذه المساجد إلا وهم في خوف وقلق واضطراب من المؤمنين الذين آلت هذه المساجد إليهم، وقوله: ﴿ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفينَ﴾ هذا النفي يحتمل أن يكون المعنى ما كان لهم شرعاً أن يدخلوها إلا خائفين، أو ما كان لهم قَدَراً أن يدخلوها إلا خائفين، والمعنيان كلاهما صحيح ﴿لهم في الدنيا خزيٌ﴾ أي عار وذُل ﴿ولهم في الآخرةِعذابٌ عَظِيمٌ﴾ فينالون بعد العز والسلطة والغلبة ذلاًّ في الدنيا، وعذاباً في الآخرة.

فوائد وأحكام هذه الآية:

- تحريم منع مساجد الله من أن يُذكر فيها اسمه.

- الإشـارة إلى أن المساجد إنما بُنيت لذكر الله - عزَّ وجلَّ - لقوله: ﴿أن يذكر فيها اسمه﴾.

وقـد جاءت السنـة مصرحـة بذلـك، ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «**بينما نحن في المسجد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: مَهْ مَهْ قال: قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «لا تزرموه[1] دعوه» فتركوه حتى بال. ثم إنَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعاه فقال له: «إنَّ هذه المساجد لا تصلح لشيءٍ من هذا البول والقذر إنما هي لذكر الله - عزَّ وجلَّ - والصلاة وقراءة القرآن» أو كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -**»[2].

- الإشارة إلى أن ما يتعلق بأمور الدنيا من بيع وشراء وإجارة ونحوها لا يحل إيقاعه في المسجد، ولهذا قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «**إذا رأيتم من يبيع أو يبتاعُ في المسجد، فقولوا: لا أَرْبحَ اللهُ تجارتـك. وإذا رأيتم من يُنشِدُ فيه ضالة فقولوا: لا ردَّ اللهُ**

---

(١) أي لا تقطعوا. والإزرام: القطع.

(٢) رواه البخاري (١/٤٢٨) رقم (٢١٩)، ومسلم (١/٢٣٧) رقم (٢٨٥) واللفظ له، والنسائي (١/٥٠) رقم (٥٣)، وابن ماجة (١/١٧٥ - ١٧٦) رقم (٥٢٨)، والترمذي (١/٢٧٦) رقم (١٤٨)، وأحمد في المسند (٣/١٦٧).

عليك»[1] وفي رواية لمسلم: **«من سَمِعَ رجلاً يُنشدُ ضالة في المسجد فليقُلْ: لا ردَّها اللهُ عليك. فإنَّ المساجدَ لم تُبنَ لهذا»**[2].

- أن ذكر الله - عزَّ وجلَّ - يكون بذكر اسمه، وذلك يقتضي أن يكون باللسان، وذكر الله - سبحانه وتعالى - يكون باللسان، ويكون بالقلب، ويكون بالجوارح. أما ذكر الله بالقلب فأن يكون الإنسان متفكراً متأملاً في آيات الله - سبحانه وتعالى - الدالة على عظيم سلطانه، وما تقتضيه رحمته وحكمته. وأما الذكر باللسان فهو يتناول كل قول يقرب إلى الله - عزَّ وجلَّ - من قراءة القرآن والتسبيح والتكبير والحمد والتهليل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم وغير ذلك من كل قول يقرب إلى الله - عزَّ وجلَّ - وأما الذكر بالجوارح فيشمل كل فعل يتقرب به الإنسان إلى ربه كالوضوء والغسل والصلاة والصوم والصدقة وغير ذلك من أفعال الجوارح.

- أن عمارة المساجد إنما هي بذكر الله - عزَّ وجلَّ - وما يفعل فيها من الطاعة؛ لقوله: ﴿**أن يُذكر فيها اسمه وسَعَى في خرابها**﴾ والسعي في خرابها - كما يشمل منع ذكر الله تعالى فيها - فإنه يشمل

---

(١) رواه الترمذي (٣/ ٦١٠ - ٦١١) رقم (١٣٢١) وقال: «حديث حسن غريب»، والدارمي (١/ ٣٢٦).

(٢) رواه مسلم (١/ ٣٩٧) رقم (٥٦٨).

- أيضاً - الخراب الحسي، وذلك بهدمها حتى لا يقام الذكر في هذه البقعة.

- البشرى للمؤمنين أن هؤلاء الذين سُلطوا على المؤمنين بمنعهم من مساجد الله أن يذكروا فيها اسم الله سوف تكون العاقبة عليهم، أي على هؤلاء المتسلطين المانعين؛ لقوله: **﴿أولئِكَ ما كانَ لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾** وهذه العاقبة تؤيدها آيات أخرى مثل قوله تعالى: **﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ ولا قَوْمُكَ من قبلِ هذا فاصبر إنَّ العاقبةَ للمتَّقين﴾**[1] وقال تعالى: **﴿قال موسى لقومه استعينُوا باللهِ واصبروا إنَّ الأرضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يشاءُ مِن عباده والعاقبةُ للمتقين﴾**[2].

- أن هؤلاء المتسلطين على عباد الله بمنعهم من مساجد الله أن يذكروا فيهااسم الله سيناهم عقوبتان: عقوبة في الدنيا، وهي الخزي أي الذل والعار، وعقوبة في الآخرة وهي العذاب العظيم.

- التحذير من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، بأن الإنسان سوف يعاقب مرتين: مرة في الدنيا، ومرة في الآخرة كما ذكر الله تعالى في هؤلاء.

---

(١) الآية ٤٩ من سورة هود.

(٢) الآية ١٢٨ من سورة الأعراف.

ثم قال تعالى: ﴿ولِلَّهِ المشْرِقُ والمغْرِبُ فأينما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إنَّ اللهَ واسِعٌ عليمٌ﴾.

قولـه: ﴿واسـع﴾ أي محيط بكل شيء، وواسع الصفات، وواسع الهبات، وواسع الفضل، عليم بكل شيء، فالله - تعالى - يبيِّن في هذه الآية أنه تعالى محيط بكل شيء، وأن الإنسان مهما تولَّى فإن الله تعالى محيط به، عالم به.

فوائد وأحكام هذه الآية:

- عموم ملك اللهِ - عزَّ وجلَّ - في قوله: ﴿ولله المشرقُ والمغرِبُ﴾.

- أن هذا العموم لا يأتي لأحد سوى الله، لقوله: ﴿ولله المشرق والمغرب﴾ فإن تقديم الخبر يفيد الحصر كما قرر ذلك علماءُ البلاغة.

- أن الإنسان مهما تولَّى واتجه إلى شيء فَثَمَّ وجه الله، واختلف المفسرون في المراد بوجه الله هنا، هل هو وجه الله الذي هو صفة من صفاته؟ أم المراد الجهة، فإن الوجه يأتي بمعنى الجهة فيقال وُجهة ووجه وجهة، كما يقال: سافر فلان إلى هذا الوجه أي إلى هذه الجهة على قولين، والآية تحتملهما جميعاً.

- أن الإنسان إذا صلَّى إلى جهة مجتهَدًا حيث يحل له الاجتهاد

معتقداً أن هذه الجهة هي القبلة فإن صلاته تصح، لقوله تعالى: ﴿فأينما تُولُّوا فثَمَّ وجه الله﴾.

- إثبات وجه الله - سبحانه وتعالى -، والواجب إجراء الآية على ظاهرها، وأن يعتقد المرء أن لله - سبحانه وتعالى - وجهاً حقيقياً يليق بجلاله وعظمته، ولا يماثل أوجه المخلوقين، وهكذا بقية صفاته كاليدين والعينين، فإن الواجب على المؤمن إثبات ذلك على حقيقته، لكن بدون أن يكيّفه، أي بدون أن يتصوَّر له كيفية معينة، لأنه مهما بلغ الإنسان في التخيُّل فإنَّ اللهَ - سبحانه وتعالى - أعظم مما يتخيَّله، ومن غير تمثيل، فلا يجوز أن يعتقد الإنسان أو يتصور أن وجه الله تعالى كأوجه المخلوقين؛ لأنَّ اللهَ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

- إثبات سعة علم الله - عزَّ وجلَّ - وإحاطته بكل شيء، وذلك أن كل الأشياء بالنسبة إليه تعالى صغيرة كما قال الله تعالى: ﴿يومَ نطوي السَّماءَ كطيِّ السِّجلِ للكتب كما بدأنا أولَ خلقٍ نعيدُهُ وعْدَاً علينا إنَّا كُنَّا فاعلين﴾[1] وقال تعالى: ﴿وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرضُ جميعاً قبضتُهُ يومَ القِيامةِ والسمواتُ مطوياتٌ بيمينه سبحانه وتعالى عما يُشركون﴾[2].

---

(١) الآية ١٠٤ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر.

- إثبات العلم لله - عزَّ وجلَّ - ، وعلمه - تعالى - محيطٌ بكل شيء، قال تعالى: ﴿إنَّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرضِ ولا في السماء﴾[1] وقال: ﴿يعلم خائنة الأعينِ وما تخفي الصدور﴾[2] وقال: ﴿ولقدْ خلقنا الإنسانَ ونَعْلَمُ ما توسْوِسُ به نَفْسُهُ ونحنُ أقربُ إليهِ من حبلِ الوريد﴾[3].

- الحذر من مخالفة الله - عزَّ وجلَّ - بترك أوامره أو فعل نواهيه، لأنه عالم - سبحانه وتعالى - بذلك، وعلمه بذلك يقتضي الحذر من مخالفته.

- ثم قال تعالى: ﴿وقالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سبحانَهُ بلْ لَهُ ما في السمواتِ والأرْض كُلٌّ لَهُ قَانِتُون بديعُ السمواتِ والأرْضِ وإِذَا قَضَى أَمْرَاً فَإِنَّما يقولُ لَهُ كُنْ فيكون﴾.

﴿وقالوا﴾ الضمير يعود إلى كل من تفوَّه بهذه المقالة الكاذبة المنكرة من اليهود والنصارى وغيرهم، فاليهود قالوا: عزير ابنُ الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله، وكل هؤلاء قالوا فرية عظيمة، وإثماً مبيناً، ولهذا قال الله

---

(١) الآية ٥ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ١٩ من سورة غافر.

(٣) الآية ١٦ من سورة ق.

تعالى: ﴿**سبحانه**﴾ أي تنزيهاً له أن يكون له ولد، لأن الله غني عن كل شيء، وهو مالك لكل شيء، والولد إنما يتخذه من كان محتاجاً مفتقراً. أما الرب ـ عزَّ وجلَّ ـ فإنه ليس بحاجة إلى أحد؛ لأن له الملك الـمُطلق، بل له ما في السموات والأرض، ولأن كل أحد خاضع لله، ذليل له، منقاد لأمره الكوني، والمؤمن منقاد لأمره الشرعي ﴿**كُلٌّ له قانتون بديع السموات والأرض**﴾ أي خالقهما ابتداء على غير مثال سبق، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ الذي خلق السموات والأرض، وهو قادر على كل شيء فكيف تجعلون له ولداً وقد خلق كل شيء ﴿**وإذا قضى أمراً**﴾ أي قضاه قدراً وكوناً ﴿**فإنما يقول لَهُ كُنْ فيكون**﴾ كلمة واحدة لا تثنى مرة أخرى يقولها ـ جلَّ وعلا ـ للشيء مهما كان فيكون في الحال، فليس بغريب أن يخلق الله تعالى عيسى بن مريم بلا أب، قال تعالى: ﴿**إنَّ مَثَلَ عيسى عند اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فيكُون**﴾[1].

فوائد وأحكام هاتين الآيتين:

ـ بيان هذه الفرية العظيمة التي افتراها الظالمون على ربهم ـ جلَّ وعلا ـ وهي أنَّ الله اتخذ ولداً، وقد بيَّنا أن اليهود قالوا: عزير ابنُ الله، وأن النصارى قالوا: عيسى ابن الله، وأن المشركين قالوا: الملائكة بنات الله.

(١) الآية ٥٩ من سورة آل عمران.

- بيان تنزيه الله - عزَّ وجلَّ - عن كل عيب ونقص، لقوله: ﴿**سبحانه**﴾ ومن ذلك تنزيهه عن اتخاذ الولد.

- بيان كامل غنى الله - عزَّ وجلَّ - عن اتخاذ الولد، حيث إنه - سبحانه وتعالى - مالك السموات والأرض وما فيهما.

- أن جميع الخلق قانت لله، ومنهم عزير والمسيح والملائكة، كل قانت لله - عزَّ وجلَّ - ذليل له، فلا يمكن أن يكون ولداً له - سبحانه وبحمده -.

- أن الله - سبحانه وتعالى - لا ينبغي أن يتخذ ولداً؛ لأنه خالق السموات والأرض، فهو مستغن عن الولد.

- إقامة الدليل على بطلان الشبهة التي احتج بها النصارى على كون المسيح ابن الله، حيث قالوا: إنه خُلِقَ بلا أب، فأبوه هو الله، فبيَّن اللهُ - عزَّ وجلَّ - أنه خالق السموات والأرض وهذا أكبر من خلق الناس، وخالق السموات والأرض لا يمتنع عليه أن يخلق البشر.

- بيان كمال قدرة الله - عزَّ وجلَّ - في قوله: ﴿**وَإِذا قَضَى أَمْرَاً فإنما يقولُ لهُ كُنْ فَيَكُون**﴾.

- أنَّ الأمر - مهما كانت عظمته - فإن الله تعالى قادر عليه

بكلمة واحدة وهي «كن» فيكون كما أراد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ولهذا لما خلق الله القلم قال له: اكتب. قال: ربِ ومـاذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.

ـ إثبات القول لله، وأن الله يقول، وأن قوله بحروف لقوله: ﴿كُنْ﴾ فإن هذه الكلمة حروف، وفيه ردٌّ على من يقول: إن كلام الله ـ عزَّ وجـلَّ ـ وقوله هو المعنى القائم بنفسه، وليس حروفاً أو أصواتاً تسمع، وإنما كلامه هو المعنى القائم بالنفس، وما يسمع من ذلك فإنه عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله، ولا شك أن هذا القـول خطأ عظيم، وخـطل فاحش، فإن القول الذي يكون في النفس لا يُطلقُ عليه اسمُ القول، بلْ لا بُدَّ أن يُقيَّد كما قال تعالى: ﴿ويقولُونَ في أنفسهم لولا يعذبنا الله﴾[1] أما القول عند الإطلاق، فإنه القول الذي يسمع ويكون من حروف يسمعها مَنْ وجِّه إليه الخطاب، وقد قال الله تعالى في موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ : ﴿وكَلَّمَ اللهُ موسى تكليماً﴾[2] وقال: ﴿وناديناه من جانب الطورِ الأيمنِ وقَرَّبناه نجِيّاً﴾[3] وهذا ـ أعني كون كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ

---

(١) من الآية ٨ من سورة المجادلة.

(٢) من الآية ١٦٤ من سورة النساء.

(٣) الآية ٥٢ من سورة مريم.

من حروف وأصوات مسموعة ـ هو قول السلف، وأئمة الخلف، ولا عبرة بمن خالف طريقهم.

ـ أن كل شيء يسمع كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إذا وجّه إليه الكلام، لأنه يوجِّه الأمر كن إلى الشيء المراد فيكون على ما أراد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ .

ـ ثم قال الله تعالى: ﴿وقَالَ الَّذينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أو تَأْتِينَا آيةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنا الآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

قوله: ﴿الذين لا يعلمون﴾ أي ليس عندهم شيء من العلم، بل هم في جهل وجهالة ﴿لولا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾ يقولون ذلك لرسلهم، يطلبون آية يقترحونها على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وذلك أن يكلمهم الله تعالى: ﴿أو تأتينا آية﴾ أي علامة على صدق ما جاءت به الرسل، فبيَّن اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ أن هذا القول قد قاله من قبلهم، ولقد اقترحت قريش على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ آيات متعددة ﴿وقالُوا لَنْ نؤمنَ لكَ حتَّى تُفَجِّرَ لَنَا من الأرضِ ينبوعاً. أو تكونَ لَكَ جَنَّةٌ من نخيلٍ وعِنَبٍ فتفجِّرَ الأنهارَ خلالَها تفجيراً أو تسقطَ السماءَ كما زعمتَ علينا كِسَفَاً أو تأتِيَ باللهِ والملائكةِ قبيلاً أو يكونَ لكَ بيتٌ مِنْ زُخرُفٍ أو ترقى في السماء ولَنْ نؤمنَ لرقيِّكَ حتَّى تُنَزِّلَ

علينا كتاباً نقرؤُهُ قُلْ سبحانَ ربي هل كنتُ إلا بشراً رسولاً﴾[1] فهم يطلبون آيات يقترحونها مع أن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ جاءوا بآيات بينات، ما من رسول أرسله الله إلا أعطاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر؛ قال الله تعالى: **﴿كذلكَ قال الذين من قبلهم مثلَ قولهم﴾** أي مثل هذا القول الذي قالوه قاله من سبقهم واقترحوا آيات على رسلهم، ومن ذلك قول بني إسرائيل لموسى: **﴿لن نؤمنَ لك حتى نرى الله جهرةً﴾**[2] **﴿تشابهت قلوبهم﴾** وإذا تشابهت القلوب تشابهت الأعمال؛ لأن الأعمال تصدر عن القلب؛ لقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «. . . **أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القَلْبُ**»[3] فمتى صلح القلب صلحت الجوارح، ومتى فسد القلب فسدت الجوارح، نسأل الله أن يصلح قلوب الجميع، **﴿تشابهت قلوبهم﴾** وإذا تشابهت قلوبهم تشابهت أقوالهم وأعمالهم، قال الله تعالى: **﴿قد بيَّنا الآياتِ لقومٍ يوقنون﴾** يعني قد أظهرنا إظهاراً يبين به الأمر **﴿الآيات﴾** أي العلامات الدالة على

---

(١) الآيات (٩٠ ـ ٩٣) من سورة الإسراء.

(٢) من الآية ٥٥ من سورة البقرة.

(٣) رواه ضمن حديث: البخاري (١/١٦٨) رقم (٥٢)، ومسلم (٣/١٢١٩ ـ ١٢٢٠) رقم (١٠٧)، وابن ماجة (٢/١٣١٨ ـ ١٣١٩) رقم (٣٩٨٤)، والدارمي (٢/٢٤٥).

صدق الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ، لكن لا ينتفع بها إلا الموقن ﴿لقوم يوقنون﴾ أما من ليس بموقن، بل هو في شك وريب فإنـه لا تنفعه الآيات كما قال اللهُ ـ تعالى ـ : ﴿**وما تُغني الآياتُ والنُّـذُرُ عن قومٍ لا يؤمنون**﴾[1] وقال تعالى فيمن إذا تليت عليه آيات الله قال: أساطير الأولين: ﴿**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**﴾[2].

فوائد وأحكام الآية الكريمة:

ـ بيان عظم عناد الكفار المحادين لله ورسله، ﴿**وقال الَّذينَ لا يعلمون لولا يكَلِّمُنَا اللهُ أو تأتينا آية**﴾ ووجه ذلك أن الله تعالى آتى الرسل آيات يؤمن على مثلها البشر.

ـ بيان كذب هؤلاء المعـانـدين، لأن طلبهم هذا يتضمن ادعـاءهـم بأنهم لم تأتهم آيات، وهـذا كذبٌ محضٌ، فالآيات جاءتهم، وبُيِّنت لهم، لكنهم ـ والعياذ بالله ـ قد حقَّت عليهم كلمة الله، ومَنْ حَقَّت عليه كلمة الله فإنه لا يؤمن، قال الله تعالى: ﴿**إنَّ الذين حقَّت عليهم كلمةُ رَبِّكَ لا يُؤمنون. ولو جاءتهم كُلُّ آيةٍ حتَّى يروا العذاب الأليم**﴾[3].

---

(١) من الآية ١٠١ من سورة يونس.

(٢) الآية ١٤ من سورة المطففين.

(٣) الآيتان ٩٦ و ٩٧ من سورة يونس.

- أن القلوب إذا تشابهت، تشابهت الأقوال والأعمال، لقوله حين حكى عمن سبق أنهم قالوا كما قال المكذبون لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ﴿تشابهَتْ قُلُوبهم﴾.

- الإشارة إلى أن القلوب هي الموجهة للبدن، لقوله: ﴿تشابهت قلوبهم﴾ وقد ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صَلَحَتْ صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسدَ الجسد كله ألا وهي القلب**»[1].

- تشابه أعمال الكفرة، أي مشابهة لاحقيهم لسابقيهم.

- أنَّ الله - سبحانه وتعالى - بيَّن وأوضح الآيات التي تدل على صدق ما جاءت به رسله؛ لقوله تعالى: ﴿**قد بيَّنا الآيات**﴾.

- أن هذه الآيات البيِّنات بنفسها لا تتبيَّن إلا لموقن، ويتفرع على هذه الفائدة، أن من كان عنده شك، فإن الآيات لا تتبين له ولا تظهر له، بل لا تزيده الآيات إلا عمىً وضلالاً كما قال الله تعالى: ﴿**وإِذَا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فمنهم مَنْ يقولُ أَيُّكُمْ زادته هذه إيماناً فأمَّا الَّذِينَ آمنُوا فزادتهم إيماناً وهُمْ يسْتَبْشِرُونَ وأمَّا الذين في قلوبهم مرضٌ فزادتهم رِجْساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون**﴾[2].

---

(1) سبق تخريجه ص ٤٢٣.
(2) الآيتان ١٢٤ و ١٢٥ من سورة التوبة.

ـ الإشـارة إلى أنَّ النـاس ينقسمـون في آيات الله تعالى إلى قسمين: قسم موقن، فهذا ينتفع بالآيات التي آتاها الله الرسل، وقسم غير موقن، بل هو في شك، وأقبـح منـه من كان في عناد وإنكار، فإن هذا لا ينتفع بالآيات، لأن الله تعالى خصَّ الانتفاع بالآيات لقوم يوقنون، ومن ذلك ما يقوم بقلوب بعض الناس من الشك في نفع بعض الآيات التي رُتِّب عليها فوائد. فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: **«وكلني رسولُ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتاتٍ فجعلَ يحثو من الطعام، فأخذتُهُ فقلتُ: لأرفعنَّـكَ إلى رسولِ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكر الحديث فقال: إذا أويتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، لن يزالَ عليـكَ حافظ، ولا يقـربـك شيطانٌ حتى تصبح. فقال النبيُّ: صدقكَ وهو كذوب، ذاك شيطان»**[1] وإن بعض الناس من يقرأ آية الكرسي ولكنه في شك من هذا الخبر، أو يقول أقرؤها وأجرِّب، ومثل هذا لا ينتفع بها أبداً، فلا ينتفع بها إلا من أيقن بأنه إذا قرأها لا يزال عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح، وهكذا بقية الآيات التي أخـبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشيء من فوائدها، فإن الواجب على المرء أن يتلوها وهو موقنٌ بصحة ما أخبر عنه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يتم إيمانه، وحتى ينتفع بها.

---

(١) رواه البخاري (٦/٤١٣) رقم (٣٢٧٥).

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أرسَلْنَاكَ بالحقِّ بشيراً ونذيراً ولا تُسْأَلُ عن أصْحَـابِ الجَّحِيمِ﴾ المُـرسِـل هو اللهُ ـ عزَّ وجـلَّ ـ ، والخطاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو الرسول، وقوله: ﴿بالحق﴾ يحتمل أن يكون تبياناً للمُرْسَل به، فإنَّ ما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حق. ومـا سواه باطل، ويحتمل أن يكون تبياناً للرسـالـة، أي أن رسـالتـك حق، ليس فيها شيء من الباطل، والمعنيان صحيحان، فرسالة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حق، وما أُرسِلَ به من العلم والإيمان والعمل الصالح هو حق ﴿بشيراً ونذيراً﴾ صفتان من صفات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه بشـير ونـذير، فهو بشير للمؤمنين، وهو نذير للكافرين، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿الحمدُ للهِ الذي أنزلَ على عبدِهِ الكتابَ ولَمْ يجعلْ لَهُ عوجـاً. قيِّـماً لينـذرَ بأسـاً شديداً من لدنه ويبشرَ المؤمنين الَّذينَ يعملونَ الصالحات أنَّ لهم أجراً حسناً. ماكثينَ فيه أبداً. وينذر الذينَ قالوا اتَّخذ اللهُ ولداً. ما لهم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ولا لآبائِهِمْ كَبُرَتْ كلمةً تخرجُ مِنْ أفواههم إنْ يقولونَ إلا كذباً﴾[1] فهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشـير للمؤمنـين بالثـواب العـاجل والآجل، ونذير للكـافـرين بالعقـاب العاجل والآجل ﴿ولا تُسأَلُ عن أصحابِ الجحيم﴾ أي لا يسألك الله عن أصحاب الجحيم بعد إذ أنذرتهم

---

(١) الآيات (١ ـ ٥) من سورة الكهف.

فإنَّ سيئاتهم على أنفسهم، أما أنت فقد بلَّغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة.

فوائد وأحكام هذه الآية:

- إثبات رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - لقوله تعالى: **﴿إنَّا أرسلناك﴾**.

- أن رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - حق، لقوله تعالى: **﴿إنَّا أرسلناك بالحق﴾**.

- وجوب اتباع النبي - صلى الله عليه وسلم - ، لكونه رسول الله، ولكون ما جاء به حقاً، وضد الحق هو الباطل، فمن خالف النبي - صلى الله عليه وسلم - فهو على باطل، ثم إن هذا الباطل قد يكون شاملاً لجميع أعماله كالكافر بما جاء به الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وقد يكون الباطل في بعض أعماله، كمن فعل معصية لا تخرجه من الإسلام، فإن هذه المعصية تكون باطلاً وما معه من الحق يكون حقاً.

- أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ليس له حق من الربوبية والتصرف في الخلق، وإنما هو بشير ونذير.

- الحث على فعل ما يكون بشارة للعبد، وتلك هي الأعمال

الصالحة، فإن من عمل عملاً صالحاً فله البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخـرة، له البشرى في الحياة الدنيا؛ لأن توفيق الله له لهذا العمل دليل على أن الله يسره لليسرى فيبشر بذلك ويفرح ويُسر، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «... **من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن**»(١) فأنت إذا رأيت الله - تعالى - قد وفقك للعمل الصـالح فأبشر بالخير، قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : «**ما منكم من نفس إلَّا وقد عُلِمَ منزلها من الجنَّة والنار**» **قالوا: يا رسول الله فَلِمَ نعملُ؟ أفلا نَتَّكِلُ؟** قال: «**لا. اعملُوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ لَهُ**» **ثم قرأ: ﴿فأما من أعطى واتَّقى وصدَّق بالحُسْنَى - إلى قوله - فسنيسره للعسرى﴾**(٢)» (٣)وعلى هذا فينبغي للإنسان إذا رأى أنَّ الله يَسَّره للعمل الصالح وهداه له وسهَّلهُ عليه أن يحمد الله على هذه النعمة، وأن يُسَرَّ بذلك، قال اللهُ - تعالى - في الحديث القدسي: «... **يا عبادي إنما هي أعمالكم أُحصِيها لكم ثُمَّ أوفِّيكم إيَّاها. فَمَنْ وجدَ خيراً فليحمدِ الله. ومنْ وجدَ غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه**»(٤) وإذا وجد من نفسه أن العمل الصالح ثقيل عليه، وأن

---

(١) رواه: الترمذي (٤/٤٠٤) رقم (٢١٦٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه..»، والإمام أحمد في مسنده (١/١٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/٩١)؛ وانظر المستدرك للحاكم (١/٥٨ - ٥٩).

(٢) الآيات (٥ - ١٠) من سورة الليل.

(٣) انظر: صحيح مسلم (٤/٢٠٤٠) حديث رقم (٢٦٤٧).

(٤) رواه ضمن حديث: مسلم (٤/١٩٩٤ - ١٩٩٥) رقم (٢٥٧٧).

نفسه تنقاد بسرعة إلى العمل السيىء فليرجع إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وليتب إليه، وليحذر مما هو عليه.

ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يُسألُ عن ضلالِ الضالين، ومن كان من أصحاب الجحيم، لقوله تعالى: ﴿وَلا تُسألُ عن أصحابِ الجحيم﴾.

ـ أنَّ الإنسان إذا أدَّى ما عليه من إبلاغ الشرع والدعوة إليه فإنه لا يناله من ضلال الضالين شيء، إنما يضلون على أنفسهم، قال الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿إنَّكَ لا تهدي مَنْ أحببتَ ولكنَّ الله يهدي من يشاء وهو أعلمُ بالمهتدين﴾[1] وقال تعالى: ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾[2] وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَذَكِّر إنما أنتَ مُذَكِّر. لستَ عليهم بمُصيطر إلاَّ مَنْ تولَّى وكفر فيعذبه اللهُ العذابَ الأكبر إنَّ إلينا إيابَهُمْ ثُمَّ إنَّ علينا حسابهم﴾[3].

ـ أنَّ أصحاب الجحيم الذين هم أهل الجحيم لا يستفيدون برسالة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئاً، لأنهم قد حقَّت عليهم كلمة العذاب والعياذ بالله.

---

(١) الآية ٥٦ من سورة القصص.

(٢) من الآية ٤٨ من سورة الشورى.

(٣) الآيات (٢١ ـ ٢٦) من سورة الغاشية.

ثم قال الله تعالى: ﴿**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ اليهودُ ولا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى ولئن اتَّبعتَ أهواءَهُمْ بعدَ الَّذي جاءَكَ مِنَ العلمِ ما لكَ من اللهِ من وليٍ ولا نصير**﴾.

يقول الله مخبراً عن حال اليهود والنصارى، وشدة معاداتهم لما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿**وَلَنْ تَرْضَى عنك اليهودُ ولا النصارى حتَّى تتبعَ ملتهم**﴾ وقد بينا ـ فيما سبق ـ أن اليهود هم أتباع موسى، وأن النصارى هم أتباع عيسى، فاليهود أتباع موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وشريعتهم التي كانوا عليها نُسخت بشريعة عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ووجب عليهم أن يؤمنوا بعيسى ويتبعوه، ولكنهم ـ والعياذ بالله ـ أبوا ذلك، وكفروا بعيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وادعوا أنهم قتلوه وصلبوه، وقد أنكر الله ـ تعالى ـ ذلك عليهم في قوله: ﴿**وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم**﴾[1].

أما النصارى فهم أتباع عيسى بن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، وليس بينه وبين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسول، وهم على دين حق حتى بُعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما بُعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجب عليهم أن يتبعوه، فلما كفروا به صاروا كافرين حتى

---

(١) من الآية ١٥٧ من سورة النساء.

بعيسى بن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، لأن عيسى بن مريم قد بشَّرهم بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما ذكر الله تعالى ذلك في قوله: ﴿**وإذْ قالَ عيسى بن مريم يا بني إسرائيلَ إني رسولُ اللهِ إليكم مُصَدِّقاً لما بين يديَّ من التوراة ومُبَشِّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمُهُ أحمد فلما جاءَهُم بالبيِّنَات قالوا هذا سحرٌ مبينٌ**﴾[1] فأحمد الذي بُشِّر به عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والدليل على هذا قوله: ﴿**فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحرٌ مبين**﴾ ولكنهم كفروا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكانوا كافرين بعيسى وبشارته، ولهذا لا يقبل الله دينهم، ولا ينفعهم هذا الدين الذي هم عليه يوم القيامة، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿**ومَنْ يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يُقبلَ منه وهو في الآخرةِ من الخاسرين**﴾[2] وقال تعالى: ﴿**إنَّ الدينَ عند الله الإسلام**﴾ [3] يقول الله تعالى: ﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتَّى تتبع ملتهم**﴾ أي دينهم الذي هم عليه، فاليهود يقولون: لا نرضى عنك حتى تكون يهودياً، والنصارى يقولون لا نرضى عنك حتى تكون نصرانياً، قال الله تعالى: ﴿**قل**﴾ أي منكراً عليهم: ﴿**إن هُدَى الله هو الهدى**﴾ وليس ما أنتم عليه أيها اليهود

---

(١) الآية ٦ من سورة الصف.

(٢) الآية ٨٥ من سورة آل عمران.

(٣) من الآية ١٩ من سورة آل عمران.

ولا ما أنتم عليه أيها النصارى، بل هدى الله هو الهدى. وهدى الله بعد بعثة الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو ما كان عليه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفي قوله: ﴿**هو الهدى**﴾ ضمير فصل، وضمير الفصل يفيد إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه، لأنه ـ أعني ضمير الفصل ـ من أدوات الحصر. ثم قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير**﴾ يعني من اتبع أهواء هؤلاء اليهود أو النصارى، وهو ما يريدونه من أن يكون الناس نصارى أو يهوداً، فمن اتبع هذا بعد ما جاءه من العلم برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه معرض نفسه لهذه العقوبة: ما له من الله من ولي يتولاه فيحيطه بما ينفعه، ولا نصير ينصره فيمنعه مما يضره.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

ـ بيان أن اليهود والنصارى يرضون بمن يتبع ملتهم، بل يفرحون بذلك ويسرون به ويستبشرون به.

ـ أن الهدى لا يختص بأمة أو طائفة معينة، فليس الهدى لليهود فقط، ولا للنصارى فقط، بل الهدى هدى الله، فمن اتبع هدى الله على يد أي رسول فقد اهتدى بهدى الله، ومعلوم أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاتم الأنبياء، وأنه جاء بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه، وأن شريعته نسخت

جميع الشرائع، وعلى هذا نقول لليهود والنصارى: الملة الصحيحة ما كان عليه المسلمون، لأنها هي هدى الله الذي بعث به محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

ـ التحذير من اتباع أهواء اليهود والنصارى، أي اتباع ما يهوونه من الباطل، لقوله تعالى: ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير**﴾.

ـ أن العقوبات إنما تقع على العبد بعد أن يأتيه العلم، وأما الجاهل فلا عقوبة عليه، لقوله تعالى: ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم**﴾ وهذا الأصل يشهد له آيات متعددة منها قوله تعالى: ﴿**ربنا لا تؤاخذنا إنْ نسينا أو أخطأنا**﴾[1] فقال الله ـ تعالى ـ قد فعلت. ومنها قوله تعالى: ﴿**وليس عليكم جُناحٌ فيما أخطأتم به ولكن ما تعمَّدَتْ قلوبكم**﴾[2] ومنها قوله تعالى: ﴿**وما كُنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾[3] ومنها قوله تعالى: ﴿**وما كانَ ربُّك مُهلكَ القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كُنَّا مهلكي القُرى إلَّا وأهلها ظالمون**﴾[4] والآيات في هذا المعنى

---

(١) من الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٥ من سورة الأحزاب.

(٣) من الآية ١٥ من سورة الإسراء.

(٤) الآية ٥٩ من سورة القصص.

كثيرة، وهو أنه لا عقوبة إلا بعد العلم.

- أنه لا أحد يمنع ما أراد الله - عزَّ وجلَّ - من خير أو من شر. وفي الحديث الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في الأذكار التي تقال بعد الصلاة: «. . . **اللهُمَّ لا مانعَ لما أعطيتَ، ولا مُعطِيَ لما منعتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ**»[1] أي لا ينفع صاحب الحظ، والغنى حظه وغناه من الله - عزَّ وجلَّ -، بل الله تعالى محيط بكل شيء، وقادر على كل شيء.

- أنه إذا كان هذا التحذير موجهاً إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم -: ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم . . .**﴾ فكيف بمن دونه؟! فإن هذا التحذير يشمله وأولى، ولقد قال الله تعالى لرسوله - صلى الله عليه وسلم -: ﴿**ولولا أن ثَبَّتْنَاكَ لقد كِدْت تركنُ إليهم شيئاً قليلاً. إذاً لأذقناكَ ضِعْفَ الحياة وضِعْفَ المماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لكَ علينا نصيراً**﴾[2].

---

(١) رواه: البخاري (٢/٤١٣) رقم (٨٤٤)، ومسلم (١/٣٤٣) رقم (٤٧١)، وأبوداود (١/٥٢٩) رقم (٨٤٧)، والنسائي (٢/٥٤٥) رقم (١٠٦٧)، وأورده الترمذي (٢/٩٦-٩٧) بعد الحديث رقم (٢٩٩)، ورواه الدارمي (١/٣١١)، والإمام مالك في الموطأ (٢/٩٠٠-٩٠١)، والإمام أحمد (٣/٨٧).

(٢) الآيتان ٧٤ و ٧٥ من سورة الإسراء.

ثم قال الله تعالى: ﴿الَّذينَ آتيناهُمُ الكِتابَ يتلونَهُ حَقَّ تلاوتِهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ به ومَنْ يكفرْ به فَأُولئِكَ هُمُ الخاسرون﴾.

﴿الـذين آتينـاهم الكتاب﴾ أي أعطيناهم الكتاب، والمراد بالكتـاب هذا الجنس فيشمـل الكتاب الذي أنزله الله على محمد - صلى الله عليه وسلم - وهـو القـرآن، والكتاب الذي أنزله على موسى، وهـو التـوراة، والكتـاب الـذي أنـزلـه على عيسى وهو الإنجيل: ﴿يتلونه حقَّ تلاوته﴾ أي يتبعونه، والتلاوة يُرادُ بها ثلاثة أمـور: التـلاوة اللفـظية، والتـلاوة المعنـوية، والتـلاوة الحكمية العملية. أمـا التـلاوة اللفظية فأن يقيم الإنسان حروف الكتاب الذي أنزل، وأما التلاوة المعنوية فأن يقيم معناه، أي معنى الكتاب الذي أنزل، وذلك بأن يفسره بما أراده الله - عزَّ وجلَّ - لا بهوى نفسه، فلا يحرف الكلم عن مواضعه، وأما التلاوة الحكمية العملية فأن يؤمن بأخبـاره ويقوم بأوامره، ويتجنب نواهيه. ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ أي التلاوة الحق، فهو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها ﴿أُولئك يؤمنونَ به﴾ يعني هؤلاء هم الذين يؤمنون به حقاً، وأما من لم يتله حق تلاوتـه، إمـا في اللفظ أو في المعنى أو في الحكم والعمـل فإنه لم يؤمن به، وقد نقص من إيمانه بقدر ما نقص من تلاوته، وبينَّ - عزَّ وجلَّ - في هذه الآية أن من كفر بالكتاب الذي آتاه الله إياه فإنه خاسر، خسر الدنيا والآخرة خسراناً كاملاً إن كان لم يؤمن به إطلاقاً، وخسراناً ناقصاً إن كان آمن به على وجه ينقص

الإيمان، لأن الله ـ تعالى ـ حكم عدل، فمن كان معه الإيمان كله فله الربح كله، ومن كان معه الكفر وليس معه الإيمان فله الخسران كله، ومن معه إيمان وكفر فله الربح فيما آمن والخسران فيما كفر.

فوائد وأحكام الآية:

منها ـ الثناء على من آتاه الله الكتاب فتلاه حق تلاوته، وفيها حقيقة الإيمان بالكتاب، أن يتلوه الإنسان حق تلاوته.

ومنها ـ أن من لم يقم حروف الكتاب فإنه لم يؤمن به حق الإيمان، لأنه لم يتله حق تلاوته، ويتفرع من هذه الفائدة وجوب تلاوة القرآن على الوجه الذي أنزل من حيث الترتيب، ومن حيث الحروف، فلا يُبدلُ حرفٌ بحرف، ولا تُقَدَّمُ آية على آية، ومن حيث الإعراب فلا يفتح ما كان مضموماً أو مكسوراً ولا العكس.

ومنها ـ تحريم تفسير القرآن بالرأي والهوى، لأن من فعل ذلك فإنه لم يتلُ القرآن حق تلاوته باعتبار المعنى، ويتفرع على هذا بيان خطر ما ذهب إليه المحرفون لآيات الصفات مثل قولهم: ﴿الرحمن عَلَى العرش استوى﴾[1] أي استولى، ومثل قولهم: ﴿بلْ يداه مبسوطتان﴾[2] أي نعمتاه مبسوطتانِ وما أشبه ذلك، فإن هذا ـ بلا

---

(١) الآية ٥ من سورة طه.

(٢) من الآية ٦٤ من سورة المائدة.

شك ـ تحريف للكلم عن مواضعه، وقد يكون هذا أشد من التحريف في آيات الأحكام العملية، وذلك لأن باب الصفات من باب الخبر المحض الذي ليس للعقول مدخل في تفاصيله فيجب تلقيه من كتاب الله، وصحيح سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فمن حَرَّفَ نصوص الكتاب والسنة في آيات الصفات وأحاديثها فهو أشد خطراً ممن حرَّفها فيما يتعلق بالأحكام البدنية، وعلى هذا فالواجب إجراء نصوص الصفات في الآيات والأحاديث على ظاهرها اللائق بالله بلا تمثيل ولا تحريف، فنقول: إن معنى قوله: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ أي على العرش علواً يليق بجلاله وعظمته من غير تمثيل، ونقول في قوله: ﴿**بل يداه مبسوطتان**﴾ هما يدان حقيقيتان بهما يأخذ وبهما يقبض، ولكنهما لا تماثلان أيدي المخلوقين، وهكذا بقية الصفات الواردة في كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجب علينا أن نؤمن بها على ظاهرها لكن من غير تمثيل، لقوله ـ تعالى ـ : ﴿**ليسَ كمثله شيء**﴾[1] ومن غير تكييف أيضاً لقوله ـ تعالى ـ : ﴿**ولا يُحيطونَ بِهِ عِلْمَاً**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**ولا تَقْفُ ما ليسَ لكَ به علم**﴾[3] فلا يجوز لأحد أن يمثل عن صفات الله بصفات خلقه، ولا أن يُكَيِّفَ

(١) من الآية ١١ من سورة الشورى.

(٢) من الآية ١١٠ من سورة طه.

(٣) من الآية ٣٦ من سورة الإسراء.

صفات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ؛ لأن ذلك قول على الله بلا علم .

ومنها ـ أن التلاوة تنقسم إلى قسمين : تلاوة تامة ، وهي حسن التلاوة ، وتلاوة ناقصة وهي مادون ذلك .

ومنها ـ أن من لم يقم بالعمل الصالح الذي دلَّ عليه الكتاب فإنه لم يتله حق تلاوتـه ، فيكون ناقص الإيمان ، وهذا هو طريق أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية أو غيرها من أسباب نقصه .

ومنهـا ـ الثناء على المتبعين ، بل على التالين لكتاب الله حق تلاوته ، لقول الله تعالى : ﴿**أُولئكَ يؤمنون به**﴾ .

ومنها ـ أن الكافر بالكتاب الذي أنزله الله على رسله خاسر في الدنيا والآخرة حتى وإن ربح في الدنيا أموالاً وقصوراً ومراكب وأنعم عليه بالأهل والبنين فإنه خاسر ، لإطلاق الخسران في قوله : ﴿**أولئك هم الخاسرون**﴾ ولم يقل في الدنيا ، ولم يقل في الآخرة ، فيكون ذلك عامـاً ، قال الله ـ تعـالى ـ : ﴿**قُـلْ إنَّ الخـاسرينَ الذينَ خسروا أنفسهم وأهليهم يومَ القيامة ألا ذلك هو الخسرانُ المبين . لهم من فوقهم ظُلَلٌ من ذلك يخوِّفُ اللهُ به عباده يا عبادِ فاتَّقُون**﴾[1] .

ثم قال الله تعـالى في سورة البقرة : ﴿**يا بَني إسْرَائيلَ اذْكُرُوا**

(١) من الآية ١٥ ، والآية ١٦ من سورة الزمر.

نعمتي التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين﴾

هذه الآية الكريمة سبق مثلها، بل شبهها في أول السورة، ينادي الله تعالى بني إسرائيل - وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - يناديهم مُذَكِّراً إياهم نعمته التي أنعمها عليهم ويأمرهم بتذكرها فيقول: **﴿اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾** وقد أنعم الله على بني إسرائيل بنعم عظيمة: منها الإيمان، حيث آمنوا بموسى - عليه الصلاة والسلام - ، ومنها: أن الله أهلك عدوهم، فرعون وقومه، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، ومنها: أن الله تعالى ظَلَّلَ عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، ونِعَم الله عليهم كثيرة، ومنها: أن الله فضَّلَهم على العالمين، أي جعلهم أفضل من العالمين، وذلك في زمانهم، فإن بني إسرائيل الذين آمنوا برسلهم أفضل العالمين في وقتهم، أما بعد بعثة الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - فإن أفضل الأمم أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - الذين آمنوا به كما قال الله - تبارك وتعالى - : **﴿كُنْتُمْ خيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناس تأمرونَ بالمعروف وتنهونَ عن المنكر وتؤمنون بالله﴾**[1].

---

(١) من الآية ١١٠ من سورة آل عمران.

وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**نحن الآخِرُونَ السَّابقون يوم القيامة**»[1].

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

ومنها ـ أنه يجب على المرء أن يتذكَّر نعمة الله عليه؛ ليقوم بشكرها وبشكر النعم تزداد، وبكفرها ترتفع، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**وإِذْ تأذَّنَ ربكم لئن شكرتم لأزيدنَّكُمْ ولئنْ كفرتم إنَّ عذابي لشديدٌ**﴾[2].

ومنها ـ أنه يجب على بني إسرائيل أن يؤمنوا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، لأنه مرسل إليهم، فعليهم أن يتبعوه شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي تميزوا بها عن العالمين في وقتهم.

ومنها ـ تفاضل الناس، فالناس يتفاضلون عند الله في الأعمال، ويتفاضلون في الإيمان، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**هم درجاتٌ عند الله واللهُ بصيرٌ بما يعملون**﴾[3] وقال تعالى: ﴿**ولكل درجات مما**

---

(١) رواه: البخاري (٢/ ٤٥٠) رقم (٨٧٦)، ومسلم (٢/ ٥٨٦)، رقم (٨٥٥)، والنسائي (٣/ ٩٥ ـ ٩٦) رقم (١٣٦٦).

(٢) الآية ٧ من سورة إبراهيم.

(٣) الآية ١٦٣ من سورة آل عمران.

عملوا﴾[1] وقال تعالى: ﴿تلك الرُّسُلُ فضَّلنا بعضهم على بعض﴾[2] وسُئِلَ النبي - صلى الله عليه وسلم - أيُّ العمل أحبُّ إلى اللهِ - عزَّ وجلَّ - ؟ فقال: «الصَّلاة على وقتها. قال: ثم أيُّ؟ قال: ثُمَّ بر الوالدين. قال: ثُمَّ أيُّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله»[3] فالأعمال تتفاضل، والعاملون يتفاضلون بحسب ما عندهم من العلم والإيمان والعمل الصالح.

ومنها - أنه يجب على من فضَّله الله على غيره بعلم أو مال أو عمل من الشكر ما لا يجب على من هو دونه، وذلك أن الناس قسمان: قسم أنعم الله عليهم فابتلاهم بالنعم، ليشكروا أم يكفروا، وقسم آخر ابتلوا بالمصائب، ليعلم الله تعالى هل يصبرون أم لا يصبرون، ولكل فيما ابتلي به وظيفة، فمن ابتلي بالخير فعليه وظيفة الشكر، ومن ابتلي بضده فعليه وظيفة الصبر، وكلما عظمت النعم كان الشكر عليها أوجب.

ثم قال الله تعالى: ﴿واتَّقُوا يَوْماً لا تجزي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شيئاً

---

(١) من الآية ١٣٢ من سورة الأنعام.

(٢) من الآية ٢٥٣ من سورة البقرة.

(٣) رواه: البخاري (١٠/ ٤٩٠) رقم (٥٩٧٠)، ومسلم (١/ ٨٩) رقم (٨٥)، والترمذي (١/ ٣٢٥ - ٣٢٦) رقم (١٧٣) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٢/ ٣١٩) رقم (٦٠٩)، والإمام أحمد في مسنده (١/ ٤٤٤).

ولا يُقْبَلُ منها عَدْلٌ ولا تَنْفَعُهَا شفاعةٌ ولا هُمْ يُنصرونَ﴾.

﴿واتقوا﴾ واحذروا **﴿يوماً﴾** هو يوم القيامة **﴿لا تجزي نَفْسٌ عن نَفْسٍ شيئاً﴾** لا تغني عنها شيئاً حتى الوالد لا يغني عن ولده شيئاً، والولد لا يغني عن والده شيئاً كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : **﴿يا أيها النَّاسُ اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي وَالِدٌ عن ولده ولا مولود هو جازٍ عَنْ والدِهِ شَيْئاً﴾**[1] وقال ـ تعالى ـ : **﴿يومَ يَفِرُّ المرءُ من أخيه وأمه وأبيه و صاحبته وبنيه لكل امرىءٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه﴾**[2] وقوله تعالى: **﴿ولا يقبل منها عَدْلٌ﴾** أي لا يقبل منها ما تدفعه عدلاً أي فدية عنها، **﴿ولا تنفعها شفاعة﴾** والشفاعة هي التوسط للغير لجلب منفعة، أو دفع مضرة، ففي يوم القيامة لا تنفع الشفاعة أحداً إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً **﴿ولا هُم ينصرون﴾** أي ولا هم يمنعون من عذاب الله.

فوائد وأحكام هذه الآية:

منها ـ وجوب الحذر من عذاب يوم القيامة، لأنه هو المراد بقوله: **﴿يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً﴾.**

ومنها ـ أنه في يوم القيامة لا ينفع أحد غيره شيئاً بخلاف الدنيا،

---

(١) من الآية ٣٣ من سورة لقمان.

(٢) الآيات (٣٤ ـ ٣٧) من سورة عبس.

فإنه قد ينفعه بشفاعة أو غيرها، أما في الآخرة فلا.

ومنها ـ وجوب الحذر من هذا اليوم العظيم الذي لا تنفع فيه قرابة، ولا ينفع فيه الفداء، ولا تنفع فيه الشفاعة، وإنما الإنسان وعمله.

ومنها ـ نفي نفع الشهادة لمن ليس من أهلها؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿**ولا تنفعها شفاعة**﴾ أما من كان من أهل الشفاعة فإن الشفاعة تنفعه، وليعلم أن الشفاعة قسمان: قسم عام، وقسم خاص، والخاص هو الذي لا يقوم به إلا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وهي الشفاعة العظمى التي يتراجع فيها الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ حتى تصل إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فإن الناس يوم القيامة يلحقهم من الهم والكرب ما لا يطيقون، فيأتون إلى آدم يطلبون منه الشفاعة فيعتذر، ثم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم، ثم إلى موسى، ثم إلى عيسى حتى تنتهي إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ محمد فيقوم ويشفع بإذن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهذه خاصة بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وقسم عام، تكون للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولغيره من المؤمنين من الملائكة والبشر، ومنها الشفاعة للميت بالصلاة عليه. قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**ما مِنْ رَجلٍ مُسْلِمٍ يموتُ فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شَفَّعَهُمُ اللهُ فيه**»[1] وهذه عامة كما

(١) رواه: مسلم (٢/٦٥٥) رقم (٩٤٨) واللفظ له، وأبوداود (٣/٥١٧) رقم =

قلنا تكون للأنبياء والصالحين من البشر، وتكون كذلك للملائكة.

ومنها ـ قطع آمال المشركين الذين يعبدون الأصنام، ويتخذونها شفعاء عند الله، فإنها لا تنفعهم يوم القيامة، خلافاً لما يتوهمونه من أنها تنفعهم حيث يقولون: **﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا من اللهِ زُلْفَى﴾**[1] وقال تعالى: **﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾**[2] فلا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً.

ثم قال الله تعالى: **﴿وإذِ ابْتَلَى إبْراهيمَ رَبُّهُ بكَلماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إني جاعِلُكَ للنَّاسِ إماماً قَالَ ومِنْ ذُرِّيَّتي قالَ لا ينالُ عَهْدِي الظالمين﴾**.

يقول الله تعالى: **﴿وإذ ابتلى إبراهيمَ﴾** أي اختبره، وإبراهيم هو ابن آزر، وهو خليل الرحمن ـ سبحانه وتعالى ـ، يقول الله تعالى إنه ابتلاه بكَلمات و **﴿إذ﴾** هنا متعلقة بمحذوف والتقدير واذكر إذ ابتلى إبراهيم، أي اذكر للناس هذه القصة العجيبة الدالة على فضل إبراهيم، ابتلاه الله بكلمات، والكلمات هذه كلمات شرعية

= (٣١٧٠)، والترمذي (٣/٣٤٨) رقم (١٠٢٩) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٤/٣٧٨) رقم (١٩٩٠).

(١) من الآية ٣ من سورة الزمر.

(٢) من الآية ١٨ من سورة يونس.

ابتلاه الله بها وهي الأوامر والنواهي، ولم يبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ عين هذه الكلمات ولا نوعها، لكننا نعلم أنها كلمات تكليفية قام بها إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ على الوجه الذي ابتلاه الله تعالى بها حسب ما يرضي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ومن ذلك أن الله ـ تعالى ـ أمره أن يذبح ابنه إسماعيل بعد أن بلغ معه السعي، كما قال الله تعالى: **﴿وقالَ إني ذاهبٌ إلى ربي سيهدينِ رَبِّ هب لي من الصالحين فبشَّرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعي قالَ يا بني إني أرى في المنامِ أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبتِ افعل ما تُؤمر ستجدني إنْ شاءَ اللهُ من الصابرين فلما أسلما[1] وتله للجبين[2] وناديناه أن يا إبراهيم قد صَدَّقتَ الرؤيا إنَّا كذلك نجزي المحسنين إنَّ هذا لهو البلاءُ المبين﴾**[3] فابتلى الله ـ تعالى ـ إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بكلمات: أوامر ونواهٍ **﴿فأتمهنَّ﴾** وهذا هو محل الثناء، لما ابتلي بذلك أتمهنَّ على الوجه الذي يرضي به الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فأثابه الله ـ تعالى ـ ذلك الثواب العظيم **﴿قالَ إني جاعلك للناس إماماً﴾** أي قدوة يقتدي بك الناس. **﴿قال ومن ذريتي﴾** يعني واجعل من ذريتي إماماً أو اجعل من ذريتي أئمة **﴿قال لا ينالُ عهدي الظالمين﴾** فتعهد الله له بذلك إلا أنه استثنى فقال: **﴿لا**

---

(١) أي انقادا لأمر الله تعالى.

(٢) أي تله على وجهه ليذبحه من قفاه.

(٣) الآيات (٩٩ ـ ١٠٦) من سورة الصافات.

ينال عهدي الظالمين﴾ وأكبر الأئمة من ذريته محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو إمام المتقين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، بل هو إمام الأنبياء ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وإن كان آخرهم كما تبدَّى ذلك في قصة الإسراء والمعراج حيث صلَّى بهم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إماماً. **﴿قال ومن ذريتي قال لا ينالُ عهدي الظالمين﴾** أي من كان ذا ظلمٍ لنفسه بالإشراك بالله فإنه لا يمكن أن يكون إماماً.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

ومنها ـ أنَّ الله أمر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يذكر للناس ما حصل من الابتلاء لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، والفائدة من ذلك الاقتداء به، أي بإبراهيم، كما قال الله ـ تعالى ـ: **﴿ثُمَّ أوحينا إليكَ أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كانَ من المشركين﴾**(1).

ومنها ـ فضيلة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وأنه إمام، لقوله تعالى: **﴿قال إني جاعلك للناسِ إماماً﴾**.

ومنها ـ شفقة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ على ذريته حيث قال: **﴿ومن ذريتي﴾** وهذا يشبه من بعض الوجوه ما سأل موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ربه ـ جلَّ وعلا ـ أن يشرك أخاه هارون في الرسالة.

---

(1) الآية ١٢٣ من سورة النحل.

ومنها ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أعطى إبراهيم ما سأل، بأن يجعل من ذريته أئمة، لكنه استثنى من ذلك الظالم، فإنه لا يكون إماماً.

ـ أن كل من كان أقوم لله بما أمر به كان أحرى بالإمامة من غيره، وذلك لأن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنما كان إماماً لأنه أتم ما ابتلاه به، ولذلك قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«يَؤمُّ القومَ أقرؤهم لكتاب اللهِ فإنْ كانوا في القراءةِ سواءً فأعلمهم بالسُّنَّةِ فإن كانوا في السُّنَّةِ سواء فأقدمهم هجرةً. فإن كانوا في الهجرة سواءً فأقدمهم سِلْماً»**[1].

ومنها ـ كراهية الله ـ تعالى ـ للظلم، ولذلك لم يجعل لظالم إمامة.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا البيتَ مَثَابَةً للنَّاسِ وَأَمْنَاً واتَّخِذُوا من مَقَامِ إبراهيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إلى إبراهيمَ وإِسْمَاعيلَ أَنْ طَهِّرا بيتِيَ للطائفِينَ والعاكفِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

---

(١) رواه: مسلم (١/ ٤٦٥) رقم (٦٧٣)، وأبوداود (١/ ٣٩٠ ـ ٣٩١) رقم (٥٨٢)، والنسائي (٢/ ٤١١) رقم (٧٧٩)، ابن ماجة (١/ ٣١٣ ـ ٣١٤) رقم (٩٨٠)، والترمذي (١/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩) رقم (٢٣٥) وقال: «حديث حسن صحيح»، والإمام أحمد في المسند (٤/ ١١٨) وفي بعض الروايات ورد بدلاً من لفظ «سلماً» «سِنَّاً».

قولـه: ﴿وإذْ جعلنـا البيت مثابةً للناس﴾ متعلقٌ بمحذوف تقديره واذكر إذ جعلنا، ومعنى جعلنا صيَّرنا، والمراد بالبيت بيت الله الحرام الكعبة، ﴿مثابة للناس﴾ أي مرجعاً يرجعون إليه ويثوبون إليه ﴿وَأَمْنَاً﴾ يأمنون به، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يروا أَنَّا جعلنا حَرَمَاً آمِناً ويتخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حولهم﴾[1] ثم أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى، ومقام إبراهيم معروف، شرقي الكعبـة المعـظَّمـة، وسُمي مقاماً، لأنه قام عليه حين بناء الكعبة لما ارتفع البناء وضع هذا الحجر فصار يرتفع عليه من أجل إتمـام البنـاء، ومـا زال هذا المقـام محفوظاً إلى يومنا هذا، وقوله: ﴿مصـلى﴾ أي مكـانـاً للصلاة، وقد فَسَّر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك بفعله حينما انتهى من الطواف، طواف القدوم، تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿واتَّخذوا من مقامِ إبراهيمَ مُصَلًّى﴾ فصلَّى خلف المقام ركعتين، وبيَّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه الآية أنه عهد إلى إبراهيم وإسماعيل، أي عهد عهداً ألقاه إلى إبراهيم وابنه إسـماعيل ـ عليهـما الصلاة والسلام ـ، وإسماعيل هو أكبر أولاد إبـراهيم، وهـو من سريتـه هاجـر، وقـد أبقـاهما ـ عليه الصلاة

---

(١) من الآية ٦٧ من سورة العنكبوت.

والسلام ـ في هذا المكان، أبقاهما، أي أبقى إسماعيل وأمه في هذا المكان حتى شبَّ وكبر وأتاه الأولاد الذين هم العرب المستعربة، فكان إسماعيل ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع أبيه في هذا المكان، فأمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يطهر بيته للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجود، قال تعالى: **﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طَهِّرا بيتي للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجود﴾** وقوله: **﴿والرُّكَّع السجود﴾** أي الطائفين بهذا البيت **﴿والعاكفين﴾** أي في المسجد **﴿والرُّكَّع السجود﴾** أي المصلين، وإنما بدأ بالطائفين لأنهم أخص بهذا المكان، فإن الطواف لا يصح إلا في الكعبة، ثم ثنَّى بالعاكفين، لأنه أخص من المصلين، وإن الاعتكاف لا يكون إلا في المساجد فلا يكون في كل أرض، ثم ثلث بالركَّع السجود أي المصلين، لأن ذلك أعم، فإن الصلاة تصح في كل مكان من الأرض إلا ما استثني، قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «. . . **وجُعِلَتْ لي الأرضُ مسجداً وطهوراً** . . .»[1] وذكر الركوع والسجود، لأنهما ركنان من أركان الصلاة، قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للرجل الذي صلَّى ولكنه لم يطمئن في صلاته: «. . . **ثم اركع حتى تطمئن**

---

(١) رواه: البخاري (١/٥٧٤) رقم (٣٣٥)، ومسلم (١/٣٧١) رقم (٥٢١)، والترمذي (٤/١٠٤ ـ ١٠٥) رقم (١٥٥٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (١/٢٢٩ ـ ٢٣١) رقم (٤٣٠)، والدارمي (١/٣٢٢ ـ ٣٢٣)، والإمام أحمد في المسند (٢/٢٢٢).

راكعاً ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ثم اسجد حتى تطمئنَّ ساجداً»[1].

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

- أن الله - تعالى - جعل البيت مثابة للناس وأمناً، أي مرجعاً لهم وأمناً، ومن ذلك أنهم يترددون إليه في كل موسم حج، وفي غير موسم الحج، فأفئدة الناس تهوى هذا المكان للحج والعمرة وغيرهما من الطاعات.

- أن مكة بلد آمن، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «... **إنَّ مكة حرَّمها اللهُ ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يَعْضِدَ بها شجرة...**»[2] فلا يحل القتال في مكة لأحد إلا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين الفتح فقط، فهي لم تحل لأحد قبله، ولن تحل لأحد بعده، ولهذا يحرم القتال في مكة المكرمة إلا على سبيل الدفاع عن النفس، فإن الله - تعالى - يقول:

---

(١) رواه: البخاري (٢/٣٠١) رقم (٧٥٧)، ومسلم (١/٢٩٨) رقم (٣٩٧)، وغيرهما.

(٢) رواه: البخاري (١/٢٦٣) رقم (١٠٤)، ومسلم (٢/٩٨٧) رقم (١٣٥٤)، وأبوداود مع اختلاف في اللفظ (٢/٥١٨ - ٥٢٠) رقم (٢٠١٧)، والنسائي (٥/٢٢٣ - ٢٢٥) رقم (٢٨٧٤)، وابن ماجة (٢/١٠٣٨) رقم (٣١٠٩)، والدارمي (٢/٢٦٥)، والإمام أحمد في المسند (١/٢٥٣).

﴿ولا تقاتلوهم عند المسجدِ الحرامِ حتَّى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهُمْ كذلك جزاءُ الكافرين﴾[1].

- الأمر باتخاذ مصلى من مقام إبراهيم، وقد بينا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - بيَّن ذلك بكونه صلى خلف المقام ركعتين. واختلف العلماء - رحمهم الله - في وجوب هاتين الركعتين، فمنهم من قال: إنهما واجبتان، لأن الله - تعالى - أمر بهما، وبينهما النبي - صلى الله عليه وسلم - بفعله والأصل في الأمر الوجوب. ومنهم مَنْ قال: إنهما سُنَّةٌ؛ لأنهما من توابع الطواف والمشروع في هاتين الركعتين أن يخففا، وألا يمكث بعدهما عند المقام، وأن يقرأ فيهما في الركعة الأولى بعد الفاتحة: **﴿قل يا أيها الكافرون﴾** وفي الركعة الثانية بعد الفاتحة: **﴿قل هو الله أحد﴾**، وبهذا نعرف أن ما يفعله بعض الناس من التطوع خلف المقام من غير طواف، أو التطوع بأكثر من ركعتين، أو إطالة الركعتين، أو الجلوس بعدهما في هذا المكان لقراءة القرآن أو للذكر، أو للدعاء غير مشروع؛ لأن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أحرص الناس على الخير بلا شك، ومع ذلك فقد صلى خلف المقام ركعتين خفيفتين ثم انصرف، ولأن هذا المكان يختص بالطائفين الذين يصلون ركعتين، فكون الإنسان يبقى فيه بدون سبب شرعي فيه شيء من الجناية على غيره، ولكن

---

(١) من الآية ١٩١ من سورة البقرة.

لو سألنا سائل: إذا كان المطاف مزدحماً، وكان الطائفون يطوفون من وراء مقام إبراهيم، فهل للإنسان الحق أن يصلي ركعتين بين الطائفين فيعيق سيرهم ويؤذيهم أم ليس له الحق في ذلك؟ الجواب: ليس له الحق في ذلك، لأن حقَّ الطائفين أولى بالمراعاة من حق المصلي، إذ إن المصلي يمكنه أن يصلي بعيداً عن مكان الطواف، فيصلي ركعتين، ويجعل المقام بينه وبين البيت، ولو كان في آخر صحن المطاف، بل ولو كان تحت السقف، لكن الطائف ليس له إلا هذا المكان، وبهذا نعرف خطأ من يفعلون هذا الفعل، تجدهم يصلون خلف المقام مع التحام المطاف، واحتياج الناس إلى الطواف، فمثل هؤلاء لا حقَّ لهم في هذا المكان ما دام الطائفون محتاجين إليه.

ـ تعلية شأن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حيث أمرنا الله تعالى أن نتخذ من مقامه مصلى، وهذا من جملة ما يترتب على الإمامة التي قال الله ـ تعالى ـ فيها: ﴿**إني جاعِلُكَ للنَّاسِ إماماً**﴾.

ـ عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل أي وصيته إليهما وأمرهما بأن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركّع السجود.

ـ فضيلة إبراهيم وإسماعيل حيث أوكل إليهما هذا الأمر العظيم.

ـ وجوب تطهير البيت للطائفين والعاكفين والركَّع السجود، وتطهير البيت ينقسم إلى قسمين: تطهير معنوي، وتطهير حسي. أما التطهير المعنوي فأن يطهر من الشرك والمعاصي، وذلك لأن الشرك نجاسة، كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿**يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا إنما المشركون نَجَسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام**﴾[1] فنهى أن يقربوا المسجد الحرام فضلاً عن أن يكونوا في البيت الحرام. والطهارة الحسية أن يطهر من الأقذار من البول والغائط والدم وما أشبه ذلك من الأشياء النجسة، فالواجب أن يطهر منها، فهذا الحكم ـ أعني التطهير من النجاسة الحسية ـ ثابت للمسجد الحرام ولغيره من المساجد، ولهذا لما بال الأعرابي في مسجد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المدينة أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذنوب من ماء فأهريق عليه.

ـ فضيلة الطواف، لقوله: ﴿**طهرا بيتي للطائفين**﴾ ولا شك أن الطواف من الأعمال الجليلة الفاضلة، ولهذا كان ركناً في الحج والعمرة، فلا يتم حج الإنسان أو عمرته إلا إذا طاف بالبيت.

ـ الإشارة إلى أن المشروع للطائف أن يكون متطهراً، لأنه إذا أمر بتطهير البيت من أجله فتطهيره بنفسه، وتطهير ما لبسه من

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة التوبة.

الثياب من باب أولى، فالمشروع للطائف أن يكون طاهراً من الأنجاس، كما أن المشروع له أن يكون طاهراً من الأحداث، فلا يطوف وهو محدث حدثاً أصغر أو أكبر، ولهذا اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ فيما لو طاف وعليه حدث أصغر، هل يصح طوافه أم لا؟ على قولين في المسألة، اختار شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أن طوافه صحيح، وقال أكثر أهل العلم: إن طوافه غير صحيح.

ـ فضيلة الاعتكاف، حيث أمر أن يطهر البيت من أجل العاكفين.

ـ مشروعية الاعتكاف في المسجد الحرام، لقوله: ﴿**أن طهرا بيتي للطائفينَ والعاكفين**﴾ وهذا أمر لا إشكال فيه، وقد قال عمر: «**يا رسولَ الله إني نذرتُ في الجاهليةِ أَنْ أعتكفَ ليلة في المسجدِ الحرامِ. قال: «فأوفِ بِنَذْرِكَ»**»(١).

ـ فضيلة الركوع والسجود حيث عبَّر بهما عن الصلاة كاملة، قال أهلُ العلم: وإذا عبَّر الله عن العبادة ببعضها دلَّ ذلك على

---

(١) رواه: البخاري في كتاب الاعتكاف، باب إذا نذر في الجاهلية أن يعتكف ثم أسلم، ومسلم (٣/١٢٧٧) رقم (١٦٥٦)، والترمذي (٤/٩٦) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجة (١/١٧) رقم (٢١٢٩)، والدارمي (٢/١٨٣)، والإمام أحمد في مسنده (٢/٢٠).

وجـوب هذا البعض فيها وقد بيَّنَّا أن الركوع والسجود من أركان الصلاة، وحد الركوع أن ينحني القائم، أن يحني ظهـره بحيث يكون إلى الركوع التام أقرب منه إلى القيام التام، وقيل: حده أن ينحني بحيث يمكنه مس ركبتيه إذا كان معتدل اليدين لا طويلهما ولا قصيرهما. وأما السجود فقد بيَّن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه لا بد من السجود على أعضاء سبعة، فقال: «**أُمِرتُ أنْ أسجدَ على سبعة أَعْظُمٍ. الجبهة (وأشار بيده على أنفه) واليدين والرجلين وأطراف القدمين. . .**»[1].

ـ ومما يمكن أن يؤخذ من الآية الكريمة أن تطهير المساجد من فروض الكفـاية، لقوله: ﴿**أن طَهِّرا بيتي للطائفين**﴾ فوجَّه الأمر إليهما، وإن كانت هذه الفائدة، أو هذا الحكم قد يكون مأخذه من هذه الآية الكريمة ضعيفاً، لكنه يؤخذ ـ أي وجوب تطهير المساجد من الأذى والقذر ـ من أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أن يريقوا على بول الإعرابي الذي بال في المسجد ذنوباً من ماء، أي دلواً من ماء، فإن هذا يدل على الوجوب، وعلى أنه وجوب كفائي، وعلى هذا فإذا رأيت في المسجد قذراً فأزله إن أمكنك، فإن لم يمكنك وجب عليك أن تبلغ مَنْ عليه تطهيره.

---

(١) الحديث رواه: البخاري (٢/٣٧٦) حديث رقم (٨١٠)، ومسلم (١/٣٥٤) رقم (٤٩٠) واللفظ له، والنسائي (٢/٥٥٦ ـ ٥٥٧) رقم (١٠٩٥)، وابن ماجة (١/٢٨٦) رقم (٨٨٤).

ثم قال الله ـ تعالى ـ : ﴿وإِذْ قالَ إبراهيمُ رَبِّ اجعلْ هذا بَلَداً آمِناً وارزُق أهلَهُ مِنَ الثَّمراتِ مَنْ آمنَ منهم باللهِ واليومِ الآخرِ قالَ ومَنْ كَفَرَ فأُمَتِّعُهُ قليلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عذابِ النَّارِ وبِئْسَ المصيرُ﴾ .

قولـه تعـالى: ﴿وإذْ قالَ إبـراهيم﴾ هي متعلقـة بمحذوف كسابقتيها، والتقدير «واذكر إذ» ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ ففي هذه الآية الكريمة يأمر اللهُ نبيه محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يذكر الناس ويبلغهم ما قاله إبراهيم ـ عليه الصلاة و السلام ـ من الدعاء للبيت الحرام وأهله حيث قال: ﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ أي آمناً من كل خوف ﴿وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم باللهِ واليومِ الآخرِ﴾ أي أعطهم من الثمرات، أي ثمرات الأشجار من النخيل والأعناب وغيرها، وإنما سأل إبراهيم ذلك، لأن مكة بلاد غير ذي زرع، فسأل إبراهيم ربه أن يرزقهم من الثمرات، فأجاب الله دعاءه، كما بينه ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله: ﴿أولم يروا أنَّـا جعلنا حرماً آمناً ويتخطَّفُ الناس من حولهم﴾[1] وقال في آية أخرى: ﴿يُجبى إليه ثمراتُ كل شيءٍ رزقاً من لَدُنَّا﴾[2] ولكن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قيد ذلك بقوله: ﴿مَنْ آمن منهم بالله واليـوم الآخـر﴾ وهـذا من تمام أدبـه ـ عليه الصـلاة

---

(١) من الآية ٦٧ من سورة العنكبوت.

(٢) من الآية ٥٧ من سورة القصص.

والسلام ـ ، أنه سأل الله أن يرزق أهل هذا البيت من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر، وذلك تأدباً من قوله تعالى: ﴿**لا ينال عهدي الظالمين**﴾ حيث قال في الأول حين قال الله له: ﴿**إني جاعِلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين**﴾ فأطلق إبراهيم بسؤال الإمامة، ولكن الله قيَّدها بأنها خاصة بمن ليس بظالم، فهنا قال إبراهيم: ﴿**من آمن بالله واليوم ِ الآخر**﴾ ولكنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بَيَّنَ أن رزقه لأهل هذا البيت يشمل، قال تعالى: ﴿**ومن كفر**﴾ يعني وأعطي من كفر من الخيرات التي تجبى لهذا البلد، أهل مكة، ثم قال: ﴿**فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير**﴾ أمتعه في هذه الدنيا بما أعطيه من الثمرات والخيرات، لكنه متاع قليل؛ إذ إن الدنيا كلها فانية تمضي لحظة فلحظة، ولا يدري الإنسان إلا وقد بلغ الأجل، وحلَّ به الموت. فهي ـ مهما طالت بالإنسان ـ قليلة، ثم إنَّ الدنيا إذا طالت بالإنسان، وأمد له في الأجل، فإنه يرجع إلى أرذل العمر، وقد قال الشاعر:

لا طيبَ للعيشِ ما دامت منغصةً

لذاته بادِّكارِ الموتِ والهرمِ

قال تعالى: ﴿**فأمتعه قليلاً ثُمَّ أضطره إلى عذاب النار**﴾ أي أمتعه قليلاً ثم أدفعه مضطراً إلى عذاب النار يوم القيامة، كما قال الله

ـ تعالى ـ : ﴿يومَ يُدَعُّونَ إلى نارِ جَهَنَّمَ دَعّاً﴾[1] والعياذ بالله يدفعون دفعاً، وكأنهم إذا شاهدوا النار يتلكؤون ولا ينطلقون، فيدعّون إلى نار جهنم دعّاً. ﴿ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ هذا قدح وَثناء بالشر على مصير أهل النار.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

ـ نُصح إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ للبلد، مكة، حيث قال: ﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ وقد استجاب اللهُ دعوته، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿والتينِ والزيتون وطُور سِينينَ وهذا البلدِ الأمين﴾[2]. وقال ـ تعالى ـ : ﴿أولم يروا أنَّا جعلنا حرماً آمناً ويتخطَّفُ النَّاس من حولهم﴾[3] وقال تعالى: ﴿وإذْ جعلنا البيت مثابةً للنَّاسِ وأمناً﴾[4].

ـ أنَّ إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ سأل الله ـ تعالى ـ أن يرزق أهله من الثمرات، من آمن منهم بالله واليوم الآخر، فسأل شيئين: الأمن، ورغد العيش، فأجاب اللهُ دعوته أيضاً، فكانت

---

(١) الآية ١٣ من سورة الطور.
(٢) الآيات (١ ـ ٣) من سورة التين.
(٣) من الآية ٦٧ من سورة العنكبوت.
(٤) من الآية ١٢٥ من سورة البقرة.

مكة. ـ وإن لم تكن بلداً زراعياً ـ تُجبى إليها ثمرات كل شيء من كل قطر، فأهلها آمنون، وبالعيش راغدون، فكان يجب عليهم من طاعة الله أكثر مما يجب على غيرهم شكراً لله ـ تعالى ـ على هذه النعمة.

ـ حسن أدب إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لقوله: **﴿من آمن منهم بالله واليومِ الآخر﴾**.

ـ أن الإيمان بالله واليوم الآخر من أسباب الرزق والأمن، وكلما كان الإنسان أقوى إيماناً بالله واليوم الآخر كان أكثر أمناً، قال الله تعالى: **﴿الَّذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهُمْ بظلمٍ أُولَئِكَ لهم الأمنُ وهُمْ مهتدون﴾**[1].

ـ أنَّ الله ـ تعالى ـ قد يعطي السائل أكثر مما سأل، لحكمة تقتضي ذلك، فإبراهيم سأل أن يرزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر، ولكن الله قال: **﴿ومَنْ كفر﴾** وهنا قد يرد إشكال، هل قوله: **﴿ومن كفر﴾** يقتضي إقرار الكافر على كفره في مكة أم لا؟ والجواب: لا يقتضي ذلك؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: **﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نَجَسٌ فلا يقربوا المسجدَ الحرامَ بعد عامهم هذا﴾**[2].

---

(١) الآية ٨٢ من سورة الأنعام.

(٢) من الآية ٢٨ من سورة التوبة.

- إثبات الرزق للكافر، فالكافر رزقه من الله - عزَّ وجلَّ - ، ولكنه مسؤول عن هذا الرزق يوم القيامة، محاسبٌ عليه، قال الله - تعالى - : **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينةَ اللهِ التي أخرجَ لعبادِهِ والطَّيباتِ من الرزقِ قُلْ هي للذينَ آمنُوا في الحياةِ الدُّنيا خالِصةً يومَ القيامةِ﴾**(١) وقال - تعالى - : **﴿ليسَ عَلَى الذينَ آمنُوا وعملوا الصالحات جُنَاحٌ فيما طَعِمُوا إذا ما اتقوا وآمنُوا وعملُوا الصالحات ثم اتقوا وآمنُوا ثم اتقوا وأحسنوا واللهُ يُحِبُ المحسنين﴾**(٢) فالكافر - وإن نعم برزق الله - فإنه محاسبٌ على هذا الرزق يوم القيامة.

- أن الدنيا - وإن طالت - فمتاعها قليل، لقول الله - تعالى - : **﴿فأمتعه قليلاً﴾** وفي الحديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: **«وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها»**(٣).

- إثبات النار، وأنها جزاء للكافرين، لقوله: **﴿ثُمَّ أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾**.

- الثناء بالشر على النار ومن كانت مصيراً له، لقوله: **﴿وبئس المصير﴾** نسأل الله النجاة من النار.

---

(١) من الآية ٣٢ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٩٣ من سورة المائدة.

(٣) سبق تخريجه ص ٣٧٦.

ثم قال الله ـ تعالى ـ : ﴿وإِذْ يَرْفَعُ إِبراهيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البيتِ وإِسْمَاعِيْلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّميعُ العَلِيمُ﴾ .

إبراهيم هو خليل الرحمن ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وهو أبو الأنبياء بعد نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيمَ وجعلنا في ذريتِهما النُّبُوَّة والكتابَ﴾[1] أما ابنه إسماعيل فهو أبو العرب، ومن سلالته خاتمُ الأنبياء محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ، و ﴿القواعد﴾ أساس البنيان ﴿من البيت﴾ البيت هنا هو الكعبة، رفعا القواعد وهما يقولان : ﴿ربنا تقبَّل منا إنك أنت السميع العليم﴾ لأن العمل إذا لم يقبل صار تعباً وضياعاً .

فوائد وأحكام هذه الآية :

- فضل إبراهيم وإسماعيل، حيث رفعا قواعد هذا البيت الذي أضافه الله ـ تعالى ـ إلى نفسه في قوله : ﴿أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركَّع السجود﴾[2] .

- تواضع الأنبياء لشريعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وتعظيمهم لحرماته، حيث بنى إبراهيم وابنه إسماعيل هذا البيت تواضعاً لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وتعظيماً لحرماته .

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة الحديد .

(٢) من الآية ١٢٥ من سورة البقرة .

- أنَّ كل أحد - مهما عظمت درجته وعلت منزلته - مفتقر إلى ربه، وإلى قبوله - جلَّ وعلا -، لقول إبراهيم: ﴿**ربنا تقبَّل منا إنك أنت السميع العليم**﴾.

- طرد العجب من النفس، فلا يقول الإنسان: أنا عملت، أنا فعلت، بل يعمل العمل، وهو مفتقر إلى ربه - عزَّ وجلَّ - في قبوله.

- أن الشأن كل الشأن في قبول العمل، لا في نفس العمل، وإذا كان كذلك فإنه ينبني على هذا أنه ينبغي للإنسان أن يحرص على ما يكون به القبول، وهو الإخلاص لله - عزَّ وجلَّ -، والمتابعة لشريعته، لقوله تعالى: ﴿**فمن كانَ يرجو لقاء رَبِّهِ فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة رَبِّهِ أحداً**﴾[1].

- وجوب الإيمان بهذين الاسمين الكريمين من أسماء الله وهما: «السميع» و«العليم»، السميع لكل مسموع مهما خفي، والعليم بكل معلوم مهما تباعد.

- إثبات صفتي السمع والعلم لله - عزَّ وجلَّ - لأن السميع والعليم اسمان مشتقان من السمع والعلم، فلا بد أن يتضمنا هذه الصفة، ولا نقول كما قال أهل البدع: إنه سميع بلا سمع، وعليم

---

(١) من الآية ١١٠ من سورة الكهف.

بلا علم. وسمع الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينقسم إلى قسمين: سمع بمعنى الإجـابة، وسمع بمعنى إدراك الصوت وإنْ خفي. فمن الأول قوله ـ تعالى ـ عن إبراهيم: ﴿إنَّ ربي لسميعُ الدعاء﴾[1] أي لمجيب الدعاء، وقول المصلي: سمع اللهُ لمن حمده، أي استجاب لمن حمده. ومن الثاني ـ أي إدراك الصوت ـ قوله تعالى: ﴿قدْ سَمِعَ اللهُ قولَ التي تجادِلُـكَ في زوجهـا وتشتكي إلى اللهِ واللهُ يسمعُ تحاوركما إنَّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ﴾[2].

أمـا في هذه الآية: ﴿إنـك أنت السميـع العليم﴾ فتحتمل المعنيين جميعـاً، أي تحتمل سمع الصوت، وسمع الإجابة. وقد قسَّم العلماءُ سمع الصوت ـ بحسب ما يقتضيه السياق ـ إلى عام وخاص، فالعام كالمستفاد من الأسماء الكريمة، بل كالمستفاد من هذا الاسم الكـريم إذا جاء ذكـره في القـرآن الكـريم أو غيره، ومقتضاه إدراك كل صوت مهما خفي، ولهذا لما نزلت هذه الآية: ﴿قـد سمـع اللهُ قول التي تجادلـك في زوجهـا وتشتكي إلى الله. . .﴾[3] قالت عائشة: «الحمدُ لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنا في ناحية

---

(١) من الآية ٣٩ من سورة إبراهيم.

(٢) الآية ١ من سورة المجادلة.

(٣) من الآية ١ من سورة المجادلة.

البيت تشكو زوجها وما أسمع ما تقول»[1].

وأما السمع الخاص فمقتضاه النصر والتأييد مثل قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿**لا تخافا إنني معكما أسمعُ وأرى**﴾[2]

أما العلم فهو - كما أسلفنا - متضمنٌ لصفة العلم، وعلم الله - سبحانه وتعالى - أزلي أبدي لم يسبق بجهل، ولا يلحقه نسيان، قال موسى - عليه الصلاة والسلام - لفرعون حين سأله: ﴿**فما بالُ القرون الأولى**﴾[3] قال: ﴿**علمها عند ربي في كتاب لا يضلُّ ربي ولا ينسى**﴾[4] والله - عزَّ وجلَّ - واسع العلم، عليم بكل شيء جملة وتفصيلاً أزلاً وأبداً، فلم يسبق علمه جهل، ولا يلحقه نسيان - سبحانه وتعالى - وقد جاء ذكر العلم جملة وتفصيلاً، فمن التفصيل قوله تعالى: ﴿**وعِنْدَهُ مفاتحُ الغيب لا يعلمها إلا هُوَ ويعلم ما في البرِّ والبحر وما تسقط من ورقةٍ إلا يعلمها ولا حَبَّةٍ في ظلماتِ الأرضِ ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مبين**﴾[5].

ولكن ما الذي نستفيده من هذين الاسمين الكريمين: السميع، والعليم؟

---

(١) انظر: فتح الباري (١٣/ ٤٦٠)، وسنن النسائي (٦/ ٤٨٠) رقم (٣٤٦٠)، وسنن ابن ماجة (١/ ٦٧) حديث رقم (١٨٨)، ومسند الإمام أحمد (٦/ ٤٦).

(٢) من الآية ٤٦ من سورة طه.

(٣) من الآية ٥١ من سورة طه.

(٤) من الآية ٥٢ من سورة طه.

(٥) الآية ٥٩ من سورة الأنعام.

نستفيد من الناحية المسلكية فائدة وهي أن نحذر من أن نتكلم بما لا يرضي الله، لأننا إن تكلمنا سمعه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ونحذر من أن نضمر في نفوسنا أو نعمل بجوارحنا ما يعلمه الله وكل شيء يعلمه الله لأنه سوف ينبئنا بما عملنا يوم القيامة.

ثم يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في ذكر ما قاله إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وهما يرفعان القواعد من البيت: **﴿رَبَّنَا واجعلنـا مُسْلِمينْ لَكَ ومِنْ ذريتنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وأَرِنَا مناسِكَنَا وتُبْ علينا إنَّكَ أَنْتَ التوَّابُ الرحيمُ﴾**.

قوله: **﴿ربنا واجعلنا مسلمين﴾** أي منقادين لأمرك على وجه الإخلاص لك، لأن دين الإسلام لله يتضمن الإخلاص والانقياد لأمره ـ جلَّ وعلا ـ ، **﴿ومن ذريتنا﴾** يعني واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك، وهي أمة محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ، لأنها هي الأمة التي يصدق عليها أنها من ذرية إبراهيم وإسماعيل. أما بنـو إسرائيل فهم من ذرية إبـراهيم، ولكنهم ليسـوا من ذرية إسماعيل، بل هم بنو عمهم، **﴿وأَرِنَا مناسكنا﴾** أي مواضع نسكنا ألهمنا إياها حتى نراها، **﴿وتُبْ علينا إنَّكَ أنت التوَّاب الرحيم﴾** معنى التوبة من الله على عباده أن يوفقهم للتوبة أولاً، ثم لقبولها ثانياً، والتوبة ـ في الأصل ـ : الرجوع إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ **﴿إنك أنت التواب الرحيم﴾** التوَّاب: كثير التوبة على عباده مهما عظمت ذنوبهم، لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ : **﴿قُلْ يا عبادي الذينَ أسرفوا**

على أنفسهم لا تقنطُوا من رحمةِ اللهِ إنَّ اللهَ يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾[1] فقد نزلت هذه الآية في التائبين، والتوبة من الذنوب ـ مهما عظمت الذنوب ـ تهدم ما قبلها.

والتوبة تكون من أعظم الذنوب في حق الله وفي حق العباد وتقبل، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿والَّذينَ لا يدعونَ مَعَ اللهِ إلهاً آخر ولا يقتلونَ النفسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلا بالحق ولا يزنون ومَنْ يفعلْ ذلكَ يلْقَ أثاماً يضاعفُ لَهُ العذابُ يومَ القيامة ويَخْلُد فيه مهاناً إلاَّ مَنْ تابَ وآمن وعمِلَ عمـلاً صالحـاً فأولئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سيئاتهم حسناتٍ وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً ومن تاب وعمل صالحاً فإنَّهُ يتوبُ إلى اللهُ متاباً﴾[2] والرحيم ذو الرحمة التي بها حصول النعم واندفاع النقم.

فوائد وأحكام هذه الآية:

ـ أنَّ كل أحد محتاجٌ إلى ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ بل مضطر إليه في أن يوفقه للاستسلام له ظاهراً وباطناً؛ لقول إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وابنه إسماعيل: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾.

ـ أن الداعي إذا استمع إليه من يؤمِّن على دعائه فإن الدعاء

---

(١) الآية ٥٣ من سورة الزمر.

(٢) الآيات (٦٨ ـ ٧١) من سورة الفرقان.

يكون لهما جميعاً، لأن الظاهر أن الذي يدعو إبراهيم، وإسماعيل يؤمِّن، والمستمع المؤمن مع الداعي كالداعي تماماً، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وقالَ موسى ربنا إنَّكَ آتيتَ فرعونَ وملأَهُ زينةً وأموالاً في الحياةِ الدنيا ربنا ليُضِلُّوا عَنْ سبيلك رَبَّنَا اطمس على أموالهم واشْدُدْ عَلَى قلوبهم فلا يؤمِنُوا حَتَّى يروا العذابَ الأليم قال قدْ أجبتُ دعوتكما فاستقيما ولا تَتَّبِعَانِ سبيلَ الَّذينَ لا يعلمون﴾[1] فقال تعالى: ﴿قد أجبتُ دعوتكما﴾ مع أن الداعي موسى، قال العلماء: لأن موسى يدعو وهارون يؤمِّن.

- فضل إبراهيم وإسماعيل على هذه الأمة، لقوله: ﴿ومن ذريتنا أُمَّةً مسلمة لك﴾.

- أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله له عقباً صالحاً، لقوله: ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ وهذا كقول إبراهيم: ﴿رَبِّ اجعلني مُقيمَ الصَّلاة ومن ذريتي رَبَّنَا وتقبَّلْ دُعَاءِ﴾[2].

- أنَّ كل إنسان ـ مهما عظمت درجته، وعلت مرتبته ـ مفتقر إلى علم الله له، لقوله: ﴿وأرنا مناسكنا﴾.

- أهمية معرفة موضع العبادة إذا كانت العبادة مُقَيَّدة بموضع

---

(١) الآيتان ٨٨ و ٨٩ من سورة يونس.

(٢) الآية ٤٠ من سورة إبراهيم.

معـين، وكـذلـك أهمية معرفة وقت العبادةإذا كانت مقيَّدة بوقتٍ معيَّن، وينبني على هذاأنه ينبغي أن نعتني بمعرفة أوقات الصلوات الخمس حتى نؤديها في الوقت الذي حدَّدَهُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ لعباده، قال تعالى: ﴿إنَّ الصَّلاة كانت على المؤمنينَ كِتَاباً موقوتاً﴾[1] ومن هنا أُحَذِّرُ إخواننا المؤذِّنين من الأذان قبل دخول وقت الصلاة، أولاً لأن الأذان إعلام بدخول وقت الصلاة، والأذان قبل دخول وقتها لا يصح أن يكون إعلاماً بدخول الوقت، وثانياً أنهم إذا أذنوا فربما يتعجَّل أحد في البيوت من النساء أو من الرجال الذين لا تلزمهم صلاة الجماعة لعذر شرعي، فيصلون فور انتهاء المؤذن من أذانه، وتكون صلاتهم قبل دخول الوقت، ومن المعلوم أنَّ الإنسان لو كَبَّر تكبيرة الإحرام قبل دخول الوقت، ثمَّ أتمَّ الصلاة بعد دخوله فإن صلاته لا تصح، يعني لو تقدَّمت الصلاة بتكبيرة الإحرام فقط قبل دخول الوقت فإنها لا تصح.

ـ أنَّ كل إنسان ـ مهما عَلَت منزلته، وارتفعت درجته ـ مفتقر إلى توبة اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ عليه، لقول إبراهيم: ﴿وتُبْ علينا﴾ وقد مَنَّ اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ على نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتوبته عليه فقال: ﴿لقد تابَ اللهُ على النَّبي والمهاجرين والأنصار

---

(١) من الآية ١٠٣ من سورة النساء.

الَّذينَ اتَّبعوهُ في ساعةِ العُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يزيغُ قلوبُ فريقٍ منهم﴾(١).

والتوبة هي الرجوع إلى الله - عزَّ وجلَّ - من معصيته إلى طاعته، ولا بُدَّ فيها من شروط خمسة: الأول: الإخلاص لله بألا يحمله على التوبة إلا رضا الله - عزَّ وجلَّ - وابتغاء ثوابه، فلا يحمله عليها خوفٌ من سلطان أو من أناس، والثاني: الندم على ما فعل من المعصية، والثالث: الإقلاع عن المعصية في الحال، والرابع: العزم على ألا يعود في المستقبل، والخامس: أن تكون التوبة قبل إغلاق زمن التوبة. وعلى هذا فلا تصح التوبة إذا حضر الأجل، لقوله تعالى: **﴿وليست التوبةُ للذين يعملون السيئات حَتَّى إذا حضرَ أحدَهُمُ الموتُ قالَ إني تبتُ الآن﴾**(٢) ولا تصح التوبة إذا طلعت الشمس من مغربها، لقوله تعالى: **﴿يومَ يأتي بعضُ آياتِ رَبِّكَ لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكُنْ آمَنَتْ مِنْ قبل أو كَسَبَتْ في إيمانِها خيراً﴾**(٣).

- التوسل إلى الله - تعالى - بأسمائه عند الدعاء، لقوله تعالى: **﴿ولله الأسماءُ الحُسْنَى فادعوه بها﴾**(٤) وهنا قال: **﴿وتُبْ علينا إِنَّكَ**

---

(١) من الآية ١١٧ من سورة التوبة.

(٢) من الآية ١٨ من سورة النساء.

(٣) من الآية ١٥٨ من سورة الأنعام.

(٤) من الآية ١٨٠ من سورة الأعراف.

أنتَ التوابُ الرحيم﴾ وينبغي أن يكون التوسل بالاسم المناسب لما دعوت به، فإذا دعوت للتوبة فتوسل إلى الله باسمه «التواب» وإذا دعوت للمغفرة فتوسل إلى الله باسمه «الغفور»، وإذا دعوت لطلب الرزق فتوسل باسمه «الرزاق» وماأشبه ذلك.

ـ إثبات هذين الاسمين الكريمين من أسماء الله وهما: «التواب» و«الرحيم». أما التواب فهو الذي يقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات، وهو الذي يوفق من شاء إلى التوبة فيتوب كما قال الله ـ تعالى ـ: **﴿ثُمَّ تابَ عليهم ليتوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التوَّابُ الرَّحيم﴾**[1] وأما الرحيم فهو ذو الرحمة العظيمة الواسعة، قال الله ـ تعالى ـ: **﴿ورحمتي وسعت كُلَّ شيءٍ﴾**[2] وقال عن الملائكة وهم يدعون: **﴿ربنا وسِعتَ كُلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً﴾**[3] وقد قسَّم العلماء ـ رحمهم الله ـ رحمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى قسمين: رحمة مخلوقة، ورحمة هي صفته، ومثَّلُوا للرحمة المخلوقة بقوله ـ تعالى ـ في الحديث القدسي للجنة: «**أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي**»[4]

---

(١) من الآية ١١٨ من سورة التوبة.

(٢) من الآية ١٥٦ من سورة الأعراف.

(٣) من الآية ٧ من سورة غافر.

(٤) رواه: البخاري (٨/٧٦٥) رقم (٤٨٥٠)، ومسلم (٤/٢١٨٦) رقم (٢٨٤٦)، والترمذي (٤/٥٩٨ ـ ٥٩٩) رقم (٢٥٦٠) وقال: «حديث حسن صحيح»، والإمام أحمد في المسند (٢/٢٧٦).

وأطلق عليها اسم رحمته، لأنها محل رحمته، ولأنها مقر عباد الرحمن، وسكن الرحماء من عباد الله، والقسم الثاني: رحمة هي صفته ـ جلَّ وعلا ـ، وهي غير مخلوقة، فإن جميع صفات الله ـ تعالى ـ غير مخلوقة، فإن الله ـ تعالى ـ بصفاته هو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، وهذه تنقسم إلى قسمين: رحمة عامة تشمل جميع الخلق من مؤمن وكافر، وبر وفاجر، وعاقل وبهيم، ورحمة خاصة بعباد الله المؤمنين، لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وكانَ بالمؤمنينَ رحيماً﴾[1] ومقتضى الرحمة العامة إيجاد ما به تقوم مصالح المرحومين، وتندفع مضارهم، وأمامقتضى الرحمة الخاصة فهو توفيق هؤلاء، وتسديد أمورهم، وإصلاح أحوالهم على وجهٍ أخص مما تقتضيه الرحمة العامة.

ثم قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وابعثْ فيهم رسُولاً منهم يتْلُو عليهم آياتِكَ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحكمة ويُزَكِّيهِمْ إنَّكَ أَنْتَ العَزِيْزُ الحكيمُ﴾.

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة الأحزاب.

قولـه: ﴿ربنـا وابعث فيهم رسولاً منهم﴾ «فيهم»: أي في الـذرية، وأعاد الضمير إليها بالجمع، لأن معناها الجمع والبعث والإرسـال بمعنى واحـد، قال الله تعـالى: ﴿لَقَـدْ أرسلنا رُسُلَنَا بالبيناتِ وأَنْزَلْنَا معهم الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقسطِ﴾[1] وقـال الله ـ تعالى ـ: ﴿كانَ الناسُ أُمَّةً واحدةً فبعث اللهُ النبيين مُبَشِّرينَ ومُنذرينَ وأنزلَ معهمُ الكتابَ بالحق ليحكم بين النَّاسِ فيما اختلفوا فيه﴾[2] وقوله تعالى: ﴿رسولاً منهم﴾ هو محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلَّم ـ، لأنه من ذرية إبراهيم وإسماعيل، وليس في ذرية إسـماعيل نبي سوى محمـد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿يتلو عليهم آيـاتك﴾ يقرؤها عليهم حتى يفهموها علماً وفهماً وعملاً؛ ولهـذا قال: ﴿يعلمهم الكتـاب والحكمـة﴾ الكتـاب الـذي هو القرآن، والحكمة التي هي السنة وما تتضمنه من أحكام القرآن، والسنة من الحكم والأسرار ﴿ويزكيهم﴾ ينمي أخلاقهم وأعمالهم، ولهذا كان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ متمماً لمكارم الأخلاق. ﴿إنَّـكَ أنتَ العـزيز الحكيم﴾ الجملة هنا جملة توسلية توسلَ بها إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقبول ما دعا به وتحقيقه، والعزيز هو ذو العزة الكاملة، وهي عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع،

---

(١) من الآية ٢٥ من سورة الحديد.

(٢) من الآية ٢١٣ من سورة البقرة.

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ له هذه الأنواع من العزة فهو ذو قدر عظيم، وقهر بالغ، وامتناع عن كل سوء وعيب. وأما الحكيم فهو ذو الحِكْمَة والحُكْم أي أن الحكيم من الإحكام وهو الإتقان، ومن الحُكْم.

فوائد وأحكام هذه الآية:

- حاجة البشر إلى الرسل، ولهذا دعا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يبعث في هذه الذرية رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وهذا أمر معلوم بالضرورة، فإن العقول ـ مهما كَبُرت ـ لا يمكن أن تستقل بمعرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته على وجه التفصيل، ولا يمكن أن تتعبد لله تعالى إلا بما شرعه لعباده، فهم في أشد الضرورة إلى الرسل.

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن هذا الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يتلو عليهم آيات الله، وقد حصل ما دعا به إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان يعلم أصحابه القرآن الكريم ولا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، ثم ألقوا هذا القرآن الكريم إلى من بعدهم بكل ثقة وأمانة، وهكذا تداوله المسلمون إلى يومنا هذا ولله الحمد، لم يجرؤ أحد على العدوان على

هذا القرآن الكريم، وإذا اعتدى وجد ـ ولله الحمد ـ من يصدَّه ويردَّه على عقبه.

ـ أن ما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ آيات، أي علامات دالة دلالة قطعية على أنه نزل من عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وعلى أنه شرع الله.

ـ فضيلة العلم، وأن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ علَّم أمته الكتاب والحكمة، ولهذا لم يدع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئاً يحتاجه الناس في معاشهم ومعادهم إلا علَّمهم إياه، قال أبوذر ـ رضي اللهُ عنه ـ : «لقد توفي رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وما طائر يُقَلِّبُ جناحيه إلا ذكر لنا منه علماً».

ـ أن هذه الشريعة جاءت بالحكمة المطابقة للمصالح، ولهذا كانت مبنية على جلب المصالح، ودرء المفاسد.

ـ إثبات القياس في الشريعة الإسلامية إذا كان قياساً صحيحاً، ووجه ذلك أن إلحاق النظير بنظيره في الحكم من الحكمة فيكون داخلاً فيما علمه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أمته، ودلائل هذا كثيرة، فكل مثلٍ ضربه الله في القرآن فإنه دليل على ثبوت القياس، وكذلك كل مثل ضربه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه دليل على ثبوت القياس، وقد كان النبي ـ صلى الله

عليه وسلم - يذكر المحسوس ليقاس عليه المعقول، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - : «**أن رجلاً أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسولَ الله وُلد لي غلامٌ أسود، فقال: «هل لك من إبل؟» قال: نعم. قال: «ما ألوانها؟» قال: حُمرٌ، قال: «هَلْ فيها من أورق[1]» قال: نعم، قال: «فأنَّى ذلك»؟ قال: لعلَّ نزعهُ عرقٌ. قال: «فلعلَّ ابنك هذا نزعه»**[2] فاقتنع الرجل اقتناعاً كاملاً؛ لأن إلحاق النظير بنظيره من الحكمة، لكن أكثر ما يحصل في القياس أنه لا يكون صحيحاً، حيث يقيس القائس شيئاً على ما لا يماثله، وحينئذ يحصل الخطأ، وتكثر مجانبة الصواب.

- أن نبينا - صلى الله عليه وسلم - بعث ليتمم لأمته مكارم الأخلاق، وينمي فيها الفضائل، لقوله: ﴿**ويزكيهم**﴾ وربما تشمل التزكية التعديل الذي هو ضد الفسق، وذلك أن من تمسك بهذه الشريعة فإنه يكون عدلاً مقبولاً.

---

(١) الأورق: ما لونه بين السواد والبياض.

(٢) رواه: البخاري (٩/٥٥٢) رقم (٥٣٠٥)، ومسلم (٢/١١٣٧ - ١١٣٨) رقم (١٥٠٠)، وأبوداود (٢/٦٩٤ - ٦٩٥) رقم (٢٢٦٠)، والترمذي (٤/٣٨٢ - ٣٨٥) رقم (٢١٢٨) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (٦/٤٨٩) رقم (٣٤٧٨)، وابن ماجة (١/٦٤٥) رقم (٢٠٠٢)، والإمام أحمد في المسند (٢/٣٣٣ - ٣٣٤).

- إثبات التوسل إلى الله - تعالى - بأسمائه، ودعاؤه بها، لقوله: ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾.

- إثبات هذين الاسمين الكريمين من أسماء الله وهما: العزيز والحكيم.

- إثبات العزة والحكمة والحكم لله، فأما العزة فقد سبق الإشارة إلى أنها ثلاثة أنواع: عزة قدر، وهي أن الله - تعالى - ذو قدر عظيم لا يماثله شيء في قدره، وعزة القهر والغلبة، وهي أن الله - تعالى - قاهر لكل شيء، غالب على كل شيء، وإثبات عزة الامتناع، وهي أن الله - تعالى - يمتنع عن كل نقص وعيب، قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿ولله العزّةُ ولرسوله وللمؤمنين﴾[1].

- إثبات الحكمة لله، والحكمة هي وضع الشيء في موضعه اللائق به، ثم هي نوعان: حكمة في جعل الشيء على صفة معينة، وحكمة في الغاية من هذا الشيء وتكون في الشرع، وتكون في القدر، ولنضرب لهذا مثلاً بالقمر، القمر وضعه الله - تعالى - في السماء، وجعله مقدراً بمنازل، وهذا التقدير يختلف به حجم القمر، أي الحجم المضيء من القمر، فكونه على هذه الصفة المعينة يزداد حجم المضيء فيه رويداً رويداً حتى ينتهي ثم يعود في

---

(١) من الآية ٨ من سورة المنافقين.

النقص، هذه حكمة بلا شك، لأن الإنسان بمجرد أن ينظر إليه فيجد ضوءه ناقصاً يعرف أنه في الربع الأول من الشهر مثلاً، وإذا وجـده ممتلئاً عرف أنه في الأخير من الربع الثاني، هكذا. ثم إن الغاية منه أن نعرف عدد السنين والحساب، فكان هذا حكمة في كون القمر على صفة معينة وفي غاية تقديره منازل، لنعلم ـ بذلك ـ عدد السنين والحساب، كذلك أيضاً في الصلاة وهي شرعية نجد أن كونها على هذه الصفـة المعينـة في غاية الحكمة، قيام لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وتقرّب إليه بقراءة كتابه، ومناجاته به، ثم ركوع يفيد قوة التعظيم لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ثم قيام بعده حتى يخر الإنسان ساجداً له ـ عزَّ وجلَّ ـ من أعلى انتصاب له إلى أسفل انخفاض له، حيث يضع أعلى ما في بدنه، وأشرف ما في بدنه وهو الوجه على الأرض التي هي موطىء الأقدام وأسفل ما يكون إلى الجسم تواضعاً لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وتعظيماً له. ولهذا كان العبد إذا سجد أقرب ما يكون من ربـه، ثم تعـود بعد ذلك إلى القيام وهكذا، فكون الصلاة على هذه الصفـة في غاية الحكمـة، ثم الثمرات المرجوة من هذه الصلاة أيضاً حكمـة عظيمـة وهي حكمـة الغاية، وحكمة الغاية من الصلاة هي سعادة الدنيا والآخرة، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ في نفع الصلاة في الأمور الكـونية والقـدرية: ﴿**واستعينـوا بالصبـرِ والصَّلاة**﴾[1] وفي نفع

---

(١) من الآية ٤٥ من سورة البقرة.

الصلاة في الأمور الشرعية: ﴿**إنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عن الفحشاءِ والمنكر**﴾[1] فأنت ترى أن حكمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كائنة في الأمور، في صفتها التي هي عليها، ثم في الغاية منها.

ـ إثبات الحكم لله، وأن الحكم لله وحده، أما كوناً فإنه لا مشارك له في حكمه، ولا يمكن أحد أن يشاركَ الله في حكمه، فلا يمكن لأحد أن يمنع الموت إذا حضر، ولا يمكن لأحد أن يخلق شيئاً مهما ضعف، يقول اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿**يا أيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا لَهُ إنَّ الَّذينَ تدعونَ من دونِ اللهِ لن يخلقوا ذُباباً ولو اجتمعوا له وإنْ يسلبهمُ الذبابُ شيئاً لا يستنقذوهُ منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ**﴾[2] فحكم الله الكوني لا يمكن لأحد مخالفته، ولا مضادته، ولا معارضته، ولهذا نجد أن الفيضانات العظيمة والعواصف المدمرة، والصواعق المحرقة تنزل على أعظم دولة وأقواها صناعة واقتصاداً وسلاحاً، وتدمر ما شاء اللهُ أن تدمره، ولا يملكون ردها.

أما الحكم الشرعي فإنه قد يغيّر وقد يبدَّل، لكن تغييره وتبديله اعتداء على حكم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، يلقى جزاءه من بدَّل وغيَّر ولكن ـ مع ذلك ـ لو بدَّل أو غيَّر فإنه باقٍ، ولا سيما شريعة الإسلام

---

(١) من الآية ٤٥ من سورة العنكبوت.

(٢) الآية ٧٣ من سورة الحج.

التي بُعِثَ بها محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ، لأنها مكتوب لها البقاء إلى يوم القيامة، ولهذا يحاول المبطلون المعتدون الملحدون أن ينالوا من هذه الشريعة، ولكن يقيض الله لهم من يكبح جماحهم، ويرد عدوانهم، إذن الحكيم من الحكم ومن الحكمة، والحكمة حكمة الشيء على الوصف الذي هو عليه، وحكمة الشيء في الغاية والثمرة المرجوة منه، والحكم كوني وقدري، وعلى هذا يكون الحكم الكوني له حكمتان: حكمة وصف، وحكمة غاية.

ـ الفوائد المسلكية العظيمة، وهي أن الإنسان إذا علم أن الله هو العزيز فإنه لن يستمد العزة إلا من عنده ـ عزَّ وجلَّ ـ ، والعزة المستمدة من عند الله تكون بأمرين: إذا استقام على دينه، وبدعائه وسؤاله العزة، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : **﴿ولِلَّهِ العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكِنَّ المنافقينَ لا يعلمون﴾**[1] وقال ـ تعالى ـ : **﴿قُلِ اللهُمَّ مالكَ المُلْكِ تؤتي المُلْكَ مَنْ تشاءُ وتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تشاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وتُذِلُّ من تَشَاءُ بيدِكَ الخيرُ إنَّكَ على كل شيءٍ قدير. تولجُ الليلَ في النهارِ وتولجُ النهارَ في الليلِ وتخرجُ الحيَّ من الميِّتِ وتُخْرِجُ الميِّتَ من الحي وتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بغيرِ حسابٍ﴾** [2].

ـ ومن فوائدها المسلكية أن الإنسان يرضى بما قدره الله عليه،

---

(١) من الآية ٨ من سورة المنافقين.

(٢) الآيتان ٢٦ و ٢٧ من سورة آل عمران.

وبما شرعه له، لأنه يعلم أنه مبنيٌّ على الحكمة، فإذا علمت أن ما قدره الله عليك صادرٌ عن حكمة فإنك سوف تقتنع؛ لأنك تعلم أن الله أعلم بمصالحك، وكذلك إذا علمت أن شريعة الله مبنية على الحكمة فإنك تنقاد لها، وترضى بهذه الشريعة، وتعلم أنها حق، وأن مخالفتها هي السفه والباطل.

- ومن الفوائد المسلكية في هذه الآية أيضاً أنك إذا علمت أن الحكم لله تعالى كوناً وشرعاً فإنك لن تتجاسر على مخالفة أحكامه الشرعية كما أنك لن تتمكن من مخالفة أحكامه القدرية، وحينئذٍ تكون مسلماً لله ظاهراً وباطناً، كوناً وشرعاً.

ثم قال الله تعالى: ﴿**وَمَنْ يرغب عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفيناهُ في الدُّنيا وإِنَّهُ في الآخِرَةِ لمن الصَّالحين**﴾.

لما ذكر الله - جلَّ وعلا - ما قام به إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - من الأفعال الجليلة، والأقوال الحميدة، والدعوات المستجابة، والإخلاص التام لله - عزَّ وجلَّ - قال: ﴿**ومَنْ يرغب عن مِلَّة إبراهيمَ إلا من سفه نفسه**﴾ أي لا أحد يرغب عن ملة إبراهيم - وهي دينه الذي هو عليه - ﴿**إلا من سفه نفسه**﴾ إلا من رضي لها السفه، والسَّفه ضد الرشد، والسفه التصرف على وجه الخطأ، وبيَّن اللهُ - عزَّ وجلَّ - فضله على إبراهيم في قوله: ﴿**ولقد اصطفيناه في الدُّنيا**﴾ فيكون من اتبع ملته مصطفى في هذه الدنيا

ويكون في الآخرة من الصالحين كما كان إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة :

ـ الثناء على ملة إبراهيم، وهي دينه، المبني على الإخلاص لله، والمتابعة لشرعه، ولقد أمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يتبع ملة إبراهيم حنيفاً، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿**ثُمَّ أوحينا إليكَ أن اتبع مِلّة إبراهيمَ حنيفاً وما كانَ مِنَ المشركين**﴾[1] .

ـ أنَّ اتباع ملة إبراهيم هو العقل والرشد والصلاح .

ـ أن من رغِبَ عن ملة إبراهيم فهو السفيه، الذي أوقع نفسه في السفه، وإذا كان الناس يعدون من تصرف في ماله خبط عشواء سفيهاً فإن من رغب عن ملة إبراهيم أسفه منه وأشد سفهاً .

ـ الثناء على إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكون الله تعالى اصطفاه في الدنيا ووعده وأكد أنه في الآخرة من الصالحين .

ـ أن طريق إبـراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وملته صفوة أعـمال الخلق، لأنها شريعة الله، ولأنها صادرة عمن اصطفاه الله فتكون هي الصفوة من أعمال الخلق التي لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه .

---

(١) الآية ١٢٣ من سورة النحل .

- إثبات الآخرة، وهي اليوم الآخر الذي يقوم فيه الناس من قبورهم لله - عزَّ وجلَّ - ، لينالوا جزاء أعمالهم **﴿فَمَنْ يعملْ مثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَهُ ومن يعملْ مثقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾**(١) .

- أنَّ الصلاح وصفٌ حميدٌ حتى للرسل، فهم - أي الرسل - قمة الصالحين، وإن كان الصلاح قد يكون قسيماً للنبوة والرسالة إذا ذكر أو قرن معهما في الذكر، قال الله - تعالى - : **﴿ومَن يُطِعِ اللهَ والرَّسولَ فأولئكَ مَعَ الذين أنعمَ اللهُ عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئِكَ رفيقاً﴾**(٢) لكن إذا ذُكر الصلاح وحده فهو عام للجميع.

- جواز وصف النبي - صلى الله عليه وسلم - بالصالح، لقوله: **﴿وإنَّهُ في الآخرةِ لمن الصالحين﴾** وفي حديث المعراج أن النبي الذي يمر به النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - السموات يقول: «**مَرْحَباً بالنبي الصالح والأخ الصالح**» وإبراهيم قال: «**مَرْحَباً بالنبي الصالح والابن الصالح**»(٣).

---

(١) الآيتان ٧ و ٨ من سورة الزلزلة.

(٢) الآية ٦٩ من سورة النساء.

(٣) رواه: البخاري (١/٦٠٥ - ٦٠٦) رقم (٣٤٩)، ومسلم (١/١٤٨ - ١٤٩) رقم (١٦٣)، والإمام أحمد في مسنده (٤/٢٠٨).

ثم قال الله تعالى: ﴿إِذْ قالَ له رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالمينَ﴾.

كلمة ﴿إذ﴾ متعلقة بشيء محذوف، والتقدير اذكر منوهاً ومثنياً على إبراهيم ـ عليه الصلاة و السلام ـ حين ﴿قال له ربه أسلم﴾ أي أسلم لله ـ عزَّ وجلَّ ـ إسلاماً شرعياً، كما أنه مسلم له إسلاماً كونياً قدرياً ﴿قال أسلمتُ لرب العالمين﴾ فكان الجواب جواب مبادرة وفورية، لم يتأخر ولم يتوانَ ﴿قال أسلمتُ لرب العالمين﴾ ولم يقل «أسلمتُ لربي»، لأن قوله: ﴿لرب العالمين﴾ أعم وأشمل، وهو كالتعليل للحكم أي الإسلام، يعني أسلمت لله؛ لأنه رب العالمين الذي يتصرف في عباده كما يشاء.

فوائد وأحكام الآية الكريمة:

ـ فضيلة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ حيث أضاف الله ربوبيته إليه في قوله: ﴿إذ قالَ له رَبُّهُ أسلم﴾.

ـ التنويه بذكر إبراهيم، وبيان فضله، وهذه من عادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يضيع أجر من أحسن عملاً، فإن الله يرفع ذكر من أحسن عملاً بعد مماته، ويقيض من يبعث حياته وإن كان ميتاً، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وجعلنا لَهُ نوراً يمشي بِهِ في النَّاسِ كمن مثلُهُ في الظُّلُماتِ

ليسَ بخارجٍ منها كَذَلِكَ زُيِّنَ للكافرينَ ما كانُوا يَعْمَلُون﴾[1].

ثم قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ : **﴿وَوَصَّى بها إبراهيمُ بنيه ويَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إنَّ اللهَ اصْطَفَى لكُمُ الدين فلا تَموتُنَّ إلاَّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾**.

قوله: **﴿ووصى بها﴾** أي بهذه الكلمة العظيمة وهي الإسلام لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فإن إبراهيم وصى بها بنيه **﴿ويعقوب﴾** أي وصى بها أيضاً بنيه، ويعقوبُ هو ابنُ إسحاق بن إبراهيم، فيكون إبراهيم جداً له. **﴿يا بني إنَّ الله اصطفى لكم الدين﴾** اختاره لكم ديناً تدينون به لله ـ عزَّ وجلَّ ـ تقومون بحقه وحق عباده **﴿فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾** أي استمروا على إسلامكم إلى الموت.

فوائد وأحكام هذه الآية:

ـ أهمية الإسلام لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، حيث إن الأنبياء الكرام ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وصوا بها أبناءهم.

ـ أن البنين الذكور هم أهل القيام بهذه المهمة العظيمة (الإسلام إلى الله، والدعوة إليه، ونشره بين الأمة).

ـ تفضيل الذكور على الإناث.

---

(١) الآية ١٢٢ من سورة الأنعام.

- أن يعقوب وهو ابنُ إبراهيم وصَّى بها بنيه أيضاً، ومن أبنائه يوسف الذي أنزل الله في قصته سورة كاملة.

- أن الله - تعالى - اصطفى هذا الدين لعباده المؤمنين، واختاره لهم.

- وجوب شكر الله - تعالى - على نعمته بالدين الإسلامي، حيث اختاره الله - عزَّ وجلَّ - لعباده، ثم شكر الله - سبحانه وتعالى - أن وفق العبد للقيام بهذا الدين الذي اصطفاه الله تعالى له.

- وجوب استمرار الإسلام لله - عزَّ وجلَّ - إلى الموت، وهذا يتفرع عنه فائدة أخرى وهي: حرص الإنسان على الثبات على دينه إلى أن يلقى الله - عزَّ وجلَّ - وهو مسلم له.

ثم قال الله تعالى: ﴿**أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يعقوبَ الموتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تعبدونَ مِنْ بعدي قالُوا نَعْبُدُ إلهكَ وإلَه آبائِكَ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإِسْحَاقَ إِلَهاً واحِدَاً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾.

﴿**أَمْ**﴾ هنا في معنى «بل» وهمزة الاستفهام، والتقدير «بل أكنتم شهداء» ﴿**إِذْ حضر يعقوب الموت**﴾ والمقصود بهذا تقرير هذه الوصية التي وصَّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب ﴿**إِذْ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي**﴾ يعني أي معبود تعبدونه من بعدي؟ ﴿**قالُوا نعبدُ إلهك**

وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً﴾ وهو الله رب العالمين، وذِكْرُ إسماعيل هنا من باب التغليب والتبعية، لأن إسماعيل ليس من آباء يعقوب، ولكنه عمه، وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لعمر بن الخطاب: «أما شعرتَ أنَّ عمَّ الرجل صِنو أبيه»[1]. وقوله: ﴿إلهاً واحداً﴾ هذا تأكيد التوحيد، أي لا نعبد معه غيره، بل نعبده هو ﴿إلهاً واحداً ونحنُ له مسلمون﴾ أي ونحن لهذا المعبود - وهو رب العالمين - عزَّ وجلَّ - مستسلمون ظاهراً وباطناً.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

- بيان حرص يعقوب - عليه الصلاة والسلام - على أن يكون بنوه على توحيد اللهِ - عزَّ وجلَّ - ، والاستسلام له ظاهراً وباطناً، ووجه ذلك أنه سأل بنيه عن هذا الأمر العظيم وهو في سياق الموت.

- اعتبار قول المحتضر، وأن قوله المعتبر معمولٌ به، وهذا يختلف باختلاف أحوال الناس، فمن الناس من إذا احتضر، ونزل الملك لقبض روحه غاب عن شعوره، ولم يدرِ ما يقول، وهذا لا

(١) رواه: مسلم في صحيحه (٢/٦٧٦ - ٦٧٩) رقم (٩٨٣)، وأبوداود (٢/٢٧٣ - ٢٧٥) رقم (١٦٢٣)، والترمذي (٥/٦١١) رقم (٣٧٦١)، والإمام أحمد في المسند (٢/٣٢٢) بلفظ «علمت» بدلاً من «شعرت».

عبرة بقوله، ومن الناس من يبقى معه فكره وإحساسه وإن كان في سياق الموت، وهذا هو الذي يعتبر قوله.

ـ حرص الأب على أبنائه، وأنه ينبغي أن يورث بعده ذرية طيبة تعبد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، ولا تعبد غيره.

ـ أن الآباء والأجداد يكونون أسوة لأبنائهم وأبناء أبنائهم فإما أسـوة حسنة وإما أسوة سيئة، فهؤلاء البنون ـ أعني بني يعقوب ـ قالوا: ﴿**نعبدُ إلهك وإله آبائك**﴾، والكفار الذين عاندوا المرسلين قالوا: ﴿**إنَّا وجدنا آباءَنَا عَلَى أُمَّة**﴾[1].

ـ أنـه ينبغي للرجل إذا كان مبتلى بمعصية من المعاصي أن يحرص على ألا يشـاهده أهله عليها، وأضرب لذلك مثلاً بشرب الدخان، فإن بعض الناس يكون مبتلى بهذه المعصية، ثم يشربها أمام أبنائه فيألفون هذا، وربما يشربونه كما يشربه أبوهم، فيكون بذلك ـ دالاً على سيئة عليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة.

ـ إطـلاق اسم الأب على الجد، لقوله: ﴿**نعبدُ إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق**﴾ وهو دليلٌ على القول الراجح

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة الزخرف.

من أقـوال أهل العلم بأن الجد في الميراث بمنزلة الأب فيحجب الإخوة سواء كانوا أشقاء أم لأب أم لأم .

ـ إطلاق لفظ الأب على العم تغليباً، لقوله : ﴿**وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق**﴾ .

ـ أن التـوحيد لا يتم إلا باعتقـاد وحدانية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بحيث لا يعتقد الإنسان أن له شريكاً، لقوله : ﴿**إلهاً واحداً**﴾ .

ـ فضيلة بني يعقـوب حيث قالـوا : إنهم يعبـدون الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ويسلمون له في قوله تعالى : ﴿**ونحنُ له مسلمون**﴾ نسأل الله تعالى أن يحقق لنا جميعاً الإسلام له حتى نلقاه على أحسن حال يرضى بها عنا .

ثم قال اللهُ ـ تعـالى ـ : ﴿**تِلْكَ أُمَّة قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ولا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ .

﴿**تلك**﴾ المشـــار إليه مَنْ سبق من الأمـم، حيث إن بعض الناس يظن أن انتسابه إلى أحد من الأنبياء أو غيرهم من الأولياء ينفعـه عنـد الله فيقـول : أنا أبي فلان، فقال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿**تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون**﴾ أي عما كان يعمل هؤلاء، بل كل يسأل عما عَمِلَ .

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

- قطع تعلّق الإنسان بالنسب، وأن نسبه لا ينفعه عند الله، وإنما الذي ينفعه هو العمل الصالح الذي يكون قرينه في قبره وفي حشره.

وقد ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «**يتبع الميِّت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد، يتبعه أهلُه ومالُه وعملُه، فيرجع أهلُهُ ومالُهُ ويبقى عملُهُ**»[1].

- أن كسب الآباء لا ينتفع به الأبناء، وأن كسب الأبناء لا ينتفع به الآباء إلا إذا كان ذلك سبباً، فإنه يؤجر المتسبب للخير على ما تسبب به، لأن الدال على الخير كفاعله، وهو في الحقيقة من كسبه، فمن اقتدى بك في العمل الصالح وانتفع بما عملت فإن أجره ينالك منه، لأن الدال على الخير كفاعله.

- أن الأبناء والأحفاد لا يُسألون عما يعمله الآباء، فالخطيئة في الآباء عليهم، وخطيئة الأبناء عليهم، قال تعالى: ﴿**ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾[2].

---

(١) رواه: البخاري (١١/ ٤٤٠) رقم (٦٥١٤)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٣) رقم (٢٩٦٠)، والترمذي (٤/ ٥٠٩) رقم (٢٣٧٩) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) من الآية ١٥ من سورة الإسراء، ومن الآية ١٨ من سورة فاطر.

ثم قال تعالى: ﴿وقالُوا كونُوا هوداً أو نَصَارَى تهتدوا قُلْ بلْ مِلَّة إبراهيم حنيفاً وما كانَ مِنَ المشْرِكين﴾.

قال اليهود للنبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه: كونوا هوداً تهتدوا، وقالت النصارى: كونوا نصارى تهتدوا، وكذبوا في ذلك، فإن الهداية باتباع شريعة الله - عزَّ وجلَّ -، وبعد بعثة محمد - صلى الله عليه وسلم - لا اهتداء ولا هداية إلا بالدين الذي جاء به رسول الله محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -، وهو ملة إبراهيم، ولهذا قال: ﴿قل بل ملة إبراهيم﴾ أي بل نتبع ملة إبراهيم، أي دينه الذي هو عليه ﴿حنيفاً﴾ أي بدون ميل إلى الشرك والكفر، ولهذا قالوا: ﴿وما كان من المشركين﴾ بل كان من المخلصين لله - عزَّ وجلَّ -.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

- أن أهل الباطل لا يألون جهداً في الدعوة إلى باطلهم وتضليلهم الناس، لقولهم: ﴿كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾.

- أن أهل الباطل قد يدعون إلى ما يعلمون أنه باطل، لقولهم: ﴿كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ فإن اليهود آتاهم الله الكتاب، وهم يعرفون النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كما يعرفون أبناءهم كما قال - تعالى -: ﴿الَّذينَ آتيناهُمُ الكِتَابَ

يعـرفـونَـهُ كما يعـرِفُونَ أبناءَهُمْ﴾[1] لكنهم ـ والعياذ بالله ـ كتموا الحق، وقالوا: الحق معنا، ومن تبعنا فهو الذي اهتدى.

ـ عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ بهذه الأمة، حيث ردَّ على هؤلاء المضللين: اليهود والنصارى بقوله: **﴿قُلْ بَلْ مِلَّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾**.

ـ أنه يجب على من يبين الباطل أن يبين الحق، ليسير الناس عليه، لأن الناس لا بد لهم من دين يدينون به، ومن عمل يسلكونه وينهجـونه، فإما خير وإما شر، ولهذا قال: **﴿قل بل﴾** أي بل لا نكون هوداً ولا نصارى، بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً.

ـ بيان منقبـة عظيمـة من منـاقب إبـراهيم ـ عليه الصـلاة والسلام ـ، حيث كان على غاية من الإخلاص لله حنيفاً، ولم يكن من المشركين.

ـ أن الأنبياء ـ عليهم الصـلاة والسـلام ـ معصـومـون من الشرك، كيف لا وهم قد جاؤوا لإبـطال الشرك، والقضـاء على أهله، قال تعالى: **﴿قاتِلُوا الذينَ لا يُؤمِنُونَ باللهِ واليوم الآخر ولا يحرمونَ ما حَرَّمَ اللهُ ورسُولُهُ ولا يدينونَ دِينَ الحقِّ مِنَ الذين أُوتوا**

---

(١) من الآية ١٤٦ من سورة البقرة، ومن الآية ٢٠ من سورة الأنعام.

الكتابَ حتَّى يعطوا الجِزْيَةَ عَنْ يدٍ وهُمْ صاغِرُونَ﴾[1] وقال تعالى: **﴿واقتلوهم حيثُ ثقفتموهم وأخرجوهم من حيثُ أخرجوكم والفتنةُ أشدُّ من القتلِ﴾**[2].

ثم قال الله - سبحانه وتعالى - : **﴿قولُوا آمَنَّا باللهِ وما أُنزِلَ إلينا وما أُنْزِلَ إلى إبراهيمَ وَإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أُوتِيَ موسى وعيسى وما أُوتِيَ النبِيُّونَ من رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بينَ أَحَدٍ منهم ونحنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾**[3].

والخطاب في قوله: **﴿قولُوا﴾** لهذه الأمة لكل من كان من بني آدم بعد نزول هذه الآية، فالخطاب إذن مُوجَّهٌ لكل أمة الدعوة **﴿آمنَّا بالله﴾** أي أقررنا بوجوده، وأذعنَّا لأمره، وقبلنا خبره. والإيمان بالله - سبحانه وتعالى - يتضمن عدة أمور هي: الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، فمن انتقص شيئاً من هذه الأمور الأربعة فإن إيمانه ناقص، وقد يكون إيمانه معدوماً. **﴿وما أُنزل إلينا﴾** هو القرآن **﴿وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾** هؤلاء كلهم أنزل إليهم، يهتدون به، ويهدون به، وما من رسول إلا أنزل الله عليه كتاباً، قال

---

(١) الآية ٢٩ من سورة التوبة.

(٢) من الآية ١٩١ من سورة البقرة.

(٣) الآية ١٣٦ من سورة البقرة.

الله ـ تعالى ـ : ﴿لَقَدْ أرسلْنَا رُسُلَنَا بالبيِّنَاتِ وأنزلنا معهم الكتابَ والميزانَ لِيقومَ النَّاسُ بالقِسْطِ﴾[1] وقوله: ﴿الأسباط﴾ قيل: إن المراد أبناء يعقوب، وقيل المراد بالأسباط القبائل التي تفرق بنو إسرائيل إليها، قال الله تعالى: ﴿وَقَطَّعناهم اثنتي عشرة أَسْباطاً أُمَماً﴾[2] والمراد بما أُنزل على الأسباط، أي ما أنزل بواسطة أنبيائهم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فإن الله ـ تعالى ـ بعث في بني إسرائيل أنبياء كثيرين، وهذا القول أصح من الذي قبله.

وقوله تعالى: ﴿وما أوتي موسى وعيسى وما أُوتي النبيون من ربهم﴾ أي ما أوتي موسى من الآيات، وما أنزل عليه من الوحي وهو التوراة، وكذلك ما أوتي عيسى من الآيات وما أنزل عليه من الوحي وهو الإنجيل ﴿وما أوتي النبيون من ربهم﴾ على سبيل العموم من الآيات التي يؤمن على مثلها البشر، فإن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: «ما من الأنبياءِ من نبي إلا قد أُعطي من الآياتِ ما مثلُهُ آمنَ عليه البشرُ. . .»[3] وذلك أنه لا بد أن يكون للأنبياء آيات تبين للناس صدق ما بعثوا به، لأن الناس لن يصدقوا إذا جاءهم شخص وقال: أنا رسول إليكم إلا بآيات تدل على صدقه، ولهذا جعل اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ لكل نبي آية. ﴿لا نفرق بين

---

(١) من الآية ٢٥ من سورة الحديد.

(٢) من الآية ١٦٠ من سورة الأعراف.

(٣) رواه: البخاري (١٣/٣٠٨) رقم (٧٢٧٤)، ومسلم (١/١٣٤) رقم (١٥٢).

أحد منهم﴾ أي لا نفرق بين أحد من هؤلاء الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ، والمراد أننا لا نفرق بينهم في أصل الإيمان، فإننا نؤمن بأنهم كلهم صادقون فيما جاءوا به من الوحي، وأنهم رسل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى خلقه، ولكننا نفرق بينهم من حيث الأحكام والشريعة ـ أي الشرائع ـ فإن الله ـ تعالى ـ يقول: **﴿لكلٍ جعلنا منكم شِرْعَةً ومنهاجاً﴾**[1] فالشرائع لا تلزمنا (أي شرائع من قبلنا)، وإنما تلزمنا شريعتنا التي جاء بها نبينا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ، أما شرائع من قبلنا فإن وافقتها شريعتنا آمنا بها بناء على أن شريعتنا جاءت بها، وإلا فإنها تكون منسوخة بشريعتنا، وقوله تعالى: **﴿ونحنْ له مسلمون﴾** أي ونحن لله مسلمون، أي منقادون لأمره، متبعون لشرعه، وهذه الآية فيها أصول عظيمة، ولهذا كان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقرأ بها في سنة الفجر أحياناً يقرأ بها في الركعة الأولى، وفي الركعة الثانية يقرأ: **﴿قُلْ يا أهلَ الكتابِ تعالُوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرِكَ به شَيئاً ولا يتخِذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دونِ اللهِ فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾**[2] وأحياناً يقرأ في الركعة الأولى: **﴿قل يا أيها الكافرون﴾**[3] وفي الركعة الثانية **﴿قُلْ هو اللهُ أحد﴾**[4].

---

(١) من الآية ٤٨ من سورة المائدة.

(٢) من الآية ٦٤ من سورة آل عمران.

(٣) الآية ١ من سورة «الكافرون».

(٤) الآية ١ من سورة الإخلاص.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

- وجوب الإيمان بما ذكر، لقوله - تعالى - : ﴿**قولوا آمنَّا بالله**﴾.

- الإيمان على وجه التفصيل بما أُنزل إلينا وهو القرآن، فنؤمن بأن القرآن كلام الله - عزَّ وجلَّ - أنزله على محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - بواسطة جبريل الأمين، كما قال الله - تعالى - : ﴿**وإنَّهُ لتنزيلُ ربِّ العالمين. نزلَ به الرُّوحُ الأمينُ عَلَى قَلْبِكَ لتكونَ مِنَ المنذرين. بلسان عربي مبينٍ**﴾[1] ونؤمن - كذلك - بما تضمنه هذا القرآن الكريم من الأخبار، وأنها أخبار حق، ونؤمن - كذلك - بما تضمنـه هذا القـرآن من الأحكام، وهي الأوامر والنواهي، وأنها أحكام مبنية على العدل والرحمة، وتحقيق المصالح، ولهذا لا رحمة للخلق أعظم من رحمتهم بهذا الدين الإسلامي.

- وجوب الإيمان بما أنزل الله - تعالى - على الرسل المذكورين، كالصحف التي أنزلت على إبراهيم كما قال تعالى: ﴿**إنَّ هذا لفي الصحفِ الأولى صحف إبراهيم وموسى**﴾[2] وكذلك ما أنزل إلى إسماعيل وإسحاق. . . إلخ.

---

(١) الآيات (١٩٢ - ١٩٥) من سورة الشعراء.

(٢) الآيتان ١٨ و ١٩ من سورة الأعلى.

ـ أن هؤلاء الرسل المذكورين كلهم قد أنزل إليهم، إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، يعني أنبياء الأسباط على القول الراجح .

ـ وجوب الإيمان بما أوتي موسى وعيسى من الآيات البينات الشرعية والكونية، فمن آيات موسى وعيسى التوراة جاء بها موسى، والإنجيل جاء به عيسى، ومن آياتهما الشرعية أن مع موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ عصا إذا وضعها في الأرض انقلبت حيَّة، وإذا حملها عادت عصا، وأنه يدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، أي من غير برص، لكنه بياض نور. أما آياتُ عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإنه لا يمسح ذا عاهة إلا برأ، فهو يبرىء الأكمه والأبرص، وأبلغ من هذا أنه يحيي الموتى ـ بإذن الله ـ ، يأمر الميت فيحيا، وأبلغ من هذا أنه يخرج الموتى من قبورهم، يقول للميت في قبره اخرج فيخرج، ولكنه ـ بإذن الله ـ ، لأن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يملك أن يحيي أحداً من الخلق، ولا أن يميت أحداً من الخلق، فالذي يحيي ويميت هو اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ ولكنَّ الله تعالى يجعل قول عيسى سبباً، فإذا قال عيسى للميت: قُمْ حَيَّاً، وما أشبه ذلك قام حياً، وإذا وقف على القبر وقال: اخرج حياً خرج حياً، وكان أيضاً يخلق من الطين كهيئة الطير: صورة الطير، فينفخ فتكون طيراً يطير بإذن الله، ينفلت من

يده طائراً، وهذا النفخ الذي نفخه عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو نفخ للروح في هذا التمثال الذي كهيئة الطير، فتبارك الله رب العالمين.

ـ وجوب الإيمان بما أوتي الأنبياء عموماً من الآيات، وأنها حق، وأنها ليست سحراً، بل هي تكون بقدرة الله ـ تعالى ـ وإذن الله.

ـ أنه يجب علينا الإيمان بما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى و ما أوتي النبيون من ربهم، نؤمن بذلك إيماناً لا نفرق فيه بين واحدٍ وآخر. وهذا من حيث الخبر، فيجب علينا أن نصدق أخبارهم، ونؤمن بها، أما من جهة الأحكام فلكلٍ جعلَ اللهُ شرعة ومنهاجاً، وكل أمة تعمل بما جاء في شريعتها من الأحكام.

ـ فضيلة هذه الأمة حيث كانت الآخرة لتصدق جميع الأنبياء السابقين فيكون لها فضيلة الإيمان بكل الأنبياء السابقين.

ـ إعلان الإخلاص لله في قوله: ﴿**ونحن له مسلمون**﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿**فَإِنْ آمنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدُوا وَإِنْ تولَّوا فإنما هُمْ في شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وهو السميعُ العليم**﴾.

قولـه : ﴿فـإن آمنـوا﴾ يعني المكـذبين للرسل، بل المكذبين لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من اليهود والنصارى والمشركين ﴿بمثلِ ما آمنتم به﴾ أي بالقرآن الكريم، والباء قيل: إنها زائدة، والمعنى فإن آمنوا مثل ما آمنتم به، أي على صفة ما آمنتم به، ونحن قد آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وآمنَّا بالقدر: خيره وشره، والتزمنا بأحكام شريعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فإذا آمنـوا مثل هذا الإيمان الذي آمنت به هذه الأمة ﴿فقد اهتدوا﴾ وهذا مقابل قوله: ﴿وقالُوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ فيكون الاهتداء حقيقة من كان مسلماً مؤمناً بمحمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ﴿وإن تولَّوا﴾ يعني أعرضوا عن الإيمان بمثل ما آمنتم به ﴿فإنما هُمْ في شقاق﴾ أي في تباعد عن الدين ومنازعة فيه، وهذا لا يضركم، ولكنـه يضرهم، ولهـذا قال: ﴿فسيكفيكهم الله وهـو السميع العليم﴾ أي فسيكون الله كافياً لك بالنسبة لهم، وسينصرك عليهم، وقد حصل هذا ـ ولله الحمد ـ فإن اليهود والنصارى أذلَّـهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لما كان المسلمون أعزَّة بدين الله، قائمين بأمر الله، صار اليهود والنصارى أذلاء بين أيديهم، يؤدون الجزية أو يسلمون.

فوائد وأحكام هذه الآية:

ـ ألَّا هداية بغير الإيمان بما آمنت به هذه الأمة، لقوله: ﴿فإنْ

آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا﴾ وإذا فات الشرط فات المشروط.

ـ أن اليهود والنصارى ضالون، تائهون، بعيدون عن الحق، لقـوله: **﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا﴾** مفهومه إذا لم يؤمنوا كذلك فلا هداية لهم.

ـ ضلال من ظن أن دين اليهـود والنصارى اليوم دينٌ قائمٌ مشتمل على الهداية، مقبول عند الله، ومن زعم ذلك فإنه كافر، خارج عن الملة ـ والعياذ بالله ـ، مُكَـذِّبٌ لقـول الله ـ تعالى ـ: **﴿وَمَنْ يبتغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلن يُقْبَلَ منه وهُوَ في الآخرةِ من الخـاسرين﴾**[1]، ولقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«والَّذي نفسُ مُحمدٍ بيدهِ لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يمــوتُ ولم يؤمن بالـذي أُرسلت به، إلا كانَ من أصحـابِ النَّار»**[2] ومعلوم أن من شهد أو اعتقد أن دين اليهود والنصارى دين حق اليوم وسيجعلهم (أي اليهود والنصارى) من أصحاب الجنة فسيكون هذا تكذيباً لقول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«إلا كانَ من أصحابِ النَّار»**.

---

(١) الآية ٨٥ من سورة آل عمران.

(٢) سبق تخريجه ص ٣١٢ .

ـ أن الأمم السابقة قبلنا تبعٌ لنا، يلزمهم أن يؤمنوا بشريعتنا، ويتبعوا شريعتنا، وهذا من نعمة الإسلام علينا، فنحنُ الآخرون زمناً، السابقون فضلاً، السابقون يوم القيامة حشراً ونشراً وإعطاء للكتب، وعبوراً على الصراط، ودخولاً للجنة ولله الحمد.

ـ تهديد المتولين عن شريعة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، وأنهم في شقاق، لقوله تعالى: **﴿وإنْ تولَّوا فإنما هم في شقاق﴾** أي في شق بعيد عن الدين الحق المقبول عند الله.

ـ البشرى السارة في قوله: **﴿فسيكفيكهم الله﴾** وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيكفي نبيه كل عدو للمسلمين من اليهود والنصارى وغيرهم، لقوله تعالى: **﴿فسيكفيكهم الله﴾**.

ـ تنشيط المسلم للتمسك بدينه، وأنه على حق، وأنه منصور، ولا بد أن الله تعالى كافيه أعداءه، لقوله تعالى: **﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾** ولقوله ـ تعالى ـ في آية أخرى: **﴿إنَّ الله يدافع عن الَّذينَ آمنُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خوَّانٍ كفور﴾**[1].

ـ بيان عظمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعزته وقدرته، حيث قال: **﴿فسيكفيكهم الله﴾** وهو شامل لكل عدو لرسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

---

(١) الآية ٣٨ من سورة الحج.

- إثبات هذين الاسمين الكريمين من أسماء الله وهما «السميع والعليم» وإثبات ما دل عليه هذان الاسمان الكريمان من الصفة، فهو - سبحانه وتعالى - موصوف بالسمع، وموصوف بالعلم، فسمعه واسع للأصوات كلها، وعلمه محيط بكل شيء، قال تعالى: ﴿**فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم**﴾.

ثم قال الله - تعالى - : ﴿**صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أحسنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ونحنُ لَهُ عابدون**﴾.

قوله: ﴿**صبغة**﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره الزموا صبغة الله، أي دين الله - عزَّ وجلَّ - ﴿**وَمَنْ أحسنُ من اللَّهِ صبغة**﴾ أي لا أحد أحسن من الله صبغة ﴿**ونحنُ له**﴾ أي لله - عزَّ وجلَّ - وحده ﴿**عابدون**﴾ أي متذللون بالطاعة بامتثال أمره، واجتناب نهيه.

فوائد وأحكام هذه الآية:

- فضيلة ما نحن عليه من دين الله، حيث أضافه الله إلى نفسه فقال: ﴿**صبغة الله**﴾.

- أن أحسن شريعة يستمسك بها الخلق شريعة الله - عزَّ وجلَّ - لقوله: ﴿**وَمَنْ أحسنُ من الله صبغة**﴾.

- وجوب إقرار العبد بأنه عبد لله، ومقتضى هذه العبودية أن

يكون ممتثلاً لأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، مجتنباً لنهيه ؛ لأن العبودية مأخوذة من التعبد، وهو التذلل محبةً وتعظيماً.

ثم قال الله تعالى: **﴿قُلْ أتحاجوننا في اللَّهِ وهُو ربُّنا وربُّكُمْ وَلَنَا أعمالُنَا ولَكُمْ أَعْمَالُكم ونَحْنُ له مُخْلِصُونَ﴾**.

﴿قل﴾ أي يا محمد، ويصح أن يكون خطاباً لكل من يتوجه إليه الخطاب، والاستفهام في قوله: **﴿أتحاجوننا في الله﴾** للإنكار والمحاجة هي المخاصمة، لإقناع الخصم، لأن كل واحد من الخصمين يدلي بحجته ليلزم بها الآخر، وقوله: **﴿في الله﴾** أي في دينه وشرعه فتقولون: نحن الذين على الحق مع أن الحق مع من اتبع ما جاء به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ **﴿وهو ربنا وربكم﴾** باتفاقنا واتفاقكم أنه رب الجميع، وإذا كان هذا إقراركم فإن الواجب عليكم أن تأخذوا بشرعه الآخر فالآخر؛ لأنه رب فهو أعلم بمصالح عباده، فهو الذي يملك ما شاء من أمورهم، فيأمرهم وينهاهم على حسب ما تقتضيه حكمته ورحمته. **﴿ولنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم﴾** وهذا كقوله تعالى: **﴿قُلْ يا أيُّها الكافرون لا أعبدُ ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابدٌ ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين﴾**[1]. فكيف تحاجون

---

(١) سورة «الكافرون».

الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ونحن نتفق جميعاً على أنه ربنا، ولكن أنتم تخالفون هذا الرب، فلنا أعمالنا ولكم أعمالكم، ثم ختم الآية بذكر الإخلاص لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وإخلاص الشيء تنقيته مما يشوبه، فالمعنى نحنُ له مخلصون في العبادة، لا نعبد غيره ولا نتخذ رباً سواه.

فوائد وأحكام هذه الآية:

ـ الإنكار على من يحاج في الله بغير علم، بل بما يعلم أن الأمر بخلافه، لقوله تعالى: ﴿**أتحاجوننَا في الله**﴾.

ـ أنه ينبغي عند المحاجة ذكر ما يتفق عليه الطرفان ليكون ملزماً للآخر فيما يقتضيه هذا الاتفاق، لقوله: ﴿**هو ربنا وربكم**﴾ وقد سبق في تفسيرها ما يتبين به وجه ذلك.

ـ التبرؤ من أعمال المشركين، والاعتزاز بأعمال أهل الحق، لقوله: ﴿**ولنا أعمالنا ولكم أعمالُكم**﴾.

ـ أنه ينبغي للمؤمن أن يكون له قوة شخصية، يعتز بها في دينه وفي شرعه وفي منهاجه، لقوله: ﴿**ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم**﴾.

ـ الحذر من التشبه بغير المسلمين؛ لأنه إذا كانت أعمالهم هم ـ وهذه قضية مسلمة ـ فلا يجب أن نتشبَّه بهم فيما يختص من

أعمالهم، ولهذا جاء في الحديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: «مَنْ تشبَّه بقومٍ فهو منهم»[1].

- فضل هذه الأمة بإخلاصها لله - عزَّ وجلَّ - لقوله تعالى: ﴿ونحن له مخلصون﴾ أي لا لغيره.

ثم قال تعالى: ﴿أم تقولُونَ إنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ كانُوا هُوداً أو نَصَارى قُلْ أأنتُم أعلمُ أمِ اللَّهُ ومَنْ أَظْلَمُ مِـمَّن كَتَمَ شهادةً عنده من الله وما اللَّهُ بغافلٍ عمَّا تعملونَ﴾.

هنا ﴿أم﴾ بمعنى بل وهمـزة الاستفهام، أي بل أتقولون، والاستفهـام هنا للإنكار، يعني أن الله - تعالى - ينكر عليهم هذا القول: ﴿إنَّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصـارى﴾ وهـل هذا يعقل أن يكون إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط والأقدمون هوداً أو نصارى. واليهودية والنصرانية لم تحدثا إلا من بعدهم، هذا ليس بالمعقول كما قال الله تعالى: ﴿ياأهلَ الكتابِ لِـمَ تُحَاجُّونَ في إبراهيمَ وما أُنزِلَت التوراةُ والإنجيلُ إلاَّ من بعدِهِ أَفلا تعقلونَ﴾ يقول - عزَّ وجلَّ - عن هؤلاء

---

(1) سبق تخريجه ص ٣٩ .

اليهود والنصارى منكراً عليهم ﴿قُلْ أأنتم أعلمُ أم الله﴾ ومن المعلوم أن الجواب، بل الله - عزَّ وجلَّ - هو الأعلم، وإذا كان الله تعالى أعلم، وقد بين أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وبنيه ويعقوب وبنيه كلهم كانوا على الحق، كلهم كانوا على الإخلاص، فكيف تأتون أنتم وتقولون: إن إبراهيم كان يهودياً أو إن إبراهيم كان نصرانياً، ﴿ومَنْ أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ ﴿ومن أظلم﴾ «من» استفهام، والاستفهام هنا بمعنى النفي، أي لا أحد أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، لأن الواجب على المستشهد أن يشهد ولا يكتم ﴿ومَنْ أظلمُ ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ وتقدير الجواب لهذا الاستفهام أن نقول: لا أحد أظلم من هذا، ﴿وما اللَّهُ بغافلٍ عما تعملون﴾ ﴿ما﴾ هذه نافية، وقوله: ﴿بغافلٍ﴾ خبر المبتدأ، ودخلت عليه الباء لزيادة التأكيد، فلم يكن الله غافلاً عما يعمل هؤلاء لكمال علمه ومراقبته - جلَّ وعلا - .

فوائد وأحكام هذه الآية:

- هذه الدعوة الباطلة الكاذبة من اليهود والنصارى الذين قالوا: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى.

- الإنكار عليهم، والمناداة عليهم بالجهل، لقوله: ﴿أأنتم أعلم أم الله﴾.

- اتخاذ هذه القاعدة العظيمة لرد دعوى أهل التعطيل الذين أنكـروا ما وصف الله به نفسه، وقالوا: لا يمكن أن يتصف الله بهذا؛ لأن هذا حادث، أو لأن هذا يقتضي التجسيم أو ما أشبه ذلك، فنقول لهم: ﴿أأنتم أعلم أم الله﴾ فإن قالوا: نحن أعلم فقد نادوا على أنفسهم بالضلال، وإن قالوا: بل الله أعلم قلنا: إذن أثبتوا ما أثبت الله لنفسه من الأسماء والصفات على حقيقته، وانفوا ما نفى الله عن نفسه من الأسماء والصفات.

- وجوب نشر الإنسان ما علَّمه الله - عزَّ وجلَّ - من العلم، لا سيما في أعـظم الأمور، وهو توحيد الله - عزَّ وجلَّ - ، لقوله: ﴿ومَنْ أظلمُ ممن كتم شهادة عنده من الله﴾.

- أن من كتم ما علَّمه الله - عزَّ وجلَّ - فإنه من أظلم الناس، وأظلم كتم شهادة أن يكتم الإنسان ما أشهده ربه عليه.

- إثبات كمال علم الله - عزَّ وجلَّ - ومراقبته، لقوله تعالى: ﴿وما اللَّهُ بغافلٍ عما تعملون﴾.

- إثبات صفات النفي في حق الله، ولكن يجب أن نعلم أن النفي المحض في صفات الله لا يوجد، لأن النفي المحض عدم محض، والعدم ليس بشيء، ولكن لا توجد صفة منفية عن الله إلا لتضمنها كمالاً، ولهذا نقول: كل صفة نفاها اللَّهُ عن نفسه فإنها

متضمنة لشيئين: أولهما: نفي تلك الصفة المذكورة. وثانيهما: إثبات كمال ضدها، فمثلاً قال الله تعالى: ﴿ولا يظلمُ ربُّكَ أحداً﴾[1] فنفى الظلمَ عن نفسه لماذا؟ لكمال عدله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا لعجزه عن الظلم، ولكن لكمال عدله لم يظلم أحداً، وعلى هذا فقس.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

---

(١) من الآية ٤٩ من سورة الكهف.

الفهارس

* فهرس الأحاديث النبوية الشريفة
* فهرس المصادر والمراجع
* فهرس الموضوعات



فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الحديث	رقم الصفحة

«أ»

« ب »

« ث »

« ح »

« خ »

« ص »

« ع »

« ف »

« ق »

« ك »

« ل »

« م »

« ن »

« هـ »

« و »

« ي »

فهرس المصادر والمراجع

- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ـ ترتيب الأمير علاءالدين علي بن بلبان الفارسي ـ طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.
- تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير ـ طبعة مكتبة المنار للنشر والتوزيع ـ الأردن ـ الزرقاء.
- الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ـ طبعة دار الحديث ـ القاهرة.
- الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، للإمام جلال الدين السيوطي ـ طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.
- الدر المنثور في التفسير المأثور، للإمام جلال الدين السيوطي ـ طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.
- سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ـ طبعة دار إحياء الكتب العربية.
- سنن أبي داود، تعليق عزت عبيد الدعاس ـ الطبعة الأولى ـ مكتبة الحنفاء.
- سنن الدارمي ـ طبعة دار إحياء السنة النبوية.
- السنن الكبرى، للإمام الحافظ أبي بكر البيهقي ـ طبعة دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان.
- سنن النسائي، حققه ورقمه ووضع فهارسه مكتب تحقيق التراث الإسلامي ـ طبعة دار المعرفة.

- صحيح مسلم - تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي - طبعة دار إحياء الكتب العربية.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، للإمام ابن حجر العسقلاني، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي - طبعة دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي.
- المستدرك على الصحيحين، للإمام الحافظ أبي عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري - دراسة وتحقيق مصطفى عبدالقادر عطا - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل - طبعة دار صادر - بيروت - لبنان.
- المعجم الكبير، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني - حققه وخرج أحاديثه حمدي عبدالمجيد السلفي - طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية العراقية.
- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي - رتبه ونظمه لفيف من المستشرقين ونشره الدكتور أ. ي. ونستك - طبعة دار الدعوة - استانبول - ١٩٨٦م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - وضعه محمد فؤاد عبدالباقي - طبعة دار المعرفة - بيروت - لبنان.
- منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تأليف علي بن حسام الدين بن عبدالملك الشهير بالمتقي الهندي - طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.
- موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف - إعداد أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول - طبعة دار الفكر.

- الموطأ، للإمام مالك بن أنس، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد فؤاد عبدالباقي ـ طبعة دار الكتاب المصري ـ القاهرة ـ ودار الكتاب اللبناني ـ بيروت.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام ابن الأثير ـ طبعة دار الفكر.

فهرس الموضوعات

الموضوع | رقم الصفحة

٩٩٦٠ - ٦٧١ - ٧٨ - X